دير السيدة العذراء برموس

العجوزان

وقصص أخرى

Lev Tolstoy

ليف تولستوي

بمناسبة
مئوية
تولستوي
2010

ترجمة المتنيح القس موسى وهبة مينا (وآخرين)

عُنِيَ بنشره نيافة الحبر الجليل أنبا ايسيذروس

أعده للنشر بسطس البرموسي



دير السيدة العذراء

. برموس .

العجوزان

وقصص أخرى

تأليف : الأديب العالمي ليف تولستوي

ترجمة : المُتنيح القس موسى وهبة وآخرين

عُنِيَ بنشره
نيافة أنبا إيسيذروس

أعدَّه للنشر
الراهب القمص يُسْطُس البرموسي

اســــم الكِتــــاب : العجوزان وقصص أخرى
تـــــــــأليف : ليف تولستوي
ترجمـــــــــة : المُتنيح القس موسى وهبة مينا كاهن كنيســة الشهيد العظيم مارجرجس خمارويه (وآخرين)
مُراجعـــــــــة : نيافة أنبا إيسيذروس
الناشِـــــــــر : دير البرموس العامر
أعــــدُه للنشـــر : الراهب القمص يُسطُس البرموسي
الطبعــــــــة : الطبعة الرابعة نوفمبر ٢٠١٤م
الطبعة الثالثة يوليو ٢٠١٢م
الطبعة الثانية مارس ٢٠١٠م
الطبعة الأولى أجزاء مُنفصِلة خلال أعوام ١٩٧٢م – ١٩٩١م
جمــــع كمبيـــوتر : مجدي إسحق خليل . ت:٠١٢-٨٢٧٨٧٣٣٢
تصـــميم الغُـــلاف : أحد الآباء الرُهبان بالدير
المطبعـــــــة : مطبعة الدلتا - delta
www.deltapress.net
٢٤ ش الدلتا سبورتنج – ت: ٥٩٠١٩٢٣/ ٢٠٣+
رُســـومات داخليـــة : الأستاذ كرم يوسف. ت: ٠١٢-٢٦٩٦٩٣٣٧
مُراجعة الكتاب لُغويـاً : م. إبراهيم سيداروس
رقـــم الإيـــداع : ٥٤٥٢ / ٢٠١٠
التـــرقيم الـــدولي : 977-17-8548-6



قداسة البابا تواضروس الثانى

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٨



نيافة الحبر الجليل الأنبا إيسيذروس

أسقف ورئيس دير السيدة العذراء - برموس

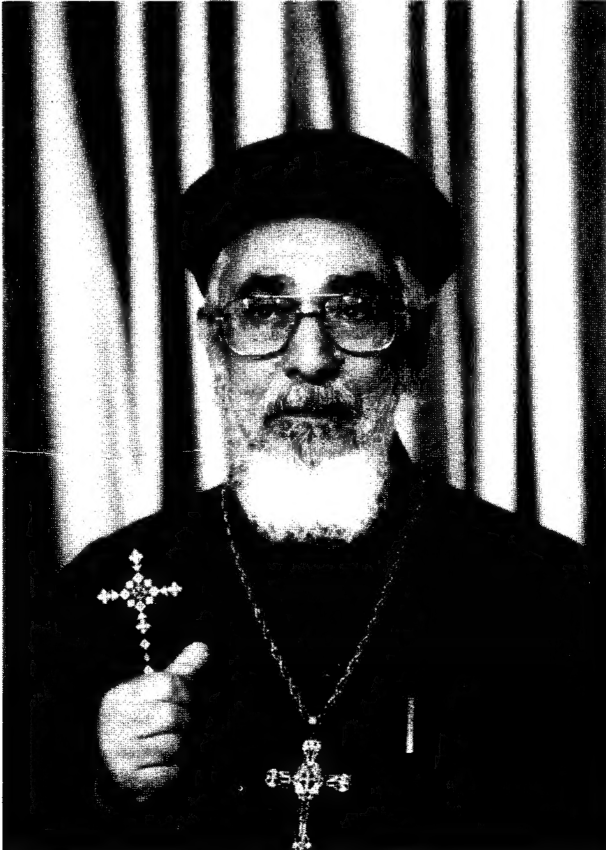
شُكر خاص:

نشكُر أُسرة المُتنيح القِس موسى وهبة مينا كاهن

كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس - خمارويه

ابنته تاسوني / منى وزوجها د/ أسامة إدوارد على غيرتهم ومحبّتهم الصّادِقة

لنشر هذا العمل وتعاونهم مع الدير



مُقدمة [1]

الأديب الروسي العظيم الكونت ليڤ [2] نيكولايافيتش تولستوي وُلِدَ ٩ سبتمبر ١٨٢٨م في مترل بـــ ياسنايا – بوليانا التي تقع على مسافة أربعة عشر كيلو مترًا من المدينة الروسيّة التاريخيّة تولا، ووالده أحد كِبار النُّبلاء الإقطاعيين في روسيا الكونت نيكولايافيتش تولستوي ووالدته هي الأميرة ماريا نيكولايفنا.

عانى تولستوي فلم يتجاوز عُمره السنتين عندما تُوفِيَت والدته وفي عام ١٨٣٧م توفّى والده فجأة وأثّر فيه هذا الحادِث فأفهمه أنّ الواقع قد يكون مُرًّا قاسيًا. وكان يتعهّد الأطفال الجِدّة النبيلة وعيّنت شقيقة والد تولستوي آ. ي. أرستن – ساكين وصيّة على الأولاد اليتامى وتُوفِيَت آ. ي. أرستن – ساكين عام ١٨٤١م وتوجّه ليڤ تولستوي وعُمره عشر سنوات مع شقيقته ماريا وأخوته نيكولاي وسيرغي وديمتري إلى كازان، حيث تعيش وصيتهم الثانية – عمّتهم ب. ي يوشكوفا.

ويعترِف ليڤ تولستوي بأنّ ”لعمته تاتيانا ألكسندروفنا يرغولسكا – التأثير الأكبر عليه في سنوات طفولته“. وقد علّمته شيئين .. ”المُتعة الروحيّة للحُب“ و”روعة الحياة الهادئة“. وكانت محبّة مُخلصة يتحلّقها الفُقراء والبُسطاء، وكانت تقيّة مُتدينة وكانت تُحب الكهنة والأديُرة والتطريز الذي

[1] عن شبكة الإنترنت وكتاب صفحات مجهولة من حياة تولستوي لـــ. ك لومنوف ترجمة د/ ماجد علاء الدين ومحمد بدرخان.

[2] ليڤ: تعني الأسد باللُغة الروسيّة.

تُوزِعه على الكنائس والأديُرة، وقد ثبّتت في نفسه معنى الإيمان النقي.

وفي عام ١٨٤٤م بدأ يدرس مع أخوته بالجامعة في كازان. وترك الجامعة عام ١٨٤٧م واتخذ قرارًا أن يدرس بشكل مُستقِل.

وشكّل وَلَعْ الشاب تولستوي الشديد في دراسة الفلسفة انطباعًا مُخيفًا لدى المُقربين إليه وكتبت ت. آ. يرفولسكايا في يومياتِها "إنَّ ليڤ كائن غريب غير مفهوم في تفكيره وطبعه كما دعاه زُملاؤه لتأمُّله الدائم (بالفيلسوف)".

وفي عام ١٨٤٩م افتتح مدرسة في ياسنايا – بوليانا لأبناء الفلاّحين.

وعندما بلغ تولستوي الاثنين وعشرين عامًا أصبح رجُلاً عسكريًا وأصبح ضابطًا يُشارك في الأعمال القِتالية لُمدة سِت سنوات، أنهى خدمته العسكرية برُتبة مُلازم وقد أبدى بطولة حقيقية أثناء خوضه للمعارك وقد قُلّد وِسام آنا المنقوش عليه كلمة "للشجاعة" وميدالية "الدفاع عن سيفاستوبل" وميدالية "ذكرى حرب ١٨٥٣م – ١٨٥٦م".

كانت قصة "الطفولة" أول عمل أدبي نُشِر لتولستوي عام ١٨٥٢م.

قالت قريبته البعيدة آ. آ. تولستايا " .. كان بسيطًا، مُتواضعًا بشكل غير اعتيادي وكان مرحًا ويبعث الحياة لدى الجميع بحضوره ولا يتكلّم عن نفسه إلاّ القليل".

كان الفلاّحون قبل الستينيات من القرن التاسع عشر يُعتبرون بموجب نظام القنانة مِلْكًا لأصحاب الأطيان، مُرتبطين بأراضيهم ومُرهَنين ارهانًا تامًا بهم وخاضعين لسُلطة الإقطاعي الإدارية والقضائية. وبسبب أوضاع الفلاّحين كانت تندلِع في البلد باستمرار انتفاضات فلاّحيّة تُطالب بتصفية

نظام القنانة.

وكان تولستوي من أولئك الأُرستقراطيين القلائل الذي لم ينتظر صدور القوانين من الأعلى فحاول إطفاء الحريق بقواه الذاتية. وألغى تولستوي عام ١٨٥٧م نظام الأقنان في مُقاطعاته وحوّل الفلاّحين إلى نظام الجِزية وألغى نظام السُّخرة وكتب إلى ف. ب. بوتكين آنذاك: "لقد اشتغلت ثلاثة أشهُر في القرية وأصبح الوضع هناك جيدًا للغاية، حتّى أنّه لو صدر قانون تحريرهم غدًا، فلن أذهب إليهم لأنّه لن يتغيّر شيء هناك. إنَّ الفلاّحين يدفعون لي عن الأرض. أمَّا أرضي فأشغّلها بالأُجرة بالفلاّحين الأحرار".

في عام ١٨٥٧م سافر للخارج وزار كُلاً من سويسرا، فرنسا، إيطاليا، وألمانيا.

أصدر المجلة التعليمية "ياسنايا - بوليانا" عام ١٨٦٢م وأكَّد تولستوي أنّه يوجد عند الشعب "وعي كبير للحقيقة والخير".

أنشأ إحدى وعشرين مدرسة في منطقته من أجل تسعة آلاف تلميذ.

وفي عام ١٨٦٠م سافر تولستوي للمرّة الثانية إلى أوروبا للاطلاع على نمط التعليم الشعبي في تلك البُلدان.

وتحدّث فاسيلي موزوروف، أحد طُلاّب تولستوي المحبوبين في ذكرياته: "كُنّا نشعُر بالمرح في المدرسة، وكُنّا ندرس بِوَلَعْ شديد وكان ليڤ نيكولايافيتش يعمل ويدرس معنا بكلّ حيوية. كان يعمل بكلّ قلبه وروحه، حتّى أنّه في كثير من الأحيان يبقى دون تناوُل طعام الإفطار، كان يُطالبنا بالنظافة والعناية بالأشياء الدراسية، ويُطالبنا بالصِدق، ولم يسمح لأحد من التلاميذ أن يعبث بأي شيء، كان يُحب أن يُجيبوه على أسئلته بالصِدق

بدون أفكار خلفية .. كان النظام نموذجيًا خلال الثّلاث سنوات".

أغلقت السُلطات المدرسة نتيجة تقرير اختلق أشياء غريبة ومُرعبة وكتب تُولستوي إلى آ. آ. تولستايا "إنّكِ تعرفين ماذا تعني المدرسة بالنسبة لي منذ أن افتتحتها لقد كانت كلّ حياتي، وهي ديري وكنيستي. كُنت أتخلّص وأنقذ نفسي من كافة أنواع القلق والشكوك ومن إغراءات الحياة".

أُغلقت المدرسة وتوقف إصدار مجلة "ياسنايا - بوليانا" والأهم من ذلك إقامة شبكة من المُراقبين السِّرّيين حول تولستوي، وليبقى من ذلك الوقت وحتّى أخر أيام حياته شخصًا تحت الرقابة.

وذَكَرْ أحد تلاميذه وهو فاسيلي موزوروف أنَّ تولستوي قد فكّر في الستينات "بهجر مزرعته وهَجْر الحياة الأُرستقراطية والانتقال إلى نمط الفلاّحين وفكّر ببُناء بيت فلاّحي له على طرف القرية، ويقوم بأعمال الفلاحة والحصاد ... ".

كَتَبْ تولستوي في يومياته بعد أربعين عامًا تقريبًا "إنَّ الأوقات السعيدة في حياتي هي تلك الأوقات التي منحتها كاملة لخدمة الناس".

وتزوج تولستوي في عام ١٨٦٢م من صوفيا أندريفنا واستمرت الحياة الزوجية ثمانية وأربعين عامًا. وكَتَبْ تولستوي في يومياته عام ١٨٦٣م "السعادة العائلية تغمُرني كُلّيًا"، وانشغل خلال السنوات الأولى من زواجه بالأعمال الزراعية ووسّع مزرعة التُّفاح التي ورثها وأنشأ منحل، وطوّر قطيع الأغنام واشترى عددًا من الخنازير وآخر من العجول وبنى مع جاره آ. ن. بيبيكوف في ضيعته تتلياتنيكي معملاً لتقطير الكحول ودام ذلك لمُدة عام ونصف.

وكان انشغاله بالأعمال يُعيقه عن مُمارسة العمل الإبداعي الذي كان باعتقاده هو العمل الرئيسي في حياته.

واستأنف تولستوي منذ الأيام الأولى لعمله في رواية "الحرب والسلام" التي تُعد أشهر أعماله، تدريسه لأولاد الفلاّحين.

لقد بدأ تولستوي العمل في رواية "الحرب والسلام" (١٨٦٣م – ١٨٦٩م) بعد مرور عشر سنوات على عمله في حقل الأدب ويُمكن القول أنَّ تولستوي قد اجتاز خلال تلك السنوات العشر المدرسة التي أهّلته لكتابة ذلك العمل الملحمي التاريخي الكبير وقال في روايته "بأنَّ الإنسانية نسيت قوانين خالِقها ومُنقِذها، الذي علّمنا أن نُحِب ونُسامح الآخرين". ولم يعرِض لنا تولستوي الحرب كحرب، بل في تناقُضها مع السلام.

وفي عام ١٨٧٠م قرأ تولستوي بدقة "تاريخ روسيا القديم" للمُؤرخ س. م. سولوفين وأمضى تولستوي القسم الأكبر من حياته حتّى الثمانينيات في ياسنايا – بوليانا:

"لقد أمضيت كلّ حياتي خارج المدينة" يقول تولستوي عن نفسه.

وكان على تولستوي عام ١٨٨١م أن ينتقل إلى موسكو من أجل أن يُتابع تعليم أولاده الكِبار، وعاش تولستوي أقل من عشرين عامًا بقليل في موسكو حتّى عام ١٩٠١م وكان يُسافر في الصيف إلى ياسنايا – بوليانا.

وحالما استقر تولستوي في موسكو فتح أبواب منزله للأصدقاء ولكلّ من أراد أن يلتقي به أو يتحدّث إليه. "ولم يبقى أحد إلاّ وزار ذلك البيت الخشبي الصغير، كَتَبْ ب. آ. سيرغينكا – عُلماء وكُتّاب وفنانون ومُمثِلون

ورجال الدولة والمال والمُحافظون ومُمثِلو الطوائف والأساتذة ومُمثِلو المجالس الريفية وطُلاّب وعسكريون ورجال الصناعة والعُمّال والفلاّحون والمُراسِلون من كلّ الألوان والقوميات ولم يُمر يوم شتوي في زُقاق دولفاخاموفيجتسكي، لم يظهر فيه وجه جديد يبحث عن لقاء مع الكاتب الروسي الكبير".

وكان تولستوي يسعد بتعامُله مع الناس الطَّيبين ومع الطبيعة والأطفال الذين أحبّهم كثيرًا ومع الموسيقى والكتاب الجيد، ولقد كتب الكاتب غ. ب. دانيلوفسكي الذي زار ياسنايا – بوليانا عام ١٨٨٥م اعتراف تولستوي التالي:

"أيّة مُتعة أشعُر بها، عندما أرتاح من العمل الذهني بالعمل اليدوي، الجسدي. فأنا في كلّ يوم وحَسَبْ أوقات السنة، فإمّا أن أحرُث الأرض، أو أقطع الأخشاب أو أنشُرها وأحصُد وأعمل بالمساحيج، وأعمال أخرى ...".

وفي صيف ١٨٨٦م كتبت زوجته صوفيا أندريفنا من ياسنايا – بوليانا إلى ن. ن. ستراخوف، بأنّه قد حل عندهم "موسم الحصاد والجميع يُشارك في ذلك، الزوج والأولاد والضيوف وأنا والنساء والفتيات، الكلّ يعمل في الحصاد".

وحَمَلْ ريبن بعد زيارته الأولى لياسنايا – بوليانا انطباعًا مُدهشًا عن حُبْ تولستوي للعمل والحياة: "إنَّ ليف تولستوي مشغوف بشكل غريب، وحار وجَدِّي بكافة الأعمال. كُنت شاهدًا على عمله الذي لا يكِل منه في الحقول. كان يروح ويجئ في الحقل منذ الساعة الواحدة ظُهرًا حتّى الساعة

الثّامنة والنصف مساءً، بلا كلل وهو يُوجِه المحراث خلف الأحصنة، وهو يشد على نفسه نِطاقًا آخر مربوطًا إلى نطاقه، وأمامه حُصان بمسلقة يحرُث 'يشُق' الحقل، والعرق يتصبّب منه قطرات. أمّا ثوبه الخيش السميك الذي يرتديه لأعمال الحقل، فكان مُبللاً تمامًا، وهو يُتابع عمله بهدوء؟ لم يكُن الحقل مُستويًا. فكان عليه إمّا أن يصعد الهضبة، أو أن يهبِط منها بالمحراث بحذر، حتّى لا يُصيب بسكة المحراث حوافِر الخيل الخلفية ... وكثيرًا ما كان أثناء صعود الهضبة يُعبِّر بوجهه المصفِر وبخُصلات شعره المُبلّلة بالعرق، اللاصقة على جبينه وبصدغيه وخديه، يُعبِّر عن توتُر وإرهاق شديد. وفي كلّ مرّة كان يصل إليّ، كان يُلقي بنظراته المرحبة السعيدة، ويُلقي إليّ بكلمة مازحة".

وأقرب شيء للقِصص الشعبية ما كتبه تولستوي في السبعينيات للتلاميذ وأمّا القِصص الشعبية في الثمانينيات كانت مُوجّهة "لملايين المُتعلمين الروس" الذي قال عنهم تولستوي – "يقفون أمامنا كجياع بأفواه فاغرة ويُخطابوننا: يا سادة يا كُتّابنا .. ارموا في أفواهنا طعامًا ذهنيًا يستحِق بنا وبكم، اكتبوا من أجلنا الكلمات الأدبية الحيوية المُتعطِشة، وخلّصونا من الطعام السوقي الرخيص".

واستقبل النُّقاد – الديمُوقراطيون بإعجاب قِصص تولستوي الشعبية، مثل ف. ف. ستاسوف الذي كتب لتولستوي عام ١٨٨٢م "أُريد أن أُعبِّر لك بكلّ صِدق إلى أيّة درجة أنا مُندهش من أُسطورتك 'بأي شيء يعيش الإنسان' ... وهي الموجودة في هذا الكتاب تحت عنوان 'بما يعيش الإنسان؟'".

في قصصه الشعبية كان يُقرِن فضحه للاضطهاد والقهر والكذب، والرياء دعوته الصريحة للتسامُح، والحُبْ الأخوي والابتعاد عن الشر. وكان الهدف الرئيسي لهذه القِصص مُوجّه ضد الناس الأغنياء والمُتعجرفين والجَشِعين.

وتعرّضت قِصص تولستوي الشعبية في الثمانينيات لمُلاحقة السُلطات وكذلك مُؤلفاته مثل مقالته "نيكولاي بالكين" التي كتبها عام ١٨٧٧م وهي عبارة عن أهجية حادّة تعرّض فيها تولستوي للإمبراطور نيكولاي الأوّل، الذي كان من أشد الطُغاة الذين يكرهم تولستوي أشد الكُره.

وفي أيام المجاعة عام ١٨٩١م كتب مقالة "عن الجوع": ".... إنّ كلّ ما حدث يرجع لذنوبنا، ولابتعادنا عن إخوتنا واستعبادنا لهم .. وهناك شيء واحد لإنقاذ وإصلاح الوضع: التوبة. بمعنى تغيُّر الحياة، تحطيم ذلك الجدار القائم بيننا وبين الشعب، أن نُرجِع للشعب ما سُرِق منه ... ".

وكَتَبْ غروت عام ١٨٩١م بأنّ الإدارة العامة للطباعة والنشر أمرت كافة مُحرري الصُحُف والمجلات بمنع نشر مقالة تولستوي، عندئذٍ قرّر تولستوي أن يتوجه إلى مُترجِمي أعماله إلى اللُغات الأجنبية وظهرت المقالة في إحدى صُحُف لندن تحت عنوان جديد "لماذا يجوع الفلاّحون الروس".

ولقد سمع الناس المُقربون إلى البلاط، ومن بينهم كانت آ. آ. تولستايا، عن الإجراءات التي يُمكن أن تُتخذ ضد الكاتب تولستوي، فكانت الأحاديث تدور عن نفيه خارج البلاد، أو إخفائه في مُستشفى للمجانين. وخاف ألكسندر الثّالث من الفضيحة العالمية فأمر بـــ: "تَركه هذه المرّة دون اتخاذ أيّة إجراءات". ولم تشأ الحكومة القيصرية أن تضطهده وأن تُؤذيه بالنفي أو السجن، فقد كانت تخشاه، وكانت تعلم أنّ شُهرته العالمية

كاتبًا ومُصلِحًا ومُفكرًا قد تعدّت حدود بلاده. كان من العسير إذن أن تخنق كلماته، بعد أن غزت قلوب الشعب.

وكَتَبْ غروت إلى تولستوي: "كلّ الأغنياء الطُفيليين مُنفعلون ضدك إلى أقصى الدرجات ... لكن يجب أن أقول أنَّكَ أنت أيضًا مُخطِئ بعض الشيء، فرسالتك مليئة بالغضب والكُره والازدراء المُوجّه نحو الأغنياء، فأنت لا تكون هادئًا عندما تكتُب، إنَّكَ تصفع على الخدين الأيمن والأيسر".

وفي سنوات المجاعة ١٨٩١م – ١٨٩٢م بدأ العمل في الطواف على البيوت القروية المنكوبة من الجفاف ومن المُمكن أن يكون تولستوي راضيًا عن أعماله ونشاطه في سنوات المجاعة، فلقد افتتح ومُعاونوه مائتين واثنى عشر مطعمًا في القُرى المنكوبة لتقديم الطعام دون مُقابل، وأنقذوا آلاف الناس من الأطفال والشيوخ والضُعفاء والمرضى، من الموت جوعًا. وحاولوا شراء الحبوب وتوزيعها بدون مُقابل للزراعة. وحاولوا كذلك شراء الخيول وإعطاءها للفلاّحين.

وكَتَبْ تولستوي صيف عام ١٨٩٠م في مُذكراته "لقد بدأت قصة 'الأب سيرغي' وانغمست بالتفكير فيها، في كلّ المُتعة والمراحل النفسية التي يُمر بها" وهي القصة الموجودة بهذا الكتاب تحت عنوان "الناسك".

وأكّد تولستوي أنّه لا يوجد أُناس قديسون في الحياة الواقعية بدون ذنوب ، ولا يوجد أُناس متأصلون فى الشر بل هناك " بشر ببساطة " قادرون على فِعْل الخير والشر والأهم أيٍ منهما سينتصِر.

وتوجد هذه الكلمات في إحدى رسائل تولستوي في الستينات:

"الإنسان الذي يقدِر على الحُبْ، يقدِر على كلّ شيء".

إلتهبت رِئتاه عام ١٩٠١م وكان في حالة سيِّئة وكان مُتوقعًا وفاته

فاعترف وتناول من الأسرار المُقدسة ولكنه اجتاز أزمته الصحية عام ١٩٠٢م، كتب كورولينكو إنَّه عجوز غريب. جسده يموت بينما عقله يتأجج.

لم يكُن لدى تولستوي أيَّة خطط مُسبّقة للمُستقبل عندما هجر ياسنايا — بوليانا بل كان يحلم أن يعيش وسط الشعب في بيت فلاّحي وأن يبدأ حياة جديدة.

وفي الطريق مرّ تولستوي على شقيقته الراهبة ماريا نيكولايفنا في دير شاموردينسكي.

إلتهبت رِئتاه في الطريق واضطر لمُغادرة القطار في تلك المحطة المعزولة اللا معروفة "إستابوفو" على الخط الحديدي موسكو — كورسك. ولم يحتمِل قلبه الذي تعب (الآن تُدعى المحطة باسم ليف تولستوي) وتوقّف قلبه عن العمل، في الساعة السّادسة وخمس دقائق من صباح ٢٠ نوڤمبر عام ١٩١٠م وتلقّى الناس الطِّيبون في روسيا وفي العالم بحزن عميق خبر وفاة تولستوي أولئك الناس الذين عرفوا اسمه وأحبُّوه وعشقوا كُتُبه.

ودُفِن تولستوي حسب وصيته في غابة "زازاز" في ياسنايا — بوليانا على طرف الوادي الكبير.

وشبَّه غوركي موت تولستوي بكارثة طبيعية وبإعصار جائح، لقد كان موته مُصيبة شعبية، وخسارة من أكبر الخُسارات للبشرية جمعاء، ويشهد بيساروف — أنَّه يُعرف كعالم نفسي دقيق وفنّان رشيق، قال عوزكي عنه إنَّ "تولستوي — عالم كامل".

كَتَبْ تولستوي "إنَّ الهدف الرئيسي للفن هو أن يقول وأن يُظهِر

الحقيقة عن روح الإنسان، أن يكشِف عن تلك الأسرار التي لا يُمكن التعبير عنها بكلمات بسيطة ... الفن عبارة عن ميكروسكوب، يُسلِّطه الفنان على روحه، ويعرِض تلك الأسرار المُشتركة بين الناس".

قال ك. لومونوف: لقد امتلك تولستوي بشكل مُدهِش فن الصفة للتحليل النفسي الدقيق، والقُدرة على نزع الغطاء من أكثر الحركات سرية للقلب البشري، لقد استخدم فنه الفائق "عِلْم الإنسان" من أجل هدف واحد: أن يقول الحقيقة للناس، عن الحياة وعن أنفسهم.

وأكَّد غوركي وهو ينحني أمام تولستوي بأنَّ "تولستوي هو الأوَّل في فن الكلمة". وإليكم ما يقوله رومان رولان في نهاية كِتابه "حياة تولستوي" إنَّه بالنسبة لنا يُعد كمُعلِّم للحياة.

قال تولستوي "مَنْ لم يدرس الإنسان في ذاته لن يستطيع أبدًا الوصول إلى معرفة عميقة للناس".

ومعروف أنَّ تولستوي كان يُوقِّع رسائله في أخر سنوات حياته بـ "أخوكم" وكان يحسِب نفسه أخًا لكلِّ مَنْ يسأل الشفقة والإرشاد والنصيحة المُساعدة من عنده.

وهكذا نُردِّد وراءه أروع كلمة إنسانية بين كلّ الكلمات - "الأخ".

قال عن نفسه في يومياته "... اخطأي الرئيسي — السبب الذي لم يدعني أسير في هذا الطريق بهدوء — أنني مزجت التهذيب بالكمال فمن الواجب أن أُدرِك نفسي أولاً بشكل جيد وأن أُدرِك نواقصي وأن أسعى لتصليحها".

وكذلك أدهشت شخصية تولستوي الكاتب تيموكوفسكي، كما

أدهشت كوبرين ''أنَّه مُتعدِّد الجوانب هذا الإنسان الغريب، ويبدو وكأنَّه لا يوجد أي جانب من جوانب الحياة، أو أيَّة قضية لم يضع تولستوي يده عليها''.

كتبت حفيدته ي. ف. أولينسكايا – يُحِب المرح البسيط الذي لا يتطلب أجواء خاصة .. وكَتَبْ غوركي: ''إنَّه لا يوجد إنسان مثله يستحق لقب عبقري، إنَّه الإنسان الأكثر تعقيدًا وتناقُضًا. وهو رائع في كلّ شيء، نعم في كلّ شيء، رائع في المغزى الخاص والعام ولا يُمكن وصفه بالكلمات ... ''.

وقال ك. لومونوف:

إنَّ الزمن غير قادر على محو أهمية الأعمال الفنية لهذا الإنسان الفريد، تلك الأعمال التي دخلت وإلى الأبد في الحياة الروحية للبشرية جمعاء.

دَرَسْ تولستوي الكتاب المُقدس بعد أن عَكَفْ على تعلُّم العبرية واليونانية، ليتثنى له أن يطِّلع على المنبع الذي صدرت عنه مُختلف ترجمات العهد القديم والعهد الجديد فقارن بعضها ببعض.

وقد أثرى المكتبة المسيحية بالقِصص الروحية الهادفة، والتي كانت في الواقع ثمرة من ثِمار تأمُّلاته الشخصية في فصول الكتاب المُقدس، وقِصصه تعبير رائع عن تفهُّمه لتعاليم السيِّد المسيح وقد إتصفت كلّ أعماله بالجِدِّيّة والعُمق وبالطرافة والجمال.

وإذ نشعُر بأهمية كِتاباته المبنية على وصايا السيِّد المسيح له المجد لكي ما تكون حافزًا للعُمق والحياة بحسب الإنجيل المُقدس.

لِيُبارِكنا الله ويُبارِك هذا العمل، بالسؤالات والطِلبات التي ترفعها عنّا

سيِّدتنا كُلِّنا والدة الإله القديسة الطاهرة العذراء مريم، والملائكة والآباء والأنبياء، والرُّسُل والشُهداء وقديسي الدير وبصلوات قداسة البابا تواضروس الثانى بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية ربنا يديم قداسته ويثبته على كرسيه إلى منتهى الأعوام، وبصلوات صاحب النيافة الحَبْر جزيل الاحترام الأنبا إيسيذروس أسقف ورئيس دير السيِّدة العذراء -برموس- الذي بارك وشجّع ضعفي وفتح المجال لنشر هذا العمل الأدبي الروحي، وبصلوات صاحبى النيافة -الأنبا رافائيل أسقف عام كنائس وسط القاهرة وسكرتير المجمع المقدس، والأنبا أنجيلوس أسقف عام كنائس شبرا الشمالية- الأسقفين المحبين لدير البرموس (الدير البهي).

أشكُر جميع الآباء بالدير على تعاونهم الصّادق ومحبتهم التي لا يُعبّر عنها التي رافقت كلّ مراحل إخراج الكتاب.

أشكُر الأب المبارك الذي صمّم الغُلاف، أشكُر الآباء الكهنة بكنيسة الشهيد العظيم مارجرجس – خمارويه على محبتهم.

وأشكُر أ/كرم يوسف الذي برسوماته المعبِرة أضفى لمسة جمال على الكتاب.

ونشكُر م/إبراهيم سيداروس على مُلاحظاته القَيِّمة ومُراجعة الكتاب لغوياً.

وأشكر أ/ مجدى اسحق خليل على تعب محبته فى جمع النص على الكمبيوتر.

لقد بذل المتنيح القِس موسى وهبة مينا كاهن كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس – خمارويه خلال عشرين عامًا في ترجمة هذه القِصص وننشُر له للمرّة الأولى قصة "ما مساحة الأرض التي يحتاج إليها الإنسان؟" بمُساعدة الابنة الروحية الوفية له د/ سامية حبيب.

ومِمّا هو جدير بالذِكر في هذه الطبعة قِصص تُنشر للمرّة الأولى

لآخرين.

عوّض يارب كلّ مَنْ له تعب بالأجر السمائي في ملكوت السموات ولإلهنا المجد والإكرام والسجود والشُكر الآن وكلّ أوان وإلى دهر الدُّهور آمين.

برية شيهيت – إسقيط القديس مقاريوس

دير السيِّدة العذراء – برموس

يُسْطُس البرموسي

٧ توت ١٧٢٦ش

١٧ سبتمبر ٢٠٠٩م

نياحة مُعلِّمنا القديس أبونا المُعترِف

البابا ديسقوروس (٢٥) بجزيرة غنغرة

الله يرى الحقيقة

ولكنهُ يتأنَّى

يبدو أنهُ لا يمكن لأحد أن يعرِف الحقيقة إلاّ الله وحده ..
له وحده أرفع شكواي، ومنهُ وحده أنتظِر الرحمة.

-١٠-

إيفان ديمتريش أكسينوف، تاجرِ في ريعان الشباب، يتمتع بثروة طيِّبة لأنه يمتلِك مترلاً فضلاً عن تجارتِهِ الواسِعة التي يُديرها في محلين من المحلات التُّجارية التي تزهو بها مدينة فلاديمير.

كان أكسينوف يتميَّز بجمال الطلعة، قَسَمَات وجهه تروق للعيون، وشعره المُجعد يميل إلى الصفرة، يكتسِب قلوب الآخرين لِمَا يتصِف به من حُب المرح فضلاً عن شغفِهِ بالغِناء. في أيام شبابِهِ الأولى اعتاد الشراب، وتحت تأثير الخمر كان يُثير الضجيج والصخب. وساعده على إدمان الخمر أنَّ المال كان يجري بين يديه كثيرًا وفيرًا. إلاّ أنه بعد الزواج أقلع عن مُعاقرة الخمر إلاّ في فترات مُتباعِدة.

في أحد أيام الصيف عقد أكسينوف عزمه على التوجه إلى سوق نيزني، وأخذ يُودِع أُسرته استعدادًا للرحيل، ولكن زوجته استمهلته بيدِها وهي تقول: إيفان ديمتريش، أرجو أن تستمِع لي .. دعك اليوم من الذهاب إلى هذا السوق. يُمكنك أن تُؤجِل ذلك إلى يوم آخر ... ثم نظرت في عينيهِ التي ارتسم عليها التساؤُل، فاستطردت تقول: لقد رأيت حِلمًا .. عنك .. إنه حِلم مُقبِض.

ولكن أكسينوف أجابها بمرحه المعهود، وفُكاهتِهِ التي لا تُفارِقه: هاها .. أنتِ خائِفة، لئلاّ تزوغ عيناي في السوق، أو أرتكِب بعض الحماقات ..

اطمئني يا عزيزتي، لن أنحرِف عن جادّة الصواب.

ولكن زوجته عادت في نبرات جادَّة تقول: لا أعلم بالضبط ما سِر هذا الخوف، كلّ ما أعلمه أنَّ الضيق يملأ قلبي بسبب هذا الحِلم .. لقد رأيتك عائِدًا من المدينة، ولكنك عندما خلعت قُلنسوتك، رأيت شعرك .. وقد وَخَطهُ المشيب.

وعاد أكسينوف يضحك، ويُعابِثها قائِلاً: إنَّ هذا علامة الحظ السعيد. سوف أبيع كلّ ما عندي من البضائِع ... وأُحضِر لكِ بعض الهدايا من السوق.

ثم أسرع يُقبّل أطفاله، ومضى في طريقه .. وبعد أن قطع مسافة ليست بقليلة، وقارب مُنتصف الطريق التقى بأحد التُّجار من أصدقائِهِ، ولم يُخفِ عنه سروره برؤياه. وسارا سويًا حتّى بلغا أحد الفنادِق اعتزما أن يقضيا ليلتهِما فيه، وبعد أن تناولا أقداح الشاي، ذهبا للنوم في حُجرتين مُتلاصقتين.

لم يكن من عادة أكسينوف أن يتأخر في النوم، لا سيّما إذا كان على سفر، لأنه يُفضِّل الرحيل في البُكور، حتّى يستقبِل هواء الفجر العليل البارِد وهو يهُب رقيقًا على الكون. ولهذا فقد استيقظ قبل الفجر بقليل، وأيقظ سائِق عربته، وأمره بربط الجِياد إلى العربة. ثم عبر الفندق واتجه إلى كوخ في مؤخرته اتخذه صاحِب الفندق مقرًا له، وأيقظ أكسينوف صاحِب الفندق، ودفع ما عليه من حساب، ثم استأنف رِحلته.

وقطع ما يقرُب من خمسة وعشرين ميلاً، ثم توقف قليلاً ريثما تنال الجِياد شيئًا من الطعام في إحدى الخانات، ووجد مقعدًا في مدخل الخانة

جلس عليه ثم نهض بخطوات مُتثاقِلة لكي يأمر بكوب من الشاي. وفي هذه الأثناء، أخرج قِيثارته وبدأ يُداعِب أوتارِها، وانسابت من بين يديه أنغام عذبة تستريح إليها النَّفْس، في هذا الهدوء الشامِل.

ولكن قطع هذا السكون، عربة تجُرها الخيول، وتدوي أجراسُها في أرجاء المكان. ما أن وصلت إلى الحانة، حتّى وقفت وترجَّل منها ضابِط يتبعه جُنديان. واتجه الضابِط مباشرةً إلى أكسينوف، يسأله عن اسمه، وعن البلد التي أتى منها. ولم يفهم أكسينوف معنى لهذا، إلاّ أنه أجاب أسئلة الضابِط في بساطة، وخَتَمْ جوابه قائِلاً: تفضَّل تناول معي قليلاً من الشاي. ولكن الضابِط مضى يُوجِه أسئلته: أين أمضيت الليلة السابِقة؟ وهل كنت وحيدًا، أم كان يُرافِقك تاجِر آخر؟ وهل رأيت هذا التاجِر في الصباح؟ ولماذا تركت الفندق قبل الفجر؟!

واستبدت الحيرة بأكسينوف، وهو لا يجد تعليلاً لهذا التحقيق. ومع ذلك فقد وصف للضابِط كلّ ما حدث بالضبط. ولم يجد بدا من أن يُوجِه سؤالاً للضابِط لكي يفهم ما يدور حوله فقال: ولكن لماذا تُوجِه لي كلّ هذه الأسئلة؟ ... كأنني لص أو قاطِع طريق؟ إني مُسافِر لبعض شئوني الخاصة، ولا أستطيع أن أفهم الدافِع وراء هذا السيل من الأسئلة.

وعند ذلك أشار الضابِط إلى الجُنديين الذين يتبعاه، وهو يُواصِل حديثه مع أكسينوف: إنني ضابِط الشرطة في هذه المُقاطعة، وأسألك هذه الأسئلة لأنَّ التاجِر الذي كنت تُصاحِبه بالأمس، وُجِد في الصباح قتيلاً في الفندق، وقد قُطِعَت رقبته، وعلى هذا تقتضي الاجراءات أن نُفتِش حقائِبك.

ودخل ثُلاثتهم إلى الحانة، وقام الضابِط ومعه الجُنديان بفتح حقائِب

أكسينوف، وقلبوا مُحتوياتِها .. وفجأة صاح الضابِط، وهو يُخرِج سكينًا طويلاً حادًا، ويُثبِّت عينيهِ على عيني أكسينوف: لِمَنْ هذا السِّكين؟ ووقف أكسينوف مبهورًا، وفَغَر فاه عجبًا ودهشة، وحملق بعينيهِ في السِّكين وهو لا يكاد يُصدِق ما يراه .. فقد كانت السِّكين مُلطخة بالدِماء، والضابِط يُخرِجها من حقيبته .. وسرت في أوصالِهِ رِعدة عنيفة، وأخذ منه الخوف والهلع كلّ مأخذ .. ووقف مأخوذًا لا يقوى على النُّطق. وعاد الضابِط يلِح في السؤال: ... وآثار الدِماء واضِحة .. كيف أنت؟

وفتح أكسينوف فمه يُحاول الكلام، ولكن الكلِمات ماتت على شفتيهِ، ولكنه تمتم مُتلعثِمًا: أنا .. لا أعلم .. ليست مِلْكي.

وعاد الضابِط يُشدِّد الخِناق على أكسينوف قائِلاً: في هذا الصباح وُجِدَ التاجِر في فِراشه، وقد قُطِعت رقبته. وأنتَ هو الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يرتكِب هذه الجريمة البَشِعة. كلّ الدلائِل تُوجه أصابِع الإتهام إليك. كان البيت مُقفلاً من الداخل، ولم يكن في الداخل آخر سِوَاك، ثم هذه السِّكين المُلوثة بالدِماء وجدناها في حقيبتك ووسط أمتِعتك .. وهوذا وجهك وسلوكك ينُمان عليك! يحسُن بك ألاّ تُراوِغ، وأن تعترِف .. كيف قتلتهُ، وكم من المال سرقت منهُ؟

وأقسم أكسينوف أنه لم يفعل شيئًا من ذلك، وأنه لم يرَ التاجِر بعد أن تناولا الشاي معًا .. وأنَّ معه ثمانية آلاف رُوبل، هي مِلكه الخاص. أمَّا السِّكين فلا يعرف عنها شيئًا .. كان صوته يرتعِش، وعلا وجهه شُحوب شديد، وارتعدت فرائِصه فرقًا وخوفًا، كأنه هو المُذنِب الجاني ..

ولم يكن في كلّ ما قالهُ أكسينوف ما يُقنِع الضابِط ببراءتِهِ، وهو يرى

الأدِلة دامِغة ضده. فأصدر أمره إلى الجُنديين باحكام الوِثاق حول أكسينوف وإيداعه في العربة. وبينما كان الجُنديان يربُطان قدمي أكسينوف إلى بعضِهِما، ويقذِفان به إلى داخل العربة، رفع أكسينوف يُمناه ورسم علامة الصليب على وجهه، وانهارت قُواه، وانخرط في البُكاء بصوت مُرتفِع.

صُودِر ما كان معه من بضائِع وأموال، وأُرسِل إلى أقرب مدينة، حيث أودعوه السجن. وبدأت سلسلة من التحقيقات المُضنية، تناولت أخلاقه وسلوكه في فلاديمير. وقد شهد زُملاؤه التُّجار والجيران وغيرهِم من سُكان المدينة أنه اعتاد في سالِف الأيام أن يشرب الخمر، وأن يُسرِف في الوقت والمال. ولكنه كان رجلاً طيِبًا دَمِث الأخلاق والطِباع .. ولمّا حان وقت المُحاكمة ، وُجِهَت إليه تُهمة قتل التاجِر، وسِرقة عشرين ألف رُوبِل.

-٢-

كانت زوجته في يأس مُطبق، وانتابتها الحيرة لا تعلم أيُهُما تُصدِق. كان أطفالُها ما زالوا في طور الطُفولة الباكِر، وأحدهُم كان رضيعًا. أخذهم جميعًا، ويمّمت وجهها شطر المدينة، حيث كان زوجها خلف أسوار السجن. في بادِئ الأمر، لم يُسمح لها برؤيته، ولكنها - بعد توسُّل والحاح- حصلت على إذن من السُّلطات المُختصة، فدخلت لزيارتِهِ. وما كادت ترى زوجِها، في ملابِس السجن القاتِمة، يرسف في الأغلال والسلاسِل، سجينًا بين اللُصوص والمُجرمين، حتّى غامت عيناها، وسقطت - من هول الصدمة - على الأرض مغشيًا عليها، ولم تستردِ وعيها قبل فوات وقت طويل.

ولّما أفاقت جذبت أطفالِها إليها، وجلست بالقرب منه، تُحدِّثه عما يجري في بيتِها، وتسأله عما حدث له، وأخبرها بكلّ شيء، لم يترك شارِدة أو وارِدة إلاّ رواها، ثم سألته زوجته: وماذا يمكننا أن نفعل الآن؟ وأجابها قائِلاً: يجب أن نرفع إلى القيصر التماسًا، حتى لا يُسمح بالقضاء على رجُل برئ.

ولكن زوجته أخبرته أنها قدَّمت هذا الالتماس بالفِعل، ولكن مصيره كان الرفض .. وطأطأ أكسينوف رأسه، ولم يحر جوابًا، وأطال النظر إلى الأرض ..

وعادت زوجته تقول: ألم أقُل لك؟! لم يكن ذلك الحِلم عبثًا أو أضغاث أحلام .. لقد رأيت الشيبَ يُكلّل رأسك. ألا تذكُر؟ كان يجب ألاّ تخرُج في ذلك اليوم المشئوم.

ثم مرت بأصابِعها برِفق خلال شعره، وهي تقول: حبيبي فانيا، قُل لزوجتك الحقيقة، هل أنتَ حقًا الذي فعلت هذا الأمر؟

حتى أنتِ أيضًا؟ .. تشكين فيّ؟

وعند ذلك أقبل أحد الحُرّاس، وفي فظاظة وغُلظة، أعلن لهم أنّ موعِد الزيارة قد انتهى، فودّع أكسينوف أُسرته .. لآخر مرة.

وعندما غابوا عن عينيهِ، أخذ يسترجِع كلّ ما دار من أحاديث. وعندما تذكّر أنّ حتّى زوجته قد راودها الشك في أمره، قال لنفسه: يبدو أنه لا يمكن لأحد أن يعرِف الحقيقة إلاّ الله وحده .. له وحده أرفع شكواي، ومنهُ وحده أنتظِر الرحمة.

وبعد ذلك عزف أكسينوف عن كتابةِ الالتماسات، وفَقَدْ الأمل تمامًا، ولم يجد أمامه طريقًا لراحةِ النَّفْس سِوَى الصّلاة والتضرُّع لله.

وأخيرًا صُدِر عليه الحُكم بالجَلْد والنفي إلى المناجِم. وبعد أن تم جلده بالسِياط، والتأمت الجروح التي نجمت عنها، اقتادوه مع غيره من المحكوم عليهم بالسجن إلى سيبريا.

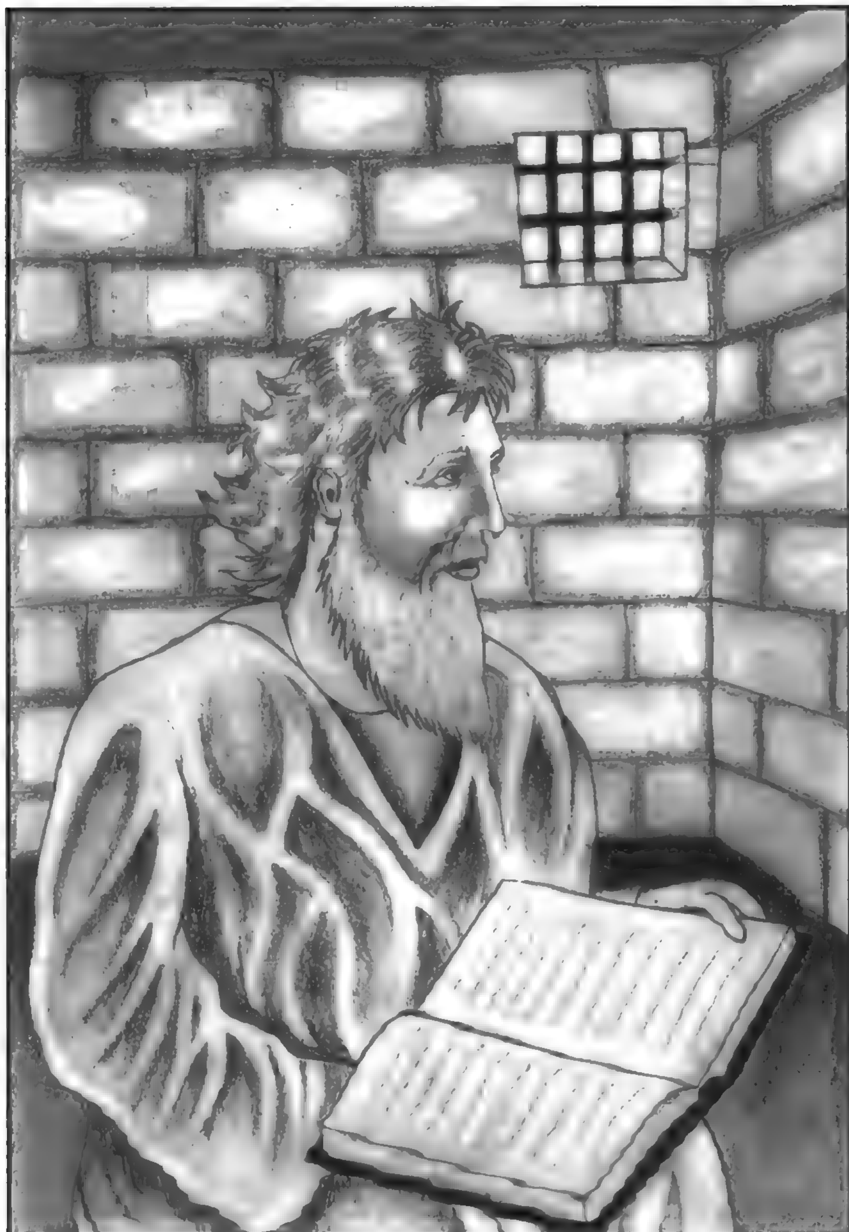
وقضى هناك سِتًا وعشرين سنة، واستحال شعره أبيض كالثلج، ونَمَت لحيته واستطالت وغزاها المشِيب .. وتسللت من قلبه روح المرح. تقوّس ظهره وانحنى، واعتاد أن يمشي في بُطء وتثاقُل، لا يتكلّم إلاّ في القليل النادِر، ولم ترتسِم على شفتيهِ ابتسامة قط .. ولكنه انصرف في أكثر الأحيان إلى

عزائِه الوحيد .. الصَّلاة.

وتعلَّم أكسينوف في السجن صناعةِ الأحذية، واستطاع بها أن يكسب القليل من المال، اشترى به كتاب ''سِيَر القديسين''، وداوم المُطالعة في هذا الكتاب، كلّما سمح الضوء بذلك في السجن المُعتِم. وفي أيام الآحاد كان يحث خُطاه إلى كنيسة السجن، حيث يقرأ الرسائِل، ويشترك في إنشاد الألحان الكنسية بصوت رخيم، فقد كان صوته مازال مُحتفِظًا بجماله.

وأُعجِبَت سُلطات السجن بأكسينوف، بسبب وداعتِه. كما احترمه زُملاؤه المساجين وأحبوه حتّى أطلقوا عليه ''الجد'' تارة، ولقب ''القديس'' تارة أخرى. وكلّما أرادوا أن يطلبوا شيئًا لأنفسهم من المسئولين، كان أكسينوف هو مندوبهم المُتحدِث باسمهم. وإذا حدث خِلاف بينهم، أو نَشَبْ عِراك، كان يلجأ المُختصِمون إليه حتّى يفصِل في مُنازعاتِهِم، ويرُد المياه إلى مجاريها.

وانقطعت أخبار الأُسرة تمامًا عن أكسينوف، ولم يعرِف حتّى إذا كانت زوجته وأولاده على قيد الحياة، أم عبثت بهم أيدي الزمن.



-٣-

وصل إلى السجن فريق جديد من المحكوم عليهم. وعندما حل المساء اجتمع المساجين القُدامى مع زُملائِهِم الجُدُد، يتعرفون عليهم، ويسألونهم عن المُدن والقُرى التي أتوا منها، والجرائِم التي اقترفوها وحُكِم عليهم بسببِها. وفي وسط هذه الجماعة، جلس أكسينوف على مقرُبة من النُزلاء الجُدُد، ينصِت إليهم، بينما أخلد هو إلى الصمت ونكّس رأسه. وبين هؤلاء الضيوف، كان أحدهم طويل القامة، قوي البنية وإن كان قد تخطّى الستين من العُمر، نمت في وجهه لحية قصيرة حليقة قد غمرها الشعر الأبيض. أخذ هذا النزيل يتحدث إلى الآخرين عما ارتكبت يداه، وأدّى إلى القبض عليه:

حسنًا أيها الأصدقاء .. كلّ ما فعلت أني أخذت حصانًا قد رُبِط إلى عربته، فقُبِض عليَّ، واتُهِمت بالسَرِقة .. قُلت لهم إني أخذت الحصان لأني كنت في حاجة إلى الوصول إلى بيتي بأقصى سرعة، وكان في نيتي أن أُطلِقه حتّى يعود إلى صاحبه مرة أخرى. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان سائِق العربة صديقًا لي، وهذا يُؤكِد أنَّ كلّ شيء على ما يُرام، وليس في الأمر جريمةٍ ما. ولكنهم عزفوا عن سماع أقوالي، وأصروا أني سارِق ولِص مع أنهم فشلوا في الاستدلال على كيفية السَرِقة وإمكانها .. ومع ذلك فالحقيقة أني قد أتيت هنا بعدل .. لقد ارتكبت في يوم من الأيام ذنبًا .. لم يكتشِفه أحد، ولكن كان يجب أن أكون هنا منذ وقت طويل .. أمَّا الآن فقد

اقتادوني إلى هنا بلا ذنب ولا جريرة .. ثم ندت عن صدره زفرة عميقة وهو يقول .. ايه! إنكم تحبون الأكاذيب التي أرويها لكم .. في الواقِع قد جئت إلى سيبريا من قبل، ولكني لم أمكُث طويلاً .. ورفع أحدهم صوته مُتسائِلاً: من أي بلد أنتَ؟ واتجه بنظره نحو السائِل وهو يقول: من فلاديمير. أُسرتي منها، واسمي مكاري ويدعونني أيضًا سيمنتش. وما كاد أكسينوف يسمع اسم مدينته، حتّى رفع رأسه، ووجَّه الحديث إلى السجين الجديد: قُل لي يا سيمنتش .. هل تعرِف شيئًا عن أحد التُّجار في فلاديمير، يُدعى أكسينوف؟ وهل هناك أحد من أُسرته على قيد الحياة؟

طبعًا أعرفهم .. إنَّ عائِلة أكسينوف من الأثرياء، وإن كان أبوهم قد قُضِيَ عليه بالسجن في سيبريا .. يبدو أنه خاطئ مثلنا تمامًا! وأنتَ أيها الكهل العجوز، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

ولّما كان أكسينوف لا يستهويه الحديث عن نكبته، فقد آثر عدم الاستطراد في الكلام، فاكتفى بالتنهُد وهو يقول:

من أجل آثامي وخطاياي، قضيت حتّى الآن سِتًّا وعشرين سنة في السجن. وعاد السجين يسأل: وما هي هذه الخطايا؟

واكتفى أكسينوف بقوله: حسنًا .. لابد وأني كنت أستحِق ذلك. وأبى أن يزيد على ذلك حرفًا واحِدًا، ولكن رِفاقه تكفَّلوا بالكلام بدلاً عنه، فأخبروا السجين الوافِد بتفاصيل الأحداث التي أدَّت إلى هذا المصير الحزين، قَتَلْ أحد المُجرمين تاجرًا، ووضع السِّكين وسط أمتِعة أكسينوف فصدر عليه هذا الحُكم الرهيب.

وعندما سمع مكاري سيمنتش كلّ هذا، أطال النظر إلى أكسينوف،

وربت بيدِهِ على رُكبتيهِ، وقال له في دهشة: حقًا! أنَّ هذا الأمر عجيب .. وغريب! كم بلغت من العُمر الآن أيها الشيخ؟

وبدأ الزُملاء يسألونه عما أدهشه في قصة أكسينوف، ومع أنَّ سيمنتش لم يحر جوابًا عن ذلك، إلاّ أنه لم ينفك عن ترديد هذه العبارة: إنه لأمر غريب حقًا، أن نتلاقى – يا أولادي – في هذا المكان ..

وتحركت كوامِن الأشجان عند أكسينوف، وأخذ يسأل نفسه عما إذا كان هذا الرجل يعرِف القاتِل الحقيقي، ولهذا بادرهُ بقوله:

– سيمنتش .. ربما قد سمعت شيئًا عن هذا الموضوع، أو لعلك رأيتني من قبل؟

– وكيف لا أسمع؟ لقد امتلأت الدنيا بالشائِعات .. ولكن هذا حدث منذ زمن طويل .. وقد نسيت ما سمعت.

– لعلك سمعت عمن قتل التاجِر؟!

وضحك مكاري سيمنتش وهو يقول: لا شك أنَّ القاتِل هو الذي ضبطوا السِّكين في حقائِبه! لو كان هناك آخر، خبَّأ السِّكين هناك ... على رأي المثل. ليس هناك لِص إلاّ ويُقبض عليه .. كيف يمكن لإنسان أن يضع سكينًا في حقيبتك، مع أنها موضوعة تحت رأسك؟ مثل هذا العمل كان لابد أن يُوقِظك ..

ولم تفُت أكسينوف كلّمات السجين، وأيقن في نفسه أنه هو القاتِل .. كيف عرف أنَّ القاتِل خبَّأ السِّكين في حقيبته؟! ومن أين يعلم أنَّ الحقيبة كانت تحت رأسه؟! ثم نهض وانتحى بعيدًا، يطلُب الهدوء والعزاء في الصَّلاة.

في هذه الليلة، لم يغمِض له جفن .. شعر بالتعاسة تُخيِّم عليه، وتراءت أمام عينيهِ الصور والذِكريات والأوهام، تذكَّر صورة زوجته وهو يُودِعها عندما هَمْ بفُراقِها إلى السوق .. تمثَّلها أمام عينيهِ حيَّة بلحمها وعظمها، رأى وجهها وعيناها شاخِصتان إليه .. سمعها تتكلّم وتضحك. ورأى أطفاله ، مازالوا صِغارًا تمامًا، أحدهم يتدثر بردائِهِ، والآخر يسنِد رأسه الصغير إلى صدر أُمِّه، ثم تذكَّر نفسه في غابرِ الأيام، مرِحًا طروبًا .. تذكَّر كيف جلس في مدخل الحانة يعزِف على قيثارته سعيدًا خاليًا من الهموم، ثم أُلقِيَ القبض عليه .. ورأى ... المكان الذي جُلِدَ فيه، والجلاَّد يُحيطُ به المُتفرِجون .. القيود والأصفاد، والمساجين .. عبرت أمام عينيهِ السنوات السِت والعشرون التي قضاها في السجن، والشيبة التي كلّلت هامته قبل الأوان .. عندما تذكر كلّ هذا، أحس بكأس الشقاء تفيض تعاسة على كيانه كله .. حتّى استبدت به رغبة إلى التخلُّص من الحياة!

ثم عاد يُفكِر كيف كان هذا الوغد هو السبب في كلّ ما حل به من شقاء وأحزان .. وغلى الغضب في صدره على مكاري سيمنتش، واجتاحت قلبه رغبة عارِمة في الانتقام، حتّى ولو أدّى ذلك إلى القضاء عليه ..

وعاد من جديد يُردِّد الأدعية والصلوات طُوال الليل، ولكنه لم يستطِع أن يرُد السَّلام إلى قلبه العاصِف .. وعندما بدأ النهار، لم يقترِب إطلاقًا من مكاري .. بل لقد تحاشى النظر إليهِ أيضًا.

ومضى أسبوعان على هذا المنوال، لم يستطِع خلالهُما أكسينوف أن يذوق طعم النوم خلال ليالي القلق الطويلة، ولم يُبارِحه ذلك الشعور الماضي بالمرارة والتعاسة، تتنازع نفسه نوازِع مختلفة حتّى بدا له أنه لا يعرِف ماذا يفعل.

- ٤ -

وفي إحدى الليالي، بينما كان يجول حول السجن، استرعى التفاته أنَّ بعض التراب يتدحرج خارِجًا من تحت أحد الألواح التي يرقُد عليها المساجين، فتوقف قليلاً حتّى يستجلي حقيقة الأمر. وفُوجِئ بمكاري سيمنتش يبرُز من تحت اللوح الخشبي .. ونظر هذا إلى أكسينوف، وقد ارتسمت على وجهه علامات الرهبة والخوف. وحاول أكسينوف أن يمضي في طريقه دون النظر إليه، ولكن مكاري، أسرع إليه وأمسك بيده وهو يعترِف أنه حفر حُفرة تحت جدار السجن، وأنه يتخلّص من التراب الذي يحفره، باخفائِهِ داخِل حذائِهِ الطويل ثم يُلقيه كلّ يوم في الطريق الذي يقتادون فيه المساجين إلى عملِهِم، ثم خَتَمْ اعترافه قائِلاً:

كلّ ما أرجوه، أيها العجوز، أن تكتُم هذا السِّر فتهرب معي أيضًا ... أمَّا إذا راح لسانك يهذي بما رأيت، فأنتَ تعرِف العِقاب الذي يحِل بمن يرتكِب مثل هذه الجِناية .. الجَلْد حتّى يُفارِق السجين الحياة .. إذا حدث هذا فلابد أن أقتُلك أولاً ..!!

وسرت في عروق أكسينوف موجة من الغضب، وهو ينظر إلى عدوه .. ولكنه ينفُض يده بعيدًا عنه وهو يقول:

- لم تعُد بي أدنى رغبة في الهرب، وليست بك حاجة أن تقتُلني. لقد فعلت ذلك منذ زمن بعيد. أمَّا عن سِرك .. فقد أفشيه أو لا أفشيه، كما يُوجهني الله.

وعندما اقتِيدَ المساجين إلى العمل في اليومِ التالي، لاحظ الحُرَّاس أنَّ أحدهم يُلقي بعض التراب من حذائِهِ. وفي الحال بدأ تفتيش السجن تفتيشًا دقيقًا، وسُرعان ما اكتشفوا الحُفرة .. وأتى مأمور السجن، وأشرف على التحقيق مع جميع النُّزلاء بحثًا عن الجاني. وأنكر الجميع عِلمهم بأي شيء، والذينَ منهم كانوا يعرِفون الحقيقة لم يفصحوا عنها، لأنهم يعرِفون العِقاب الرهيب الذي يحِل بمكاري .. الجَلْد المُؤلِم حتّى يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وفي محاولة أخيرة لمعرفة الحقيقة، إلتفت المأمور إلى أكسينوف — الذي كان موضِع ثقة الجميع لأمانتهِ — وقال له: أنكَ رجُل عجوز صادِق، قُل لي، أمام الله من حفر هذه الحُفرة؟

كان مكاري سيمنتش مُنتصِب القامة، كما لو كان الأمر لا يعنيه إطلاقًا، عيناه لا تُفارِقان وجه المأمور، لا تبدُر منه بادِرة تدُل على الاهتمام بالموضوع، حتّى أنه لم يلتفِت كثيرًا نحو أكسينوف.

مضت فترة ليست بالقصيرة، لم يستطِع خلالها أن ينطِق بحرف واحِد. كان يُفكِر: لماذا أتستر على هذا الشقي الذي حطم حياتي؟ دعه يدفع الثمن الذي يستحقه إزاء ما قاسيتهُ أنا .. ولكن .. لو تكلّمت، سيُجلد حتّى الموت ومن يدري فقد تكون ظُنوني غير صحيحة .. ثم .. ما الفائِدة التي تعود عليَّ من موته؟ وعاد المأمور يسأل: حسنًا .. تكلّم يا شيخ .. وقُل الصِدق. من الذي حفر تحت الجدار؟

ونظر أكسينوف إلى مكاري سيمنتش ثم أجاب: لا أستطيع أن أتكلّم، يا سيّدي. إنّ الله لا يُريدني أن أبوح بشيء .. افعل بي ما شِئت، ها أنذا بين يديك.

وحاول المأمور أن يستدرِجه إلى الاعتراف، ولكنه أبى أن يزيد حرفًا واحِدًا عمّا قال ... ولهذا تقرَّر حِفْظ الموضوع.

- ٥ -

في تلك الليلة، بينما كان أكسينوف راقِدًا في فِراشه كالمُعتاد، وقد بدأت تأخذه سنة من النوم، لمح في طيات الظَّلام شبحًا يتقدم نحوه في حذر وهدوء، حتّى وصل إلى فِراشه وجلس في جِوارِه. وحملق أكسينوف في هذا الشبح وعرف فيه شخص مكاري، فابتدرهُ في صوت أجش: ماذا تريد مني، بعد كلّ هذا الذي فعلته؟ لماذا أتيت هنا؟

ولم يتكلم مكاري، وأخلد إلى الصمت، وخيَّم عليهُما سُكون قاتِل تعلقت فيه الأنفاس. ولكن أكسينوف قطع هذا الصمت قائِلاً: ماذا تريد؟ اذهب عني وإلاّ دعوت الحُرَّاس! وانحنى مكاري سيمنتش ، واقترب بوجهه من أكسينوف، ثم همس بصوت تقطعه حشرجة مُخيفة: إيفان ديمتريش .. سامحني واصفح عني!

- عن أي شيء؟

- أنا الذي قتل التاجِر، وأخفى السِّكين في أمتِعتك. كنت على وشك أن أقتُلك أنتَ أيضًا لولا أني سمعت ضجيجًا في الخارِج، فأخفيت السِّكين في حقيبتك، ثم هربت من النافِذة.

وصَمَتْ أكسينوف، ولم يعرِف ماذا يقول. أمَّا مكاري فقد انزلق من حافة الفِراش، وركع على الأرض وهو يتشبث بثِياب أكسينوف قائِلاً:

إيفان ديمتريش، سامحني. اغفِر لي من أجل محبة المسيح. سأعترِف بجُرمي ويُطلِقون سراحك وتعود إلى بيتك.

- سهل عليك أن تتكلم .. أمَّا الألم والمُعاناة فقد قاسيتهُما هذه السِت والعشرين عامًا .. والآن أين يمكن أن أذهب؟ زوجتي ماتت، وأطفالي نسوني، وأصبحت غريبًا عليهم .. ولا أريد أن أكون لهم عارًا .. يا صديقي ليس لي مكان أذهب إليه.

ولم ينهض مكاري، بل ضرب رأسه على الأرض، ينتحِب ويقول:

- إيفان ديمتريش، سامحني .. إنَّ الجَلْد بالسِياط أهون بكثير من النظر إليك .. رغم خطيتي أشفقت عليَّ ولم تبُح بجُرمي .. من أجل خاطِر المسيح سامحني أنا الشقي ثم بدأ يجهش بالبُكاء.

ولمّا سمع أكسينوف بكاءهُ، لم يستطِع أن يُقاوِم رغبته في البُكاء، فأجاب مكاري بصوت تُبلِلهُ الدموع السخينة، وتقطعه الزفرات:

- الله يسامحك .. من يدري فربما كنت أكثر منك شرًا ...

وبعد تلك الكلمات أحسَّ قلبه يخفِق بالسلام والهدوء، وزايلته تلك الرغبة التي اضطرمت في صدره شوقًا إلى أُسرته وبيته، ولم تعُد به رغبة إلى مُفارقة السجن أو نُزلائِهِ فقد أحبَّهم وأحبوه .. كان ينتظِر فقط ساعة الرحيل.

ورغم كلّ مُحاولات أكسينوف لكي يُثني مكاري عن عزمه في الاعتراف بجريمتِهِ، فإنَّ هذا الأخير أصر على عزمه، واعترف فعلاً بجريمته،

وسارت إجراءات العفو عن أكسينوف السجين في مجراها، وأخيرًا صدر قرار الإفراج عنه، وتردَّد صداه بالفرح بين النُّزلاء جميعًا وذهبوا لكي يُقبِّلوه ويُهنِئوه، ووجدوه راقِدًا في فِراشِه بسلام .. كان قد مات منذ لحظات.

سنة ١٨٧٢م

بما يحيا الإنسان؟

''نحن نعلم أنَّنا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة، لأنَّنا نُحب الإخوة. من لا يُحِب أخاه يبقَ في الموت''.

(١يو ٣ : ١٤)

''وأمَّا من كان له معيشة العالم ونظر أخاهُ مُحتاجًا وأغلق أحشاءهُ عنهُ فكيف تثبُت محبة الله فيه. يا أولادي لا نُحِب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق''.

(١يو ٣ : ١٧ — ١٨)

''لأنَّ المحبة هي من الله، وكل من يُحِب فقد وُلِدَ من الله ويعرِف الله. ومن لا يُحِب لم يعرِف الله، لأنَّ الله محبَّة''.

(١يو ٤ : ٧ — ٨)

''الله لم ينظرهُ أحد قط. إن أحبَّ بعضُنا بعضًا فالله يثبُت فينا''.

(١يو ٤ : ١٢)

''الله محبَّة ومن يثبُت في المحبة يثبُت في الله والله فيه''.

(١يو ٤ : ١٦)

''إن قال أحد إني أُحِب الله، وأبغض أخاه، فهو كاذِب. لأنَّ من لا يُحِب أخاه الذي أبصره كيف يقدِر أن يُحِب الله الذي لم يُبصِرهُ؟''.

(١يو ٤ : ٢٠)

-١٠-

الغريب

سيمون الإسكافي، لا يملُك من الدنيا أرضًا ولا دارًا. كان يعيش مع زوجته وأطفاله في كوخ ريفي بسيط. كان عليه أن يكِد ويشقى حتّى يكسب قُوته وقُوت أُسرته .. أمَّا عمله فكان حقيرًا لا يُدِر عليه ما يكفيه .. ومن جهة أخرى فقد كان الخبز غاليًا، ولهذا فلم يكُن له حيلة و لم يكُن هناك مجال للتوفير، بل يُنفِق كلّ ما يصِل إلى يديهِ حتّى يُوفِر لأُسرته الحاجات الضرورية .. ولا يقصُد بالحاجات الضرورية هنا سِوَى الطعام. كان سيمون يملُك مِعطفًا من فراء الغنم يتقاسمه مع زوجته ويتناوبان ارتداءه أيام الشتاء .. حتّى هذا المِعطف بدا مُهلهلاً من فرط ما أصابه من البلى. مضت سنتان على هذا المِعطف، وكان منظره يبعث على الأسى واليأس لأنه لم يعُد صالِحًا للاستعمال. كان يتطلع إلى شِراء فِراء جديد ليصنع مِعطفًا جديدًا لأنَّ حاجته إلى هذا المِعطف كانت مُلِحَّة ماسَّة. وقد حرص سيمون، قبل حلول الشتاء، على اقتصاد ما استطاع أن يقتصِده من المال القليل، لتحقيق هذا الأمل. أخفى ورقة مالية من فِئة الثَّلاثة رُوبِلات في صندوق زوجته، وكان يستحِق له لدى بعض الزبائِن خمسة رُوبِلات أخرى وعشرين كوبكا .. واستقر عزمه على جمع هذه الديون .. وشِراء الفِراء.

وفي صباح أحد الأيام، نهض مُبكِرًا وأخذ أهبته وقد يمَّم وجهه شطر

القرية. ارتدى قميصه، وتسربل بسُترة زوجته القُطنية الثقيلة، وفوق ذلك كله لَبسْ رداءهُ الخاص. وضع في جيبه الورقة المالية المُدخرِة، ثم اقتطع فرعًا من فروع الأشجار، تناوله بالتهذيب والتشذيُب، واتخذه عصا يتوكأ عليها. وبعد أن تناول طعام الافطار، بدأ رِحلته إلى القرية، وقد أطلق لأفكاره العنان: سوف أجمع الرُوبِلات الخمس، وأُضِيف إليها مُدخراتي .. فيكون عندي مبلغ كافٍ فأشتري ما أُريد من فِراء الغنم وأصنع مِعطفًا للشتاء .. وأستطيع أن أتمتع بالدِفء.

وأخيرًا وصل إلى القرية، واتجه إلى كوخ أحد الفلاحين وناداه بصوتٍ عالٍ .. ولكن الرجُل لم يكُن هناك، فوعدته زوجته بسداد المبلغ في الأسبوع التالي. وألح – من جانبه – قليلاً ولكنها رفضت أن تدفع شيئًا. ثم توجه سيمون إلى فلاّح آخر من مديونيه، ولكن هذا أقسم أنه لا يمْلُك شروى نقير ومع ذلك فقد قَبَلْ – بعد الحاح – أن يدفع عشرين كوبكا فقط وكان ذلك هو الأجر المُتفق عليه على اصلاح زوج من الأحذية وإزاء ذلك، حاول سيمون أن يشتري الفِراء بالتقسيط، ولكن البائِع لم يستجِب لهذه المُحاولات، وفي اصرار أجابه هات نقودك أولاً ثم خُذ حاجتك من الفِراء ... لأني أعرِف كيف يتم جمع مِثْل هذه الديون.

وهكذا كان كلّ ما استطاع سيمون أن يفعله، أن يأخذ هذه العشرين كوبكا .. كما أعطاه أحد الفلاحين زوجًا من الأحذية حتّى يضع له نعلاً من الجِلْد.

وأحس سيمون بخيبة أمل تعتصِر قلبه، فمضى وأفرغ حُزنه في كأس من الفودكا صبّه في حلقه دُفعة واحِدة ثم دفع كلّ ما جمعه أي العشرين كوبكا

ثمنًا لهذه الكأس. وقفل راجعًا، يُجرِّر أذيال الخيبة دون أن يشتري الفِراء المطلوب. في الصباح كان يحِس بلذعات البرد والصقيع، أمَّا الآن – بعد أن شرب الفودكا – أخذ يشعُر بالدِفء يسري في أوصالِه، حتّى ولو تخلّى عن مِعطفه الفرو. وأخذ يسير وئيدًا يدِب بعصاه على الأرض التي غطّاها الجليد، ويهز يده الأخرى التي تحمِل الحِذاء ... ثم يُناجي نفسه. وقد استغرق في تفكير عميق.

أخذ يُحدِّث نفسه: مع أني لا أملُك مِعطفًا من الفِراء، فإني أحِس بالدِفء في كياني كله .. لم آخُذ سِوَى قطرة من الفودكا، ولكنها تجري حارَّة في عروقي .. لستُ في حاجة إلى فِراء الغنم .. هكذا أعيش لا يعنيني من الدنيا شيء! هذا منهجي في الحياة! ماذا يعنيني؟! يمكن أن أعيش دون فِراء .. لا حاجة بي إليه. لا شك أنَّ زوجتي ستأخذها ثورة الغضب .. في الواقِع أنه أمر يدعو إلى الخجل .. يعمل المرء طول يومه ثم لا يحصُل على أي أجر! قِف قليلاً .. تمهّل .. هات ما معك، إذا لم تُناولني ما معك، فلابد أن أسلُخ جِلدك .. وتحِل عليَّ اللعنة إذا لم أفعل! كيف يحدُث هذا؟ يدفع عشرين كوبكا فقط؟ وما فائِدة مثل هذا المبلغ الزهيد؟ أشرب إذًا .. فليس أمامك طريق آخر؟ .. ولكنك في عُسر وضنك شديدين؟ .. صحيح أنَّ الأمر كذلك، ولكن ماذا يمكنك أن تفعل؟ عنده منزل وقُطعان من الأغنام و..... و..... كلّ شيء، أمَّا أنا فليس لي سِوَى هذا الرِداء .. عنده القمح الذي يزرعه، أمَّا أنا فلابد لي أن أدفع ثمن كلّ حبة من القمح أحتاجُ إليها ... ايه! لابد لي – في كلّ أسبوع – أن أدفع ثلاث رُوبِلات من أجل الخبز وحده .. وها أننا سأعود إلى المنزل وإذا الخبز قد نفذ تمامًا، ولابد لي أن

أقتطِع رُوبلاً ونِصف آخر حتّى أشتري حاجتنا منه .. بالكاد تدفع دينك ..

وعند مُنعطف الطريق، كانت منارة الكنيسة الصغيرة ترتفِع قليلاً في الفضاء .. وعندما اقترب سيمون منها، لمح شيئًا أبيض قابعًا خلفها .. لم يستطِع أن يتبين كنه هذا الشيء. كان ضوء النهار قد بدأ يخبو ويضعُف. واستبد الفضُول بالإسكافي فحملق ببصره وأمعن النظر .. ولكنه لم يتبين هذا الشيء. ألعلهُ حجرُ أبيض؟ ولكنه لا يذكُر أنه رأى حجرًا أبيض في ذلك المكان من قبل! هل يمكن أن يكون ثورًا؟ ولكنه لا يُشبِه الثور من قريب أو بعيد ... يبدو أنَّ رأسه رأس إنسان .. ولكنه ناصِع البياض .. وإن صح أنه إنسان، فماذا عساه يفعل في هذا المكان المُقفر؟!

وأخذ يقترِب شيئًا فشيئًا حتّى استبانت له الحقيقة .. وكانت المُفاجأة غريبة حقًا. فقد كان ذلك رجُلاً بالفِعل، قد يكون حيًا أو ميتًا .. جلس بلا حِراك .. عاريًا .. وقد استند إلى جدار الكنيسة .. وأخذ الرعب بمجامِع قلب سيمون .. ربما قتله أحد المُجرمين وسَلَبه ماله ثم تركهُ هناك على هذه الصورة .. لو حشرت نفسي في هذا الموضوع فلن أُواجِه سِوَى المتاعِب ...

وأدار سيمون ظهره ثم مضى .. ولكنه تعمّد أن يسير قرب الكنيسة لعلهُ يرى الرجُل عن كثب .. وبعد أن جاوزهُ بقليل، استدار ونظر إلى الخلف من جديد، ولاحظ أنَّ الرجُل لم يعُد مُستنِدًا إلى الجدار، بل كان يتحرك كما لو كان يُريد أن يقول له شيئًا. وداهم الإسكافي شُعور عميق بالخوف .. أكبر من ذي قبل .. واستبد به القلق والتساؤُل: أيهُما أفضل، أن أعود إليه، أم أن أُواصِل المسير؟ إذا دنوت منه فقد يحدُث ما لا تُحمد عقباه .. ومن يدريني ماذا عساه أن يكون هذا الإنسان؟! هل يمكن أن يأتي إلى هذا



المكان المُوحش لغرض طيِّب أو صالِح؟ .. إذا ذهبت إليه، فقد يقوم عليَّ ويخمِد أنفاسي .. ولا سبيل للهرب أو النجاة .. وحتّى إذا لم يفعل ذلك، ألا يكون عِبئًا ثقيلاً عليَّ؟ ماذا يمكن أن أُقدم لمثل هذا الرجُل العاري؟ .. لا أستطيع أن أُعطيه ما بقى لي من ملابِس .. يارب أعنِّي حتّى أنجو بنفسي!

وحث الإسكافي خُطاه، وخلف الكنيسة وراء ظهره. ولكن ضميره ثار عليه من جديد، يُوبخه في قسوة وعُنف، فتلكأ في المسير ... ما هذا الذي تفعله يا سيمون؟ قد يكون هذا المسكين في الترع الأخير .. بسبب الحاجة أو الفاقة! وأنتَ تهرب في خوف؟ .. ماذا تملُك أيها البائِس حتّى تخشى قُطّاع الطُرُق؟ لا .. لا .. يا سيمون .. يا له من أمر مُخجِل حقًا!!

وَقَفَلْ سيمون راجِعًا، واتجه صوب الغريب العاري.

-٢٠-
دعوة

اقترب سيمون من الغريب، وحدجه بنظرة ثاقِبة. رآه شابًا في مُقتبل العُمر، جميل التكوين لا يشوب جسده أي أثر قد يُنبِئ عن إصابةٍ ما. ولكن .. كان من الواضِح أنَّ أطرافه ترتعِش من قسوة البرد. تبدو عليه علامات الخوف والاضطراب .. وقد قبع في مكانه مُسنِدًا ظهره للجدار – لا يرفع بصره حتّى نحو سيمون الذي كان يقترِب إليه، وكأنه يغض من بصره لفرط ما بلغ من الوهن والإعياء .. ووقف سيمون إلى جواره، وكأنَّ الغريب قد أحس به لأول وهلة وبدأ يتنبه إلى وجوده، فأدار وجهه، وفتح عينيهِ، وتطلّع إلى سيمون، وتقابلت نظراتِهما وأطال كلاهُما النظر إلى الآخر .. وجاشت نفس سيمون بالعطف والحب .. كانت هناك جاذِبية لا تُقاوم تشِدُّه نحو هذا الغريب .. ألقى الحِذاء الذي في يده على الأرض، وحل منطقته ورماها فوق الحِذاء، ثم خلع مِعطفه .. وأسرع يُبادِر الغريب بالحديث قائِلاً: ليس هذا وقت للكلام، تعال .. ضع هذا المِعطف على منكبيك عاجِلاً .. هيا .. هيا ..

وأمسك سيمون بالرجُل من مرفقيهِ، وأعانه على النُهُوض. وعندما وقف الغريب، لاحظ سيمون أنَّ الشاب نظيف وجسمه سليم تبدو عليه علامات الصحة .. أطرافه مُتناسِقة، والأعجب من هذا كله أنَّ وجهه كان يفيض

بالبِشْر والعطف! وألقى سيمون مِعطفه على كتفي الرجُل، ولكن هذا لم يستطِع أن يجد الأكمام، فمد سيمون إليه يد المعونة، وساعده على ادخال ذراعيهِ فيهما، وجذب المِعطف ليشدُّه حول الجسد العاري. ثم طوّق خصره بمنطِقته حتّى يلتصِق المِعطف بالجسد البارِد.

وهَمْ سيمون بخلع طاقيته المُمزقة، حتّى يضعها على رأس الغريب، ولكنه ما كاد يفعل هذا حتّى أحس بالبرودة القاسية تلدغ رأسه وتُحيط بها، وسُرعان ما قفزت إلى ذِهنه الخواطِر تُذكِّره. أني أصلع تمامًا، أمَّا هذا الشاب فعنده ثروة طيِّبة من الشعر المُجعد الطويل .. وأسرع يرُد الطاقية إلى رأسه المقرور. وهو يُعزِّي نفسه، ويُهدِّئ ضميره: أعتقِد أنَّ الأفضل أن أعطيه شيئًا يستُر به قدميه .. وأومأ إلى الرجُل لكي يجلِس، ثم ساعده على ادخال قدميه في الحِذاء الذي كان معه، وهو يُتمتِم في هدوء: الآن يا صاحبي .. يمكنك أن تتحرك قليلاً حتّى تُدفِئ نفسك .. أمَّا .. الأمور الأخرى فيمكن ترتيبها فيما بعد .. هيه .. هل تقوى الآن على المسير؟

ووقف الرجُل الغريب، وهو يتطلع إلى سيمون بنظرات تفيض بالعِرفان بالجميل، بالرِفق والحُب، وقد انعقد لِسانه فلم ينبِس ببنت شفة .. وتعجب سيمون منه فقال: لماذا لا تتكلم؟ ... ولمّا لم يجبه، أردف بعد قليل: هذا المكان شديد البرودة، ولا يمكنك البقاء هنا .. لابد لنا أن نعود إلى بيوتنا .. خُذ هذه العصا، وتوكأ عليها إذا كنت لا تقوى على المشي .. هيه .. ما رأيك؟ هيا بنا ..

ولم يتكلّم الغريب، أو ينطِق كلّمة واحِدة، ولكن عندما بدأ سيمون في المسير، تحرك الغريب وراءه في سهولة ويُسر .. لم يتخلّف أو يتعثّر في سيره

.. وبعد فترة وجيزة، عاد سيمون يتساءل: من أي بلد أنتَ؟

- لستُ من هذا البلد ..
- لقد فكرت أنا كذلك أيضًا .. فأنا أعرف كلّ جيراننا .. ولكن كيف اتفق لك أن تأتي بلدنا .. وأجِدك بجوار الكنيسة؟
- لا أعرِف ..
- هل أنتَ هارِب من عدو .. أو إنسانٍ ما؟
- لم يُسِئ إليّ أحد .. إنه عِقاب الله!
- لا شك أنَّ الله ضابِط الكل .. ولكن هذا لا يمنع أن تستقِر في مأوى مُعيّن، وأن تجد طعامًا لتأكلّ وتعيش .. أين تريد أن تذهب؟
- إلى أي مكان .. الكل عندي سواء ..

وأخذت الدهشة من سيمون كلّ مأخذ، واحتار في أمر هذا الغريب، الذي يمشي إلى جوارِه .. وأخذت لفحات الهواء البارِد تهُب وتشتد، وشَعَرْ سيمون بدبيب بارِد كالثلج ينتشِر تحت قميصه .. الآن بدأ يصحو من نشوةِ الڤودكا، وتلسعه سِياط الصقيع. وأخذ يجِد في المسير، وأنفه بدأت تعكر صفوه وهو يُحاوِل أن يُطلِق أنفاسه منها بصعوبة. تصدُر عنها أصوات يتجلّى فيها الخنن. وشد سُترِة زوجته حول جسده النحيل، وبدأ يستعيد أحداث هذا اليوم: والآن .. أين الفِراء؟ ها أنذا قد خرجت، وأملي أن أبتاع الفِراء .. وأعود بلا فِراء .. بل حتّى بدون المِعطف القديم .. وعلاوة على كلّ هذا أصطحِب معي هذا الغريب العُريان .. لابد أن تغضب ماترينا!

وعندما تذكر زوجته السليطة، انكمش في نفسه، وغمرته موجة من

الضيق والكآبة. ثم حانت منه لفتة إلى الغريب، وتذكّر نظرته الوادِعة وعيونه الصافية وهو يتطلع إليه عند جدار الكنيسة .. وسرت في قلبه نغمة هادِئة من الفرح والرضى.

-٣-

العاصِفة

أعدّت زوجة سيمون كلّ شيء منذ الصباح الباكِر .. قطعت الخشب، أحضرت الماء .. أطعمت الصِغار ثم أكلت هي طعامها وجلست واستسلمت للخواطِر .. متى أبدأ العجين؟ الآن .. أم غدًا؟ مازالت هناك قطعة لا بأس بها من الخبز .. لو تناول سيمون طعامه في المدينة، واقتصد في تناول العشاء .. فقد يكفينا الخبز يومًا آخر .. وأمسكت قطعة الخبز في يدِها، تزِنها مرة بعد أخرى .. لا داعي لعمل الخبز اليوم .. كلّ ما عندنا من دقيق لا يكفي سِوَى عجنة واحِدة فقط .. ويمكنّا أن نعيش على هذه الدّفعة حتّى يوم الجمعة ...!

وعند هذا وضعت ماترينا قطعة الخبز جانِبًا، وجلست إلى المائِدة تُصلِح وترقّع قميص زوجها .. لقد مضى لكي يشتري فروة جديدة لِمعطف الشتاء. ليتَ البائِع لا يغشُّه أو يخدعه ... زوجي طيِّب .. ساذِج جدًا، لا يغِش أحدًا ولكن أي طفل يستطيع أن يُغرِّر به .. ثمانية رُوبِلات معه، مبلغ كبير يكفيه لأن يشتري مِعطفًا جيدًا .. ليس من الجِلْد المدبوغ، بل مِعطفًا مُناسِبًا لهذا الشتاء الزمهرير .. لقد مضى الشتاء الماضي .. وعانينا منه الكثير .. ليس لنا ما نتدثّر به أو يُشعِرنا بالدِفء ... لم أستطِع أن أذهب إلى النهر أو إلى أي مكان آخر ..! كانت الضرورة تُحتِم على سيمون أن يخرج،

وكان لابد أن يلبِس كلّ ما نملُك، ولا يترك لي شيئًا .. إنه لم يخرُج اليوم مُبكِرًا، ولكن. على أي حال .. قد حان وقت عودته .. آه .. أخشى ما أخشاه أن ينتهِز الفرصة، ويُبدِّد المال على مُتعته ولذته!

وأفاقت ماترينا من خواطِرها عندما سمعت وقع أقدام عند مدخل الباب، ثم دخل شخصٍ ما. وأسرعت ماترينا تُثبِّت الإبرة في القميص، وهرولت إلى الباب حيث رأت رجُلين، كان سيمون أحدهُما، والثّاني رجُلاً عاري الرأس يلبِس في قدميهِ حِذاء من اللِباد.

وتحركت أنف ماترينا انقباضًا وامتدادًا حركات سريعة مُتلاحِقة، عندما اقتحمت أنفها رائِحة الخمر التي تفوح من فم زوجها .. إذًا .. فقد انغمس في الشَّراب .. ثم استرعى التفاها أنه لا يلبِس مِعطفه .. ولا يستُر جسده سِوَى سُترته .. ولا يحمِل في يديه اللِفافة التي تنتظِرها، وقد تسمرت قدماه على عتبةِ الباب، لا يُحرِك ساكِنًا، ولا ينطِق بكلمة .. تبدو عليه علامات الخجل ..

غلت في قلبها مراجِل الغضب، وزاد في ضيقها خيبة الأمل، وصاب رأسها الدوار .. هذا السكير .. بدّد المال على كُؤوس الخمر .. وانغمس في الشّراب مع أصدِقاء السوء .. صاحبه هذا منهم .. ويأتي إلى المترل؟!

وكظمت ماترينا غيظها، وهي تُفسِح الطريق للرجُلين، ثم تبعتهُما، ولم يغِب عن عينيها أنّ الغريب شاب حديث السِن، ناحِل الجسم .. إنه يلبِس مِعطف زوجها .. ولكنه لا يلبِس قميصًا تحت المِعطف .. ولا يضع قُبعة على رأسه .. وبعد أن دخلا، وتوسطا الحجرة، وقف الغريب بلا حِراك، لا يرفع بصره .. وفكرت ماترينا: إنه خائِف! .. رجُل شرير قاد سيمون إلى الشر!!

وعبست أسارير ماترينا، ووقفت إلى جوار الفرن ترقُبهُما .. ترى ماذا سيفعلان؟

خلع سيمون طاقيته، ثم جلس على المِقعد الخشبي المُستطيل، وكأنَّ كلّ شيء على ما يُرام. ثم رفع صوته قائِلاً:

- ماترينا .. تعالي هنا .. إذا كان العشاء جاهِزًا. فأعدِّي لنا المائِدة.

وغمغمت ماترينا ببضِع كلمات لم يسمعها أحد، ولكنها لم تُحرِك ساكِنًا، بل ظلّت واقِفة حيث كانت .. بجوار الفرن. أخذت تقلِب البصر في هذا الرجُل ثم ذاك، وأخيرًا هزت رأسها.

رأى سيمون أنَّ زوجته مُتبرِمة، ولكنه حاول أن يدع الأمور تُمر في سكون، فتظاهر بأنه لم يلحظ شيئًا، وأمسك بذِراع الغريب وهو يقول:

- اجلِس يا صديقي، ودعنا نأكل لُقمة ..

وجلس الغريب على المِقعد الخشبي إلى جوارِه، وعاد سيمون ليقول لزوجته:

- ألم تطبُخي لنا شيئًا من الطعام؟

وضاق صدر ماترينا، و لم تستطِع أن تكتِم ثورةِ غضبها فصاحت:

- طَبَخْت .. ولكن ليس من أجلك .. حضرِتك انغمست في خمرك حتّى غِبت عن الوعي ... يا رجُل، أما تخجل من نفسك؟ تذهب لتشتري مِعطفًا .. فتعود بلا شيء أكثر من سُترِتك ... ولكن لا .. لقد أحضرت معك مُتشرِدًا من أصدقاء السوء .. ليس عندي عشاء للسّكِّيرين من أمثالك.

- كفاكِ .. يا ماترينا .. اضبُطي لسانِك ولا تُطلقيه هكذا بلا حدود .. لماذا تتسرعين في حُكمِك .. كان الأجدر بكِ أن تسألي أي نوع من الرِجال ....

– لابد لك أولاً أن تُخبرني كيف تصرفت في المال؟

وتحسّس سيمون جيب سُترته، ثم أخرج الورقة المالية، وبَسَطْها أمام عينيها وهو يقول:

– ها هي النقود .. أمَّا تريڤونوف فلم يدفع، ولكنه وعد أن يُسدِّد ما عليه قريبًا.

وانتفخت أوداج ماترينا غضبًا، وهي ترى أنه لم يشترِ فِراء الغنم .. ولم يكتفِ بهذا، بل أعطى مِعطفه الوحيد لهذا المُتشرِد ولم يقِف عند هذا الحد، بل أتى به إلى المترِل. ومدت يدها واختطفت الورقة المالية من على المائِدة، ودسّتها في صدرها حتّى تكون في مأمن من العبث، وعادت تقول:

– ليس عندي عشاء لك .. أو لأي سِكّير في هذا العالم!

– وماذا بعد؟ .. ماترينا. امسكي لسانِك قليلاً، واسمعي ما أقول ...

– وهل أسمع الحِكمة من سِكّير مخبول؟! لقد كنت على حق حين كنت أرفُض الزواج منك .. أيها السِّكّير .. حتّى الكِتّان الذي وهبتني أُمي إياه، قد بدّدته باسرافِك في الشّراب .. ولّما ذهبت لتشتري لنا مِعطفًا يقينا برد الشتاء، ضيّعت أيضًا المال في خمرك ومُسكرك.

حاول سيمون أن يتكلم، وأن يُبرِّر نفسه إذ لم يُنفِق سِوَى عشرين كوبكا فقط ... حاول أن يروي لها قصة لقائِهِ مع هذا الغريب ...ولكن ماترينا لم تدع له أيّة فرصة للكلام. كلّما نطق عبارة وجيزة، كانت تقذِف سيلاً جارِفًا من قوارِص الكلام، وحِمَمًا من الغضب، وأخذت تُعِيد وتُكرِّر على مسامعه جميع الأحداث التي جرت في غُضُون السنوات العشر السابِقة، وتكيل له اللوم وتصُب عليه جام نقمتها. تكلمت ماترينا وأسهبت

في الكلام والتقريع، ثم اندفعت نحوه وأمسكت بكُم سُترته وهي تصيح:

– أعطني سُترتي .. إنها السُّترة الوحيدة التي ألبسها .. من أجل الضرورة وحدها أعطيتك إيّاها لكي تلبسها .. الحمد لله أنكَ لم تبِعها أو تُعطها لواحِد من رِفاقك من أجل خمرك ومُتعتِك .. اخلعها حالاً، واترُكها هنا .. أيها الكلب الأجرب .. واذهب .. اذهب إلى الشيطان.

وشَرَع سيمون – في صمت – يخلع السُّترة. فَقَلَبْ أحد أكمامها ظهرًا لبطن. وجذبت ماترينا السُّترة من يده قبل أن يخلعها تمامًا، فتفتقت خياطتها .. وبعد أن اختطفتها منه، ألقتها فوق رأسها ويمَّمت وجهها صوب الباب. وقد بيّتت نيتها على الخروج ومُغادرة البيت إلى غير رجعة .. كان الغضب قد بلغ غايته ومُنتهاه ...

ولكنها وقفت عند الباب .. كان التردُّد واضحًا على مُحياها .. لقد استبد بها الفُضُول، وشعرت برغبة جارِفة أن تعرِف أمر هذا الرجل الغريب وكنهه قبل أن تُفارِق البيت.

- ٤ -

السِّر؟!

توقفت ماترينا هنيهة، ثم عادت تقول، وقد خفّت حِدتها لو كان هذا رجُلاً صالِحًا، لِمَا كان هكذا عارِيًا .. لا يستُر جسده حتّى قميص! لو كان الأمر مقبولاً .. لقُلت لي المُصادفة التي ساقت كلٍّ منكما إلى الآخر.

وأسرع سيمون ينتهِز الفرصة للكلام، هذا بالضبط ما كنت أُحاوِل أن أحكيه لكِ منذ دخلنا ... المهم ... عندما وصلت إلى الكنيسة في طريق عودتي، رأيتهُ جالِسًا .. عارِيًا .. وقد تجمدت أطرافه! ليس هذا هو الجو الذي يجلِس فيه الإنسان عارِيًا! لقد أرسلني الله إلى هذا المِسكين .. ولولا ذلك لكان هالِكًا لا محالة .. ماذا كان يجِب عليَّ أن أفعل؟ وماذا عساه يحدُث له إذا تركتهُ؟ .. لهذا أخذتهُ، وكسوته، وأتيت به إلى هنا .. لا تغضبي، يا ماترينا .. الغضب خطية .. وفي هذه الحال .. تذكّري أنه لابد لنا أن نموت يومًا ما ..

وتأهبت ماترينا لجولة جديدة من السخط والغضب .. إلاَّ أنَّ التفاته حانت منها نحو الغريب .. فأخلدت إلى الصمت ... كان جالِسًا على طرف المِقعد بلا حِراك، وقد شَبَك يديهِ على رُكبتيهِ، وانعقد حاجِباه في ألم ومرارة، وساد الصمت فترة من الزمن حتّى قَطَعهُ سيمون قائِلاً: ماترينا .. ألا تُحبِّين الله؟

وأصغت ماترينا إلى هذه الكلِمات، وكأنها لا تفهم، ثبّتت عينيها على الغريب، ولأوّل مرّة، أحسّت قلبها يخفق بالعطف والإشفاق .. ودون أن تُجيب بكلمة عادت من عند الباب، ومضت إلى الفرن، وأعدّت لهما طعام العشاء، وصبّت شيئًا من شراب الكيفاس في فنجان وضعته على المائِدة، وأخرجت آخر قطعة من الخُبز، ووضعت إلى جوارِها السِكّين والملاعِق.

- تفضلوا .. كُلوا .. إذا شِئتم.

وجذب سيمون الغريب إلى المائِدة، وهو يحثه بقوله: خذ مكانك يا عزيزي.

وقَطَع الخُبز، وأخذ يطبقه بين أصابعِه ثم يغمِسه في الحساء. وبدأ الرّجُلان يتناولان طعامهُما .. بينما جلست ماترينا عند ركن المائِدة. وقد استندت بمرفقها عليها، وأسندت ذقنها على يدِها .. وعادت تنظُر إلى الغريب، وقد غمرها شُعور بالأسى والإشفاق. وحنّت أحشاؤها إليه .. وفجأة، انفرجت أسارير وجهه، ورفع بصره نحو ماترينا، ثم تألقت على شفتيهِ ابتسامة.

وانتهيا من طعام العشاء، ورفعت المرأة الأوعية من على المائِدة، ولكنها عادت لِتُشبِع فضُولها عن الغريب.

- مِنْ أي بلد أنتَ؟

- لستُ من هذه البلد.

- ولكن كيف اتفق لك أن تكون في هذا الطريق؟

- بالتحديد .. بالضبط .. لا أستطيع أن أشرح ذلك.

- هل سلبك أحد شيئًا مِمّا لك؟

- لا .. لقد عاقبني الله.

- وهل كنت ترقُد هناك عاريًا؟

- نعم .. عارِيًا .. وقد جَمَدَت من البرد أطرافي. رآني سيمون وأشفق عليَّ. خلع رِداءهُ وغطّاني .. ثم أتى بي إلى هنا .. وهنا صنعتِ أنتِ معي رحمة .. قدّمتِ لي طعامًا لكي آكُل، وشرابًا لأروي ظمأي .. الرب يُكافِئكُم عني، ولا ينسى تعب محبتكم ..

ونهضت ماترينا، وسحبت من النافِذة قميص سيمون القديم، الذي كانت ترقعه، ثم أعطته للغريب ... وبعد قليل من التنقيب أحضرت سروالاً، ثم أعطته إيّاه، وهي تحثه على القبول. أرى أنكَ لا تستُر جسدك بشيء .. خُذ والبِس .. ثم اختر لنفسك المكان الذي يروق لك لكي تنام ... كما تشاء .. في المخزن .. أو على الفرن.

خلع الغريب مِعطفه، ولَبَسْ القميص والسروال، ثم رقد في المخزن.

وأطفأت ماترينا القنديل، وأخذت المِعطف وارتقت سطح الفرن حيث كان زوجها راقِدًا. وجمعت أطراف المِعطف حول جسدها ورقدت .. ولكنها لم تستطِع أن تنام، لم يغمض لها جفن، وصورة الغريب لا تبرح مخيلتها .. وتذكرت أنه أكل آخر ما تبقّى عندها من خُبز، وأنه لن يكون عندها في الغد أي لُقمة يتبلغون بها ... ثم تذكرت القميص والسروال ... وأحست بالقلق والخوف يعتصِران قلبها. ولكنها تذكرت أيضًا كيف أشرقت الابتسامة على وجهه .. وعاد إلى قلبها الاحساس بالغِبطة والرضى .. وظلّت ماترينا راقِدة، وعيناها مفتوحتان .. ولاحظت أنّ سيمون أيضًا لم يُراوِده النوم حتّى ذلك الحين، ثم جذب المِعطف إليه.

- سيمون.

- نعم.
- لقد أكلنا آخر الخُبز، ولم أحتفِظ بشيء منهُ للغد .. لا أعلم ماذا نفعل إذا أصبح الصباح .. سأُحاوِل أن أطلب شيئًا من مارتا جارتنا.
- إذا عِشنا .. سنجِد ما نأكله.

ولم تطُل فترة الصمت، إذ عادت تقول:

- يبدو أنه رجُل طيِّب .. ولكنه لا يريد أن يفضي بشيء عن نفسه .. لماذا؟
- أعتقِد أنَّ له أسبابه الخاصة.
- سيمون.
- حسنًا؟
- أننا نُعطي ... ولكن لماذا لا يُعطينا الناس .. أي شيء؟

ولم يعلم سيمون بماذا يُجيب، فأجابها: دعينا من هذا الكلام. ثم أدار ظهره إليها، واستسلم لنوم عميق.

- ٥ -

الدرس الأوّل

استيقظ سيمون في الصباح، بينما أطفاله كانوا مازالوا يغطّون في نومِهم العميق. أمَّا زوجته فكانت قد دلفت في هدوء إلى جارتها مارتا لتقترِض منها بعض الخُبز. وهناك على المِقعد، كان الغريب يجلِس وحيدًا، وقد ارتدى القميص القديم والسروال .. ورفع عينيهِ إلى أعلى، ووجهه يلمع وبدا أكثر جمالاً مِمّا كان في اليوم السابِق.

وابتدرهُ سيمون قائِلاً: حسنًا يا صاحبي .. الأمعاء تحتاج إلى الخُبز، والجسد العاري يحتاج إلى الكساء. ولابد للمرء أن يعمل من أجل الخُبز والكساء ... ما هو العمل الذي تعرِفه، أو الحِرفة التي يمكنك أن تُمارِسها؟

– لا أعرِف شيئًا على الاطلاق ..

وقابل سيمون هذه الإجابة بالدهشة، ولكنه أُمسِكَ عن الإفصاح عنها وأجاب: إذا توفرت الرغبة في التعلُّم، ففي مقدور الإنسان أن يتعلّم أي شيء.

– كما يفعل سائِر البشر، لابد لي أنا أيضًا أن أعمل.

– ما اسمك؟

– ميخائيل.

حسنًا يا ميخائيل .. إذا كنت لا تريد أن تتحدّث عن نفسك، فلكَ ما

تُريد .. أنتَ وشأنك .. ولكن عليك أن تكسب قُوتك من أجل نفسك. وإذا قَبِلت العمل معي .. فسوف أُقدِّم لك الطعام والمأوى ..

- فليُكافِئك الله! إني مُستعد أن أتعلّم، ارشدني إلى ما يجب أن أفعله.

وأخذ سيمون قبضة من غزل القطن، ووضعها حول إبهامه وبدأ يفتِل:

- إنها من السهولة بمكان .. ألا ترى ذلك؟

وكان ميخائيل يرقُبه بعِناية، فأخذ بعض الغزل، ولفه حول إبهامه، بنفس الطريقة، وفَتَل الغزل في حِذق ومهارة، ثم شرح له سيمون كيف يُغطي الخيط بالشمع، واستطاع ميخائيل أن يُؤدي هذا أيضًا بنجاح. وأخذ سيمون يرقُب ميخائيل، ولا يُخفي عجبه إزاء هذا التقدُّم السريع. أخذ يُدرِبه على الخياطة حتّى أتقنها بسرعة مُذهِلة .. كلّ ما كان سيمون يُعلِّمه إيّاه، كان ميخائيل يستوعِبه في الحال. ولم تكد تمضي أيام ثلاثة على هذا حتّى كان ميخائيل يشترِك مع سيمون في صناعةِ الأحذية بيد مُدربة ماهِرة كما لو كانت هذه الصناعة هي حِرفته طول حياته. كان يعمل في صبر بلا انقطاع، ولكنه كان يأكل النذر اليسير.

وعندما كان ينتهي من عمله، كان يجلس في صمت وعيناه تنظُران إلى السماء. لم يُفارِق البيت أو يخرج إلى الطريق في يوم من الأيام. لم يفتح شفتيهِ بالكلام إلاَّ إذا دعته الضرورة إلى ذلك. لم يرهُ أحد مازِحًا أو ضاحِكًا ... حتّى الإبتسامة لم يرها أحد على شفتيهِ منذ تلك الليلة الأولى التي دخل فيها إلى بيت سيمون، عندما قدّمت ماترينا إليه طعام العشاء.

-٦-

صفقة طيبة

أخذت الأيام تمضي سراعًا، وتتعاقب الأسابيع والأشهر حتّى انصرم عام كامِل، وميخائيل مُقيم مع سيمون، يعمل معه في صبر واجتهاد، حتّى ذاعت شُهرته بين الناس، واعترف له الجميع أهم لم يروا أمهر من ميخائيل في خياطِة الأحذية بأمانة ومتانة وأناقة. وأقبل الناس من جميع الأقاليم المُجاوِرة، يطلبون صُنع أحذيتهم عند سيمون ... وهذا بدوره بدأت تظهر عليه علامات الثراء.

وفي أحد أيام الشتاء، بينما كان سيمون وميخائيل مُنهمكين في العمل، وقفت عند باب الكوخ عربة فاخِرة، تجُرها ثلاثة من الخيول المُطهمة، ورنين أجراسها يُطنطِن في الطريق، فنظر الرجُلان من النافذة، وإذا بالعربة عند باهما. وقفز من العربة خادِم أنيق جرى نحو باب العربة، وفَتَحه وهو ينحني باحترام عميق. ونزل بتؤدّة رجُل تبدو عليه دلائِل الجاه والثراء، على منكبيهِ مِعطف فاخِر من الفراء، وأخذ يمشي الهوينا نحو الكوخ. هرولت ماترينا إلى الباب تفتحه على مصراعيهِ. واضطر الثري أن يحني رأسه وهو يدخل الكوخ، وعندما انتصبت قامته ثانية كادت رأسه تنطح السقف. وجسمه الضخم يملأ فراغ الحجرة.

وهض سيمون من مكانه، ووقف أمام الثري، وانحنى باحترام. ولمّا لم

يكن له عهد بمثل هذا الرجُل، فقد نظر إليه مأخوذًا .. سيمون كان نحيفًا، وميخائيل كان نحيلاً، وماترينا كانت جافّة العود كأنها مجرد عِظام، ولكن هذا الرجل كان يبدو وكأنه أتى من عالم آخر، مُتورِد الوجه، مُكتنِز البطن، له رقبة تكاد تقطع بأنها رقبة ثور سمين، ويبدو في جُملتِهِ كأنه قد صُبّ من حديد.

وندت عن صدره زفرة عميقة، وهو يُلقي المِعطف عن كاهِله، ثم جلس على المِقعد الخشبي، وهو يقول: أيّكُما هو صاحِب المحِل؟

فتقدم سيمون خطوات قليلة وهو يُجيب: أنا هو .. يا صاحِب السعادة.

وعندئذٍ وجّه الثري حديثه إلى خادِمه صائِحًا: فودكا .. اسمع، هات الجِلْد. وجرى الخادِم إلى العربة، ثم أحضر لِفافة ناولها للثري، الذي أخذها ووضعها على المنضدة وهو يُتابِع حديثه للخادِم: حِلْ هذه اللفافة ..

وبعد أن نفّذ الصبي أمر سيِّده، أشار الثري إلى الجِلْد، وهو يُوجه الحديث إلى سيمون: انظر هنا .. أيها الإسكافي، هل ترى هذا الجِلْد؟

- نعم .. يا صاحِب السعادة.

- ولكن .. هل تعلم نوع هذا الجِلْد؟

- نوع جيد وثمين ..

قالها سيمون وهو يتحسّس لِفافة الجِلْد.

- طبعًا جيد وثمين .. لماذا؟ لعلك لم ترَ مثل هذا الصنف من قبل .. طول حياتك .. أيها الغبي .. إنه جِلْد ألماني وقد كلّفني عشرين روبِلاً.

واضطرب سيمون عند سماع هذا الرقم وقال: ومِنْ أين لي يا سيِّدي أن أرى مثل هذا الجِلْد؟

- هذا صحيح .. المهم .. هل يمكنك أن تصنع لي حذاء من هذا الجِلْد؟

- إن شاء الله يا صاحِب السعادة.

ولكن الثري أخذ يُردِّد بصوت مُرتفِع، لا يخلو من لهجة التهديد والوعيد.

- تستطيع .. هل تستطيع؟ حسنًا! يجب أن تتذكر وأن تعرِف تمامًا الشخص الذي ستصنع له الحذاء .. وأي جِلْد هذا؟ المطلوب أن تصنع لي حذاء أنيقًا متينًا أستطيع أن ألبِسه عامًا كامِلاً دون أن يفقِد شكله أو أناقته أو ينفتِق .. إذا كان هذا في مقدورك حقًا، خُذ الجِلْد وابدأ عملك. ولكن إذا كان هذا صعب المنال، فقُل هذا بصراحة الآن. إني أُنذِرك وأُحذِرك .. إذا تفتّق الحذاء، أو فَقَدْ رونقه خلال العام، فلابد أن أضعك في السجن. أمَّا إذا لم يتفتق واحتفظ برونقه فسأُعطيك عشرة روبلات أجرًا لك ..

وأحس سيمون بالخوف والقلق، ولم يدرِ بماذا يُجيب، فنظر إلى ميخائيل ولكزه بمرفقه وهو يهمِس في أُذنه: هل أقبل الصفقة؟

وأومأ ميخائيل برأسه موافقًا، فوافق سيمون على الفور. وأخذ على عاتقه أن يصنع للثري حذاء لا يتفتق ولا يفقِد بهاءهُ سنة كامِلة. ونادى الثري خادِمه وأمره أن يخلع فردِه الحذاء اليُسرى، وقال لسيمون: خُذ مقاسي.

وأخذ سيمون ورقة قياس، طولها سبع عشرة بوصة ثم سوّاها. وجَثَمْ على رُكبتيهِ، ومسح يديهِ جيدًا في مئزرته حتّى لا يُلوِث جُورب الثري. ثم بدأ أخذ المقاس .. أولاً طول بطن القدم، ثم مُحيط أعلى القدم، ثم شَرَع يقيس بطن أو سِمانِة القدم .. ولكن الورقة كانت أقصر من أن تفي بهذا القياس

لأنَّ بطن القدم كانت سميكة كلوح من الخشب.

وصاح الثري: إيّاك أن تجعلها ضيقة.

فألصق سيمون قطعة أخرى من الورق .. وعاد يقيس بطن القدم، فاختلجت أصابعِ القدم داخِل الجورب. وجَالَ الثري بعينيهِ في أنحاء الكوخ فوقع بصره على ميخائيل، فصاح في سيمون:

– مَنْ هذا؟

– إنه العامِل الذي سيقوم بتفصيل الحذاء.

فحدّد الثري بصره، وهو يُصوبه إلى ميخائيل، خُذ بالك جيدًا .. وتذكّر أنَّ هذا الحذاء يجب أن يتحملني سنة كامِلة ..

ونظر سيمون أيضًا إلى ميخائيل، وكأنه يريد أن يلفِت نظره إلى جسامةِ المسئولية التي تنتظره، ولكنه لاحظ أنَّ ميخائيل لا يتجه بصره إلى الثري، بل كان مشغولاً بالنظر مُحملِقًا في رُكن الكوخ خلف الثري، كما لو كان ينظر إلى شخص هناك .. وظلّ ميخائيل ينظر ويُطيل النظر .. وعلى حين غُرّة، تراقصت على شفتيهِ ابتسامة، انتشرت بالبِشر على مُحياه الجميل.

وصاح الثري بصوت كقصف الرعد. عَلاَمَ تبتسِم أيها الغبي؟ .. كان الأجدر بك أن تُفكِر أنَّ هذا الحذاء يجب أن يكون جاهِزًا في الموعِد المطلوب.

وأجاب ميخائيل في هدوئهُ المألوف: سيكون مُعدًا قبل الموعِد المطلوب.

وعاد الثري يقول في لهجة المُتوعِد: تذكّر هذا جيدًا.

ثم لبس حذاءهُ، وارتدى مِعطفه، ولفّهُ جيدًا حول جسمه الضخم واتجه صوب الباب. ولكنه – في تسرُّعهِ – نسى أنَّ الباب مُنخفِض فارتطمت

رأسه بالعتبة العُليا .. وأخذ يُرغي ويُزبد، ويسِب ويلعن وهو يمسح رأسه بيده ... ثم احتل مِقعده في العربة التي انطلقت بعيدًا عن الكوخ.

وعندما توارى عن الأنظار، اتجه سيمون إلى صاحبه قائِلاً: هل رأيت شكل الرجُل؟ ولا المطرقة تستطيع أن تناله بأذى .. لقد كادَ يخلع عتبةِ الباب .. كانت إصابته هو طفيفة.

وتدخلت ماترينا في النِقاش: بالطريقة التي يعيش بها لابد أن ينمو قويًا، وأن يزداد صحة وقُوة .. إنَّ الموت نفسه لا يستطيع أن يدنو من مثل هذا الرجُل .. إنه كالصخرة العاتية.

-٧-

المُفاجأة

ونظر سيمون وأطال النظر إلى ميخائيل مُحذِرًا، وهو يقول:

– حسنًا .. ها نحن قد أخذنا الصفقة، ولكن لابد أن نحرِص كل الحرص حتّى نتجنب المتاعِب بسببها .. الجِلْد غالي وثمين .. وصاحبه رجُل صعب المراس حاد المزاج. يجب ألاّ نرتكِب غلطةٍ ما، أيًّا كانت .. قُم أنت بهذا بهذا العمل، فقد صارت عينك أكثر دقة، ويدك أكثر مهارة مني .. خُذ أنت هذا المقاس، وعليك بتفصيل الجِلْد .. أمَّا أنا فسأقوم باتمام خياطِة وجه الحذاء.

وأطاع ميخائيل أمر سيمون. أخذ الجِلْد، وبَسَطُه على المنضدة ثم طبّقه وأخذ السِّكِّين وبدأ يقطعه. وأقبلت ماترينا وأخذت ترقُبه وهو يقطع الجِلْد .. كانت تتعجب وهي تُشاهده أثناء أداء عمله .. تعودت ماترينا مُشاهدة هذه الصنعة، ولكنها الآن – وهي تُراقِب ميخائيل – لاحظت أنه لم يقطع بحيث يصلُح لعمل حذاء، بل كان يقطعه بشكل دائري .. أرادت أن تقول شيئًا، ولكنها أُمسِكت عن الكلام، وهي تُفكِر في نفسها: لعلي لا أعرِف كيف تُصنع أحذية هؤلاء الأعيان. ولا شك أنَّ ميخائيل يُدرِك في هذا الشأن أكثر مِمّا أعرِف .. يحسُن بي ألاّ أتدخل في عمله ..

وعندما انتهى ميخائيل من تفصيل الجِلْد، أخذ خيطًا بدأ يحيك به الجِلْد.

ولكنه لم يبدأ الحياكة من الطرفين كما يجب أن تُخاط الأحذية، بل من طرف واحِد كأنه يخيط بابوجا (شبشب) رقيقًا. وتعجبت ماترينا مرة أخرى، ولكنها لم تشأ أن تتدخل أيضًا، وواصل ميخائيل عمله حتّى وقت الظهيرة.

ونهض سيمون استعدادًا لتناوُل طعام الغذاء، وتلفّت حواليه، واسترعى انتباهه أنّ ميخائيل قد صنع خُفًا من الجِلْد الذي أحضرهُ الثري. وانطلق من شفتيهِ أنين طويل، يحمِل ما يكنه قلبه من اليأس والهلع: آه ... ما هذا يا ميخائيل؟ لقد عِشت معي عامًا كامِلاً دون أن ترتكِب غلطة واحدة. كيف ارتكبت هذا الخطأ الشنيع .. ألم يطلُب الرجُل حذاء طويلاً، له لِسان طويل، ووجه كامِل يكسو القدم؟! ما هذا خُف ناعِم له كعب مفرد ... وضاع الجِلْد عبثًا ... ماذا عساي أقول للرجُل؟ ولا أستطيع أن أُحضِر بديلاً لهذا الجِلْد، أو حتّى ما يُساويه في القيمة أو الجودة ..

ولّما لم يجِب ميخائيل بكلمة، صاح سيمون صارِخًا: ما هذا الذي صنعت؟ ألا تعلم أنكَ خربت بيتي؟! أما تعلم طلب الثري .. وما فعلت؟!..

ولم يستطِع سيمون أن يسترسِل في انتهار ميخائيل وتوبيخه، لأنه سمع طرقًا عنيفًا على الباب. وعندما نظر الجميع من النافِذة، رأوا رجُلاً يترجّل عن ظهر حُصانه، ويقترِب إلى الباب، وفتحوا له. وإذا بهذا الرجُل هو خادِم الثري، يدخل مُهرولاً وهو يقول:

- طاب يومكم.

وأجاب سيمون بصوت مُغتصِب خافِت: يوم سعيد، ماذا يمكنّا أن نصنع من أجلك؟

- لقد أرسلتني سيِّدتي بشأن الحذاء ..
- ... ماذا عن الحذاء؟
- لم يعُد سيِّدي في حاجة إليه ... لقد مات.
- هل هذا ممكن؟
- بعد أن ترك المحل، وافاه الأجل في الطريق وهو في العربة قبل أن يصِل قصره. وعندما وصل أقبل الخدم حتّى يُعاوِنوه على النزول من العربة كالمُعتاد، وإذا به يتدحرج كالكيس الثقيل. كان قد مات بالفِعل .. بل وتصلّب جسده إلى درجة صَعَبْ عليهم فيها أن ينقِلوه من العربة .. فأرسلتني سيِّدتي إلى هنا على عَجَلْ حتّى أُخبِركم بهذا، وأنه لم تعُد هناك حاجة إلى الحذاء، بل المطلوب عمل خُف رقيق ليوضع في قدمي الميت وأوصتني سيِّدتي أن أنتظر هنا حتّى يتم صُنعه وأعود به إليها .. هذا هو سبب حضوري ...

وفي هدوء، جمع ميخائيل بقايا الجِلْد، وكوّره في لِفافة مقبولة. ثم أخذ الخُف الذي صنعهُ، وقَرَع فردتيهِ ببعضِهِما، ومسحهُما في مئزرته. وسلّمه مع لِفافة الجِلْد إلى الخادِم. وهذا – بدوره ودون أن يُفكِر في الأمر – تناول هذه الأشياء، وبعد أن ودّعهم مضى إلى حال سبيله ..

-٨-

التوأمان

ومضى العام تلو الآخر، حتّى جاء العام السادِس منذ أن التحق ميخائيل بخدمةِ سيمون. كان كعادتِهِ لا يُغادِر مكانه، ولا يتحدّث إلاّ إذا دعت الضرورة إلى ذلك. وطُوال هذه الفترة الطويلة لم يبتسِم سوى مرتين، الأولى حين قدّمت إليه ماترينا طعام العشاء، والثانية حين كان الثري جالِسًا في الكوخ .. أمَّا سيمون فقد كان راضيًا عن هذا العامِل، مُغتبِطًا بعمله معه أيّمَ اغتباط .. ولم يعُد يُفكِر في تلك الأسئلة القديمة التي ألحت عليه حين تقابل معه لأول مرة .. بل كان يخشى أن يسأله عن البلد التي أتى منه، لئلاّ يُحرِّك مثل هذا السؤال كوامِن العواصِف عند ميخائيل .. ومن يدري فقد يُفكِر في العودة إلى حيث كان ..

وفي أحد الأيام، كانت الأسرة كلها مُجتمِعة، بما فيها ميخائيل .. فقد صار بالفِعْل واحدًا منها .. كانت ماترينا تضع الأواني الحديدية في الفرن، والأطفال يلهون ويجرون بين المقاعِد، ويتطلعون من النافِذة أحيانًا. سيمون كان مُنكبًا على عمله بجوار النافِذة، بينما انهمك ميخائيل في تركيب كعب لأحد الأحذية بجوار النافِذة الأخرى. وجرى أحد الأولاد فوق المِقعد الخشبي المُستطيل، حتّى وصل إلى ميخائيل. ثم انحنى فوق كِتفه، وهو يُشير نحو النافِذة قائِلاً:

- انظُر يا عمي ميخائيل! .. هناك سيِّدة معها طِفلتان صغيرتان .. يبدو أنهم في الطريق إلينا .. إحدى الفتاتين تعرُج في مشيتها.

وعندما قال الصبي هذا، سقط الحذاء من يد ميخائيل، وهَبْ واقِفًا ينظُر من النافِذة إلى الطريق حيث أشار الصبي. واندهش سيمون جدًا لأنه لم يألف هذا السلُوك من ميخائيل .. لم يحدُث إطلاقًا أن نظر من النافِذة إلى الطريق .. ولكنه الآن يلصِق جبهته بزجاج النافِذة، يتطلع ويُحملِق في شيءٍ ما. ولم يجد سيمون بدا من النظر، ورأى سيِّدة حسنة الهندام في طريقها فعلاً إلى الكوخ، تقود بيديها فتاتين صغيرتين يرتديان مِعطفين من الفراء، وغطاءين من الصوف .. كان من الصعب أن يُفرِّق الناظِر بينهما، إلاّ أنَّ إحداهُما كانت تعرُج في مشيتها لأنَّ قدمها اليُسرى كانت عاجِزة.

وعبرت السيِّدة مدخل الكوخ، ودخلت في الممر وأخذت تتحسّس طريقها في الممر المُظلِم، حتّى وجدت المزلاج الذي رفعته فانفتح الباب، وأدخلت الصغيرتين أولاً، ثم تبعتهُما إلى الداخل.

- يوم سعيد، أيها الرجال الطيِّبون.

وأجابها سيمون: تفضلي يا سيِّدتي .. أي خدمة؟

واستقرت المرأة إلى جوار المنضدة، والتصقت الصغيرتان بركبتيها كأنهما في خوف من سُكان الكوخ.

- أُريد أن أصنع زوجين من الأحذية الجِلْد للصغيرتين، بمناسبة الربيع.

- تحت أمرِك .. أمر ميسور .. صحيح أننا لم نصنع حتّى الآن مثل هذه الأحذية الصغيرة .. ولكن لا شك أننا نستطيع أن نصنعها .. من ذوات الوجه الكامِل؟ .. أم تُقلب بسهولة؟ .. مخططة بالكِتّان؟!

عندي عامِل مُمتاز .. ميخائيل هذا لا يُشق له غبار في هذه الصناعة.

والتفت سيمون نحو ميخائيل، ولاحظ أنه ترك العمل الذي كان في يده، وثبّت نظره في الفتاتين الصغيرتين .. واستبد العجب بسيمون ماذا دهى ميخائيل؟ حقيقةً أنَّ الفتاتين كانتا من آيات الحُسن والجمال، لهما عيون سُود، وأجساد غضّة رقيقة، ووجنات مُتورِدة، وقد ارتدت كلٍّ منهما منديلاً (إيشارب) جميلاً على رأسها، ومِعطف من الفرو الثمين .. ولكن هذا كله لا يمكن أن يكون الدافِع الذي يجعل ميخائيل ينشغِل بالنظر إليهِما على هذه الصورة، كأنه يعرفهُما من قبل .. ورغم حيرته، واصل سيمون حديثه مع السيِّدة يُساوِم ويُناقِش حول الثمن. وبعد أن اتفقا على ذلك، بدأ يأخذ المقاس، فرفعت السيِّدة ابنتها العرجاء ووضعتها على حِجرها وهي تقول:

– خُذ مقاس القدمين لهذه الفتاة، للقدم المُصابة وللقدم السليمة .. من المقاس الثاني يُمكنك أن تصنع ثلاثة فِرَد، لأنَّ الفتاتين تلبِسان حجمًا مُتساوِيًا .. إنهُما توأمتان ..

وبينما كان سيمون يأخذ مقاييس قدمي الصغيرة، سأل السيِّدة:

– وكيف حدث لها ذلك؟ إنها فتاة جميلة حقًا .. هل وُلِدَت على هذه الصورة؟

– لا ... إنَّ أُمّها هي التي سحقت قدمها.

وعندئذٍ تدخلت ماترينا في الحديث، وقد تعجبت من أمر هذه المرأة. مَنْ تكون؟ والطفلتان .. بِنتَا مَنْ؟

- ألستِ أنتِ أُم الطفلتين إذاً؟
- لا يا سيِّدتي ... لستُ أُمًا لهُما .. بل ولا أمُت إليهِما بصلة القُربى! لقد كانا – في البداية – غُرباء عني تمامًا، ولكني أخذهُما في كَنَفِي واحتضنتهُما ابنتين لي.
- ومع أنهُما ليستا بنتيكِ، فيبدو أنكِ شغوفة بهما جدًا.
- لا يسعني إلاّ أن أحبهُما من كل قلبي .. لقد أرضعتهُما من ثديّ .. كان لي طفل – ولكن الله أخذه – ... تصوري أني أُحِب هاتين الفتاتين أكثر مِمّا كنت أُحِب طفلي!
- إذًا .. لمن هاتين الفتاتين؟

-٩٠-

قصة!

وأخذت السيِّدة تروي لهم قصة الصغيرتين كامِلةً ..

كان ذلك منذ سِت سنوات، عندما مات والداهِما في أسبوع واحِد. مات الأب يوم الثلاثاء، وأعقبته زوجته يوم الجمعة. وُلِدت الطفلتان في اليوم الثالِث من وفاة الأب، ولم يتمهل الأجل على الأُم حتّى ترى شمس اليوم التالي. أمّا أنا فكنت أعيش مع زوجي الفلاّح في نفس القرية. كنّا جيرانًا، وأكواخنا مُتلاصِقة .. كان أبوهما وحيدًا يعمل في قطع الأخشاب من الغابة. وبينما كان يقطع إحدى الأشجار، إذا بها تسقُط عليه وتسحق عِظامه، فحملهُ رِفاقه إلى البيت. ولكن فاضت روحه قبل أن يصِل هناك .. وفي هذا الأسبوع ولدت زوجته التوأمتين .. كانت فقيرة وحيدة، ولم تجد بجانبها أحدًا صغيرًا كان أو كبيرًا. وفي هذه الوحدة القاسية، أنجبت الصغيرتين ثم قضت نحبها!.

وفي صباح اليوم التالي، ذهبت إليها لكي أراها، وأُقدِّم ما أستطيع أن أُقدِّمه لها من معونة .. ولكني حين دخلت الكوخ كانت رائحة الجُثّة قد بدأت تفوح .. جسمها بارد كالثلج .. ويبدو أنها حين ماتت، تدحرجت على جنبها فسحقت قدم الطفلة الصغيرة .. وأقبل سُكان القرية إلى الكوخ .. غسّلوا الجُثّة وكفّنوها ثم دفنوها. كانوا جماعة من الناس الطّيبين. ولكن

الطفلتين كانتا وحيدتين .. وماذا كان يمكن عمله من أجلهما؟! كنت أنا المرأة الوحيدة التي تُرضِع طفلاً .. طفلي البِكر وكان يبلُغ من العُمر ثمانية أسابيع. ولهذا أخذهُما فترة من الزمن، حتّى يستقر الفلاّحون على رأي، واجتمعوا فعلاً وتشاوروا، وفكّروا فيما يمكن أن يفعلوه من أجل الصغيرتين، وأخيرًا قالوا لي: ماري .. يحسُن بكِ في الوقت الحالي أن تتولي رعايةِ الفتاتين، حتّى نُرتِب أمورهما فيما بعد. وهكذا بدأت أُرضِع الفتاة السليمة من ثديي .. وأهملت الأخرى في البداية ظنًا مني أنها لن تعيش طويلاً، ولكني فكرت في نفسي: وأي ذنب جَنَتْ هذه المسكينة البريئة، حتّى تُقاسي هذا الحرمان؟ وأخذتني الشفقة بها وأرضعتها .. وكنت أُرضِع ولدي معهما .. كنت – إذ ذاك. مازلت في شبابي .. صغيرة وقوية، وخير الله كان كثيرًا ووفيرًا ووهبني الله صحة جيدة، كما أغدق عليَّ اللبن الكثير حتّى كان يفيض في بعض الأحيان .. ولم يكن من الغريب في ذلك الوقت أن أُرضِع اثنين في المرّة الواحدة، بينما الثّالِث ينتظر دوره .. وعندما أُدرِك أنَّ أحد الأطفال قد أخذ نصيبه وشَبَعْ، كنت آخُذ بدلاً منه الثّالِث المُنتظر .. وهكذا شاءت إرادة الله أن تكبر الفتاتان بينما يُدفن ابني قبل أن يتم عامه الثّاني. ولم أُنجِب بعد ذلك أطفالاً، مع أنَّ الله أعطانا رِزقًا أكثر، وبَسطَة في العيش .. والآن يعمل زوجي وكيلاً لتاجرِ القمح في أحد المطاحِن، ويتناول عن ذلك أجرًا طَيِّبًا والحمد لله. ولو لم يكن معي هاتان الطفلتان، لشعرت بمرارة الوحدة .. ألا ترون معي أنه لا يمكن أن أتخلّى من حُبهُما؟! صدقوني أنهما بهجة حياتي ..

وضمّت الفتاة العرجاء إلى صدرها بإحدى يديها، بينما مدّت يدها

الأخرى تمسح قطرات الدموع من على خديها .. وتنهدت ماترينا من أعماق قلبها وهي تقول: صَدَق المثل أنَّ المرء قد يحيا بلا أب ولا أُم، ولكنه لا يستطيع أن يعيش بدون الله.

ثم انخرط جميعهم في حديث طويل .. وإذا بهم يُفاجأون بنور وهّاج يسطُع في جنبات الكوخ كله، كأنه برق الصيف، وقد انطلق هذا الضوء من الزاوية التي كان يقبع فيها ميخائيل.

وفي الحال اتجهت أنظار الجميع نحوه، ورأوه جالِسًا في مكانه وقد عَقَدْ يديهِ على رُكبتيهِ، بينما شخصت عيناه إلى السماء، وتلألأت على شفتيه ابتسامة.

- ١٠ -

سِر الغريب

ومضت المرأة في طريقها، وفي صُحبتها الفتاتان. ثم نهض ميخائيل من مقعده، ووضع العمل جانبًا، وخلع مئزرته، وتقدّم نحو سيمون وزوجته وانحنى أمامهُما انحناءة كبيرة، قال على أثرها: وداعًا أيها السادة .. لقد غفر الله إثمي .. وأسألكم أيضًا أن تغفِروا لي، إن كان قد صدر مني خطأ ما.

وفتح الجميع أعينهم وهم يرون النور يشِع من وجه ميخائيل، واقترب سيمون وانحنى بدوره أمام ميخائيل، ثم تكلم في صوت خفيض:

- ميخائيل .. لقد لاحظت أنّكَ لستَ مثل سائر البشر .. لا يمكن أن أمنعك عن شيء، كما لم أجرؤ أن أسألك عن شيء .. ولكن هناك في نفسي سؤالاً يُحيرني، طالما أردت أن أجد له جوابًا، لعلك تذكُر عندما تقابلنا أول مرّة، وجئت بك إلى بيتي، كانت تبدو عليك علامات الكآبة والحزن حتّى قدّمت زوجتي أمامك الطعام فابتسمت لها وأضاء وجهك. كيف ولماذا حدث ذلك؟ .. ثم ابتسمت مرّة أخرى أثناء زيارةِ الرجُل الثري الذي أراد أن نصنع له حِذاء ... واليوم عندما حضرت هذه السيِّدة مع الطفلتين ، ابتسمت ابتسامة زادت ضياء عن سابقتيها وأضاء وجهك كالشمس .. تُرى ما السرِ في هذا كله؟ هل لك يا عزيزي ميخائيل أن تُفسرِ لنا هذه الظاهِرة المُحيرِة!

وأطرق ميخائيل، ثم رفع رأسه وقال: أنا يُشرِق مني النور؟! لقد كنت تحت نير العِقاب، أمّا الآن فقد سامحني الله. لقد ابتسمت في المرّات الثّلاث، لأني تعلّمت في كل مرّة منها حقيقة من الحقائق .. وقد أرسلني الله لكي أتعلّم هذه الحقائِق الثّلاث وأعيها جيدًا .. تعلّمت الحقيقة الأولى حين أشفقت زوجتك عليَّ فابتسمت لأول مرّة .. وتعلّمت الثّانية حين طلب الثري حِذاء يدوم معه سنة كامِلة، فابتسمت للمرّة الثّانية .. واليوم حين رأيت الصغيرتين أدركت الحقيقة الثّالثة والأخيرة فابتسمت للمرّة الثّالِثة.

وعاد سيمون يسأل: ولكن قُل لي يا ميخائيل .. لماذا عاقبك الله؟ وما هي الحقائِق الثّلاث التي تعلّمتها، حتّى أتعلّمها أنا بدوري.

وانساب صوت ميخائيل يُجيب في هدوء: أمَّا العِقاب فلأني خالفت. كنت واحدًا من طغمة الملائِكة .. ولكني خالفت الوصية. أرسلني الله إلى إمرأة لكي أقبُض روحها .. هبطت إلى الأرض، فوجدت المرأة طريحة الفِراش، وحيدة وكانت – لتوها – قد ولدت توأمتين، كانتا تتحركان في ضعف وبُطء نحو الأُم التي لم تستطِع أن ترفعهُما إلى صدرها .. عندما رأتني المرأة أدركت مهمتي على الفور، فأجهشت بالبُكاء وقالت: "يا ملاك الله، إنَّ زوجي قد دُفِن منذ فترة وجيزة، بعد أن أجهزت عليه إحدى الأشجار عندما سقطت عليه .. وليس لي أُخت ولا أُم ولا عمّة ... من يعتني بهاتين اليتيمتين؟! أسألك ألاّ تنزع روحي .. حتّى أُرضِعهُما، وأُطعمهُما، على الأقل حتّى يشتد ساعداهُما فيقويا على المشي قبل أن أموت .. واستمعت لرجائِها، ووضعت إحدى الطفلتين عند ثديها، والأخرى بين ذراعيها، وطِرت راجِعًا إلى سيِّدي في السماء. وبرّرت نفسي أمام القدير، "لم أستطِع

أن آخُذ روح الأُم لأنَّ زوجها قد مات صريعًا تحت إحدى الأشجار، وإلى جوار الأُم توأمتين .. وعندما تضرعت إليَّ بإلحاح حتّى لا تُؤخذ روحها منها، قَبَلْت حتّى يتسنّى لها أن تُرضِعهِما وتُطعمهِما حتّى تقويا على المْشي ... فالأطفال لا يستطيعون الحياة دون أب أو أُم. ولهذا تركت روحها فيها .. فقال الله: اذهب، واقبُض روح المرأة .. ثم تعلّم ثلاثة أمور ينبغي أن تعرِفها، أولها الشيء الذي يسكُن في الإنسان، ثانيها الشيء الذي لا يُوهب له، والثّالِث ما يحيا به الإنسان. وعندما تُدرِك هذه الحقائق الثّلاث، سوف ترجع ثانية إلى مكانك في السماء". وهكذا هبطت إلى الأرض ثانية، وأخذت روح المرأة فسقط الرضيعان من على ثدييها. وعند ذلك تدحرج جسدها على الفِراش واستقر على إحداهُما، فالتوت قدم الفتاة. وترددت فوق القرية، فحلّقت إلى حين وأنا أُريد أن أنطلِق بالروح إلى الله .. إلاّ أنه حدث ما لم يكُن في الحُسبان .. لقد عصفت بي ريح عاتية .. وجفّ جناحاي وسقطا .. صعدت روح المرأة وحدها إلى الله، بينما سقطت أنا على الأرض على قارِعة الطريق [1].

[1] القصة مجازية وهذا رأي الكاتب.

- ١١ -

الدروس الثّلاث

حملق سيمون وماترينا في الرجُل الذي كان يُقاسِمهُما الحياة والمعيشة، الذي ألبساه وأطعماه .. وترقرقت الدموع في أعينهُما، ثم انسابت في هدوء، امتزجت فيها الرهبة والبهجة معًا ...

واستأنف الملاك حديثه قائِلاً: كنت في الحقل وحيدًا عارِيًا .. ولم أكُن – من قبل – أعرف حاجات البشر، ولا البرد أو الجوع .. حتّى صِرت إنسانًا، فجُعت وأحسست أوصالي وقد جمّدها البرد القارِس، ولكني لم أعلم ماذا أفعل .. ثم رأيت الكنيسة الصغيرة قريبة من الحقل، فانتعش الأمل في صدري، لعلي أجد المأوى هناك، فالكنائِس تُبنى بلا شك من أجل الله ... ولكن الكنيسة كانت مُغلقة، ولم أستطِع أن أُلج بابها. ولهذا جلست بجوار الكنيسة، لأحتمي – على الأقل – من لسعات الهواء البارِد. إلاّ أنني بعد قليل، سمعت وَقْع أقدام .. وإذا برجل يُقبل عليَّ في الطريق المُقفر المُوحش. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي أُواجه فيها إنسانًا. بدا وجهه مُخيفًا مُرعِبًا، فحوّلت وجهي عنه، سمعت الرجُل يتحدث مع نفسه، فأرهفت أُذُني ... كان يُفكِر فيما يمكنه أن يفعله، لكي يكسو جسده من برد الشتاء، وكيف يُطعِم زوجته وأطفاله .. وانتابني شعور بخيبة الأمل .. ها أنذا أهلك من البرد والجوع ... وها هو الإنسان مشغول بكسوةِ جسده وطعام

زوجته، .. كيف يحصُل على خبز الكفاف .. هل يمكن لمثل هذا البائس أن يُقدِّم معونةٍ ما؟! وعندما رآني الرجُل، علت وجهه مسحة من الكآبة، زادت ملامحه صلابة وقسوة .. ثم اجتاز أمامي وعَبَرْ إلى الجانِب الآخر من الطريق .. وخيّم عليَّ شعور مُقبِض باليأس .. ولكن – فجأة – سمعته وهو يعود إليَّ، فتطلعت إليه .. وفي هذه المرّة لم أستطِع أن أتبين ملامحه جيدًا .. في المرّة الأولى رأيت الموت يُغطي وجهه، ولكنه في هذه المرّة وجدته وقد امتلأ بالحياة .. رأيت الله كائنًا فيه!

أتى إليَّ وألبسني، وأخذني معه، ثم أتى بي إلى بيته. دخلت الكوخ فأقبلت علينا إمرأة صخّابة، عالية الصوت، لا تكُف عن الضجيج والعجيج ... كانت مُخيفة ومُرعِبة أكثر من الرجُل بمراحِل كانت تنفُث من شفتيها رائحة الموت. لم أستطِع أن أتنفس لأنَّ الرائِحة الكريهة انتشرت في أرجاء الكوخ، تُزكِّم الأُنوف، ويضيق بها الصدر. كانت تريد أن تطردني إلى العراء من جديد، وتُسلمني إلى زمهرير الشتاء .. كنت أعلم أنها لو نفّذت هذا الوعيد، فموتها وشيك لا محالة .. وعلى حين غُرّة، حدّثها زوجها عن محبة الله، وتغيرت المرأة في الحال ... أحضرت لي الطعام، وحدثتني في شيء من الدِعة والرِفق ... نظرت إليَّ، فرفعت عيني إليها. ولم أعُد أرى الموت في قَسَمَات وجهها. فقد عادت إليها الحياة، وفيها أيضًا عاينت الله!

وبذلك استوعبت الدرس الأول، الذي أراد الله لي أن أتعلّمه. "الشيء الذي يسكُن الإنسان" كان هذا الشيء هو المحبة. فَرَحت لأنَّ الله قد بدأ يُريني فعلاً ما سبق فأنبأني به. وابتسمت للمرّة الأولى. جاش الأمل في صدري أن أتعلّم ما كان يجب عليَّ أن أعرِفه ... مازال أمامي سؤالان، قد

استغلقا على فهمي. فأنا لم أُدرِك بعد الشيء الذي لا يُوهب للبشر، والشيء الذي يحيا به الإنسان.

ومضت الأيام حتّى اكتمل العام الأول، وأقبل ذلك الثري يطلُب حِذاء أنيقًا متينًا، يلبسه عامًا كاملاً، دون أن يتشقق أو يتفتق، ودون أن يفقِد جِدته وبهاء منظره. عندما رفعت وجهي لكي أنظره، رأيت – خلف ظهره – زميلي ملاك الموت. وبطبيعة الحال، لم يرهُ أحد سواي، ولكني عرفتهُ، كما عرفت أيضًا أنه لن تغرُب الشمس حتّى تُؤخذ نفس هذا الغني الغبي منه .. وتعجبت في نفسي .. أنَّ هذا الرجُل يُرتِب أموره ويُعِد المُستقبل لمدة عام .. بينما لا يعلم أنه سيُفارِق هذه الأرض قبل حلول المساء .. وهذا الذي أعددته .. لمن يكون؟ .. وأشرق ذهني .. لقد علّمني الله أنَّ هناك ما لا يُوهب للإنسان ..

بعد أن أدركت الحُب الذي يسكُن قلب الإنسان، عرفت الآن ما لا يُوهب له .. إنه لا يعرِف حاجاته الضرورية .. وهكذا ابتسمت للمرّة الثّانية، إذ غمرني شعور بالفرح حين رأيت زميلي، ولأنَّ الله قد أنار ذهني بهذه المعرفة.

ولم يبقَ أمامي سوى السؤال الثّالِث "الشيء الذي يحيا به الإنسان" وامتدت الأيام والشهور والسنين التي قضيتها معكم، وأنا أنتظر مراحِم الله حتّى تكشِف لي هذا السر .. وفي العام السّادِس أقبلت صغيرتان جميلتان توأمتان تصحبهُما إمرأة .. وما كدت أن أرى الفتاتين حتّى عرفتهُما في الحال، كما عرفت من حديث المرأة كيف بقيت الفتاتان على قيد الحياة .. وبينما كانت المرأة تروي أحداثها، كان الماضي كله يستيقِظ في ذاكرتي

وينبُض بالحياة .. لقد توسلت الأُمِ من أجل طفلتيها، وآمنت بما كانت تقوله من أنَّ الأطفال لا يستطيعون الحياة إذا فقدوا آباءِهِم أو أُمهاتِهِم. ولكن ها هي ذي إمرأة غريبة قامت على تربيتهُما، وأرضعتهُما من صدرها .. والأغرب من هذا ما روته المرأة عن حُبها للصغيرتين، مع أنهما غريبتان عنها، وعندما أجهشت بالبُكاء من أجلِهما، رأيت فيها صورة الله الحي .. وعند ذلك عرفت الشيء الذي يحيا به الإنسان .. وهكذا كشف الله لي عن الدرس الثّالِث .. إذاً فقد غفر خطيتي .. تهلّلت وابتسمت!!

-١٢-

الوداع

وانكشف جسد الملاك، وتعرّى عن ملابِسه، ثم تسربل بالنور، نور قوي باهِر .. لا تقوى العين على النظر إليه .. وأخذ صوته يرتفِع رويدًا رويدًا، ويُدوي كأنه لا يصدُر عنه، بل بدا كأنه يهبِط من السماء من فوق، ولكن الملاك استطرد قائلاً:

تعلّمت أنَّ الإنسان لا يحيا بعنايته الخاصة، أو بحبه لذاته وحِرصه عليها .. بل يحيا ويعيش بالمحبة.

لم يُعطَ للأُم أن تعرِف حاجة أطفالها الحقيقية من أجل حياتهم .. ولم يُوهب للغني أن يُدرِك ما يحتاج إليه هو نفسه، لم يُعطَ لإنسان — أيًّا كان — أن يعرِف ما يحتاج إليه عند حلول المساء، أحِذاءً لقدمه أم خُفًا لجُثته؟

لقد بقيت على قيد الحياة — وأنا إنسان — لا باهتمامي ولا بحرصي، بل بالحُب الذي عاينتهُ في عابِر طريق .. وهو وزوجته أشفقا عليَّ وأحاطاني بالحُب والرعاية ... عاشت اليتيمتان، لا بسبب اهتمام الأُم، بل بالحُب الذي كان يملأ قلب المرأة الغريبة، فأشفقت على الصغيرتين .. وهكذا الناس جميعًا، لا يحفظون حياتهم بالقلق الذي يشغِلهم على حاجاتِهم ومصالحهم، بل بالحُب الذي يسكُن في أعماق قلوبِهِم.

فيما مضى كنت لا أعرِف سوى أنَّ الحياة مِنحة وعطية من الله للإنسان



.. وأنَّ الإنسان يحيا بفضل إرادته ليس إلاّ. ولكن الآن قد زادني الله عِلمًا وفهمًا ..

أدركت أنَّ الله لا يريد للناس أن يعيشوا مُتباعدين مُتفرقين، ففي هذه الحالة لا يكشِف لهم عمّا يحتاج إليه كل واحد منهم من أجل نفسه. ولكن إرادته الصّالِحة أن يعيشوا في وحدة وترابُط، وإذ ذاك يكشِف لكلٍ منهم ما يحتاج إليه الجميع ...

لقد عرفت الآن، رغم ما يبدو من أنَّ الناس يعيشون بحكمتِهِم واهتمامِهِم بذواتِهِم، عرفت أنَّ الحُب وحده – في الواقع – هو سِر حياتِهِم.

الذي يُحب يحيا في الله، ويحيا الله فيه، لأنَّ الله محبة. وعند ذلك أخذ الملاك يُنشِد تسبحة الله، ترددت أصداؤها في جَنَبات الكوخ .. وانفتح السقف، والتهب عمود من النار بين السماء والأرض .. فسقط سيمون وزوجته وأطفالهُما على وجوهِهِم إلى الأرض، وظهرت أجنحة على كتفي الملاك ثم أخذ يرتفِع عنهم حتّى حلّق في الفضاء ... نحو السماء.

وعندما أفاق سيمون، كان السكون يُخيِّم على الكوخ، وكل ما فيه كما كان من قبل .. وجال بنظرات فاحِصة في جوانِب الكوخ ... ولكن لم يكن هناك سوى أفراد أُسرته.

سنة ١٨٨١م

العجوزان

"قالت له المرأة: يا سيِّد أرى أنّكَ نبي. آباؤُنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون إنَّ في أورشليم الموضِع الذي ينبغي أن يُسجد فيه.

قال لها يسوع: يا امرأة صدقيني أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب ... ولكن تأتي ساعة وهي الآن حين السّاجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق. لأنَّ الآب طالِب مثل هؤلاء السّاجدين له. الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا".

(يو ٤: ١٩ – ٢١، ٢٣، ٢٤)

العهد

اتفق العجوزان على الحِج إلى أورشليم معًا، وتاقت نفساهُما إلى عبادةِ الله في المدينة المُقدسة. كان أولهُما أفيم تراسيش سيفيليف، وهو فلاّح على جانِب من الثراء. أمَّا صاحبه فكان أليشع بودروف وهذا لم يكُن له من الثروة مثل حظ رفيقه.

كان أفيم معروفًا بين الناس بالاستقامة والجد والحزم، لا يشرب الخمر، ولا يُدخِن ولا يتعاطى السعوط (النشوق). ولا يذكُر أحد من الناس عنه أنه استعمل لغة فظّة سوقية، أو لفظًا قبيحًا مُستهجنًا. ولعلّ دماثِة أخلاقه كانت سببًا في أن يرتقي منصِب العُمدة مرتين، أدّى فيهُما واجِبات الوظيفة بأمانة. وبعد أن ترك هذا المنصِب، لم يستطِع أحد أن يجِد في عمله ثغرة يلومه من أجلها.

وفضلاً عن ذلك فقد كان أفيم رب أُسرة كبيرة، له ابنان وعدد من الأحفاد أحدهم قد تزوج حديثًا. والجميع يعيشون تحت سقف بيته. ورغم كِبَر سِنُّه فقد كان موفور النشاط، مُعتدِل القامة. ومع أنَّ لحيته كانت طويلة إلاّ أنها ظلّت بعد بلوغه الستين دون أن يتسلّل إليها الشعر الأبيض.

أمَّا أليشع فلا يُمكنّا أن نصِفه بالغنى أو الفقر، فقد كان وَسَطًا بينهُما. اشتغل بالنجارة سنوات طويلة، فلمّا تقدمت به السن آثر أن يستقر في داره، واتجه إلى تربية النحل، التي كانت تُدِر عليه من الرِزق ما يكفي حاجاته.

وكان له ابنان كرفيقه أفيم، ولكن أحدهُما ترك القرية وذهب يضرب في مناكِب الأرض سعيًا وراء الرزق. أمّا الثّاني فظل إلى جوار أبيه.

كان أليشع يتميز برِقة القلب، والميل إلى المرح ولا بأس عنده أن يشرب الخمر أحيانًا، ويتناول السعوط أحيانًا أخرى. كما كان يُحِب الغِناء. ولكنه كان رجُلاً مُسالِمًا يرتبِط بعائِلته وجيرانه بعلاقات طيِبة. كان أليشع قصير القامة، أسمر البشرة، تنسدِل من وجنتيهِ وذقنه لحية مُتماوِجة، إلاّ أنه كان – مثل شفيعه وسَمِيُه النبي أليشع – أصلع الرأس تمامًا.

كان العجوزان قد تعاهدا على القيام بهذه الرحلة منذ أمد طويل .. بل وأعدّا العُدّة للارتحال معًا إلى أورشليم. ومع ذلك فلم يُحقّقا هذا الأمل، فأفيم لم يجد فسحة من الوقت للوفاء بهذا العهد. كان على الدوام كثير المشاغِل، وكُلّما انتهى من عمل بدأ عملاً آخر. فقد كان عليه في بادِئ الأمر أن يُعِد الترتيبات اللازمة لزواج حفيده، ثم كان لابد له أن ينتظر عودةِ ابنه الأصغر من الجيش، ولم يكد ينتهي من ذلك حتّى بدأ العمل في بناء كوخ جديد ...

وفي أحد الأعياد تقابل الرجُلان خارج هذا الكوخ، وجلسا على جذع إحدى الأشجار، وكان لابد أن يتطرق حديثهُما إلى ذلك العهد الذي اتفقا عليه. وقد استهل أليشع الحديث بقوله: حسنًا، متى يُمكنّا أن ننجز عهدنا أمام الله؟

واكفهر وجه أفيم وهو يُجيبه في شيء من الجدية والوقار كان بودي أن نُحقّق هذا الوعد .. ولكن ما الحيلة؟ لابد أن ننتظِر .. لقد كانت هذه السنة بالنسبة لي عصيبة قاسية عندما بدأت في بُناء هذا الكوخ كنت أظُن

أنَّ البُناء لن يُجاوِز المائة رُوبِل. ولكن .. تصور لقد صرفت حتّى الآن ما يزيد على الثّلاثمائة .. ومازال في دور البُناء لم ينتهِ بعد .. لابد أن ننتظر حتّى الصيف. وفي الصيف إن شاء الله، لابد أن نذهب دون تردُّد.

ولكن أليشع أجابه في إصرار: يبدو لي أنَّ قرارنا لا يحتاج لتأجيل أكثر من ذلك، بل يجب أن نبدأ رِحلتنا في الحال ولا شك أنَّ الربيع هو أنسب الأوقات للقيام بها.

- لا أُنكِر أنَّ الوقت مُناسب جدًا، ولكن ما حيلتي وهذا البُناء؟ لا يُمكني أن أتركه على هذا الحال.

ونظر إليه أليشع نظرة فاحِصة لا تخلو من الاحتجاج ثم قال: كأنه لا يوجد من يقوم بهذا العمل بدلاً منك!! إنَّ ابنك يا صديقي يستطيع أن يقوم بالإشراف على استكمال البُناء.

- ولكن .. كيف؟ لا يمكني أن أعتمِد على ابني الأكبر .. في بعض الأحيان تميل نفسه إلى الخمر فيشرب أكثر مِمّا ينبغي.

- اسمع يا جاري .. عاجِلاً أو آجِلاً لابد أن ننتقل من هذا العالم ولابد لهم أن يدبروا أمورهم بأنفسهم .. الآن يمكنك أن تُعطي الفرصة لولدك حتّى يبدأ في تحصيل بعض الخبرة في الحياة.

وسرح أفيم ببصره في الفضاء، وقد بدا عليه التفكير العميق، ثم أجاب أليشع بقوله: هذا صحيح .. ولكن .. في المُعتاد عندما يبدأ المرء عملاً ما فلا شك أنه يُحب أن يرى ثمرة هذا العمل.

ولكن أليشع عاد يقول في شيء من التبرُّم والضيق: يا صديقي .. إننا لا نستطيع أن نُؤدي كل ما يجب علينا أن نفعله .. اسمع .. منذ عدّة أيام

كانت النساء في داري قد انهمكنَ في تنظيف البيت ومسحه استعدادًا لعيد القيامة. كانت جلبة لا مثيل لها هذه تعمل هنا وتلك تلتمِس شيئًا هناك .. ولم يتم المطلوب .. وعندئذٍ لم تتمالك الكنَّة الكُبرى من زوجات أبنائي نفسها، فصاحت: الحمد لله أنّ العيد لن ينتظِر حتّى ننتهي نحن من عملنا .. ومهما فعلنا فلن يتم استعدادنا كما ينبغي أن يكون.

واستمع أفيم إلى قصة جاره في صمت ووجوم، وبعد لحظة من السكوت أجاب بقوله: ولكني أنفقت الكثير من المال على هذا البُناء، والرحلة كما تعلم تحتاج إلى الكثير من النفقات. هل يستطيع المرء أن يبدأ الرحيل وهو خاوي الوِفاض لا يملُك شروى نقير .. لابد لكل واحد منّا أن يحمِل في جيبه ما لا يقِل عن مائة رُوبِل .. وهذا ليس بالمبلغ القليل ...

وضحك أليشع وهو يقول: أيها الرجُل العجوز .. ما هذا الكلام؟ عندك عشرة أضعاف ما أملُك، ومع ذلك تتكلّم كأنك في حاجة إلى المال .. لابد أن تُحدِّد موعِد الرحلة، ومع أني لا أملُك شيئًا في الوقت الحالي، إلاّ أني أعتقِد أنه في الإمكان أن أجمع ما يكفي حتّى ذلك الوقت.

وابتسم أفيم في إشفاق وهو يرنو بنظره إلى صاحبه، ويُجيبه بلهجة لا تخلو من السُّخرية: عجبًا! ما كنت أعلم أنكَ على هذه الدرجة من الثراء! .. وكيف يمكنك أن تحصُل على هذا المبلغ؟

- يمكني أن أجمع شيئًا من هنا وشيئًا من هناك. وإذا لم يكفِ ما في المترل، فقد استقر رأيي أن أبيع عشرة مناحِل إلى جاري. إنه يتمنّى ذلك وقد سعى كثيرًا لشرائِها.

ولكن أفيم أجابه في تحذير: ولكن إذا احتشدت مناحِلك بالنحل هذا

العام فسوف تندم على اتخاذ هذه الخطوة.

ورفع أليشع عينيهِ في استنكار وهو يقول: أندم؟! لا يا جاري العزيز، لم أندم على شيء في حياتي سوى خطاياي .. أندم على هذه الأمور؟ لا يوجد يا أخي ما هو أغلى أو أثمن من الروح .. ماذا يستفيد الإنسان لو ربح العالم كله، وخسر نفسه؟!

واستسلم أفيم لمنطِق صديقه فقال: هذا صحيح .. ولكنه استدرك قائِلاً: ولكن ذلك لا يعني أن نُهمِل حاجات البيت.

وعقّب أليشع على ذلك بجواب قاطِع: ولكن ما هي النتيجة إن أهملنا أرواحنا؟ إنها أسوأ بكثير .. لقد أخذنا عهدنا أمام الله، وعلينا إذًا أن نذهب .. والآن — وأقولها جادًا — لابد أن نذهب.

بداية الطريق

وهكذا نجح أليشع في إقناع صاحبه بالوفاء بالعهد الذي قطعاه. ففي صباح اليوم التالي وكان أفيم قد قلب وجوه النظر في الموضوع، أقبل إليه قائلاً: لقد كنت على حق، فلابد أن نذهب، والحياة والموت في يدي الله. ولابد لنا أن نقوم بهذه الزيارة المُقدسة ونحن مازلنا على قيد الحياة، وفينا جَلَدُ وقُوّة.

ولم يكد ينقضي الأسبوع، حتّى كان العجوزان قد أخذا أهُبّة الاستعداد. كان لدى أفيم المبلغ الكافي، فقد احتجز لنفسه مائة رُوبِل، واستودع زوجته مائتين.

واستكمل أليشع استعداده أيضًا. باع إلى جاره عشرة مناحِل مهما تكاثر فيها من النحل قبل حلول الصيف وأخذ ثمنًا لها سبعين رُوبِلاً. أمَّا بقية المائة رُوبِل فقد استطاع أن يقتطِعها من كل عضو من أفراد أُسرته على قدر طاقته حتّى لم يترك في أيديهم شيئًا. لقد أعطته زوجته كل ما ادخرته من أجل جنازتها، كما سلّمت إليه كنته كل ما كان معها.

وقبل بدايةِ الرحلة، أعطى أفيم ابنه الأكبر تعليماته المُحدّدة عن كل شيء، كيف يتم بُناء الكوخ وتركيب السقف. لقد فكّر في كل شيء وأعطاه الترتيبات التي يجب أن يتبعها في كلٍ منها. أمَّا أليشع فقد نبّه على زوجته أن تحرِص على الفصل بين جماعات النحل وبين المناحِل التي باعها،

وأن تتأكد من أن يحصُل جارهم على جميع المناجِل التي اشتراها دون خِداع أو مُراوغة. أمَّا فيما يختص بتدبير شئون المترل فقد اكتفى بقوله: يمكنكم أن تراعوا عمل الواجِب حسب الحاجة، فأنتم سادة البيت وتُدرِكون مصلحتكم وما يجب أن تُؤدوه.

وهكذا أعد الرجُلان عِدهُما للرحيل، بعد أن صنع لهما الكعك، وأعدت لهما حقائِب سهلة الحمل على الظُهور للطريق كما أعدّت لهما شرائِط الكتّان التي اعتاد الفلاّحون الروس أن يلفوها على سيقانِهِم بدلاً من الجوارِب. وانتعلا أحذية من الجِلْد كما أخذا معهما من باب الاحتياط أحذية مضفرة. وقد رافقهُما أفراد الأُسرتين حتّى مشارِف القرية حيث تم الوداع وبدأ العجوزان رحلتهُما المُقدسة.

كانت تبدو على أليشع علامات المرح، فلم يكد يبتعِد عن القرية حتّى نسى كل ما يتصل بشئون الأُسرة، ووجّه كل همه أن يُدخِل البهجة إلى نفس رفيقه، وأن يتحاشى كل كلمة شريرة حتّى لا تخرج إحداها من شفتيهِ حتّى يصل إلى غايته ثم يعود إلى بيته في محبة وسلام. وفي أثناء الطريق كان أحيانًا يُتمتِم بينه وبين نفسه بصلوات يرفعها إلى الله، وأحيانًا أخرى يسرح بفكره في حياة هذا القديس أو ذاك بقدر ما تعي ذاكرته. وإذا التقى بإنسان في الطريق، أو عرج على مكان ما ليقضي فيه الليل، كان يُحاول على قدر طاقته أن يسلُك بطريقة مُهذبة، وأن يصطبِغ حديثه بكلمة الله ... وهكذا مضى في رحلته راضي النَفْس قرير العين .. ولكنه فشل في شيء واحد، فشل في الإقلاع عن عادة استخدام السعوط. لقد ترك وراءهُ علبة السعوط، إلاّ أنه كان تواقًا إليه، حتّى قابله أحد الرجال في الطريق، وأعطاه قبضة من

السعوط كان يختلِس منها القليل بين الفينة والفينة، وهو يتخلّف عن رفيقه حتّى لا يراه ولا يُدخله في تجربة.

وسار أفيم – أيضًا – في نشاط وعزم، لا يرتكِب إثمًا، ولا ينطِق عبثًا ولكن قلبه كان مُثقلاً بالهم. كانت أمور البيت تشغِل باله وكان يُفكِر كثيرًا فيما يمكن أن تسير عليه الأمور في داره. ويسأل نفسه إن كان قد نسى أن ينصح ابنه بما يجب أن يفعله في هذا الأمر أو ذاك. هل سيؤدي ابنه هذه الأمور كما ينبغي؟ وبينما يحِث خُطاه في المسير، كان يتطلع إلى حقول البطاطِس الذي بدأ يظهر، والعربات وهي تنقِل السماد، فيعود بالذهن إلى ابنه ويقلِب وجوه النظر فيما إذا كان ابنه سيؤدي هذه الأمور كما أخبره أم لا ... كثيرًا ما كانت تُخالِجه الرغبة في العودة، حتّى يُرشِد ابنه كيف يقوم بهذه الأعمال .. أو لعلهُ سيعملها بنفسه.

فُراق ...

قضى الرجُلان خمسة أسابيع على هذا المنوال حتّى بُلِيَت أحذيتهمِا، وشعرا بالحاجة إلى شراء أحذية جديدة. كانا قد وصلا إلى حدود روسيا الصغرى، التي يُطلِقون عليها الآن أوكرانيا.

منذ أن غادرا قريتهِمَا، كان لابد لهما طوال هذه الفترة، أن يدفعا ثمن الطعام وأجر المبيت ولكنهما عندما وصلا أوكرانيا كان السُّكان الطَّيبون يتنافسون على ضيافتهِمَا فيستقبلونهُما في أكواخِهِم، ويُقدمون لهما الطعام في سخاء دون أن يتقاضوا أجرًا عن ذلك .. بل وأكثر من ذلك كانوا يدسون في حقائِب المُسافرين شيئًا من الخُبز والكعك يعينهُما على مشقة الطريق.

واستطاع العجوزان أن يقطعا حوالي خُمسمائة ميل دون أن يتكبدا شيئًا من المال. ولكنهما حينما عبرا حدود أوكرانيا وجدا سُكان الإقليم التالي قد أخذت بخناقِهِم أزمة عاتية، لأنَّ محصول أراضيهم لم يفِ بحاجاتِهِم. ومع ذلك فقد واصل الفلاّحون الكُرماء دعوة الرجُلين إلى المبيت مجانًا أمَّا الطعام فلم يكن مناص من تقاضي ثمنه. بل لقد اضطرا في بعض الأحيان أن يعرِضا ثمنًا طيِبًا للخُبز ومع ذلك لم يتمكنا من شرائِهِ أو الحصول عليه. أينما توجها كانا يسمعان الشكوى المريرة من ضياع المحصول .. الأغنياء فيهم أخذوا يفقِدون كل مالهم .. بدأوا في عرض مُمتلكاتِهِم للبيع، وعاش مُتوسطو الحال في إملاق وفقر مُدقِع. أمَّا الفُقراء الذين لم يُهاجروا من هذا الإقليم فلم

يكن أمامهم سبيل سوى التسوُّل. لقد رفض بعضهم أن يريقوا ماء وجوهِهم، فأخلدوا إلى بيوتِهم حتّى واتاهم الموت جوعًا. في الشتاء لم يجدوا ما يأكلون سوى القشور والنباتات البرية.

في إحدى الليالي التي قضياها في إحدى القرى، اشترى الرجُلان خمس عشرة رطلاً من الخُبز. وبعد انقضاء الليل نهضا باكرًا جدًا قبل أن تُشرق الشمس وبدآ المسير حتّى يقطعا أطول مسافة مُمكنة قبل أن تشتد حرارة النهار. وعندما قطعا ما يقرُب من ثمانية أميال أتيا إلى مجرى من الماء، فجلسا إلى جوارِه يستريحان، وانتهزا الفرصة ليملآ إناءيهِمَا بالماء، وغمسا فيه بعض الخُبز الجاف وأخذا يأكلان. وبعد أن أكلا وشبعا، أخذا في تغيير شرائِط السيقان. وبعد قليل أخرج أليشع علبة السعوط ليتنشق، فهز أفيم رأسه أسِفًا وهو يقول:

- كيف لا تستطيع أن تُبطِل هذه العادة الرديئة؟

ولوّح أليشع بيده في يأس قائِلاً: هذه العادة الشريرة أقوى مني.

وفي النهاية نهض كلاهُما واستأنفا المسير. وبعد أن قطعا عدّة أميال وصلا إحدى القرى واخترقاها بينما كانت حرارة الشمس قد اشتدت فنال التعب والإعياء من أليشع وأراد أن يستريح بعض الوقت، وأن يُطفِئ ظمأه بشيء من الشراب. إلاّ أنّ أفيم رفض أن يتوقف .. ولا شك أنّ أفيم كان أقوى احتمالاً من رفيقه في السفر، كما كان أسرع خُطوًا مِمّا جعل أليشع يجد مشقة شديدة في مُتابعته، وعناء قاسيًا في مُسايرته، فصاح أخيرًا: لو استطعت — فقط — أن أحصُل على كأس من الشراب ...

وأجابه أفيم في حزم وصرامة. حسنًا يُمكنك أن تأخذ لنفسك كأسًا، أمّا

أنا فلا أريد شيئًا.

ولم يستطِع أليشع أن يُواصِل المسير، فتوقف هنيهة ثم قال: يمكنك أن تمضي قدمًا، أمَّا أنا فسأجري إلى ذلك الكوخ الصغير ألتمِس شيئًا من الشراب، ثم ألحق بك بعد لحظات قليلة ..

فتطلع إليه أفيم مليًا ثم أجابه: حسنًا. ولم يزِد على ذلك شيئًا ومضى في الطريق وحيدًا لا يلوي على شيء، بينما عرج أليشع إلى الكوخ الذي أشار إليه.

كان كوخًا صغيرًا تكسو جُدرانه طبقة من الطين. وكان اللون قاتِمًا في الأجزاء السفلى من الجُدران أمَّا العُليا منها فقد كانت هناك بقايا للطلاء الأبيض، ولكن طبقة الطين قد انتشرت فيها الشقوق. من الواضِح أنَّ الطلاء قد عفا عليه الزمن. وقد تساقطت قِطَع من الطين من أحد جوانِب السقف ... كان على أليشع أن يعبُر فناء واسعًا حتّى يصل إلى مدخل الكوخ. ودلف أليشع إلى الفناء حيث رأى مقعدًا من الطين يمتد إلى جوار الجدار. وعلى الأرض بجوار المقعد الطويل كان يرقُد رجُل نحيل الجسم لم ينبُت بعد شعر لحيته، وقد دس قميصه في سرواله كما هي عادة السُّكان في أوكرانيا ... لا شك أنَّ الرجُل مُستغرِق في نوم عميق ... ولا شك أنه كان يلتمِس الظِل حين نام أمَّا الآن فقد استدارت الشمس وها هي تصُب لهيب أشعتها عليه ... ولكنه يبدو مُستيقِظًا، ومع ذلك فهو مازال راقِدًا ... تقدّم إليه أليشع ودعاه، وطلب منه كأسًا من الشراب ... إلاّ أنَّ الرجُل لم يحر جوابًا.

وفكّر أليشع في نفسه قائِلاً: إمَّا أن يكون الرجُل مريضًا أو خشنًا فظ الطِباع .. وواصل أليشع تقدُّمه نحو الباب ثم طرق طرقًا خفيفًا، ولكنه لم

يسمع سوى صوت طفل يبكي في الداخل بُكاءً عاليًا. فأمسك بحلقة الباب وأخذ يقرع بشدة وهو يصيح: هيه .. يا جماعة .. ولكن أحدًا لم يجب نداءهُ. فقرع الباب مرّة أخرى بعصاه وهو يرفع صوته: هيه، أيها المسيحيون ... يا جماعة المؤمنين ... وتبددت صرخته أدراج الرياح وعاد المكان يُخيم عليه الصمت المُطبق. وأحس بالضيق ينهش صدره، فصاح ثالثة: يا عبيد الله .. ولكنه لم يتلقّ جوابًا ...

واستدار أليشع لكي يرجع من حيث أتى، ولكنه في تلك اللحظة خيّل إليه أنه سمع أنينًا خافِتًا ينبعِث من الجانب الآخر من الباب، وترامى إلى أُذنيه خافِتًا منهوك القوى ... يا لله لابد أنَّ كارِثة ما قد أصابت هؤلاء الناس!! يجدُر بي أن أُلقي نظرة في الداخل.

ودفع أليشع الباب، ليدخل الكوخ.

مُغامرة

عندما أمسك أليشع بحلقة الباب، وجد أنه لم يكن مُحكم الإغلاق فدفعه برفق ودلف إلى الممر الضيق فرأى في مقابله بابًا مفتوحًا يُؤدي إلى إحدى الغُرف، وإلى يساره فرنًا كبير الحجم، وأمامه على الحائط يستنِد حامِل للأيقونات وقد وُضِعَت منضدة صغيرة أمام الأيقونة، وبجوار المنضدة مقعد خشبي جلست عليه امرأة عجوز أسندت رأسها الأشيب على المنضدة .. وبالقرب منها وقف صبي صغير، هزيل الجسم، مُمتقِع الوجه أصفره، كأنه قد صُبّ من شمع، وقد انتفخت بطنه انتفاخًا عاليًا لا تُخطِئه العين ...

لا شك أنه كان يطلب من المرأة شيئًا ما، ويطلبه بإلحاح لأنه كان يتشبث بأكمامِها ويشدها بإصرار بينما يرتفِع صوته الواهِن الضعيف يبكي ويسترسِل في البُكاء.

دخل أليشع وتسمرت قدماه .. كان الهواء في الكوخ فاسدًا، إذ كانت تنبعِث منه رائحة كريهة. دار بعينيهِ في كل أنحاء الكوخ فالتقت عيناه بامرأة أخرى رقدت على الأرض خلف الفرن وقد أسبلت عينيها، ومن حلقها تخرج حشرجة مُخيفة، تمد ساقها حينًا، ثم تعود وتجذبها حينًا آخر. ويبدو أنها لم تكن لها قدرة أن تتحكم في هذه الساق فإذا بها تتركها تتهاوى من جانب إلى آخر. ولا شك أنها كانت مصدرًا للرائِحة النتِنة التي اقتحمت أنف أليشع. كان من الواضح أنها لا تستطيع أن تُصلِح من شأن نفسها، ولم

يكن هناك من يهتم بأمرها .. ولكن المرأة العجوز رفعت رأسها بصعوبة، والتقت عيناها بالرجُل الغريب، ثم قالت في إعياء: ماذا تريد؟ .. ماذا تطلُب أيها الرجل.؟ ليس عندنا أي شيء ..

ومع أنها كانت تتحدث بتلك اللهجة المعروفة في أوكرانيا، إلاّ أنَّ أليشع استطاع أن يتبين كلماتها، فَرَنَا إليها بنظرة وادعة وهو يقول: يا خادمة الله .. جئت أطلُب جرعة من الماء.

وأجابته بخشونة: لا يوجد أحد ... لا أحد، ليس لدينا إناء نُحضِر فيه الماء .. توكل على الله .. دعنا في حالنا وامضِ إلى حال سبيلك ..

ولكن أليشع لم يخرج، بل عاد يُوجه السؤال للعجوز: أما يوجد بينكم واحد صحيح الجسم، يستطيع أن يعني بتلك المرأة؟

ولم تُكلِف العجوز نفسها عناء النظر إليه، بل أجابته في برود: لا .. لا أحد .. هناك في الخارج ابني ينتظر الموت، وهنا نحن .. كلنا نموت.

كان الصبي قد كف عن البُكاء عندما رأى الغريب، ولكنه بدأ صياحه من جديد، يقطع به حديث العجوز، ويجذبها من أكمامها صارِخًا: هاتي لقمة يا جدتي .. لقمة واحدة .. أُريد أن آكل ..

كان أليشع على وشك أن يسأل العجوز من جديد، ولكنه توقف عندما دخل الرجُل الذي رآه في الخارج، يترنح في مشيته وهو يعبُر الممر نحو داخل الكوخ بينما يستنِد بيديهِ على الجدار. ولم تكد خطواته تتجاوز عتبة الباب حتّى سقط عند زاوية قريبة منها .. ولم يُحاول أن ينهض ثانية ابتغاء الوصول إلى المقعد، بل ظلّ جاثمًا في مكانه لا يكاد يقوى على الكلام. فإذا تكلّم انتُزِعت الألفاظ من بين شفتيه مُهلهلة مُتقطِعة، كان يبذِل في ذلك

جهدًا عنيفًا .. يدفع الكلمات من فمه تكاد تخرُج معها أنفاسه اللاهِثة .. وفي صبر وطول أناة استمع إليه أليشع، وهو يلتقِط أنفاسه من كلمة إلى أخرى قائِلاً: لقد أدركني المرض .. والمجاعة .. ثم أشار نحو الصبي، وارتفع نشيجه الباهِت وهو ينتحِب قائِلاً: انظُر .. إنه يموت .. من الجوع.

لم يكد يسمع أليشع هذا الأنين، حتّى طرح حقيبته من على ظهره، ونفض سيورها من ذراعيه ثم وضعها على الأرض، ورفعها على المقعد وتحركت أصابعه في سرعة ومهارة تحِل أربطتها وتجوس في ثناياها ليُخرِج رغيفًا من الخُبز اقتطع منه جزءًا لا بأس به، ومد يده به إلى الرجُل. ولكن هذا رفض أن يأخذ شيئًا من الخُبز، بل أشار بيده إلى الصبي الصغير. وإلى فتاة صغيرة كانت تزحف على بطنها بجوار الفرن. وكأنه يقول: اعطِ الخُبز للصغيرين.

ولم يجد أليشع مندوحه من الطاعة، فمد يده بالخُبز نحو الصبي، الذي ما كاد يشِم رائحة الخُبز حتّى مد ذراعيه في لهفة وأمسك قطعة الخُبز بكلتا يديه، وأخذ يقضُم في نهم حتّى اختفت أنفه الصغير في ثنايا الخُبز .. وأقبلت الفتاة من وراء الفرن، عيناها لا تُفارِقان الخُبز في يد أليشع حتّى أعطاها نصيبها منه. وبعد ذلك كسر أليشع جزءًا آخر أعطاه للمرأة العجوز، التي أخذت تمضُغ بصوت مسموع وهي تقول: يا ليتَ أحدًا يستطيع أن يُخرِج بعض الماء .. لقد جفّت حُلوقِهم .. حاولت بالأمس أن أُحضِر بعض الماء، أو لعلني حاولت اليوم ذلك .. لا أذكُر .. المهم لقد وقعت ولم أستطِع أن أتقدم خطوة أخرى .. وربما ظل الدلو في مكانه، إلاّ إذا كان أحدًا قد أخذه ..

وسأل أليشع عن مكان البئر، وأطلعته العجوز على موقعه، فذهب ووجد الدلو في مكانه، فملأهُ وعاد ليُعطيهم جميعًا حتّى شربوا .. وهكذا استطاع الصغيران مع المرأة العجوز أن يتناولوا المزيد من الخُبز والماء .. أمّا الرجُل فقد رفض أن يأكل قائِلا: لا أستطيع أن آكل شيئا ..

طُوال هذا الوقت، كانت الزوجة الشابة مازالت غائِبة عن وعيها، ولكنها تتقلب من جنب إلى آخر بلا انقطاع. وفي النهاية مضى أليشع إلى المتجر الوحيد في القرية، واشترى بعضًا من التبغ والملح، وشيئًا من الدقيق والزيت .. ثم وجد فأسًا صغيرة قطع بها بعض الخشب وأوقد النار. فأقبلت إليه الفتاة الصغيرة وأخذت تُقدم له ما تستطيع من معونة، فصنع شيئًا من المرق وغلاه، وقدّم للأسرة الجائِعة ما يسِد رمقهم.

المجاعة

أكل الرجُل قليلاً، وأصابت العجوز أيضًا شيئًا يسيرًا من الطعام، أمَّا الصبي والفتاة فقد التهما طعامهُما في نهم، ولعقا الطبق ولم يتركاه حتّى صار نظيفًا تمامًا، ثم انكمشا ورقدا مُتلاصقين وقد أخذ كلٌّ منهما برقبة الآخر وران الكرى على جفونِهما فاستسلما إلى نوم عميق.

وعندئذٍ بدأ الرجل والمرأة العجوز يرويان لأليشع كيف انحدر بهم الحال إلى هذا المآل. بدأت العجوز قصتها بقولها: كنا نُعاني الفقر من قبل، ولكن عندما ساء المحصول، جمعنا منه بالكاد ما يكفينا حتّى الخريف .. مضى الخريف واستهلكنا كل ما لنا، ولم يكن لنا مناص من أن نلتمِس من الجيران، وأن نطلُب معونة غير الجيران، على قدر ما نستطيع. في بداية الأمر أعطونا ما نحتاج إليه، ثم بدأوا يغلُّون أيديهم عنّا! .. ومع ذلك فقد أبدى البعض استعدادهم لمُساعدتنا، ولكن هؤلاء للأسف – كانوا لا يملكون ما يمكنهم أن يُقدموه .. وكنا نخجل من السؤال .. وغرقنا في الديون، استدنّا كل شيء، المال والدقيق والخُبز ..

وقطع الرجُل حديث العجوز وهو يقول: ذهبت أبحث عن عمل أرتزِق منه، فلم أجد. في كل مكان رأيت الناس – مثلي – يعرِضون أنفسهم للعمل حتّى يحصلوا على ما يملأ بطونِهم فقط. وفي بعض الأحيان قد يحصل المرء على عمل مُؤقت قصير الأجل قد يمتد إلى نهار كامل، ثم يتعطل يومين

يبحث فيهما عن عمل بلا جدوى .. وعندئذٍ مضت العجوز ومعها الفتاة تتسولان بعيدًا، ولكنهما كانا يحصُلان على النذر اليسير .. إنَّ الخُبز قليل نادر!! ومع ذلك فقد حاولنا أن نُوزع الخُبز على جميعنا، حتّى نُبقي على حياتنا — نأكل معًا ونربُط البطون معًا، وكلنا رجاء أن نقوى على هذا الصراع المرير حتّى المحصول المُقبِل .. ولكن .. عند الربيع رفض الناس رفضًا باتًا أن يُقدموا لنا شيئًا .. ثم داهمنا المرض وساءت حالنا أكثر فأكثر فلم نجد ما نتبلغ به طول اليوم .. ولم يكن بد أن نعيش على الطوى يومين .. بدأنا نأكل الحشائِش، وسواء كانت الحشائِش أو غيرها هي السبب في ما أصاب زوجتي من علّة، فلستُ أدري .. لم تستطِع أن تقف على قدميها، ولم تكن بي بقية من قُوّة، ولم يكن لنا ما يمدنا بأسباب الحياة أو الشفاء.

وعادت العجوز تُتمِّم القصة بقولها: وأخذت أُناضِل — وحيدة — فترة من الزمن .. وفي النهاية إنهارت قُواي أيضًا فقد كنت أفتقِر إلى الطعام وغدوت في ضعف شديد .. أمَّا الفتاة فقد ضمر جسمها، ونخر الإعياء عِظامها. حاولت أن أغريها حتّى تذهب إلى الجيران ولكنها أبت أن تترك الكوخ بل زحفت إلى ركن الكوخ وانزوت قابِعة هناك ..

بالأمس الأول، أتت إلينا إحدى الجارات تفتقدنا، ولكنها ما أن رأت ما نحن نُعانيه من جوع ومرض حتّى أدارت ظهرها ومضت .. لقد كان لها ما يكفيها من الشقاء والعناء، لم يجد زوجها مناصًا من الهجرة إلى حيث لا تعلم، أمَّا هي فلم يكن لديها ما تُطعِم به صغارها .. وهكذا رقدنا كلنا .. ننتظر الموت.

أصغى أليشع لكل كلمة، وأرهف أُذنيه للأنين الذي تسلّل بين الكلمات، ووصلت التنهيدات إلى أعماق قلبه ليتردد صداها في نفسه. لم تكد تنتهي القصة حتّى كان قد استقر على قرار حازِم، لقد أقلع عن فكرة اللحاق بزميله، وقضى الليل كله معهم. وعندما أشرق الصباح نهض من فِراشه، وأخذ يقوم بأعمال البيت، كما لو كان البيت بيته هو. بمعونة العجوز، عَجَنْ الدقيق ثم تركه حتّى اختمر، وأوقد النار .. ثم أخذ الفتاة الصغيرة واصطحبها إلى أحد البيوت المُجاورة ليقترِض الأدوات الضرورية التي لا غِنى عنها، لأنَّ الكوخ كان قد تجرّد تمامًا من كل شيء .. من أجل الخُبز اضطروا إلى بيع أواني الطهي والملابِس وكل شيء ..

وهكذا أخذ أليشع يُعد الضروريات، صَنَعْ بعضها بنفسه واشترى البعض الآخر .. كان الوقت يمضي وهو لا يشعر، فقد قضى معهم يومًا ثانيًا ثم ثالِثًا حتّى بدأ الصبي يسترِد شيئًا من قُواه. وكلّما رأى أليشع جالِسًا كان يزحف إليه ويلتصِق به ثم يدفِن رأسه الصغير في صدره .. وبدأت تتورد وجنتا الصبية، وتلتمِع عيناها وتُتابِعه أينما ذهب تُساعده في كل عمل، وكلّما انشغل عنها تُناديه: بابا .. بابا.

وأحسّت العجوز دبيب القُوّة والعافية يسري في أوصالها، واستطاعت أن تُبارِح الكوخ لكي تفتقِد هذه الجارة أو تلك .. وفي هذه الأثناء أيضًا تقدمت صحة الرجُل، وواتته القُوّة على النهوض والتمشّي في أرجاء الكوخ وهو يستنِد بيده على الجدار .. لم يبقَ سوى الزوجة وحدها، لم تستطِع أن

تقف على قدميها، ولكن – حتّى هذه – استردت وعيها في اليوم الثالِث، وفتحت فمها تطلُب الطعام.

وفكّر أليشع في نفسه: حسنًا .. لم أكن أتوقع أن أُضيِّع كل هذا الوقت في الطريق .. على أي حال، لابد لي أن أستأنِف الرحيل.

الرحيل

في اليوم الرَّابِع كانت الاحتفالات الدينية ستُجرى في الكنائِس بالعيد الذي يعقُب صوم الرُّسل في الصيف. وقد راودت أليشع هذه الفكرة: يحسُن أن أبقى مع هذه الجماعة وأفطر معهم .. أقوم الآن وأذهب لأشتري بعض الحاجات لنحتفِل معًا بالعيد، حتّى إذا جاء مساء الغد أستأنِف رحلتي. وهكذا مضى أليشع إلى القرية، وابتاع شيئًا من اللبن ودقيق القمح وبعض الإدام ... ولمّا رجع ساعد العجوز في أعمال الطهي، حتّى تخبِز الدقيق استعدادًا للغد.

وفي يوم العيد، مضى أليشع إلى الكنيسة، وعاد لكي يتناول الإفطار مع أصدقائهِ الجُدُد في الكوخ، في هذا اليوم استطاعت الزوجة أن تنهض من مرقدها وتتجوّل قليلاً في الكوخ. أمّا الزوج فقد استهل يومه بحلاقِة ذقنه، ثم لَبَسْ قميصًا نظيفًا كانت العجوز قد غسلته، ثم توجّه إلى أحد الفلاّحين الأثرياء يستثير فيه العطف والرحمة لأنه كان قد ارتهن لديه أرضه ومرعاه. ذهب يلتمِس منه أن يسمح له باستغلال أرضه ومرعاه حتّى المحصول الجديد .. وعند المساء عاد الرجُل إلى الكوخ محزون القلب، ولم يكد يسمع سؤالاً عمّا فَعَلْ حتّى انخرط في البُكاء لأنَّ الفلاّح الثري لم تَلِنْ له قناة، أجابه في لهجة قاسية لا تخلو من إهانة: هات ما عليك من مالي ..

ويبدو أنَّ هذا الموقف قد أثار عدّة تساؤلات في ذهن أليشع. كيف

يمكنهم الآن أن يعيشوا؟ سيذهب بقية الفلاّحين لزراعة البرسيم أمَّا هؤلاء فلن يستطيعوا أن يجمعوا الدريس، لأنَّ مرعاهم مرهون. سوف ينضج الشعير ويجمع الناس إلى مخازنهم – وما أجمل المحصول هذا العام!! – ولكن أصحابنا هؤلاء لا أمل لهم في شيء لأنَّ الأفدنة الثّلاث التي يمتلكونها صارت رهينة في يديّ الفلاّح الثري .. وإذا مضيت وتركتهم، فماذا يكون المصير؟ .. ينحدِرون ثانية إلى الحالة التي وجدتهم عليها قبلاً ..

وأخذت الأفكار تتنازع ذهن أليشع، وقرّر أخيرًا أن يمضي هذه الليلة أيضًا معهم، وأن يُؤجِل رحيله حتّى الغد .. وذهب إلى فناء الكوخ لكي ينامِ .. ردّد صلواته ثم استلقى ينتظِر أن يغلِبه النُّعاس ولكن النوم لم يُراوِد أجفانه، تارة يرى أنه لابد له أن يرحل توًا لأنه تخلّف وقتًا طويلاً كما أنفق الكثير من المال، وتارة أخرى يذوب قلبه أسى وحزنًا من أجل هؤلاء المساكين ويُردِّد بينه وبين نفسه: يبدو أنَّ هذا الموضوع لن ينتهي .. في البداية كان هدفي أن أُحضِر لهم بعض الماء، وأُعطي كلاً منهم كسرة من الخُبز .. ولكن انظُر .. كيف تطورت الأمور .. والآن أمامي مشكلة افتداء المرعى والحقل .. وإذا فعلت ذلك فلابد أن أشتري لهم بقرة .. ولابد للرجُل من حصان لكي يحمِل على ظهره حِزَم القمح أو الشعير .. لقد وضعت نفسك – أيها الأخ أليشع – في مأزق لا مخرج لك منه، وانحصرت في عُقدة لا فكاك لك منها .. وقد انصرم حبل أجَلَك وأنتَ الخاسِر إذا قدّمت حساب وكالتك!

ثم نهض أليشع، وجذب من تحت رأسه مِعطفه الذي كان يستخدمه كوسادة، ثم نَشَره وأخذ يزِج بأصابعه في جيوبه حتّى انتشل من أحدها علبة

السعوط. وأخذ قبضة بين أصبعيهِ قرّبها إلى أنفه، ظنًا منه أنَّ السعوط قد يُعينه على جلاء أفكاره.

ولكن بلا جدوى .. لقد ظلّ يُفكِر ويُفكِر، دون أن يصِل إلى نتيجةٍ ما يهدأ لها فِكره. يجب أن يرحل ولكن الرحمة كانت تقف له بالمرصاد تحول دون خروجه .. لم يعرِف ماذا يفعل. وطوى المِعطف ثانية، ووضعه تحت رأسه وظلّ راقدًا على هذا الحال، لا يغمض له جفن حتّى سمع صياح الديكة .. ولكن التعب كان قد أخذ منه كل مأخذ، وتثقلت عيناه بالنوم ..

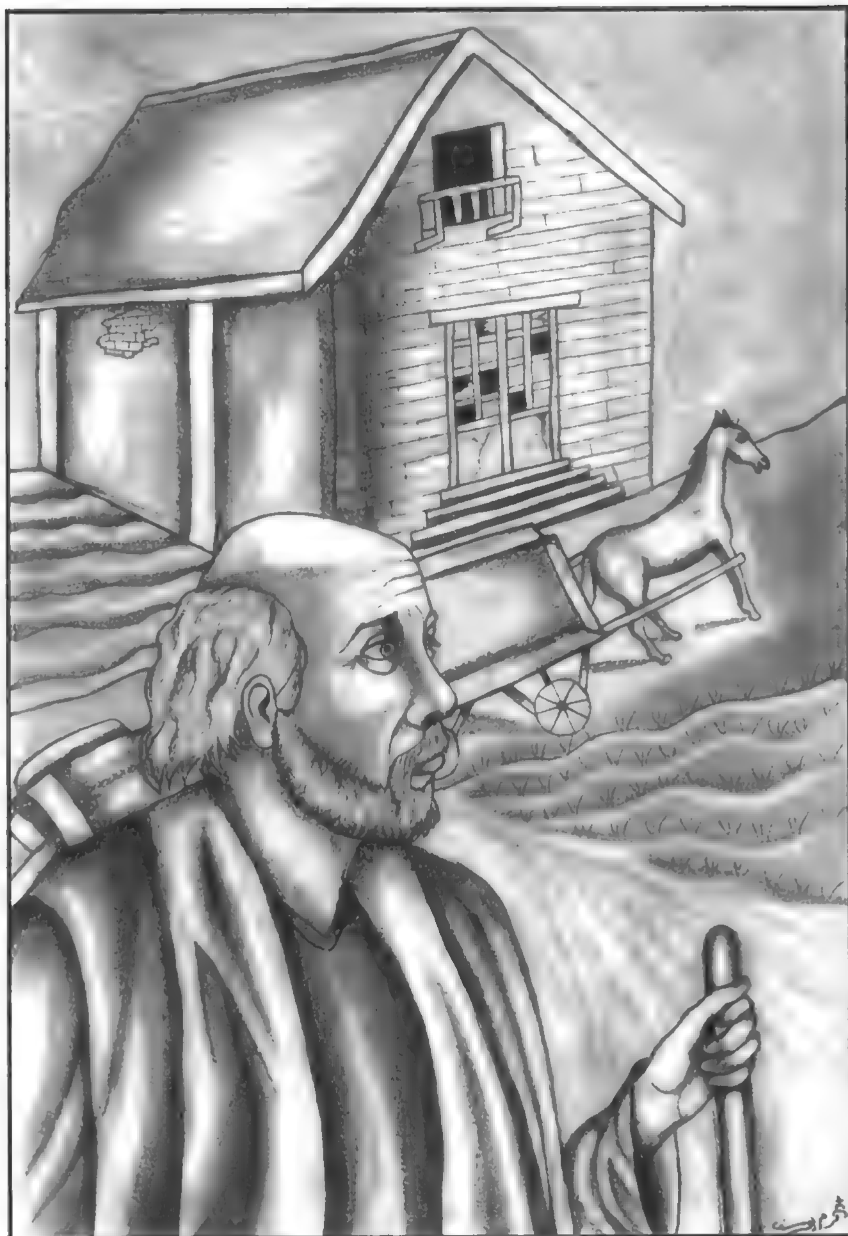
وفجأة رأى شخصًا يقترِب منه ليُوقِظه، قد ارتدى ملابس السَفَرْ، يحمِل كيسًا على ظهره ويتوكأ على عصاه. ثم انفتح باب الكوخ فتحة صغيرة، تسمح له بالجهد أن ينفذ منها. وقد كان على وشك الخروج عندما انحشر الكيس في حافة السور، فحاول أن يُخلِّصه بيد أنه اكتشف أنَّ رباط ساقه قد اشتبك في شيءٍ ما من الناحية الأخرى، وبدأ يسقُط. جذب الكيس بشدة إلاّ أنه تبيّن أنه لم ينحشر في السور حقًا، بل كانت الفتاة الصغيرة هي التي تمسِك به، بينما تسيل الدموع من عينيها وهي تصيح: الخُبز .. يا بابا .. الخُبز.

وحانت منه التفاتة نحو قدميه، وإذا هناك الصبي الصغير يتعلق برباط الساق اليسرى، ويتشبث به بينما صاحِب الكوخ والمرأة العجوز يتطلعان إليه من النافذة .. وهب أليشع من نومه، وتلفّت حوله مُتسائِلاً ما عسى أن يكون هذا. ثم رفع عينيه شاخصًا إلى السماء وهو يُتمتِم قائِلاً: هل أذهب أبحث عن الله في البَّر وعَبْر البحر، بينما أفتقده في داخل نفسي فلا أجده .. رباه!! ماذا أفعل؟

ورقد أليشع ثانية، وغَطَّ في نوم عميق حتّى مطلع النهار. وقام بهمّة ونشاط وذهب على عَجَلْ إلى ذلك الفلاّح الثري حيث دفع فدية الحقل والمرعى واسترد الأرض لصاحبها. ثم عرج إلى السوق وابتاع منجلاً بدل المِنجل الذي اضطروا إلى بيعه، وعاد به إلى المترل. أرسل الرجُل لحصاد البرسيم، أمّا هو فذهب إلى القرية حيث ترامى إلى سمعه أنَّ حصانًا وعربة معروضان للبيع عند الحانة فلم يتردد في الذهاب وعَقَد الصفقة مع المالِك. واشترى جوالاً من الدقيق وضعه على العربة ثم بدأ البحث عن بقرة ..

وبينما كان في طريق عودته، صادف امرأتين عرف من لهجتهِما أنهما من بنات أوكرانيا، واستطاع أن يتبيّن ما تقولان، كانت إحداهما تحكي للأخرى فتقول: في بادِئ الأمر، يبدو أنهم لم يتعرفوا على شخصه، فظنوه إنسانًا عاديًا أتى يلتمِس منهم جُرعة من الماء، ولكنه بعد ذلك بقى معهم .. تصوري يا أختي الأشياء التي اشتراها لهم .. ماذا تظنين؟ يقولون أنه اشترى لهم حصانًا وعربة .. لقد اشتراهما هذا الصباح عند الحانة .. هل يوجد بين الناس رِجال على شاكلة هذا الرجُل .. ما رأيك؟ ألا يجدُر بنا أن نُمر بكوخِهِم لنُلقي نظرة على هذا الغريب؟!

ولّما سمع أليشع هذا الحديث، شعر بشيء من الضيق يلِم بصدره .. لم يشعُر بلذة أو سرور عندما أدرك أنَّ الناس يمدحون عمله .. توقف عن البحث عن البقرة، وعاد إلى الحانة مُسرعًا حيث دفع ثمن الحُصان. وبعد أن حل وِثاقه، اقتاده إلى الكوخ، ثم اتجه إلى الخارج. لقد عقدت الدهشة ألسنة سُكان الكوخ، وهم ينظرون إلى الحُصان ولكن أحدًا لم يجرؤ أن يسأله عمّا إذا كان هذا الحُصان من أجلهم، ولكن الرجُل صاحِب الكوخ أسرع إلى



الباب يفتحه وهو يقول: من أين أتيت بهذا الحصان، يا جدي العزيز؟

ونظر إليه أليشع نظرة فاحصة ثم قال: ولماذا تسأل؟ لقد اشتريته وجدته رخيص الثمن .. اذهب واقطع بعض البرسيم وضعه في المزود حتّى يأكل أثناء الليل .. وخُذ احمل هذا الكيس إلى الداخل.

وحل الرجُل وِثاق الحُصان، وحَمَل الكيس ووضعه في البيدر، ثم مضى وجمع بعض البرسيم ووضعه في المزود.

ثم رقد الجميع استعدادًا للنوم، وخرج أليشع إلى الفناء واستلقى بالقرب من الباب.

وفي هذه الليلة اصطحب حقيبته معه، وعندما استغرق الجميع في النوم، نهض أليشع وأحكم رباط الحقيبة، وثبّتها على ظهره، ثم أحكم الأربطة على ساقيه، ولَبَسْ حذاءهُ ومِعطفه، ثم انطلق في طريقه لا يلوي على شيء، يقتفي أثر زميله الذي سبقه.

العودة

وعندما سلخ أليشع من الطريق ما يربو على ثلاثة أميال، بدأ ينبلِج ضوء النهار، فجلس في ظِل إحدى الأشجار، وفَتَحْ حقيبته وبدأ يُحصي ما بقى معه من نقود، فوجد أنه لا يملُك سوى ٢٧ روبلاً و٢٠ كوبيك. لابد أن يتدبر موقفه، ويقلِب وجوه النظر فيما يجب أن يفعل: حسنًا .. لا فائدة في محاولة عبور البحر بهذا المبلغ الضئيل .. والتسول من أجل السفر أسوأ من عدم السفر كُليةً .. سيصِل صديقي أفيم إلى أورشليم بدوني، وربما وضع شمعة باسمي في الهياكِل المُقدسة .. أمَّا أنا .. ؟! أخشى ما أخشاه ألاّ أتمكن من الوفاء بهذا العهد في هذه الحياة .. ألاّ تُنذِر خير من أن تنذِر ولا تفي .. خطية .. ولكن الحمد لله أني قدّمت هذا العهد إلى سيِّد رحوم .. يغفِر آثام الخُطاة.

ونهض أليشع ثانية، وهز حقيبته حتّى تُثبّت على ظهره ثم قَفَل راجعًا. وقد حرص ألاّ يراه أحد، فغيّر طريقه، وتجنب طريق القرية وجَدْ في السير إلى بلدته. كان الطريق وعرًا شاقًا، أو هكذا بدا له عندما بدأ الرحلة مع أفيم، ولم يستطِع اللحاق به أو مُجاراته في سُرعة المسير. أمَّا الآن فكان يشعر أنَّ معونة الله تُصاحبه، فأخذ يسير في همّة ونشاط، قلّما يحِس بالتعب. بدأ مسيرته كأنها ملهاة أطفال، مضى قدمًا يهز عصاه في يده، يقطع في اليوم أربعين أو خمسين ميلاً.

عندما وصل أليشع إلى بيته، كان الحصاد قد انتهى. وانتاب أفراد الأُسرة جميعًا شعورٌ غامرٌ بالفرح والسرور بعودته، والتفوا حوله يسألونه عمّا حدث؟ رحلته، وكيف تخلّف في الطريق؟ ولماذا رجع دون أن يصل إلى أورشليم؟ ولكن أليشع لم يفصِح عن شيء مِمّا حدث، بل اكتفى بقوله: لم تشأ إرادة الله أن أذهب إلى هناك. لقد فقدت مالي في الطريق، وتخلفت عن مرافقة زميلي .. أخطأت سامحوني من أجل الله ..

وأخرج أليشع ما تبقّى معه من نقود وأعطاها إلى زوجته العجوز. ثم بدأ يستفسر عن بعض شئون الدار، كل شيء كان يجري كما يُحب على خير منوال. لم يُهمَل شيء من العمل، والجميع كانوا يعيشون في رابِطة حلوة من المحبة والسّلام.

وترامت أنباء عودته إلى أُسرة أفيم في نفس اليوم، وأقبلوا يتساءلون عن أخبار زميله العجوز، وجواب أليشع لا يتغير: أفيم سريع المشي، وقد افترقنا قبل عيد مارِ بطرس بثلاثة أيام. كنت أُريد اللحاق به ثانية، ولكن الظروف لم تكن مواتية. ولّما فقدت مالي، وعدمت الوسيلة للمُضي في الرحلة، آثرت العودة ..

وقد دُهِش الناس كيف يتصرّف مثل هذا الرجُل العاقِل، على هذه الصورة التي تدُل على الغباء .. لم يحسِب النفقة!! لقد بدأ رحلته ولكنه لم يصِل إلى غايته .. لأنه أسرف وبدّد ماله. وهكذا لم تخلُ قصة أليشع من التعليقات المُرّة، وظلّت تُلوكها الألسِنة حينًا من الزمن، ثم بدأ سِتار النسيان ينسدِل عليها، وأخذ الناس ينسون كل ما يتصل بها حتّى أليشع نفسه .. نسى كل شيء تمامًا، وعاد إلى عمله كما كان شأنه، وأقبل عليه، يُساعده

ابنه في قطع الأخشاب وجمعها لوقود الشتاء، وساعدته النساء في درس القمح، ثم أصلح من طلاء المترل من الخارج، ووضع النحل تحت غطاء خاص وسلَّم جاره المناحِل العشرة التي باعه إيّاها في الربيع، مع جميع الخلايا التي أنتجتها .. وقد حاولت زوجته أن تُنكِر الخلايا التي أنتجتها هذه المناحِل، إلاّ أنَّ أليشع – بخبرته الطويلة – كان يعرف جيدًا أي المناحِل أنتج خلايا وأيُّها لم ينتُج. وبدلاً من أن يُعطي جاره عشرة خلايا سلّمه سبع عشرة خلية. ولّما أتم جميع الاستعدادات لموسم الشتاء، أرسل ابنه ليبحث عن عمل، بينما انكب هو على عمله في ضفر الأحذية، وحفر كُتَل الخشب حتّى تصلُح للمناحِل.

رفيق السفر

في ذلك اليوم، الذي قضاه أليشع بجوار المرضى في الكوخ، ظلّ أفيم ينتظِر عودته. و لم يكن قد قطع شوطًا بعيدًا عندما جلس ينتظِر وينتظِر حتّى طال به الانتظار وأليشع لم يعُد. وأخذ يحدِق ببصره في الطريق وفي المارة حتّى كلّت عيناه .. وأخذت الشمس تغيب والظلام يبسِط أجنحته الحالكة، وليس هناك أثر ما يدُل على أليشع على مدى البصر.

وانتاب أفيم الشك حتّى قال في نفسه: لعله مر بي دون أن أراه، أو لعل أحدهم تطوع باصطحابه في عربته، ومرّت عربته بي بينما أخذتني سنة من النوم فلم أرهم و لم يُشاهداني .. ولكن كيف يمكن أن يتجاوزني فلا يراني ولا يبحث عني؟ في هذه المنطقة العالية، التي تُتيح للمرء أن يرى على بُعد .. هل أعود؟ ولكن من يُدريني؟ ربما سبقني وفي هذه الحالة لا يمكن أن نلتقي على الإطلاق .. فيزداد الموقف سوءًا .. الأفضل أن أُواصِل السير، وربما تلاقينا عندما تحين ساعة النوم، فعند المبيت لا شك في فرص اللقاء.

وبلغ أفيم إحدى القرى، وأوصى الحارس الليلي، أن يُوقِظه إذا رأى كهلاً تنطبِق عليه أوصاف أليشع الخاصة، فيُحضِره إليه في المسكن الذي نزل به .. ولكن أليشع لم يأتِ في تلك الليلة .. ومضى أفيم في طريقه، يسأل كل من يُقابله عمّا إذا كان قد صادف رجُلاً عجوزًا صغير الجسم أصلع الرأس. ولكن أحدًا لم يدله على مثل هذا المُسافِر. أخذ منه العجب كل

مأخذ، ولكنه واصل المسير مُمَنِيًا نفسه بأنه لابد أن يتلاقيا في أوديسا أو على ظهر المركب .. ومع مرور الأيام تناقص فضوله حتّى أنه لم يُحاول أن يُعير الأمر التفاتًا.

وفي أثناء الطريق، قابل أحد الحُجاج يرتدي ثوبًا فضفاضًا، وقد استرسل شعر رأسه ووضع على رأسه عمامة تُشبِه عمائِم الكهنة. كان هذا الحاج قد ذهب إلى جبل أثوس، وهو الآن في طريقه إلى أورشليم للمرّة الثّانية. وبعد أن جمعهُما اللقاء في إحدى الليالي لم يفترِق الرجُلان بعد ذلك.

وصل المُسافران إلى أوديسا، وكان عليهما أن ينتظرا ثلاثة أيام قبل أن يعتليا ظهر المركب الذي سيقلهما عبر البحر. وقد ازدحمت المدينة بالحُجاج الذين أقبلوا من جهات مختلفة. وخطر في بال أفيم أن يسأل من جديد عن صديقه أليشع ولكن كل جهوده ذهبت أدراج الرياح. استخرج أفيم لنفسه جواز السفر الذي كلّفه خمسة روبلات كما دفع ٤٠ روبلاً ثمنًا لتذكرة الذهاب والعودة من أورشليم واشترى من المؤونة ما يكفي رحلته، من الخُبز والرنجة.

وأخذ الحاج المُرافق لأفيم يشرح له كيف يستطيع أن يركب السفينة دون أن يدفع الأجر، ولكن أفيم رفض أن يُصغي لهذه النصائح وأجابه في حزم قاطع: لا .. لقد أتيت مُستعدًا للدفع .. ولهذا فسوف أدفع الأجر.

وأتت السفينة، وكدّست فوقها البضائع ثم ركب الحُجاج بما فيهم أفيم ورفيقه الجديد، ورُفِعَت المراسي وأقلعت السفينة إلى عرض البحر .. ولم تظهر أيّة بادرة لأليشع ..

أبحرت السفينة طيلة النهار، في جو هادئ مُمتِع .. ولكن عندما بدأ

النهار يميل أخذت الرياح تهُب وتشتد، وبدأت الأمطار تسقُط ثم تنهمر، وأخذت السفينة تميل يمينًا وشمالاً يغمُرها ماء المطر. وتسلّل الخوف إلى قلوب الرُّكاب، ثم بدأ الذُّعر يُسيطِر في عنف وقسوة، فولولت النساء وارتفع صُراخهن، وأخذ بعض الرجال — لم يستطيعوا أن يتمالكوا أنفسهم — يجري هنا وهناك يبحثون لأنفسهم عن ملجأ يحتمون به. كان أفيم أيضًا قد تملّكه الخوف ولكنه احتفظ برباطة جأشه أمام الآخرين فظل في مكانه على ظهر السفينة إلى جوار بعض الشيوخ الذين قدموا من ثاميوف. جلسوا جميعًا طيلة هذه الليلة يُخيّم عليهم صمت مُطبق. وطُوال النهار التالي لم يغيّروا من جلستِهِم وقد تشبثوا بأكياسِهِم حتّى بدأت حدّة الريح تهدأ في اليوم الثّالث. وفي اليوم الخامس ألقت المركب مراسيها عند القسطنطينية حيث نزل بعض الحُجاج لزيارة كنيستها المشهورة "أجيا صوفيا" التي آلت — فيما بعد — للأتراك. ولكن أفيم ظلّ في السفينة لا يُبارحها، ولم يشترِ سوى بعض الخُبز الأبيض. وبعد أن ظلت السفينة هناك أربعًا وعشرين ساعة، أقلعت ثانية نحو البحر ثم وقفت في أزمير ثم الأسكندرونة وفي نهاية المطاف رست في ميناء يافا حيث نزل الحُجاج. ومن هناك كان عليهم أن يقطعوا ما ينوف على الأربعين ميلاً حتّى يصلوا المدينة المُقدسة أورشليم. لقد راود الخوف قلوب الحُجاج ثانية وهم ينزلون إلى الشاطئ فقد كانت السفينة عالية كالبُناء الشامِخ وهم يهبطون من ظهرها إلى القوارب التي كانت تتأرجح بشكل يُنذِر بالخطر ولا يُوحي بالطُمأنينة. قد يفقد المرء توازنه ويسقُط في البحر .. وبالفعل قد أُصيبَ رجُلان بالبلل .. ولكن — في النهاية — وصل جميع الرُّكاب إلى الميناء سالمين.

وبدأ الحُجاج رحلتهم على الأقدام، وفي اليوم الثّالث عند الظهيرة وصلوا مشارِف المدينة ووقفوا هناك في دار الضيافة الروسية، حيث تم اعتماد جوازات السفر. وبعد تناول طعام الغذاء، زار أفيم الأماكن المُقدسة في صحبة رفيقه. وقبل أن يحِل دورهما للدخول إلى القبر المُقدس، ذهبا إلى البطريركية حيث احتشدت جموع الحُجاج، وقد انفصلت النساء عن الرجال وطُلِب إليهم أن يجلسوا في شكل دائرة عُراة الأقدام. وأقبل أحد الآباء الرُهبان يحمل منشفة في يده لكي يغسِل أرجُلهم. وبدأ فعلاً يغسِل أقدامهم ويمسحها ثم يُقبِّلها. لقد صنع هذا مع كلٍّ منهم .. مع أفيم أيضًا .. وعندما حل موعد صلاة النوم وقف ناهضًا يُتمتِم صلاته، وقد تكرّر هذا أيضًا في صلاة باكر، تقدّم بعدها يُضئ الشموع أمام الهيكل ويضع ورقة صغيرة كتب فيها أسماء والديه حتّى يكون لهما نصيب في بركة صلوات القداس.

وفي البطريركية وزّع على الحُجاج الطعام والنبيذ. وفي صباح اليوم التالي ذهبوا لزيارة الكهف الذي كانت تعيش فيه القديسة ماريا المصرية، بعد أن عقدت عزمها على حياة التوبة والندم .. وهناك أيضًا وضعوا الشموع ورفعوا الصلوات، ومن هناك ذهبوا إلى دير إبراهيم وتأملوا المكان الذي أزمع إبراهيم أن يُقدم فيه ابنه إسحق مُحرقة أمام الله ... وقاما – بعد ذلك – بزيارة المكان الذي ظهر فيه الرب يسوع لمريم المجدلية، كما طافوا بكنيسة القديس يعقوب أخي الرب.

وأمسك الحاج بيد أفيم وجال به في كل هذه الجهات، يُرشده إلى ما يجب أن يفعله أو يدفعه في كلٍّ منها .. وعند مُنتصف النهار رجعا إلى دار

الضيافة حيث تناولا طعام الغذاء. وعندما بدأ الرجُلان أهبتهُما للنوم حتّى يأخذا قسطًا من الراحة، أخذ الحاج يصيح، ويُفتِش جيوبه، ويقلِب ملابسه رأسًا على عقب وهو يُردِّد: لقد سُرِقت حافظة نقودي، كان فيها ٢٣ روبلاً، ورقتان من ذوات العشرة روبلات، والباقي من قِطَع العُملة الصغيرة ..

وأخذ يتنهد، ويبكي ماله الضائع، ولكنه لّما لم يجد في ذلك نفعًا أو جدوى كف عن الصياح والضجيج، وأخلد إلى السكون ثم اضطجع لكي ينام.

تجارُب الفِكر

حاول أفيم أن ينام، ولكن صراعًا عنيفًا كان يدور في ذهنه، ولا يسمح لعينيه أن تستسلِما للنوم. لقد ألح على فِكره هذا الخاطر: أنَّ أحدًا لم يسرق شيئًا من هذا الحاج! .. بل ولا أعتقد أنه كان يحمِل معه أي مبلغ من المال .. لم أرهُ يدفع دِرهمًا في أي مكان ذهبنا إليه، مع أنه كان يحثني على الدفع والبذل والسخاء؟! .. بل أكثر من هذا أنه اقترض مني في إحدى المرّات روبلاً .. ولم يرده لي ..

ولم يكد يمُر هذا الخاطر في رأسه، حتّى أخذ يلوم نفسه بعنف: أي حق لي أن أكون ديّانًا للآخرين؟ هذه خطية .. لن أُفكِر في هذا الموضوع بعد الآن. ولكن عندما بدأت الأفكار تُراوِد ذهنه، بدأت تلِف وتدور من جديد حول هذا الحاج .. يبدو أنه شديد الحرص على المال ... عندما صاح الحاج يُعلن أنَّ حافظة نقوده قد سُرِقت، اندهش جدًا وبدا أنَّ هذا القول غريب غير مُحتمل الوقوع .. لا شك أنه لا يملُك شيئًا من المال على الإطلاق .. أكاد أجزم أنَّ قصته كلها مُختلقة، ولا أساس لها من الصحة.

وقبل أن يحل المساء، استيقظ الرجُلان واتجها صوب كنيسة القيامة العظيمة، حيث يوجد القبر المُقدس، وقد عقدا العزم على حضور قُداس نصف الليل. ظلّ الحاج يُلازم أفيم، لا يُفارقه في غدوه ورواحه. وعندما

وصلا إلى الكنيسة وجداها قد اكتظت بالحُجاج .. بعضهم من الروس والبعض الآخر من جنسيات مُتباينة، يونانيين وأرمن وأتراك وسوريين وغيرهم .. عَبَرَ أفيم الأبواب المُقدسة مع الجماهير الحاشدة، وقادهم أحد الرُهبان وأجازهم مناطِق حراسة الأتراك، ووصل بهم إلى المكان الذي أنزلوا فيه المُخلّص من على الصليب وكفّنوه بالأطياب والحنوط .. وهناك كانت أعداد كبيرة من الشموع المُضاءة، وقد صُفّت على تسع من الحوامِل الكبيرة. وبينما كان الراهب يقودهم كان يشرح لهم ويصِف كل الأحداث التي مرّت بهذا المكان أو ذاك. ووقف أفيم برهة لكي يُوقِد إحدى الشموع رهبة وإجلالاً. وبعد ذلك قادهُما الراهب إلى اليمين، وصعد درجات السلم الذي يؤدي إلى الجُلجثة، حيث كان الصليب موضوعًا ... وتحرك قلب أفيم في عنف ورفع صلاة حارّة إلى الله. ثم أخذه بعد ذلك لكي يُشاهد الشقوق التي أصابت الأرض وامتدت إلى أعماقها، ثم المكان الذي سُمِرت فيه يدا المسيح وقدماه على خشبة الصليب، ثم قبر آدم حيث سقطت بِضع قطرات من دم المُخلّص على عِظام آدم المسكين .. وبعد ذلك رأى الحجر الذي جلس عليه المسيح عندما وضعوا إكليل الشوك على رأسه، وعلى قُرب منه العمود الذي قيدوه إليه عندما جلدوه ... ثم رأى أفيم الحجر الذي انطبعت عليه آثار قدمي الرب .. وكان الرِفاق على وشك أن ينتقلوا إلى أماكن أخرى لولا أن حدث – فجأة – هَرَج ومَرَج بين الجموع المُتزاحِمة، وأخذ الجميع يُهروِلون إلى قبر المُخلّص نفسه. كان القُداس اللاتيني قد انتهى وشيكًا، وبدأت صلوات القُداس الروسي، ووجد أفيم نفسه مُنساقًا بين الجمهور إلى القبر الذي نُحِتَ في الصخر.

في هذه الأثناء، حاول أفيم أن يتخلّص من رفيقه الحاج، فقد كانت الوساوِس والشكوك تُساوره، وقد هاجت عليه مشاعره لأنه كان يعتقد أنه يُخطِئ في حق هذا الحاج بفِكره .. إلاّ أنَّ صاحبه لم يشأ أن يفترِق عنه، بل صاحبه إلى القُداس الإلهي في القبر المُقدس. حاولا أن يشُقّا طريقهُما إلى المُقدمة ولكنهما فشلا في ذلك، فقد تراصت جماهير المُصلين، حتّى تعذّر على المرء أن يتزحزح من مكانه في أي اتجاه. ووقف أفيم وقد وجّه نظره إلى الأمام، وراح يبتهِل إلى الله .. ولكنه كان يتحسّس جيبه من حين إلى آخر، ويتلمس حافظة نقوده. كانت الخواطر تتجاذبه من نشوة الصلاة، فيقلِب الفِكر في الأمر .. أحيانًا يظُن أنَّ الحاج كان يخدعه، ويظُن – تارة أخرى – أنَّ لعله كان يقول الصِدق .. وحتّى في هذه الحال، قد يحدث له هو ما حدث لرفيقه من قبل ..

فرحة .. لم تتم

وقف أفيم يُحملِق في الهيكل الصغير، الذي يضُم القبر المُقدس، وأخذ يُعِد المصابيح الثّلاثة والستين التي تُضئ فوقه. وبينما يتطلع مشرئبًا فوق رؤوس الجماهير، رأى ما أثار الدهشة والعجب في نفسه. هناك تحت المصابيح، حيث تشتعِل النار المُقدسة، وفي مُقدمة الجميع رأى أفيم رجلاً كهلاً، رأسه أصلع وسُترته رمادية .. لا شُبهه أنه أليشع بودروف بعينه ..

ولكن أفيم فكّر في نفسه قائِلاً: أنه يُشبهه تمامًا .. ولكنه لا يمكن أن يكون أليشع، فهو لا يستطيع أن يسبقني لأنَّ السفينة التي أبحرت قبل سفينتنا رحلت قبلها بأسبوع، ولم يكن في مقدوره أن يلحق بها .. ثم أنه لم يركب في سفينتنا .. لقد رأيت جميع الحُجاج الذين على ظهرها ..

ولم يكد أفيم يفيق من دهشته، ويستبعِد وجود أليشع، حتّى رأى العجوز يُصلي وينحني ثلاث مرّات، سجد في المرّة الأولى لله، ثم طامن برأسه نحو الجانبين في اتجاه الأُخوة، وعندما أدار رأسه إلى اليمين، تعرّف أفيم على شخصيته، وقطع الشك باليقين، فقد كان هو بعينه أليشع بودروف بلحيته المُتموجة السوداء، التي وَخَطَها المشيب عند وجنتيهِ، وعند حاجبيهِ .. لقد رأى عينيهِ وأنفه وتحقّق من ملامح وجهه التي يعرفها جيدًا .. نعم إنه هو بلا شك.

وأحس أفيم بسعادة غامرة، لأنه وجد صديقه مرّة أخرى .. ولكن



حاول أن يصِل إلى المُقدمة إلاّ أنَّ الجماهير كانت تدفعه إلى الخلف، ولهذا وقف إلى جوار أحد الأعمدة يُصلي ويبتهِل .. ثم بدأ يُحملِق بعينيهِ .. هناك تحت المصابيح .. وفي المُقدمة .. وبالقرب من قبر السيِّد كان أليشع واقفًا وقد بسط ذراعيه، كما يفعل الكاهن أمام المذبح، ورأسه الأصلع يلمع بين أضواء الشموع.

وهَمَسْ أفيم لنفسه في إصرار: حسنًا، الآن لن أدعه يفلِت من يدي .. وتقدّم يشُق طريقه إلى الأمام، واستطاع أن يصل بالفِعْل إلى المُقدمة .. ولكنه لم يجد أليشع .. لقد مضى بعيدًا ..

وتكرّر هذا المشهد في اليوم الثّالِث، حين بُهِتَ أفيم إذ رأى أليشع في أقدس مكان من القبر، وعلى مرأى من جميع الناس، وقد رفع ذراعيه وشَخَصَ بعينيهِ إلى السماء، كما لو كان يُبصِر شيئًا في العلاء .. وأشعة الضوء تنكسِر وتبرُق على رأسه الأصلع ..

وأعمل أفيم فِكره واستقر على رأي راجح: لن يستطيع الهرب مني .. سأقف عند الباب وأنتظر .. ولا يضِل أحدنا عن الآخر ..

وذهب أفيم ووقف عند الباب إلى أن انصرم مُنتصف النهار، وعَبَرْ أمامه كل الحُجاج الذين كانوا في داخل الكنيسة، ومع ذلك لم يظهر أليشع!

ظلّ أفيم في أورشليم ستة أسابيع، تمتّع فيها بمشاهدة جميع المزارات: بيت لحم، وبيت عنيا، ونهر الأُردن. ووضع في القبر المُقدس رداء جديدًا حتّى يلفه به ذووه عند دفنه. وملأ زجاجة من ماء الأُردن، وأخذ معه حِفنة من تراب الأرض المُقدسة، واشترى شمعة أوقدها تلك الشرارة التي تنبثِق من

القبر المُقدس في ليلة سبت النور، ونَقَشْ اسمه في ثمانية أماكن طالبًا من قارئيه أن يذكروه في صلواتِهِم، وأنفق كل ما معه من النقود بعد أن احتجز مبلغًا مُناسبًا يكفي نفقات عودته.

ثم بدأ رحلة العودة، سيرًا على الأقدام إلى يافا، ومن هناك أبحر إلى أوديسا حيث بدأ طريقه الطويل إلى قريته.

بركات في الطريق

واجتاز أفيم في عودته نفس الطريق الذي سلكه في رحلة الحج. وكلّما تقدّم في طريقه أحس أنه يقترب من بلدته، فتُساوره المخاوف الأولى، عن الشئون التي تركها بين يديّ ولده حتّى يقوم بها في غيبته .. ويتذكر المثل القائل "ما أكثر الماء الذي يضيع أثناء السنة" وقد يحتاج المرء إلى وقت طويل، وربما يقضي حياته كلها لكي يبني لنفسه بيتًا، ولكنه لا يحتاج إلى هذا الوقت الطويل إذًا عنَّ له أن يهدِم البيت. كانت هذه الأفكار تشغِل ذهنه، فيلِح عليه القلق فيما إذا كان ابنه قد نجح — بدونه — في النهوض بتلك الأعباء .. كيف قضت الأُسرة أيام الربيع؟ وكيف اعتنوا بالقطيع خلال أيام الشتاء؟ وتاقت نفسه إلى معرفة ما إذا كان الكوخ قد تم بناؤه أم لا؟ .. وعندما وصل إلى أوكرانيا حيث افترق عنه أليشع في الصيف السابق، لم يُصدِق ما رأته عيناه .. لقد تغيّر كل شيء حتّى رفض أن يُصدِق أنَّ السُّكان كما هم لم يتغيروا .. لقد اختفت كل صور المجاعة وآثارها، وبدا على الناس أنهم يعيشون حياة الراحة والدِعة .. لقد أعطتهم الأرض محصولاً طيِبًا، واسترد الناس قُواهم وعافيتهم، وانزوى في طوايا النسيان كل ما قاساه الناس من عِنت وشقاء.

ثم وصل أفيم — في إحدى الليالي — إلى نفس المكان الذي تخلّف فيه أليشع. وما كاد يدخل القرية حتّى أسرعت إليه إحدى الفتيات في ردائِها

الأبيض، وقد انطلقت تجري نحوه من أحد الأكواخ وصاحت تُرحب به: يا أبي .. يا أبي تعال إلى بيتنا ..

كان أفيم يُريد مواصلة المسير، ولكن الفتاة الرقيقة تشبثت به ولم تدعه يمضي. وأخذت تجذبه، ضاحِكة، نحو الكوخ الذي وقفت على بابه امرأة وبجانبها صبي .. وأومأت المرأة إلى الضيف الذي تقتاده صغيرتها وهي تقول: تعال يا جدي، وادخل .. اكسر معنا خُبزًا، وتناول العشاء ثم اقضِ ليلتك ..

وهكذا دخل أفيم .. ثم خطرت في باله فكرة انبسطت لها أسارير وجهه؛ لعلني أستطيع أن أستدِل على أليشع، أو أجد خيطًا يوصلني إليه .. يُخيّل إليّ أنَّ هذا هو الكوخ الذي عرج عليه يطلُب جرعة من ماء ..

وأعانته المرأة على التخفُّف من الحقيبة التي يحملها على منكبيه، وقدمت له بعض الماء لكي يغتسِل ثم دعته إلى المائدة حيث وضعت في متناوله كوبًا من اللبن وبعض الكعك والأرز .. ولم يجد أفيم بدا من تقديم الشكر على حُسن صنيعها، ولطفها إلى أحد الحُجاج، ولكنها هزّت رأسها في شيء من الإباء وهي تقول: لدينا من الأسباب ما يحملنا على الحفاوة بالحُجاج. لقد كان أحدهم صاحب الفضل في إرشادنا إلى معنى الحياة .. كنا نعيش بعيدًا عن معرفة الله، فصب علينا غضبه حتّى بلغنا حافة الموت .. في الصيف الماضي، يا سيِّدي، أصابنا المرض فأقعدنا حتّى عن الحركة، ولم يكن لدينا لقمة نتبلّغ بها أو نُسكِت بها بطوننا الجائِعة .. كدنا نموت جوعًا، لولا رحمة الله التي تداركتنا، فأرسلت لنا رجُلاً عجوزًا يُشبهِك فأمدنا بالمعونة — لقد أتى ذلك العجوز في أحد أيام الصيف القائِظة يلتمِس منّا جرعة ماء، فهالهُ

ما رأى من حال، فأخذته الشفقة بنا ومكث معنا لا يُفارِقنا .. وهبنا طعامًا لنأكل، وماء لنشرب حتّى تمكنّا من الوقوف على أقدامنا .. ولم يكتفِ بهذا بل سدّد ما علينا من ديون واسترد لنا أرضنا، ثم اشترى لنا عربة وحصانًا وتركهُما لنا ...

وهنا دخلت المرأة العجوز، فقاطعت المرأة الشابّة التي كانت تسرِد قصتها على أفيم، بقولها: في الحقيقة نحن لا نعلم هل كان ذلك الرجُل إنسانًا أم ملاكًا من قِبَل الله – لقد أغدق علينا جميعًا من حُبه، وشملنا كلنا بعطفه وإحسانه .. ثم مضى عنّا دون أن يبوح لنا حتّى باسمه؟! ولذلك فنحن نُصلي ولا نعلم عمن نطلُب .. إني أتذكر كل شيء ماثِلاً أمام عينيّ حتّى الآن .. كنت أرقُد هناك أنتظر الموت بين لحظة وأخرى، عندما دخل علينا رجُل أصلع، ليس فيه ما يلفِت النظر، دخل يطلب جرعة ماء .. أمّا أنا – الخاطئة – فقد قُلت في نفسي: ما الذي دعا هذا الرجُل إلى المجئ إلينا؟ ولكن انظر ما صنعه هو بنا!! ما كادت عيناه تقع على ما كنّا نُعانيه من بؤس وشقاء حتّى أنزل حقيبته، في هذه البقعة بالذات، وفك أربطتها، ولكن الفتاة الصغيرة قاطعت جدتها العجوز وقالت: لا يا جدتي .. لقد وضعها هنا أولاً، في وسط الكوخ، ثم رفعها على المقعد الخشبي الطويل ..

ثم اشترك الجميع في مناقشة طويلة، تذاكروا فيها كل ما قاله لهم أو فَعَلْ من أجلهم .. أين كان يجلس، وأين ينام؟ وماذا قال لكل واحد أو واحدة منهم .. وعندما أرخى الليل سدوله، أقبل الفلاّح إلى بيته وانضم إلى بقية أفراد أُسرته، يروي كيف عاش الغريب معهم، ثم اختتم ذكرياته، وهو يمد بصره إلى الأُفق البعيد ويقول: لو لم يُقبِل إلينا، لكان مصيرنا المُظلِم هو

الموت في خطايانا وآثامنا. لقد كنّا نتوقع الموت ونحن في أشد حالات اليأس المُطبق، نجأر بالشكوى، ونتذمر بالسخط على الله والناس .. ولكنه أتى وساعدنا حتّى نهضنا من كبوتنا، وعلمنا كيف نعرِف الله، وأدركنا يقينًا أنَّ الخير والحب مازالا في قلوب الناس .. فليُباركه الله! لقد كنّا نعيش كالبهائِم والسائِمة، ولكنه جعل منّا بشرًا.

وبعد أن انتهى أفيم من العشاء، أخذوه إلى مرقده وانصرفوا عنه إلى فراشِهم وراحوا في سُبات عميق .. ولكن النوم فارق عينيّ أفيم .. لم يستطِع أن ينتزع أليشع من أفكاره .. بل راوده ذلك المنظر الذي تكرّر أمامه ثلاث مرّات في أورشليم، وهو يرى أليشع واقِفًا يتضرع في مُقدمة الصفوف.

ووجد نفسه يُطارِح نفسه: إذًا .. فقد سبقني فعلاً .. لقد زُرت الأماكن المُقدسة، هذا صحيح .. هل قَبلَ الله هذا الحِج مني، أم لا .. ؟ أمَّا هو، فلا شك أنَّ الله قد قَبلَ حِجته.

وفي صباح اليوم التالي، ودّع أفيم أفراد الأُسرة ولكنهم لم يدعوه يُغادِر البيت دون أن يُزودوه ببعض الفطائِر التي وضعوها في حقيبته. ثم انطلقوا إلى عملِهم، ومضى هو في طريقه إلى بلده.

اللقاء

استغرقت هذه الرحلة من أفيم عامًا كامِلاً، وأقبل الربيع التالي، الذي وصل في إحدى لياليه إلى بيته .. لم يكن ابنه في الدار، لأنه كان في الحانة. وعندما عاد إلى المترل كان ثملاً مخمورًا و لم يجد أفيم بدا أن يسأله ويُحاسبه، فقد كانت كل الدلائِل تُشير إلى اعوجاج سلوكه، واستغلال حريته وسلطانه أسوأ استغلال أثناء غيبة أبيه. لم يصرِف المال في وجوهه الصحيحة، بل بدّده وأتلفه كما أهمل العمل اهمالاً تامًا. وأخذ أفيم يُوبخ ابنه توبيخًا شديدًا صارِمًا، ولشد ما ساء في عينيه أنَّ ابنه كان يُجيبه في تمرُّد ووقاحة: ولماذا لم تبقَ معنا، وتُشرِف على كل شيء بنفسك؟ لقد غادرتنا وأخذت كل المال معك، ثم تأتي بعد ذلك كله تطلبه مني!!

واستشاط الرجُل غضبًا فهب واقِفًا وصفع ابنه على وجهه. وفي الصباح توجه أفيم إلى العُمدة، يشكو إليه مسلك ابنه المُنحرِف، ولكنه بينما كان في طريقه إليه مر ببيت صديقه أليشع، وقد رأته زوجته وأقرأته السّلام وهي في فِناء البيت ثم قالت: كيف حالك أيها العزيز؟ لعلك وصلت إلى أورشليم في أمن وسلام. فتوقف أفيم عن السير وأجابها: نعم .. الحمد لله. لقد وصلت إلى هناك، ولكن زوجِك العجوز اختفى فجأة عن ناظري فلم أجد له أثرًا، ولكني شكرت الله إذ سمعت أنه رجع إلى بيته سالِمًا.

وراق الحديث للمرأة، فاستطردت تقول: نعم .. لقد عاد .. رجع منذ

زمن طويل .. رجع – فيما أعتقد – بعد عيد السيِّدة العذراء بقليل. وقد شكرنا الله كثيرًا على سلامته. في الواقع كان يُخيِّم على البيت جو من الكآبة والانقباض أثناء غيبته ..إننا لا نتوقع ولا نُريده أن يُجهِد نفسه بالعمل الآن، فقد مضت أيام شبابه وقُوّته .. على أي حال، هو رب الأُسرة، والبيت يزداد بهجة وهو فيه. حتّى الولد، فرح جدًا بعودة أبيه الشيخ، لقد كان يُردِّد دائِمًا: إنَّ البيت مُظلِم كأنَّ الشمس لا تدخله، مادام أبي بعيدًا عنه .. لا شك أنَّ البيت كان مُقبِضًا بدونه، كلنا شغوف بالعجوز، وكلنا نخدمه ونعتني به بكل طاقتنا.

فسألهم أفيم: وهل هو الآن في البيت؟

وحسب عادتها كانت تُحب الحديث، فانتهزت الفرصة لتُجيب: نعم، يا صديقي العزيز .. إنه مع النحل يجمع الخلايا، وهو يقول إنَّ الخير كثير وفير هذا العام. لقد أعطى الله للنحل قُوّة، لا يذكُر زوجي أنه رأى لها مثيلاً من قبل .. شُكرًا لله أنه لا يُجازينا حسب خطايانا .. هكذا يقول دائمًا .. اسمع يا جارنا العزيز، إنه سيُسَر جدًا لرؤياك.

وعَبَرْ أفيم الممر إلى الفناء ثم اجتازه إلى حيث كان أليشع مشغولاً بالمناحل وكان أليشع هناك، في سُترته الرمادية، دون أن يلبس قناعًا على وجهه، أو قُفازًا في يديه، يقف تحت أشجار البتولا وقد رفع عينيهِ إلى السماء، وبَسَطْ ذراعيه، ورأسه الأصلع يلمع .. تمامًا كما رآه أفيم في القبر المُقدس في أورشليم. وقد تسلّلت أشعة الشمس خلال فروع الأشجار، لكي تحل عليه كألسنة من نار .. نفس المنظر الذي تراءى

وهكذا حوّل أليشع دفة الحديث إلى الكلام عن شئون البيت. وندت عن صدر أفيم زفرة عميقة، وكف عن الكلام عن سُكان الكوخ. ولم يذكُر له كيف رآه في أورشليم. ولكنه أدرك الآن، أنَّ أحسن طريقة لكي يحفظ عهده أمام الله، لكي يُتمِّم مشيئة الله، أنَّ المرء – مادام حيًا – يُحب قريبه كنفسه، ويصنع الخير للجميع.

سنة ١٨٨٥م

شرارة مُهملة

تحرِق البيت

”حينئذٍ تقدّم إليه بطرُس وقال: يارب كم مرّة يُخطِئ إليَّ أخي وأنا أغفر له؟ هل إلى سبع مرّات؟ قال له يسوع: لا أقول لك إلى سبع مرّات بل إلى سبعين مرّة سبع مرّات. لذلك يُشبه ملكوت السموات إنسانًا مَلِكًا أراد أن يُحاسب عبيده فلمّا ابتدأ في المُحاسبة قُدِّمَ إليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنةٍ. وإذ لم يكُن له ما يُوفي أمَرَ سيِّده أن يُباع هو وامرأته وأولاده وكلّ ما له ويُوفي الدين. فخرَّ العبد وسجد له قائلاً: يا سيِّد تمهّل عليَّ فأُوفيك الجميع. فتحنّن سيِّد ذلك العبد وأطلقه وترك له الدين: ولمّا خرج ذلك العبد وجد واحدًا من العبيد رُفقائِهِ وكان مديونًا له بمائة دينار فأمسكه وأخذ بعُنُقِهِ قائلاً: أوفني ما لي عليك فخرَّ العبد رفيقهُ على قدميه وطلب إليه قائلاً: تمهّل عليَّ فأُوفيكَ الجميع. فلم يُرِد بل مضى وألقاهُ في سجنٍ حتّى يُوفي الدين. فلمّا رأى العبيد رُفقاؤه ما كان حزنوا جدًا وأتوا وقصُّوا على سيِّدهم كلّ ما جرى. فدعاهُ حينئذٍ سيِّده وقال له: أيها العبد الشّرِّير كلّ ذلك الدين تركته لك لأنّكَ طلبتَ إليَّ. أفما كان ينبغي أنّكَ أنت أيضًا ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا. وغضب سيِّده وسلّمه إلى المُعذّبين حتّى يُوفي كلّ ما كان له عليه. فهكذا أبي السماوي يفعل بكم إن لم تترُكوا من قلوبكم كلّ واحد لأخيه زلاّته“.

(مت١٨: ٢١- ٣٥)

-١٠-

الدَّجاجة والبيضة

كان إيفان شيرياكوف فلاّحًا – على شيء من اليُسْر – يُقيم في إحدى القُرى مرموق الجانب، يتمتّع بقُوّة الرجولة وعِنفوانها حتّى عُرِف بين رجال القرية بقُدرته الفائقة على العمل. وقد أنجب ثلاثةً من البنين ورثوا عن أبيهم قُدرته على الجَلَدِ والعمل. وقد تزوج أكبرهم وكان الثاني على وشك الزواج أمّا الثّالِث فكان لا يزال صبيًا عَهَدَ إليه برعاية الخيول ولكنه بدأ يتجاوز هذه المرحلة إلى القيام بحرث الأرض.

وكانت زوجة إيفان تمتاز بكفاءتها فضلاً عن اقتصادها، وقد أسعد الحظ هذه الأُسرة بزواج الابن الأكبر لأنّ زوجته كان يغلِب عليها طابِع الهدوء والجد في العمل. وبالتالي فلم يكُن هناك ما يعوق إيفان وأُسرته عن الحياة الهنيئة السعيدة. ولم يكُن لديهم شخص عاطل يُقدِّمون لُقمة الطعام سوى والد إيفان العجوز الذي كان يُعاني من آلام الربو، وصار طريح الفِراش الذي أُعِدّ له على سطح الفُرن منذ سبع سنوات.

لقد اقتنى إيفان كلّ ما كان في حاجة إليه: ثلاثة خيول وحُصانًا صغيرًا، بقرة وعِجْلها الصغير وخمسة عشر خروفًا. تكفّل النساء بحياكة ملابس الأُسرة جميعًا فضلاً عن المُساهمة في أعمال الحقل بينما يقوم الرجال بتفليح الأرض. كانوا يُخزِّنون من غلّة الأرض ما يكفيهم حتّى يتجاوزوا الحصاد التالي ويبيعون ما تبقّى للوفاء بالضرائب وشراء حاجاتِهم الأخرى.

وهكذا كان من المُمكن أن يعيش إيفان وأولاده حياة هادئة البال لو لم تقُم خصومة عنيفة بينهم وبين جارهم غُبريال الأعرج ابن جوردي إيفاثوف.

عندما كان جوردي على قيد الحياة، وكان والد إيفان يُسيطِر على إدارة شئون بيته، كان الوِد وحُسْن الجِوار سائدًا بينهما، كما هي العادة بين الجيران. فإذا احتاجت إحدى النساء إلى منخُل أو برميل، أو طلب أحد الرجال جوالاً، أو انكسرت عجلة العربة ولم يستطِع صاحبها أن يُصلِح شأنها في الحال – اعتاد الواحد أن يُرسِل في طلب الآخر وسُرعان ما كانا يتعاونان على قضاء الأمر على أحسن حال. وإذا تسلّل حُصان أحدهم إلى بيدر الآخر، فكلّ ما كان يحدُث، أن يردُّه على أعقابه ويطلُب إلى جاره ألاّ يسمح لحصانه بالهروب إلى البيدر حيث يجمع المحصول. ولم يكُن يخطُر ببالهم في ذلك الحين أن يحكموا إغلاق باب الفناء أو مخزن القمح، أو حتّى مُجرد إخفاء شيء عن جاره أو التندُّر بشيء من سيرته.

كان ذلك في أيام الأباء، ولكن عندما آل الأمر إلى الأبناء وصاروا رُؤساء العائلات، تغيّر كلّ شيء وتبدّل الحال تمامًا.

وكانت بداية الخلاف، أمر تافه لا قيمة له.

في حظيرة الدجاج التي تُشرِف عليها كنّة إيفان، بدأت دجاجة تضع بيضها مُبكرًا في موسم وضع البيض وأخذت تجمع البيض استعدادًا لعيد القيامة. كانت تذهب كلّ يوم إلى الحظيرة، وتجد البيضة في موضِعها المُعتاد في أحد أركان العربة ولكن حدث في أحد الأيام أنَّ الدجاجة قفزت من السور ووضعت بيضتها في فِناء جارهم. وسمعت المرأة نقنقةِ الدجاجة إلاّ

أنها قالت في نفسها: ليس لديّ وقت الآن لأنَّ البيت يحتاج إلى الترتيب استعدادًا ليوم الأحد وسآتي لإحضار البيضة من مكانها المُعتاد عندما أفرغ من عملي. وعندما فرغت من عملها في المساء ذهبت لإحضار البيضة من رُكن العربة ولكنها لم تجد شيئًا. فمضت تسأل حماتها ثم شقيق زوجها أين أخفوا هذه البيضة. إلاّ أنَّ الشقيق الأصغر أجابها. لا .. أنهم لم يأخذوا أو يخفوا شيئًا. إنَّ دجاجتك وضعت بيضتها في فِناء جارنا. لقد كانت تُنقنِق هناك ثم قفزت خلال السور وعادت ثانية.

وذهبت المرأة وأبصرت الدجاجة، في الحظيرة مع بقية الطيور وقد أغلقت عينيها استعدادًا للنوم. وتمنّت المرأة لو استطاعت أن تسأل الدجاجة وتأخذ منها الجواب. وأخيرًا توجهت إلى جارهم وقرعت الباب وخرجت أُم غُبريال للقائِها وهي تتساءل: هل من حاجة أقضيها لكِ؟

- على ماذا؟ .. يا جدتي .. لقد طارت دجاجتي في هذا الصباح. ألعلها وضعت بيضتها هنا؟
- لم نرَ شيئًا من هذا. الحمد لله أنَّ دجاجنا بدأ وضع البيض منذ وقت طويل. ونحن نجمع البيض ولا حاجة إلى ما للآخرين! كما أننا لا نذهب لنُفتِش على البيض في بيوت الآخرين!

ولم يرقَ هذا الجواب للمرأة الشّابة، وأطلقت لسانها بكلمات غاضبة أكثر مِمّا ينبغي. وما كان من جارتها إلاّ أجابتها بعنف وهكذا تطور الأمر فتبادلت المرأتان الألفاظ الجارحة. وكانت زوجة إيفان في طريقها إلى البيت بعد مِلء جِرار الماء فلمّا رأت ما بين كنّتها وجارتها تدخلت أيضًا بلا رِوية

وزادت شقة الخلاف وحدّة الألفاظ ولّما ارتفعت الأصوات، خرجت زوجة غُبريال وأخذت تُوبخ المرأة الشّابة ثم تُعنفها على أمور أخرى بعضها حدث بالفعل والبعض الآخر لم يحدُث إطلاقًا. وأخذ العدد يتزايد من المُتفرجين أو المُشتركين في الشِجار وسوء الحوار، الكلّ يتصايحون ويتبادلون السِبَاب ويتسابقون في الكلام دون أن يختار أحدهم كلمة منه.

"أنتِ كذا" و"أنتِ كذاك" "أنتِ لصة" و"أنتِ عاهرة" "أنتِ تقتلين حماكِ من الجوع" و "أنتِ تافهة" وهكذا.

"أنتِ اقترضتِ المنخُل و لم تُرجعيه سليمًا لأنَّ فيه خرق كبير"، "أيتها السليطة" و"ألستُم تنقلون جِرار الماء على نيرنا؟ متى تردُّوا إلينا هذا النير" ؟

ثم أمسكت النساء بالنير، وانسكب الماء ثم امتدت الأيدي وأمسكت كلٍّ منهما بشال الأخرى وبدأت المعركة. وعندما رجع غُبريال من الحقل توقف عن الدخول ليقف في جانب زوجته. واندفع إيفان من بيته مع ابنه واشتركوا في المُشاجرة مع الآخرين ولّما كان إيفان قويًا فقد استطاع أن يبعثر الجماعة كلّها وأمسك بغُبريال وقبض على لحيته ونَتَفْ بعضًا من شعرها. وتجمّع الناس من كلّ فج عميق يتساءلون ما الخبر و لم تنفض المُشاجرة إلاّ بعد جهد عنيف وأُبعِد المُتشاجرون عن بعضهم.

هذه كانت بداية الخلاف الذي نشب بين الجارين.

لف غُبريال شعر لحيته في ورقة ومضى إلى محكمة المنطقة يطلُب مُناصرة القانون ضد إيفان وهو يقول: إني لم أربِ لحيتي لكي يقوم بانتزاع شعرها

هذا الإيفان المُصاب بالجُدري.

كما أخذت زوجته تطوف بالجيران تُندِّد بإيفان وتُناشدهم الاشتراك في إثبات التُهمة على إيفان لكي يُرسله القُضاة إلى سيبريا، وهكذا تطورت الخصومة والتهبت.

-٢-
الحكمة تُنادي

أمَّا الرجُل العجوز – حيث رقد فوق الفُرن – فقد حاول أن يُقنعهم من البداية أن ينشدوا الصُّلح ولكن مُحاولاته ذهبت أدراج الرياح. لقد قال لهم وردّد هذا القول يا أولادي إنَّ ما تسعون إليه هو الحماقة بعينها .. تتصيّدون أسباب الشِجار في أمور تافهة مثل موضوع الدجاجة .. اعملوا فِكركم قليلاً: الخلاف كلّه بدأ بسبب بيضة؟! ربما أخذها الأطفال – حسنًا ما قيمة هذا؟ ما قيمة بيضة واحدة؟ إنَّ الله يُعطينا ما يكفينا جميعًا وافترضوا أنَّ جارتكم قالت كلمة قاسية – أصلحوا أنتم هذا الأمر وأظهروا لها كيف يُمكنكم أن تقولوا كلمة أفضل وأرق. وإذا كان قد حدثت مُشاجرة – حسنًا فمثل هذه الأمور لابد أن تحدُث؛ جميعنا خُطاة، ولكن أصلحوا أنتم هذا الأمر وضعوا حدًا لهذه الخصومة! أمَّا إذا كُنتم تجترُّون الغضب، وترضعون الخصومة فسوف ينقلِب الأمر وبالاً عليكم أنتم أنفسكم.

ولكن الشباب لم يعِر الشيخ العجوز أُذنًا صاغية بل سخروا من كلماته ووصفوها أنها هِذيان لا معنى له. ولم يقبل إيفان أن يترل عن كبريائه أمام جاره، وهو يُجيب: إني لم أشد لحيته إطلاقًا، بل هو الذي نتف شعرها بنفسه. أمَّا ابنه فقد أمسكني من قميصي ومزقه وقطع أزراره .. انظُر إليه!

ومضى إيفان أيضًا أن يطلُب نُصرة العدالة. وتمت مُحاكمتهما أمام قاضي التحقيق ثم محكمة الإقليم. وبينما كانت القضية يتداولها رجال

القانون، اختفى الخُطّاف من عربة غُبريال ولم تكد النساء في بيت غُبريال يسمعن بهذا الأمر، حتّى وجّهن الإتهام إلى ابن إيفان قائلات: لقد رأيناه ليلاً يتسلّل من جِوار النافذة في طريقه إلى العربة ويقول أحد الجيران أنه رآه في أحد المحال العامة وهو يُقدِّم الخُطّاف إلى صاحب المحل.

ومضوا إلى ساحات القضاء من أجل هذه القضية الجديدة. وفي البيت لا يكاد يمضي يوم دون أن تنشب مُشاجرة أو معركة. حتّى الأطفال كانوا يقذفون الشتائم والسِباب الذي تلقنوه من الكِبار. وعندما كانت تتقابل النساء على شاطئ النهر حيث كانوا يغسلون ملابسهم لم تكُن أذرعهن تعمل في عصر الملابس بقدر ما كانت ألسنتهن تدور بأسباب النكد ولم تخرُج من أفواهن إلاّ كلّ كلمة بطّالة.

في البداية كان الفلاّحان يتبادلان الشتائم ولكنهما بعد ذلك كانت الأيدي تمتد لتمسك بأقرب الأشياء إليها، وسار الأطفال على منوال الكِبار وأصبحت الحياة ثقيلة وشاقة بالنسبة للرجُلين. إيفان شيرياكوف وغُبريال الأعرج ثابرا على رفع القضايا كلٍّ منهما ضد الآخر تارة في مجلس القرية ثم محكمة الإقليم أو أمام قاضي التحقيق حتّى ضاق جميع القُضاة ذرعًا بهم. ونجح غُبريال في استصدار حُكم بتغريم إيفان أو حبسه، وفَعَلْ إيفان بالمثل مع غُبريال. وكلّما ازدادت إهانة الواحد للآخر كلّما ازداد الغضب وتأصّل. تمامًا كما يحدُث حين يُهاجم الكلب خِصمه، كلّما يُهاجم كلـ اشتد ضراوة وكلّما طال مدى القتال، وعندما تضرب كلبًا منهما على ظهره ظن أنَّ الآخر يعضه فيزداد شراسة وخصومة. وعلى هذا النهج مضى هؤلاء الفلاحون إلى ساحة القضاء ليخرُج أحدهما وعليه حُكم بالغرامة، أو

لا يخرُج لكي يقتاده الحُرّاس إلى السجن ولكن ذلك كان في كلّ حالة يزيد النار اشتعالاً ويُعمِّق أسباب الحقد والكراهية. ويُمكنك أن تسمع الواحد يتوعد الآخر: انتظر عليَّ قليلاً .. وسوف أجعلك تدفع ثمن ذلك باهظًا.

ومضت سِت سنوات على هذا الحال. وظلّ الرجُل الشيخ الراقد على سطح الفُرن لا يكُف عن ترديد نصائحه: يا أولادي .. ما هذا الذي تفعلون؟ يجب أن تكفوا عن طلب الانتقام. ثابروا على عملكم، ولا تتربصوا للشر هذا أفضل بكثير. كلّما طلبتم الشر. كلّما انتقلتم من سيء إلى أسوأ. ولكن أحدًا لم يلتفت لِمَا يقول.

وفي السنة السّابعة، وفي حفلة زفاف كانت تضُم الخصوم سمع غُبريال كنّة إيفان وهي تُشهِّر به قائلة إنه قد تم القبض عليه وهو يسرق حُصانًا ولم يستطِع غُبريال أن يتمالك نفسه أو يكبح جِماح غضبه وهَوَى بيده على المرأة فسقطت على الأرض واقتضى علاجها أن تظل طريحة الفِراش أسبوعًا كاملاً وخاصة أنها كانت حاملاً في ذلك الوقت. وابتهج إيفان لأنَّ الفرصة قد حانت لكي يقضي على خِصمه وأسرع إلى ضابط البوليس وقدّم شكواه بينما يُساوره هذا الفِكر "والآن سوف أتخلّص من جاري! لابد أن يُقضى عليه بالسجن أو النفي إلى سيبريا"، ولكن أُمنية إيفان لم تتحقّق لأنَّ القاضي رفض القضية بعد فحص المرأة إذ لم يكُن بها أي أثر للإصابة. ولكن إيفان استأنف القضية أمام قاضي التحقيق ولكن هذا أحال القضية إلى محكمة الإقليم. إلاّ أنّ إيفان وقد أخذ الغضب بجماع قلبه واستحوذ على نفسه الرغبة الجامحة في الثأر، عَمَدْ إلى إهداء الكاتب ورئيس المحكمة جالونًا من الشراب الفاخر، وحصل على حُكم بجلد غُبريال. وسمع غُبريال الحُكم بينما

كان الكاتب يقرأه جهرًا: حكمت المحكمة على الفلاّح غُبريال جورديف بعشرين جلدة. ويُنفّذ الحُكم بمحكمة الإقليم.

وسمع إيفان الحُكم أيضًا وحوّل عينيه إلى غُبريال ليرى وقع الحُكم عليه وشَحَبْ وجه غُبريال وعَلَته صفرة كصفرة الموت ثم استدار ومشى في الممر بينما كان إيفان يتبعه في طريقه لامتطاء حُصانه، ولكنه سمع غُبريال يقول: حسنًا .. سينال بغيته عندما يجلدون ظهري .. حتّى يلتهب .. ولكن شيئًا عزيزًا عليه قد يلتهِب أكثر من ذلك.

وما كاد إيفان يسمع هذه الكلمات حتّى قَفَلَ راجعًا إلى المحكمة يستصرِخ العدالة قائلاً! يا قُضاة العدل! إنه يُهدِّد بإشعال النار في بيتي، اسمعوه فقد قال هذا الكلام في حضور الشهود!

واستُدعِيَ غُبريال من جديد: هل حقًا قُلت هذا الكلام؟

– لم أقُل شيئًا على الإطلاق. ها أنذا .. اجلدوني مادام لكم هذا السُّلطان. يبدو أنه لابد لي أنا وحدي أن أُعاني .. لا لشيء إلاّ لأني في جانب الحق، بينما يُسمح له أن يفعل ما يحلو له.

وأراد غُبريال أن يستطرد في الحديث، ولكن رعشة عنيفة كانت ترتجف على شفتيه ووجنتيه. وجال بعينين تنطِقان بغموض رهيب جعل الرِعدة تسري في أوصال كلّ من نظر إليه. وجزَم الجميع بأنه لابد أن يأتي شرًا مُستطيرًا لنفسه أو لجاره.

ووجّه القاضي المُحنك حديثه للرجُلين: اسمعوا أيها الرجال. يحسُن بكما أن تتذرعا بالحكمة والتعقُّل وأن تُصلِحا الأمر بينكما. هل كان يحق لك – أيها الصديق غُبريال – أن تضرب امرأة حاملاً؟ من حُسن الحظ أنَّ الأمر

عَبَرْ على هذه الصورة الطَّيِبة، ولكن تأمّل معي وتدبّر فيما يُمكن أن يحدُث! هل أنت على حق؟ يجدُر بك أن تعترِف بخطأك وتعتذِر، وأعتقد أنه في هذه الحالة سيغفر لك، ونحن من جانبنا نعدِّل الحُكم.

وعندما سمع كاتب المحكمة هذا الكلام، علّق عليه قائلاً: هذا مُستحيل طِبقًا لأحكام المادة ١١٧ حيث أنَّ الطرفين لم يصلا إلى اتفاق قبل صدور الحُكم، وأمَّا وقد صدر الحُكم فهو مشمول بالنفاذ.

ولكن القاضي أعرض عن تعليق الكاتب وهو يُوجه إليه الحديث قائلاً: امسك لسانك يا صديقي. أنَّ أساس القوانين جميعًا هو الطاعة لله، الذي يُحب السّلام.

وعاد القاضي يُحاول إقناع الطرفين دون جدوى وأبى غُبريال أن يستمِع لنُصح القاضي بل أجابه بصوت مُتهدج: في العام القادم أبلُغ الخمسين من العُمر، وعندي ابن مُتزوج ولم يحدُث طيلة حياتي أني جُلِدت .. ثم يأتي الآن إيفان المجدور، ويستصدِر حُكمًا بجلدي .. وتطلُب مني أن أذهب إليه وأطلُب منه الصفح والغُفران؟ لا .. لقد احتملت بما فيه الكفاية .. سيكون من حق إيفان أن يتذكرني.

وسرت رعشة قوية في صوت غُبريال، ولم يستطِع أن ينطِق بمزيد بل أدار ظهره ومضى خارجًا.

-٣-

الشيطان

على بُعد سبعة أميال من القرية كانت تقع المحكمة، وعندما وصل إيفان إلى بيته كان الظلام يزحف على القرية. ترجّل إيفان عن حُصانه وحلّه من لِجامه ورفع عنه سُرُجه وتركه ليستريح أثناء الليل ثم دخل الكوخ ولم يكُن هناك أحد فقد مضت النساء حتّى يقُدنَ القطيع إليه ولم يكُن أولاده قد عادوا بعد من الحقل. ودخل إيفان وألقى بنفسه على مِقعد طويل واستغرق في التفكير. استعادت مخيلته صورة غُبريال وهو يستمِع إلى الحُكم. كيف أربد وجهه وتغيّر لونه. كيف استدار إلى الحائط ... وأحس إيفان أنّ قلبه ثقيل .. يزداد ثِقَلاً .. وفكّر فيما عسى أن يكون شعوره وإحساسه لو صدر عليه مثل هذا الحُكم، وامتلأ قلبه إشفاقًا ورثاء لغُبريال. ثم سمع أبوه الشيخ على الفُرن يسعل، ورآه يجلس وتتدلّى قدماه لكي يتلمّس طريقه إلى أسفل. وجر الشيخ رجليه ببطء حتّى وصل إلى أحد المقاعد فجلس وقد بدت علامات الإعياء والتعب فقد ظلّ يسعل فترة طويلة حتّى نفض كلّ ما عَلَقْ بحلقه. وأخيرًا استند إلى المائدة وقال: حسنًا هل حُكِم عليه؟

- نعم، عشرين جَلْدة بالعصى.

وهز الشيخ رأسه في أسى وهو يقول: قضية فاسدة! .. إنَّكَ إنما ترتكب خطأ جسيم يا إيفان! إنه لأمر شرير ليس له فقط بقدر ما هو لك أيضًا .. حسنًا، سيجلدونه ولكن ماذا تستفيد من ذلك؟

وأجاب إيفان: لا يعود لمثل هذا العمل مرّة أخرى.

- ما هذا الذي لا يفعله مرّة أخرى؟ أي شيء فَعَله أسوأ مِمّا فعلت أنت؟

- لماذا لا تُفكِر في الأذى الذي أوقعهُ بي؟! لقد كاد يقتُل زوجة إبنى، ويهددني الآن بالحريق .. هل تنتظر مني أن أشكره على ذلك؟

وتنهد العجوز في أسى قائلاً: إنَّكَ تجول في العالم الواسع يا إيفان، بينما أرقُد أنا فوق هذا الفُرن هذه السنوات الطويلة. ولهذا تظُن أنَّكَ ترى كلّ شيء بينما لا أرى أنا شيئًا .. اسمع يا ابني! إنَّكَ أنت الذي لا ترى شيئًا لأنّ الشر قد أعمى عينيك، خطايا الآخرين واضحة أمام عينيك بينما خطاياك وراء ظهرك. لماذا تقول دائمًا لقد تصرّف تصرُّفًا رديئًا؟ ما معنى هذا الكلام؟ لو كان هو الطرف الوحيد الذي أخطأ، فكيف إذًا نشأت العداوة والخصومة؟! هل تقوم العداوة بين الناس من طرف واحد فقط؟ الخصومة دائمًا تنشأ بين طرفين. ترى إثمه وشرُّه أمَّا إثمك وشرّك فلا. لو كان هو شريرًا وأنت صالح لِمَا نشأت الخصومة. من الذي نتف شعر لحيته؟ ما الذي أفسد له التبن المخزون؟ من الذي جرُّه إلى المحاكم؟ ومع ذلك فأنت تضع عليه اللوم كلّه! حياتك كلّها شر، وهذا هو الخطأ! هذا هو الأُسلوب الذي اعتدت أن تحياه يا ابني، وليس هذا هو الأُسلوب الذي علّمته إيّاك. هل هذه هي الطريقة التي كُنت أتعامل بها مع أبيه؟ كيف كُنّا نعيش؟. كما ينبغي للجيران أن يتعايشوا. لو حدث أنّ الدقيق فرغ عندهم، تأتي إحدى النساء وتطلُب "عمي ترول، نُريد بعض الدقيق" فأرُد عليها "اذهبي إلى المخزن يا عزيزتي وخُذي حاجتِك" إذا لم يجد أحدًا يقود خيوله للمراعي كُنت أقول

لك "اذهب يا إيفان واعتنِ بخيوله" وإذا نقص من عندي شيء، أتوجه إليه مُباشرةً قائلاً: عم جوردي، إني أُريد هذا أو ذاك فيرُد عليَّ "عم ترول خُذ حاجتك" هكذا كانت العلاقة بيننا، وهكذا قضينا وقتًا طيبًا. أمَّا الآن؟ منذ أيام كان يُحدِّثنا أحد الجنود عن المعركة في بليفنا [١] أنَّ الحرب بينكما أشد وطأة وأقسى من بليفنا! هل هذه حياة؟! ... يا لها من خطية بشعة!! أنت رجُل، وسيِّد البيت، وسوف تُقدِّم جوابًا عن كلّ هذا ... ماذا يتعلّم منك الأطفال والنساء؟ أن ينتفخوا ويسخروا؟! منذ أيام كان ابنك الصغير تراسكا – ذلك العود الأخضر – يسخر من جارتنا إيرينا ويقذفها بالشتائمِ البذيئة بينما أُمه تنصتِ لذلك وتضحك هل هذا حق؟ أنت .. أنت لا سِواك سوف تُجيب عن ذلك. هل فكّرت في روحك؟ هل هي كما يجب؟ أنت تعتدي عليَّ بكلمة فأرُد الصاع صاعين وأنت تُصيبني بضربة فأرُدها مُضاعفة؟! لا يا ابني .. إنَّ المسيح على الأرض علّمنا نحن الأغبياء شيئًا يختلف عن ذلك تمامًا. إذا سمعت كلمة قاسية من أحد، فاخلُد إلى الصمت وِحينئذٍ ضميره يدينه ويُبكته. هذا ما تعلمناه من مُخلّصنا الصّالِح من ضربك على خدك حوِّل له الآخر. ها هو .. اصفعني إذا كان هذا ما أستحقه .. وحينئذٍ يُبكته ضميره .. سوف تخِف حدّة غضبه، ثم يستمع لك. هذا هو الطريق الذي علّمنا إيّاه .. ألاّ ننتفخ بالكبرياء ... لماذا لا تتكلّم؟ أليس الأمر كما أقول؟

---

[١] مدينة في بُلغاريا حيث دارت معركة ضارية وطويلة بين الأتراك والروس في الحرب ١٨٧٧.

وجلس إيفان صامتًا لا ينبس ببنت شفة، ولكنه كان يُصغي باهتمام وعاد العجوز يسعل حتّى استطاع – بعد لأي – أن ينظف زوره ثم استأنف قائلاً: هل تظُن أنَّ المسيح كان يُعلِّم تعليمًا خاطئًا؟. أبدًا ... كلّ تعاليم المسيح إنما من أجل صالحنا ومن أجل منفعتنا الخاصة .. راجع حياتك قليلاً هل ازدادت ثروتك أم استُنزِفَت منذ أن بدأت هذه الحرب بينكما؟ احسب ما أنفقته في كلّ هذه المحاكم، ومصاريف السفر والعودة وما تحتاج إليه من طعام في كلّ رحلة من هذه الرحلات. ما ألطف أولادك في نضوجِهِم.؟ كان يُمكنك أن تُواصل حياة رغدة ولكن الآن مواردك تقِل وتنضب، ولماذا؟ كلّ هذا بسبب هذه الحماقة، بسبب كبريائك. كان عليك أن تحرُث الأرض مع أولادك، وأن تقوم بإلقاء البذار بنفسك، ولكن الخصومة تنتزعك من عملك لكي تُقابل القاضي أو هذا الدعي أو ذاك. وهكذا لم يتم الحرث في موعده ولا البذار وأُمنا الأرض لا تطيق الاحتمال طويلاً. لماذا نقص محصول الحنطة في هذا العام؟ متى ألقيت بذارك؟ ألم يكُن ذلك عندما رجعت من المدينة؟ وماذا ربحت من ذلك؟ .. عبئًا ثقيلاً على كتفيك. آه يا ولدي، فكّر في عملك ورزِقك، وإذا أساء إليك أحد فاغفر له كما يُريدنا الله أن نفعل. حينئذٍ تُصبح الحياة سهلة، وقلبك مُستريحًا.

وظلّ إيفان في صمته العميق.

– إيفان، ابني .. اسمع لأبيك الشيخ. قُم للوقت واسرج حُصانك واذهب إلى مكتب الحاكم وضع نهاية لهذا الخلاف وفي الصباح اذهب إلى غُبريال واصنع معه صُلحًا من أجل الله، وادعهُ إلى بيتك غدًا ليشترك معنا في الاحتفال بعشية عيد العذراء وقدِّم له الشاي، وأعِد زُجاجة من الفودكا

وليكُن نهاية لهذا اللغو الباطل حتّى لا يتجدّد الخلاف في المُستقبل. قُل للنساء والأطفال أن يحتذوا بك.

وزَفَرْ إيفان زفرة حارّة، وقد دارت برأسه الأفكار: إنَّ ما يقوله هذا الشيخ هو الصِدق بعينه. وأحس أنَّ عِبئًا ثقيلاً أخذ يتزاح عن صدره. وبدت أمامه العقبة الوحيدة كيف يبدأ.

ولكن الشيخ قطع حبل الصمت، وكأنه أحس بما يدور في ذهن ولده وقال: اذهب يا إيفان ولا تُؤجِل أو تُسوِف. أطفئ لهيب النار قبل أن يمتد وتندلع .. أسرع حتّى لا يفوت الوقت.

وأراد الشيخ أن يستطرد في الحديث لولا دخول النسوة وقد انهمكن في الثرثرة حول نبأ الحُكم الذي وقع على غُبريال وتهديده بإشعال النار في البيت. لقد سمعن كلّ شيء: وزِدنَ عليه إضافاتهِن الخاصة واشتبكنَ في مُشاجرة مع نساء بيت غُبريال دارت رحاها في المراعي. وعندما نظرنَ الرجُلين بدأت إحداهُن تقُص عليهِما كيف سمعن الوعيد الذي ردّدته كنّة غُبريال أنه سيبدأ جولة جديدة في ساحة القضاء: لقد كانت نتيجة التحقيق الذي أجراه ضابط البوليس في جانبه ولابد أن ينقلِب الحُكم رأسًا على عقب. وتطوع ناظر المدرسة بكتابة الالتماس إلى القيصر نفسه. وقد شرح فيه كلّ شيء عن إيفان كما ضمّنه كلّ الأحداث التي جرت: الخُطّاف والحديقة .. إلخ مِمّا سيؤدي إلى أيلولة نصف مُمتلكاته إلى غُبريال. وأنصت إيفان إلى ثرثرة النساء وسرت البرودة في أوصاله وقلبه، وضرب صفحًا عن فكرة الصُلح مع غُبريال.

- ٤ -

الحريق

في بيت المزرعة يوجد الكثير من الأمور التي تستحوذ انتباه صاحب الحقل ولكن إيفان لم يتوقف عن تبادُل الحديث وهو خارج إلى الجُرن. وعندما انتهى من ترتيبه كانت الشمس قد اختفت وعاد الصغار من الحقل كانوا يحرثون الأرض لمحاصيل الشتاء ومعهم حصانان واستقبلهم إيفان وسألهم عمّا أنجزوه وساعدهم في وضع كلّ شيء في مكانه ووضع جانبًا لجام أحد الخيول لإصلاحه. وكان على وشك أن يأخذ كمية من أعواد القمح ليضعها تحت النورج ولكن الظلام كان قد أرخى سدوله ولهذا عَدَلْ عن ذلك وقرّر أن يترُك الأمور حيث هي إلى الغد. ثم أعطى القطيع طعامه، وفتح البوابة لكي تخرُج الخيول للرعي أثناء الليل ثم عاد يُغلِق البوابة وأحكم إغلاقها بالمزلاج وهو يقول في نفسه. الآن أتناول عشائي، وأمضي إلى فِراشي. أخذ اللجام في يده ودخل بيته وقد نسى تمامًا كلّ ما يتصل بغُبريال وكلّ ما جرى من حديث مع أبيه الشيخ ولكنه ما كاد يضع يده على مِقبض الباب حتّى ترامى إلى أُذُنيه صوت جاره من الجانب الآخر من السور وهو يصُب اللعنات على إنسانٍ ما بصوت خشن أجش: إنه لا يصلُح لشيء .. جدير بأن يُقتل .. وعند سماع هذه الكلمات، انتابته غُصّة في حلقه فاضت بالمرارة التي يحس بها إزاء جاره وجاشت بالحقد من جديد. وظلّ واقفًا مُرهف السمع حتّى كفّ غُبريال عن شتائِمه وعندئذٍ دخل إيفان بيته.

كان ضوء المصباح مُتوهجًا، وقد جلست كنّته مُنكبّة على مغزلها، ونهضت زوجته تُعِد طعام العشاء، ابنه الأكبر يُعِد بعض الشرائط الجلدية للحذاء، وابنه الثاني جلس على مقرُبة من المائدة يقرأ في كتاب أمّا تاراس الأصغر فقد تأهّب للخروج لرعاية الخيول أثناء الليل.

كلّ شيء في البيت يبعث على الرضى والسرور، لولا هذا الوباء — جار لعين.

دخل إيفان مُنقبِض الأسارير مُتجهِم الوجه؛ وألقى القطة من على المِقعد في عُنف ووبخ النساء لأنهن لا يضعن وعاء اللبن الخاثر في مكانه. كان يملأ جوانحه شعور بالضيق والكآبة فجلس مُقطب الجبين لإصلاح لجام الحُصان. وظلّت تتردّد في ذهنه كلمات غُبريال، ووعيده في المحكمة، وما كان يصيح به منذ لحظات بصوته الأجش عن ذلك الذي يستحق القتل.

وقدّمت زوجته طعام العشاء لتاراس الذي تناوله على عَجَلْ ثم ارتدى فروة خروف قديمة، ومِعطف آخر وأحكم وِثاق منطقة على وِسطه. أخذ بعض الخُبز وهرول خارجًا إلى الخيول وخرج معه شقيقه الأكبر حتّى الباب، ولكن إيفان هبّ واقفًا وصاحبه حتّى الممر الخارجي. كان الظلام حالكًا في الخارج والسماء تلبدت بالغيوم وأخذت الريح تهُب. ونزل إيفان درجات السُّلم وأعان ابنه وهو يمتطي صهوة جواده وبعد أن لكزه وقف ينصِت بينما انطلق تاراس في شارع القرية حتّى ينضم إلى غيره من شباب القرية وجيادِهم. وظلّ إيفان واقفًا في مكانه حتّى غاب عن سمعه وقع أقدام الخيل. ومع ذلك ظلّت كلمات غُبريال تدوي في أُذنيه "فليحذر إذًا، أنّ شيئًا مِمّا له قد يحترق أكثر من ظهري".

وأخذ إيفان يقلِب الفِكر: كلمات اليأس .. كلّ شيء جاف، فضلاً عن جو عاصف. قد يتسلّل من الخلف، ويضرِم النار في أي شيء ثم يختفي. سيحرق المكان كلّه ثم يهرب .. ويمضي حُرًا طليقًا .. يا له من وغد! ولكن .. لو استطاع أحد أن يمسكه في ذات الفعل .. عندئذٍ يكون القضاء المُبرم. وقويت الفكرة وتأصلت حتّى أنه لم يصعد درجات السُّلم، بل خرج إلى الشارع ودار إلى ظهر البيت عند زاوية الطريق .. سأقوم بجولة حول البيت ومُلحقاته .. من يدري ماذا ينوي أن يفعل؟ وولج إيان البوابة ودلف إلى الطريق في خطوات خفيفة حتّى وصل إلى مُنعطف الطريق وتمهّل وجال ببصره على مدى السور، وبدا له أنّ هناك شبحًا ما يتحرك عند الزاوية الأخرى ظهر ثم اختفى. ووقف في هدوء يُرهِف السمع ويُحدِّد النظر كلّ شيء كان ساكنًا فيما عدا أوراق الصِفصاف في حفيفها، وخشخشة أعواد القمح الجافة تُحركها هبّات الريح. في البدء لاحت له رمقة قاتمة في الظلام، ولكن عندما تعودت عيناه على الظلام استطاع أن يتبيّن الجانب الآخر، ورأى المحراث جاثمًا في مكانه، وحِزَم الحِنطة، تطلّع طويلاً دون أن يرى أحدًا.

ولكن الشكوك ظلّت تُراوده: أعتقد أني كُنت مُخطئًا، ولكن يحسُن بي أن أُتمِم جولتي .. وسار في طريقه مُتلصِصًا بجوار الحظيرة. كان يخطو في رِفق شديد حتّى أنه لم يسمع وقع خطواته. وعندما وصل إلى أبعد أركان البيت، فُوجئ بشرارة تنطلق من المحراث ثم تختفي سريعًا وشَعَرْ إيفان كأنّ طعنة أصابت قلبه فتوقف ولم يكد يقف هنيهة حتّى خرج وَهَجْ آخر أشد لمعانًا، واستطاع أن يرى بوضوح رجُلاً على رأسه قُلنسوة وقد ربض

مُتربصًا وظهره نحوه بينما كان يُشعِل النار في حزمة من القش أمسكها في يده. وارتجف قلب إيفان، وتوترت أعصابه جميعها وأخذ يقترب في خطوات واسعة وهو لا يكاد يحس بأقدامه تحته وقد سيطرت على ذهنه .. آه، إنه لا يستطيع أن يهرب، وسأمسكه في ذات الفعل.

كان إيفان مازال على بُعد. عندما فُوجئ بضوء ساطع ولكن ليس في نفس المكان، ولم تكُن الشرارة صغيرة كما كانت. لقد خرج اللهب من القش إلى الحنطة وسُرعان ما تصاعد اللهب إلى السقف وفي ضوء اللهب وقف غُبريال واضح الملامح.

وانقض إيفان على غُبريال الأعرج، كما ينقض الصقر الجارح على البُلبُل الغريد.

"لن يفلت من قبضتي" ولكن غُبريال يبدو أنه سمع وقع أقدام إيفان، فدار بعينيهِ على عَجَلْ، وسُرعان ما غاب عن ناظري إيفان فيما وراء جُرن القمح.

وجرى إيفان في أعقابه وهو يصيح: لن تفلت من قبضتي.

وعندما مد يده ليمسك به، دفعهُ غُبريال ولكن إيفان تشبث بسُترةِ غُبريال التي تمزقت فسقط إيفان على الأرض. ثم نهض إيفان وهو يصيح "النجدة"، امسكوه! لصوص! قاتل .. وعاد يجري ولكن غُبريال كان قد وصل إلى باب بيته وهناك لحق به إيفان وعندما هَمْ بالإمساك به هوت على رأسه ضربة أطاحت بصوابه، كان حجرًا ثقيلاً سقط على وجنته وصب في أُذنيه ضجيجًا كفحيح الأفاعي ولكنه يصُم الآذان. لقد كان غُبريال وقد وجد لوحًا من خشب البلُّوط قُرب الباب، أمسك به وهوى بكلّ قُواه على

إيفان.

أخذ إيفان يفقد صوابه، والشرر يتطاير أمام عينيه ثم ساد الظلام كلّ شيء وترنّح ساقطًا. وعندما عاد إلى وعيه لم يكُن هناك غُبريال ولكن الضوء كان ساطعًا ومن الناحية التي يقع فيها بيته سمع فرقعة كأنها مضخة والتفت إلى مصدر الصوت وإذا بالحظيرة الخلفية تشتعل فيها النيران، وسُرعان ما اندلعت ألسنة اللهب في الحظيرة الجانبية ودفعت الريح باللهب والدُّخان وقِطعًا من القش المُلتهِب في اتجاه البيت.

ورفع إيفان كلتا يديه، وخبط بهما على فخذيه وهو يصيح: ما هذا يا أصحابي؟ كان يجب أن أسحب الشُعلة من تحت القش وأدوسها بقدمي فينتهي كلّ شيء .. ما هذا أيها الأصدقاء؟ وأخذ يُردِّد هذه الصيحة. وأراد أن يصرُخ ولكن أنفاسه اللاهثة اللاحقة لم تسعفه، وضاع صوته. أراد أن يجري ولكن قدميه لم تُطيعاه، وتعثّرت الواحدة بالأخرى. وتحرّك ببطء إلاّ أنه كان يترنح كالسكران، وقد تقطّعت أنفاسه. ووقف ساكنًا حتّى استعاد قُواه، فعاود المسير. وقبل أن يصل إلى الحظيرة الخلفية لحجز الحريق، كانت الحظيرة الجانبية بأسرِها طعمة للنيران وامتدت ألسنة اللهب إلى جانب البيت والمدخل المسقوف وأخذ الشرر يتطاير من البيت وكان من المُستحيل الدخول إلى الفناء. وهرول الناس من كلّ حدب وصوب ولكن أحدًا لم يستطِع أن يفعل شيئًا وأسرع الجيران ينقلون حاجاتِهم خارج بيوتِهِم، ويُخرجون قطعانِهِم من الحظائر لأنَّ الحريق كان يُهددها جميعًا.

وبعد أن قضى الحريق على بيت إيفان، اندلع اللهيب في بيت غُبريال أيضًا ومع اشتداد الريح عَبَرْ الحريق إلى الجانب المُقابل من الشارع. ولم ينتهِ

الحريق حتّى قضى على نصف القرية.

في بيت إيفان استطاعوا بالجهد أن ينقذوا أبوه الشيخ، ونجا أفراد الأُسرة بملابسهم فقط وفيما عدا ذلك فقد أتت النار على كلّ شيء باستثناء الجياد التي مضت إلى مراعيها. القطيع والدواجن والعربات والمحاريث والصناديق التي تحفظ فيها النساء ثيابهن، والحبوب في المخزن .. كلّه كان طعام الحريق.

وفي بيت غُبريال لم ينجَ سوى القطيع وأشياء قليلة من البيت.

ظلّت النار مُشتعلة طُوال الليل كما ظل إيفان واقفًا في مواجهة بيته وهو يهذي: ما هذا أيها الأصحاب؟ .. ليس على المرء سوى أن يسحبها ويطأها بقدمه فينتهي كلّ شيء .. ولكن عندما سقط سقف البيت اندفع إيفان وسط النيران وجذب لوحًا مُلتهبًا من الخشب وأخرجه. فلمّا رأته النساء صحنَ به أن يعود ولكنه سحب اللوح وعاد ليسحب لوحًا آخر ففقد توازنه وسقط في وسط اللهب. وعند ذاك شق ابنه الطريق وراءهُ وجذبه إلى الخارج. واحترق شعر إيفان ولحيته وملابسه كما أُصيبت يداه ولكنه لم يشعُر بشيء. وأدرك الناس جميعًا أنّ حُزنه قد أفقده إحساسه وظلّت النار تلتهب وتحرق نفسها، وإيفان لا يكُف عن ترديد كلماته: ما هذا أيها الأصحاب .. ليس على المرء سوى أن يسحبها ويطأها بقدمه فينتهي كلّ شيء!!

-٥-

الدموع

في الصباح حضر ابن العُمدة يدعو إيفان: عم إيفان .. أنّ أباك في النزع الأخير. لقد أرسلني إليك لكي تأتي وتُودِعه الوداع الأخير.

لقد نسى إيفان كلّ شيء عن أبيه، وبدا أنه لم يفهم بعد ما قيلَ له.

- أي أب؟ أرسل بطلب من؟

- أرسل يدعوك أنت .. لكي يودعك. إنه على فِراش الموت في منزلنا. تعال يا أبي إيفان.

قال وهو يجذبه من ذراعه،وتبع إيفان الصبي.

عندما نُقِل أبو إيفان من البيت سقط عليه بعض القش المُلتهب فأُصيب بحروق شديدة فنقلوه إلى بيت العُمدة في الجانب الأقصى من القرية الذي لم تلحق به النيران.

وعندما وصل إيفان إلى أبيه، لم يكُن هناك أحد سوى زوجة العُمدة فضلاً عن بعض الأطفال الصغار، أمّا البقية فقد مضت لتُشاهد الحريق.

كان العجوز مُستلقيًا على مِقعد طويل مُمسكًا بشمعة كما جرت العادة عند إجراء سر مسحة المرضى في الكنيسة الروسية. وظلّ يُوجه نظره من وقت إلى آخر نحو الباب. وأسرعت المرأة تزف إليه نبأ حضور ابنه، فطلب إليها أن تُحضره قريبًا منه. واقترب منه إيفان.

وفي صوت خافت مُتهدج بدأ العجوز: هل جاءك يا إيفان ما سبق أن



قُلته لك؟ من الذي أحرق القرية؟

وأجاب إيفان: إنه هو يا أبي .. لقد أمسكته في ذات الفعل. لقد رأيته وهو يزِج باللوح المُشتعل في وسط التبن. كان عليَّ أن أسحب اللوح المُشتعل وأدوسه بقدمي فينطفئ ولا يحدُث شيء.

وعاد العجوز مُؤكدًا: إيفان .. ها أنذا أموت، وأنت بدورك لابد أن تُواجه الموت .. خطية من؟

وحدج إيفان أباه بنظره في صمت، ولم يستطِع أن ينطِق بكلمة.

- الآن .. أمام الله .. قُل لي على من تقع تَبَعِة هذه الخطية؟ ماذا قُلت لك؟

وعندئذٍ فقط استرد إيفان وعيه، وأدرك حقيقة ما حدث. وعطس ثم قال: أنا الخاطئ يا أبي.

وسقط على رُكبتيه أمام أبيه وهو يقول: يا أبتاه .. اغفر لي. لقد أخطأت أمام الله وقُدّامك.

وحرّك الشيخ يديه، ونقل الشمعة من يُمناه إلى يده اليُسرى، وحاول أن يرفع اليُمنى إلى جبهته لكي يرسم علامة الصليب ولكنه لم يستطِع فتوقف.

ولكنه استطاع أن يقول: الحمد لله. السُّبح لك يارب. ثم حوّل عينيه إلى ولده وهو يقول: إيفان .. أما تسمعني أُناديك .. إيفان.

- ماذا يا أبي؟

- ماذا يجب أن تفعل الآن؟

وأجاب إيفان وهو يجهش بالبُكاء: إنني لا أدري كيف يجب أن نعيش الآن يا أبي.

وأغلق العجوز عينيه، وتمتم بشفتيه كأنه يستجمِع قُواه، ثم فتّح عينيه ثانية وهو يقول: تستطيع أن تُدبر ذلك. عندما تُطيع مشيئة الله، يُمكنك تدبير هذا الأمر.

ورانت فترة من الصمت، ولاحت على شفتي العجوز إبتسامة وهو يقول: احترس يا إيفان! لا تقُل شيئًا عمّن أشعل الحريق. استُر خطيئة رجُل آخر حتّى يغفر لك خطاياك.

وأمسك العجوز بالشمعة في كلتا يديه، وبعد ذلك عقدهُما على صدره وتنهّد، ومد أطرافه ثم .. أسلم الروح.

ولم يقُل إيفان كلمة ضد غُبريال، ولم يعلم أحد سبب الحريق. وانطفأت جذوة العداوة في قلب إيفان وتعجّب غُبريال من صمت إيفان. وفي البداية كان الخوف يملأ قلب غُبريال ولكنه مع مرور الوقت اعتاد ذلك. كفّ الرجال عن الشجار وهكذا عائلاتِهِم أيضًا. وعندما بدأوا إعادة بُناء البيوت التي هُدّمت، أقامت الأُسرتان في بيت واحد وعندما تم بُناء القرية، وكان يُمكن أن يسكُن أحدهما بعيدًا عن الآخر، بنى إيفان وغُبريال بيت الواحد لصق الآخر وآثرا أن يعيشا مُتجاورين.

لقد أقاما كما ينبغي للجيران أن يتعايشوا. لم يغِب عن ذهن إيفان شيرياكوف وصية أبيه أن يُطيع وصية الله. وأن يُطفئ الحريق عند أول شرارة، وإذا أخطأ إليه أحد فإنه لا يُحاول أن ينتقم لنفسه، بل بالأولى

يُصلِح الأمر. وإذا وجّه إليه أحد لفظًا قاسيًا فبدلاً من أن يرُد الصاع صاعين فإنه يُحاول أن يُعلّم الآخر ألاّ يستخدم كلمة بطّالة وهكذا لقّن هذا الدرس لنساء بيته وأطفاله. ونهض إيفان شيرياكوف على قدميه مرّة أخرى، وينعم بحياته الآن أفضل من ذي قبل.

سنة ١٨٨٥م

حيثُما تكُن المحبَّة

يكُن الله

"كُنتُ جائعًا فأطعمتُمُوني. عطشانًا فسقيتُموني. عُريانًا فكسوتُموني ...
فكُلّ ما فعلتُموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتُم".
(مت٢٥: ٣٥، ٣٦، ٤٠)

١٠

المأساة والعلاج

مارتن أفديتش يعيش وحيدًا، في وسط المدينة الواسعة، ينكب على عمله في إصلاح الأحذية، في بدروم إحدى العمارات اتخذه مسكنًا بالإضافة إلى مُمارسته حِرفته، التي قضى فيها كلّ حياته. لم يكُن في حُجرته سوى نافذة صغيرة واحدة تطُل على الطريق حافتها العُليا تلتصق بسقف الحُجرة بينما تستند قاعدتها على أرض الطريق. ومن خلال هذه النافذة كان مارتن يرقُب المارّة، وكانت أحذية المارّة هي أول ما يقع بصره عليه منهم. وكثيرًا ما كان يتعرّف على شخصياتِهم من أحذيتهِم. لقد عاش طويلاً في هذا الحي، وله فيه الكثير من الأصدقاء والمعارف. ونظرًا لطول عهده بالمنطقة وإقامته بها، فقد مرّت بيديه كلّ أحذيتها تقريبًا، يعمل فيها بأصابعه بمهارة مرّة بعد أخرى. ولهذا فقد كان يلذ له أن يرقُب عمل يديه خلال النافذة، بعض هذه الأحذية قد أعاد تركيب كعوبها، وبعضها استعاد شيئًا من جماله بعد ترقيعه، والبعض الآخر رتق ما تمزّق من جلدها، ولعلّ في البعض منها ما جدّد وجهه .. لا شك أنّ سوقه كانت رائجة، ولديه الكثير من العمل بفضل ما عُرِف عنه، وشاع من سيرته .. كان أمينًا دقيقًا في عمله، يستخدم من الخامات أجودها، وفوق كلّ ذلك لم يعمد إلى المُغالاة في طلب الأُجرة، فضلاً عن مواعيده الصادقة التي يُمكن الاعتماد عليها. فإذا كان يستطيع الانتهاء من أداء العمل المطلوب في الموعد المضروب كان يُصارح زبونه

بذلك، وإذا لم يكُن ذلك في مقدوره أعلن ذلك دون مواربة .. لا يُحاول أن يُعطي وعدًا كاذبًا لأنَّ الصِدق كان من ألزم صفاته. وذاعت شُهرته بين الناس، وانهالت عليه طَلَبَاتُهِم، مِمّا أبعد عنه شبح البطالة كلّ أيام حياته.

كان مارتن رجُلاً طِيبًا، ولكنه بدأ يحس بدبيب الشيخوخة يسري في جسده، فاتجه فِكره – أكثر من ذي قبل – في حياته الروحية، ويسعى إلى التقرُّب إلى الله. منذ سنوات طويلة، قبل أن يستقل بدُكّانه، كان يعمل صبيًا تحت إمرة أحد الصُّنّاع. وعندما ماتت زوجته خلفت وراءها صبيًا يبلُغ من العُمر ثلاث سنوات، أمَّا أطفاله الذين أنجبهم قبل هذا الصبي فلم يبقَ منهم أحد على قيد الحياة، وقد مات جميعهم وهم بعد في طفولتِهِم المُبكرة ...

بعد موت زوجته، خطر على ذهنه أن يُرسل صغيره إلى شقيقته في الريف، ولكنه شَعَرَ بألم ممض يعتصِر قلبه وهو يتصور فُراق الصبي، مُحدِّثًا نفسه قائلاً: كيف يُمكن للطفل أن يحيا وسط أُسرة غريبة؟! .. والحياة شاقة وقاسية يدخُل غمارِها أعزل من كلّ شيء .. لا .. لابد أن أستبقيه معي.

وترك مارتن صاحب العمل، واتخذ لنفسه هذا المسكن يعيش فيه مع ابنه الصغير. يُحيطه بكلّ ما يملُك من حنان الأُبوة ورعايتها. ولكنه لم يكُن سعيد الحظ في ذلك المضمار. لم يكد يشتد ساعد الصبي، ويُصبح عونًا لأبيه، ويملأ حياته بالنضارة والبهجة. حتّى داهمه المرض وألزمه الفِراش. وظلّ الطفل فريسة للحُمّى مدة أسبوع كامل ثم قضى نحبه.

وعاد مارتن بعد أن دفن ابنه وقد استسلم ليأس عميق، طغى على كيانه كلّه. واضطرم في صدره شعور مُظلِم من السخط والتذمُّر .. على كلّ شيء ... وعلى الله أيضًا. في غمرة حُزنه كان يُصلي ويطلُب الموت لنفسه أيضًا

.. ماذا بقى له في الحياة؟! كان يعتِب على الله لأنه أخذ ابنه الحبيب، ابنه الوحيد .. وفي نفس الوقت أبقاه حيًّا رغم بلوغه سن الشيخوخة .. وأقلع عن الذهاب إلى الكنيسة، وتوقف عن الصلاة، وارتمى في أحضان الحُزن اليائِس والكآبة السوداء.

وفي أحد الأيام، أقبل إلى مارتن واحد من أبناء قريته. كان شيخًا طاعنًا في السن؛ إلاّ أنه دأب على زيارة قبر المُخلِّص والأراضي المُقدسة كلّ سنة حتّى بلغت زياراته الثمانية بالعدد. وقد أقبل الشيخ على صاحبه مارتن، عند عودته من دير تريستا ... ولم يكد الحديث يتطرق إلى ذكريات الماضي حتّى فتح مارتن قلبه، وروى لصاحبه الشيخ قصة حياته بكلّ ما دار فيها من أحزان وآلام، تصدّع لها إيمانه، واهتز لها كيانه ووصمت حياته بالفشل وخيبة الأمل، ثم اختتم حديثه قائلاً: صدقني يا رجُل الله: إني لم أعُد أحتمِل أكثر من هذا ... أنا لا أُريد أن أعيش .. وكلّ ما أرجو الله أن يُحققه لي هو أن يأخذ روحي بأسرع ما يُمكن .. حياتي مُجدبة وعقيمة وبلا أمل ...

ونظر إليه الكهل نظرة فاحصة، ولكنه أجاب في هدوء: لا يا مارتن .. لا يحق لك أن تقول مثل هذا الكلام. إنّنا لا نستطيع أن نحكُم على طُرق الله. ما أبعد أحكامه عن الفحص وطُرُقه عن الاستقصاء. إنّ إرادة الله وحدها هي التي تُقرِّر المصير، وليست حكمتنا أو تدبيرنا .. إذا كانت إرادة الله أن يموت ابنك، وأن تعيش أنت، فلابد أن يكون هذا هو أفضل شيء من أجل الخير. كلّ الأشياء تعمل معًا للخير للذين يُحبون اسمه ... أمّا هذا اليأس فهو وليد رغبتك في الحياة من أجل سعادتك الخاصة ..

وزوى مارتن ما بين حاجبيه وهو يسأل: وهل هناك شيء آخر يحيا من

أجله الإنسان؟

وعاد الكهل يُجيب: نعم .. يحيا من أجل الله. أليس هو الذي يُعطيك الحياة؟ وبالتالي ينبغي لك أن تحيا من أجله. وعندما تتعلّم كيف تحيا لله، لن يُخامرك الحُزن فيما بعد، بل يبدو كلّ شيء أمامك هيِّنًا ميسورًا.

وأخلد مارتن إلى الصمت برهة .. ثم عاد يسأل: ولكن كيف يحيا الإنسان لله؟

فرانت ابتسامة هادئة على شفتي العجوز وهو يُجيب: لقد كشف لنا المسيح الطريقة التي يُمكن بها للإنسان أن يحيا لله! هل تستطيع القراءة؟

وعندما أومأ مارتن بالإيجاب، استأنف حديثه قائلاً: إذًا عليك أن تشتري الإنجيل وتقرأه، وهناك تجد كيف يُريدك الله أن تحيا .. تجد جوابًا عن كلّ ما يدور في ذهنك من أسئلة.

وجازت هذه الكلمات في أعماق قلب مارتن. وفي نفس اليوم مضى وابتاع لنفسه نُسخة من الإنجيل المُقدس مطبوعة بالأحرُف الكبيرة، وبدأ يقرأ.

في بداية الأمر، اقتصر على قراءة الإنجيل في أيام الرّاحة فقط. ولكنه بعد أن شعَر بالارتياح والرضى أخذ يُثابر على قراءته في كلّ يوم. وفي بعض الأحيان، كان ينغمِس في القراءة فلا يشعُر بمُضي الوقت حتّى يتنبه عندما يحترق الزيت في المصباح عن آخره، ويرغمه ذلك على انتزاع عينيه التي تعلّقت بكلمات الكتاب. واستمر يقرأ في كلّ ليلة، وكلّما أمعن في القراءة ازداد فهمًا وإدراكًا لما يطلبه الله منه، وازداد معرفة بالطريق الذي يُؤدي به إلى الله .. وأحس أنَّ عبئًا ثقيلاً يتراح عن صدره .. قبل ذلك حين كان



يذهب إلى فِراشه يحس ذلك الكابوس الثقيل يجثم على صدره، ويئن وقلبه يتمزق من الألم كلّما تذكّر وحيده الصغير كابيتون .. أمَّا الآن فهو يُردِّد، ويُكرِّر دون ملل: المجد لك يارب .. يارب لك المجد .. لتكُن مشيئتك.

وطرأ على حياة مارتن تغيُّر كبير. لقد اعتاد – فيما مضى في أيام العُطلة والأعياد أن يذهب لتناوُل الشاي في أحد المقاهي ولم يكُن يجد غضاضة أن يملأ جوفه بزجاجة أو اثنتين من الفودكا وفي بعض الأحيان، بعد أن يتبادل الأنخاب مع أصدقائه يُغادر المقهى – ليس ثملاً – ولكن إحساسًا من النشوة يسري في عروقه، فيُطلق لسانه بالنُّكات والفُكاهات لا يُدرك ما فيها من سخف وسماجة؛ يرفع صوته يُنادي هذا أو يشتم ذاك.

أمَّا الآن، فكلّ هذه التصرُّفات قد انطوت في زوايا النسيان وأصبحت حياته تتميّز بالهدوء والسلام. كان يجلس إلى مائدته يعمل منذ الصباح الباكر، فإذا ما انتهى من عمل يومه، يُنزِل مصباحه من على الحائط، ويضعه على المنضدة. ويتناول كتابه المُقدس الموضوع على الرف ويفتحه ثم يجلس لكي يقرأ، فيغيب في سياحة لذيذة بين سطوره وكلماته. وكلّما مضى في القراءة، إزدادت معاني الكتاب وضوحًا وجلاء وكلّما استوعب هذه الأعماق، اهتزت أعماقه بالنشوة والفرح.

٢٠
السراج المُضئ

توالت ساعات الليل البهيم، ومازال مارتن جالسًا إلى منضدته الصغيرة، لا يحس بشيء إلاّ كتابه المفتوح وقد شدّت آياته كلّ انتباه القارئ النهم. كان بصره ينتقل في سُرعة وإعجاب بين سطور الأصحاح السّادس من إنجيل القديس لوقا. وتألّق ذهنه النشيط وهو يُتابع آيات الكتاب: "من لطمك على خدّك فاعرِض له الآخر أيضًا، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضًا، وكلّ من سألك فأعطِهِ، ومن أخذ الذي لك فلا تُطالبه. وكما تُريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضًا بهم هكذا" ...

ولم يستطِع أن يُقاوم جاذبية كلمات المسيح، فواصل القراءة حتّى وصل إلى نهاية الأصحاح. "ولماذا تدعونني يارب يارب، وأنتم لا تفعلون ما أقوله. كلّ من يأتي إليَّ ويسمع كلامي ويعمل به أُريكم من يُشبه. يُشبه إنسانًا بنى بيتًا وحفر وعمّق ووضع الأساس على الصخر. فلما حدث سيل صدم النهر ذلك البيت فلم يقدر أن يُزعزعه لأنه كان مُؤسسًا على الصخر. وأمَّا الذي يسمع ولا يعمل فُيشبه إنسانًا بنى بيته على الأرض من دون أساس. فصدمه النهر فسقط حالاً وكان خراب ذلك البيت عظيمًا".

ولّما قرأ مارتن هذه الكلمات، تهلّلت روحه في داخله فخلع نظّارته، ووضعها على الكتاب واستند بمرفقه على المِنضدة ثم حلّق بأفكاره يتأمل فيما قرأ. وضع هذه الكلمات معيارًا يقيس به حياته الخاصة، وأخذ يتساءل

بينه وبين نفسه:

يا تُرى ... هل بيتي مبني على الصخر أم على الرمال؟ إذا كان بناؤه على الصخر فهذا حَسَنٌ ... إنه يبدو من السهل على المرء أن يجلس وحيدًا في هذا المكان، ويظُن أنه قد فعل كلّ ما أوصى به الله.

ولكن عندما أهفو وأعثُر، فلا آخُذ نفسي بالحيطة والحذر فأسقُط في الخطية ... ومع هذا فلن أتراجع، بل أتشبث بإصرار، وهذا يملأ قلبي سرورًا ... أعني يارب.

وعندما انتهى من هذه التأمُلات والخواطر، وأوشك على النهوض إلى فِراشه، عاوده الحنين إلى الكتاب فأخذ يقرأ الأصحاح السّابع، قائد المائة وابن الأرملة والرد على تلاميذ يوحنّا حتّى وصل إلى الفقرة التي تروي دعوة يسوع إلى بيت الفريسي الغني. ثم قرأ عن المرأة الخاطئة وقد أتت تدهن قدمي المُخلّص وتغسلهُما بدموعها، وهكذا برّرها المسيح ... ثم توقف عند الآية الرّابعة والأربعين، قرأها وأعاد قراءتها في تؤدّة وتفكير. "ثم التفت إلى المرأة، وقال لسمعان: أتنظُر هذه المرأة؟ إني دخلت وماء لأجل رجلي لم تُعطِ وأمَّا هي فقد غسلت رجليّ بالدموع ومسحتهُما بشعر رأسِها. قُبلة لم تُقبِّلني، وأمَّا هي فمنذ دخلت لم تكُف عن تقبيل رجليّ. بزيت لم تدهن رأسي وأمَّا هي فقد دهنت بالطِيب رجليّ" (لو٧ : ٤٤- ٤٦).

وبعد أن قرأ هذه الآيات، أخذ يقلِب الفِكر ويُحاسب نفسه: فهو — أيضًا لم يُقدِّم الماء ليغسل قدمي يسوع، لم يُقبِّله ولم يدهن بالطِيب رأسه ... وخلع مارتن نظّارته ثانية، ووضعها برِفق على الكتاب، وسرح ببصره وفِكره ..

لا شك أنَّ هذا الفريسي يُشبهني، فلا يُفكر إلاّ في نفسه فقط، كثيرًا ما أشتاق إلى كوب من الشاي، لكي أُدّفئ أطرافي وأستمتِع بأسباب الرّاحة، دون أن أُفكر كثيرًا أو قليلاً في الضيف .. لقد وجّه الفريسي كلّ عنايته إلى نفسه فقط، أمَّا ضيفه فلم يعره التفاتًا؟ ومع ذلك .. من هو الضيف؟ إنه السيِّد نفسه! تُرى لو نزل ضيفًا عليَّ، هل يكون هذا هو سلوكي؟

وأخفى مارتن رأسه بين ذراعيه، وقبل أن يتنبه لِمَا يفعل راح في نوم عميق...

-٣-

الضيف

وعلى حين غُرّة، سمع صوتًا، كأنّ إنسانًا يهمس في أُذُنه، ولكنه يُنادي بوضوح: مارتن ...

وانتفض من غفوته، وصاح بصوت تُمزقه حشرجة النُّعاس: من هناك؟ ثم تلفّت حواليه، ونظر إلى الباب، وفرك عينيه، ولكن أحدًا لم يكُن بالباب .. ولكنه عاود السؤال .. وعاد يسمع الصوت يُحدِّثه بوضوح: مارتن ... انظُر إلى الطريق غدًا، لأني ها أنذا آتي إليك.

وطار النوم من عيني مارتن، ونهض من كُرسيه، وأخذ يقلِب بصره في أرجاء المكان وهو مازال يسأل نفسه، عمّا إذا كان هذا الصوت قد أتاه في اليقظة أم المنام؟ ... وطالت حيرته إذ لم يجد جوابًا شافيًا، فأطفأ المصباح، ورقد في فِراشه لكي ينام.

وفي الصباح التالي، استيقظ مارتن قبل مطلع النهار، وبعد تلاوة مزاميره، أوقد النار وأخذ يُعِد حساء الكُرنب، والبليلة من الحِنطة السوداء. وبعد أن اطمأن لهذا أخذ يُعِد الشاي، ولَبَسْ فوطته، وجلس إلى جوار النافذة لكي يبدأ عمله، كانت أفكاره تسترجِع كلّ ما دار بالأمس من أحداث .. أحيانًا كان الموضوع يبدو أمامه مُجرّد أضغاث أحلام .. وأحيانًا أخرى يُخيّل إليه أنه قد سمع الصوت فعلاً .. ألَمْ يحدُث مثل هذا من قبل؟!

وهكذا جلس مارتن بجوار النافذة، يتطلّع ويرقُب الطريق فترات أطول

مِمّا يعمل. وكلّما عَبَرْ أحدهم يلبس حذاءً غريبًا، كان ينحني ويميل برأسه ويرتفع بنظره من الحذاء إلى وجه عابر الطريق يتفحصه جيدًا .. عَبَرْ أحد البوابين يرتدي حذاء من الجوخ، ثم أحد السُّقاة .. وبعد قليل أقبل أحد الجنود القُدامى من أيام القيصر نيقولا .. واقترب من النافذة ورفشه في يده .. لقد عرفه مارتن من حذائه، فقد كان قديمًا باليًا تُغطيه قطعة من الجِلد.

كان الجُندي العجوز يُدعى ستيبانِك، وقد ألحقه أحد التُّجار الأثرياء بالعمل في مترله مُساعدًا للبواب؛ عمل بسيط رأفة بشيخوخته. بدأ الجُندي الشيخ يُزيح قِطَع الثلج المُتراكمة من أمام نافذة مارتن، وتطلّع إليه مارتن طويلاً، ثم واصل عمله، وهو يُفكر في نفسه:

- يبدو أني أُصِبت بالخَبَلْ الذي يعتري كِبار السن. ستيبانِك كان يُزيل الثلوج .. لقد بدا لي لأول وهلة أنه المسيح أتى لكي يزورني .. ماذا دهاني يا تُرى؟ ألعلي عجوز معتوه؟!

واستمر في عمله فترة من الوقت، لكنه لم يستطِع أن يُقاوم رغبة جارفة في إعادة النظر من النافذة، ورأى ستيبانِك قد أسند رأسه إلى الحائط تبدو عليه أمارات التعب كأنه يلتمِس شيئًا من الرّاحة، أو لعلّ أطرافه قد تجمدت، وهو يُحاول أن يجري الدفء في أوصاله. كانت تبدو على المسكين معالم الإنهاك والإعياء، وكان من الجلي أنه فقد القُدرة حتّى على إزالة قِطَع الثلج التي تجمعت بجوار النافذة.

وأخذت تدور الخواطر في ذهن مارتن: وماذا يحدُث لو دعوته لكي يُشاطرني هذا الشاي؟ لقد أوشك على الغليان .. وقام فورًا، بعد أن ترك المخراز في مكانه، وحَمَلْ الغلاية وأخذ يُعِد أقداح الشاي. ثم أخذ ينقُر على

زُجاج النافذة بأصابعه، حتّى تنبّه ستيبانِك والتفت إليه، واقترب من النافذة فأشار له مارتن لكي يدخُل، وتحوّل عن النافذة ومضى إلى الباب لكي يفتحه واثقًا أنَّ ستيبانِك لابد يستجيب لدعوته، وفتح الباب وهو يقول: تعال، وانعم بالدفء قليلاً، فلا شك أنَّكَ تُقاسي من هذا البرد الشديد.

وأجابه ستيبانِك في أنفاس لاهثة: الله يباركك يا مارتن .. إنَّ عظامي تنبُض ألمًا قاسيًا من البرد.

ثم دخل وهو ينفُض عن نفسه قِطَع الثلج التي عَلَقَتْ بملابسه ولكنه تمهّل قليلاً لكي يمسح قدميه قبل أن يدخُل، لئلاّ يترُك على الأرض آثار قدميه؛ إلاّ أنَّ توازنه اختل وهو يفعل ذلك فكاد يسقُط، لولا أن تداركهُ مارتن وهو يقول:

- خلِّ عنك هذا العناء، سوف أمسح الأرض بعد ذلك، كما أفعل في كلّ صباح .. تعال يا صديقي .. خُذ مكانك، وإليك قدحًا من الشاي.

ملأ مارتن قدحين، قدّم أحدهما إلى ضيفه العجوز، واحتفظ بالآخر لنفسه. يصُب منه في أحد الأطباق وينفُخ ثم يشرب. وأفرغ ستيبانِك قدحه في جُعبته، ثم قَلَبُه — حسب عادته — وضعه على المائدة وفوقه قطعة سُكر. وفي أثناء ذلك كان يُعبِّر عن شُكره العميق وثنائه الوفير. ولم يُخفَ على فطنة مارتن وهو ينظُر إلى عيني ستيبانِك أنه لا يُمانع في مزيد من الشاي، فأسرع يملأ القدح ثانية لنفسه وللزائر، ويلح عليه أن يشرب تلك الجُرعة أيضًا. وبينما كان الضيف يتناول القدح ويرتشِف الشاي الساخن، لاحظ أنَّ مارتن لا يكُف عن النظر إلى الطريق، فابتدره سائلاً: هل تنتظر أحدًا؟

وفُوجئ مارتن وارتج عليه الجواب، وبدا عليه شيء من الارتباك؛ هل

أنتظر أحدًا؟ حسنًا، .. الآن .. أني أشعُر بالخجل في الواقع أنا لا أنتظر أحدًا .. ولكني سمعت شيئًا ما في الليلة الماضية .. ولا أستطيع أن أنتزع هذا من ذهني .. ولا أستطيع أن أجزم أو أقطع برأي، هل كان ذلك حلمًا أم مُجرّد وهم وخيال ..

وفتح ستيبانك عينيه في دهشة وفضول، ولكن مارتن استمر قائلاً: بالأمس كُنت أُطالع فصولاً في الإنجيل، عمّا قاساه ربنا يسوع المسيح، مع أنه كان يجول في الأرض يصنع خيرًا ..

لعلك سمعت الكثير في هذا الشأن .. أليس كذلك؟

وأجاب ستيبانك في سذاجة: لقد سمعت شيئًا في هذا الشأن ولكني – كما ترى – رجُل جاهل، لا أعرف حتّى القراءة والكتابة.

– على أي حال، كُنت أقرأ كيف كان يجول في الأرض. ولّما وصلت إلى الفقرة التي تتحدّث عن سمعان الفريسي الذي لم يُحسِن استقبال المسيح ... أخذت أُفكِر فيما صنعه هذا الرجُل لأنه لم يستقبل المُخلّص الصّالِح بالتكريم اللائق .. ! هب أنَّ شيئًا مثل هذا حدث لرجُل مثلي ... هل يُمكن أن أغفِل شيئًا من هذه الواجبات عندما أستقبله؟! ولكن ذلك الرجُل أساء استقبال المسيح تمامًا .. حسنًا يا صديقي، بينما كُنت أُفكِر في هذا الموضوع أخذتني سنة من النوم، ولكني سمعت أحدًا يُناديني باسمي فاستيقظت وأنا أحس أنَّ أحدًا يهمس في أُذُني قائلاً: انتظرني، سوف آتي إليك غدًا. وتكرّر هذا الحدث – وإني لأُصدِقَك القول – قد رسخ ذلك في ذهني. ومع أني أشعُر بالخجل، وأنا أقُص عليك هذه الحكاية، إلاّ أني مازلت أتوقع حضوره ... الرب المحبوب.

وهز ستيبانِك رأسه في صمت، وتجرّع قدحه، ثم وضعه جانبًا، ولكن مارتن أصر على أن يملأ القدح للمرّة الثّالِثة وهو يقول: اشرب هذا القدح أيضًا. الله يباركك .. لقد كان ذهني مشغولاً بفكر آخر، كيف كان يسوع يجوب الأرض، لا يحتقر أحدًا ... بل يتعامل عادة مع عامّة الناس ويمشي مع البُسطاء، حتّى تلاميذه اختارهم من بين طبقة الناس التي على شاكلتنا، عُمّال مثلنا نحن الخُطاة ... لقد قال: من يرفع نفسه يتضع، ومن يضع نفسه يرتفع ... كما قال لتلاميذه: ... أنتم تدعونني سيِّدي ... وأنا سأغسل أرجُلكم ... من أراد فيكم أن يكون سيِّدًا فليكُن خادمًا أولاً ... طوبى للمساكين والمُتواضعين وأنقياء القلب والرُّحماء ..

ونسى ستيبانِك قدح الشاي ... كان كهلاً، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون رقيق الإحساس، مُرهف العاطفة ... وعندما كان يستمِع إلى الكلمات وهي تتدفق من فم مارتن، لم يستطِع أن يتمالك نفسه فسالت الدموع على خديه اللّذين امتلآ بالتجاعيد ...

وأسرع مارتن يقول: تعال .. اشرب مزيدًا من الشاي ..

ولكن ستيبانِك رسم نفسه بعلامة الصليب، وشكَره وأزاح القدح جانبًا ثم نهض مُتثاقلاً وهو يقول: أشكرك يا مارتن أفديتش، لقد أعطيتني طعامًا وراحة للروح والجسد.

– لقد أسعدني لقاؤك. أرجو أن تأتيني مرّة أخرى، يسعدني دائمًا أن أجلس إلى ضيف يُؤنِس وحشتي.

ومضى ستيبانِك في طريقه، وصب مارتن ما تبقّى من الشاي وشربه حتّى آخر قطرة فيه، ثم وضع جانبًا مُعدات الشاي، وعاد إلى عمله يخيط مُؤخرة الحذاء في يده. وبينما كان يعمل في همّة، عاد ينظُر إلى الطريق من جديد، ويتوقع بيقين أن يرى يسوع. ثم تسرح خواطره في أعمال الرب على الأرض وقد امتلأت رأسه بأحاديث المسيح.

- ٤ -

امرأة حائرة

وعَبَرْ جُنديان، أحدهما يدُق الأرض بحذائه الأميري، والآخر يلبس حذاءهُ الخاص. ثم سار بعدهما أحد الجيران من أصحاب الأملاك، يختال في حذائه اللامع .. ثم جاء بعد ذلك، خبّاز يحمل على يديه سلال الخُبز .. ومضى هؤلاء جميعًا في طريقِهِم لا يلوون على شيء.

ثم أقبلت امرأة، ترتدي جوربًا باليًا، وحذاءً ريفيًا مُهلهلاً، ومرّت بجوار النافذة، ولكنها وقفت بجوار الحائط. ورفع مارتن نظره إليها خلال النافذة، وأدرك أنها غريبة، تبدو عليها علامات الفقر والحاجة، وتحمل طفلاً على ذراعيها. وعندما وقفت بجوار الجدار، أدارت ظهرها لهبّات الريح اللاذعة، تُحاول أن تلِف طفلها في بعض الأسمال البالية دون جدوى. ورغم الشتاء القارس، كانت ملابس المرأة صيفية خفيفة .. وحتّى هذه كانت مُمزقة قد تهرأت من البَلَى، وترامى إلى أُذُني مارتن – عبر النافذة – صوت بُكاء الطفل والمرأة تسعى جهدها لكي تُهدِئه دون أن تجد لذلك سبيلاً ..

نهض مارتن، واتجه نحو الباب، وصعد درجات السُّلم المُؤدي إلى الطريق، ثم نادى المرأة: يا سيِّدتي العزيزة ... أنتِ .. أنتِ .. إني أُناديكِ أنتِ يا سيِّدتي العزيزة ..

والتفتت المرأة أخيرًا إلى هذا النداء، ورفعت إلى وجهه عينيها تفصِح عمّا في سريرتها من تساؤلات. وعاد مارتن ليقول: لماذا تقفي مع طفلِك في هذا

الجو البارد؟ في الخارج؟! تعالي وادخُلي .. يُمكنِك أن تلفيه وتدّثريه أفضل .. في مكان دافئ .. لا حاجة بكِ للوقوف في الطريق .. تعالي .. ادخُلي ..

ورفعت المرأة حاجبيها بالدهشة، وهي تنقل بصرها من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ترى رجُلاً عجوزًا، يرتدي هذه الفوطة، وقد ثبّت نظّارته على أنفه ثم يدعوها للدخول ... ولكنها لم تجد مناصًا من ذلك فتبعته، ونزلا درجات السُّلم، ودلفا إلى داخل الحُجرة الصغيرة ثم قادها الرجُل العجوز لكي تجلس على فِراشه، وهو يقول:

- اجلسي عندِك، يا سيِّدتي، بجوار الموقد حتّى تنالي قسطًا من الدفء، وتُعطي الطفل شيئًا من الطعام.
- ليس في صدري شيء من اللبن .. فأنا لم أذُق طعامًا منذ الصباح الباكر .. ومع ذلك ضمّت المرأة طفلها إلى صدرها تُرضِعه من صدرها اليابس.

فنهض مارتن – وهو يهز رأسه – وأخذ بعض الخُبز ووعاء حَمَلَهُ إلى الموقد، وصبّ فيه بعضًا من حساء الكُرنب، ثم رفع الغطاء عن البليلة ولكنها لم تكُن قد نضجت بعد. ولهذا نشر غطاء على المِنضدة، واكتفى بتقديم الخُبز والحساء وهو يقول: اجلسي، وتناولي شيئًا من الطعام .. سوف أتكفّل أنا بالطفل حتّى تنتهي من تناول الطعام .. ليرحمني الله! لقد كان عندي أطفال، وأعرف كيف أُدبر شئوهم ..

ورسمت المرأة نفسها بعلامة الصليب، وجلست إلى المائدة، وبدأت تأكُل بينما جلس مارتن على حافة الفِراش بجوار الطفل يُداعبه ويُناغيه، ولكن يبدو أنه لم يُحسِن الأداء، بسبب أسنانه المُتساقطة، فاستمر الطفل في البُكاء.

ثم حاول مارتن أن يدغدغ جنبي الطفل بأصابعه، ودفع أصبعه نحو فم الطفل ثم ردُّه سريعًا، وأعاد الكرّة مرارًا وتكرارًا. لم يدع الطفل يأخُذ أصبعه في فمه، لأنَّ لونه قد اسود بسبب الشمع والدهون التي يستخدمها الإسكافي. ولكن ران على الطفل شيء من الهدوء وهو يُتابع بنظره أصبع مارتن وهو يقترب ثم ينكمش، ثم أخذ الصغير يبتسِم ثم يضحك، وأحس مارتن موجة من السرور تغمُر كيانه.

وبينما كانت المرأة تتناول طعامها، أخذت تروي قصتها، من هي ومن أين جاءت؟ فقالت: إني زوجة لأحد الجنود، لقد أرسلوا زوجي منذ ثمانية شهور إلى مكانٍ ما .. لا أعرف عنه شيئًا .. بعيد جدًا، و لم أتلقَ أي نبأ عنه منذ رحيله. كُنت أعمل طاهية في أحد البيوت، حتّى وُلِد لي هذا الطفل، فرفضوا بقائي عندهم مع الطفل. وأخذت أكافح، ومضى عليَّ حتّى الآن ثلاثة شهور عِجاف في هذا الكفاح المرير .. ألتمِس عملاً لكي أقتات فلا أجد .. واضطررت أن أبيع كلّ ما كان عندي، حتّى أحصُل على الكفاف من الطعام. حاولت أن ألتحق بعمل كمُرضِعة ولكن أحدًا لم يقبلني .. كانوا يقولون إني جائعة ونحيفة .. وها أنذا قد حضرت لأُقابل زوجة أحد التُّجار – تعمل لديها إحدى نساء القرية – لعلها تُلحِقني بالعمل في بيتها. ظننت أنَّ هذه نهاية متاعبي، ولكنها أوصتني ألاّ أذهب إليها قبل الأسبوع المُقبِل .. منزلها بعيد، وأنا منهوكة القُوى، وطفلي يكاد يموت من الجوع ... مسكين هذا الصغير! ومن مراحم الله، أنَّ صاحبة البيت الذي أسكنه، تُشفِق علينا وترثى لحالنا فلا تتقاضى منّا شيئًا عن المسكن .. وإلاّ ... فلستُ أدري ماذا كان يُمكن أن أفعل!

وندت عن مارتن زفرة حارّة، وهو يقول: ألا يوجد لديكِ أيّة ملابس أثقل من هذه؟

- كيف يُمكني أن أحصُل على ملابس ثقيلة. لقد رهنت الشال الذي كُنت أتدثّر به – بالأمس فقط – من أجل ستة بنسات.

ثم نهضت المرأة وأخذت الطفل، وقام مارتن بدوره، وأخذ يقلب بعض الملابس المُعلّقة على الحائط، ثم انتقى منها رداءً قديمًا، ودفع به إلى المرأة قائلاً: إليكِ هذا .. ولو أنه قديم بالٍ، ولكنه – على كلّ حال – يصلُح للطفل لكي تلفي جسده العاري به.

ونظرت المرأة نحو الرداء، ثم تطلّعت إلى الرجُل العجوز، وعندما تناولت منه الرداء، انفجرت باكية. وأدار مارتن ظهره إليها، ثم انحنى يُنقِب تحت السرير حتّى عثر على حقيبة، أخذ يُفتش فيها. ثم جلس – أخيرًا – في مُقابل المرأة، التي قالت:

الله يباركك، يا صديقي. لا شك أنَّ المسيح هو الذي قادني إلى نافذتك .. وإلاّ لجمدت أطراف الطفل. لقد كان الجو رقيقًا حين بدأت المسير، ولكن انظُر كيف اكفهر الجو، وقَسَتْ برودته .. لا شك أنَّ المسيح هو الذي جعلك تنظُر من النافذة، وتأخذك الشفقة بي وبطفلي .. نحن التُّعساء!!

ولم يستطِع مارتن أن يُخفي ابتسامة ارتسمت على شفتيه وهو يقول: هذا صحيح جدًا .. إنه هو الذي جعلني أفعل هذا، لم تكُن الصُدفة المُجرّدة هي التي ساقتني إلى النظر نحو الطريق ..

ثم أخذ يقُص عليها روايته، كيف سمع صوت السيِّد المسيح وهو يعـــده بزيارته في هذا اليوم، وأمنت المرأة على حديثه بقولها: من يدري؟ كلّ شيء مُمكن ...

ثم نهضت وألقت الرداء على كتفيها حتّى يُغطيها ويلِف الصبي معهـــا. وانحنت وشكرت مارتن مرّة أخرى. وعندما ودّعها عند البـــاب بادرهـــا بقوله:

خُذي هذا من أجل المسيح – ودَسَّ في يدها ستّة بنسات – حتّى تستردي شالِك.

ورسمت المرأة علامة الصليب وأجابها مـــارتن بالمثـــل عنـــدما وصـــل بها إلى الطريق.

- ٥ -

عِراك

وبعد أن مضت المرأة في طريقها، أصاب مارتن شيئًا من حساء الكُرنب. ثم رفع الأوعية وعاد إلى مجلِسه واستأنف عمله. ولكنه لم ينسَ النافذة. كلّما سقط ظِل عليها، يرفع بصره في الحال لكي يرَ عابر السبيل .. ومر كثير من الناس، بعضهم غريب والبعض يعرفه، ولكن ليس فيهم من يلفت النظر.

بعد قليل، رأى في مُقابل النافذة، بائعة تُفّاح، تحمل سلّة كبيرة، ولكن لا يوجد بها سوى ثمرات قليلة. كان من الواضح أنها باعت أكثر ما عندها. وعلى ظهرها، كانت تحمل كيسًا قد امتلأ بقِطَع من الطوب، يبدو أنها جمعتها من بُناء حديث. كان الكيس ثقيلاً يُؤلِم ظهرها، وتُريد أن تنقله من كتف إلى آخر. ولهذا وضعته على الأرض، وأسندت السلّة على أحد الأعمدة، وأخذت تهز الكيس بكلتا يديها. وبينما كانت تفعل هذا، جرى نحوها صبي يرتدي قُلنسوة على رأسه، ومد يده في سرعة البرق واختطف تُفّاحة من السلّة، واستدار لكي يجري، ولكن المرأة لمحته، واستدارت إليه واستطاعت أن تمسك بكُم سُترته قبل أن يفلت منها ... وبدأ الصبي يُناضل، مُحاولاً أن يتملّص منها، ولكنها كانت قد أحكمت قبضتها عليه، وبيدها الأخرى أطاحت بقُلنسوته من على رأسه، وأمسكته من شعره المُتهدِّل، فصرخ الصبي، بينما المرأة تزجُره زجرًا عنيفًا. ترك مارتن مِخرازه ولم ينتظر حتّى يضعه في مكانه، بل هرول نحو الباب، وفي عَجَلْته تعثّرت

قدماه في درجات السُّلم، وسقطت نظّارته .. وعندما وصل إلى الطريق كانت المرأة مازالت تمسك بالصبي وهي تُقرِعه وتُهدِّده بتسليمه إلى الشُرطة. والصبي – مازال – يُناضل ويُدافع عن نفسه بأنه لم يأخذ شيئًا ويرفع صوته. لماذا تضربينني؟ دعيني وشأني ..

واستطاع مارتن – بعد لأي – أن يُفرِّق بينهما، وأمسك الصبي من يده، وهو يقول للمرأة: دعيه يذهب أيتها الجِدّة الطَّيِبة، سامحيه لأجل خاطر المسيح

– لابد أن يدفع الثمن غاليًا .. حتّى لا ينسى ذلك لمُدّة سنة على الأقل .. لابد أن أقود هذا الوغد إلى قسم الشُّرطة. وبدأ مارتن يتوسل إلى المرأة ويلح في الرجاء: دعيه يذهب. أيتها الجِدّة. إنه لن يعود لمثل هذا العمل. خلّي عنه من أجل المسيح! وخفَّفت المرأة قبضتها على الولد .. ولكن الصبي أراد أن يُطلق ساقيه للريح، ولكن مارتن أوقفه قائلاً: لا .. يجب أن تطلُب العفو من جِدّتك، ولا تصنع ذلك مرّة أخرى. لقد رأيتك وأنت تخطف التُّفاحة .. وأجهش الصبي بالبُكاء وهو يطلُب الصفح والغُفران .. وعندئذٍ قال مارتن: هذا هو الحق .. والآن إليك هذه التُّفاحة .. قال ذلك وهو يناوله واحدة من السلّة، بينما قال للمرأة:

سوف أدفع ثمنها، أيتها الجِدّة العزيزة

ولكن السيِّدة صاحت، تتخلّل نبراتها ثورة غاضبة: أنكم تُفسدونهم بهذه الطريقة .. هؤلاء الصغار الأشقياء. كان يجب أن يُجلد حتّى يذكُر ذلك طول حياته

– لا عليكِ، أيتها الجِدّة .. هذه طريقتنا في الشدّة، ولكنها ليست طريقة

الله. إذا كان لابد من جلده لأنه سرق تُفّاحة، فكم يكون العقاب الذي ينبغي أن يحل بنا من أجل خطايانا؟

ولاذت المرأة بالصمت، ولم تحِر جوابًا. وأخذ مارتن يُحدِّثها عن المَثَلْ الذي ضربهُ السيِّد المسيح عن السيِّد الذي سامح عبده وتنازل له عن دِينه، وكيف مضى العبد وأمسك برقبة العبد رفيقه حتّى يُوفي ما عليه، وأصغت المرأة بسمعِها إلى كلّ ما قيل، وكذلك الصبي أخذ ينصِت في اهتمام. وعاد مارتن يقول: إنَّ الله يأمرنا بغُفران خطايا الآخرين. وإلاّ فلن يغفر لنا .. سامحي كلّ إنسان، وبالأكثر هذا الصغير الطائش.

وهزت العجوز رأسها في أسى، ثم تنهدت قائلة: هذا صحيح حقًا .. ولكن الصِبية يتمادون في عَبَثِهِم، ويزدادون شقاوة.

وعندئذٍ أجابها مارتن بقوله: لهذا يجب علينا نحن الكبار، أن نوجِّههم إلى الطُرُق المُستقيمة.

– هذا هو رأيي بالضبط. لقد كان لي سبعة من الأطفال لم يبقَ لي منهم سوى ابنتي.

وبدأت العجوز تروي له كيف وأين تعيش مع ابنتها هذه ومع أحفادها أيضًا، وختمت حديثها بقولها: والآن .. قد تداعت قُواي، ولكن لا مناص لي من العمل الشاق المُرهق من أجل هؤلاء الأحفاد. ولا شك أنهم أطفال وُدَعاء أيضًا .. لا يخرج أحد ليستقبلني سوى هؤلاء الأطفال. والصغيرة أنّي لا تقبل مُفارقتي، ولا ترضى عني بديلاً، وتُناديني بصوتِها الرقيق ... جدِّتي. جدِّتي حبيبتي .. وبدا جليًا أنَّ المرأة العجوز تأثّرت عندما تذكّرت هذا كلّه .. فذابت نغمات صوتها، وسالت نبراتها رقيقة عذبة مثل همسات الريح.

وتنظُر نحو الصبي وهي تُردِّد: لا شك أنها شقاوة .. لا أكثر .. الله يساعده.

وعندما بدأت المرأة تتهيّأ لوضع الكيس على ظهرها حتّى تنصرف، قفز الصبي إلى الأمام نحوها، وهو يقول: دعيني أحمل هذا العِبء عنكِ، أيتها الجِدّة الطَّيبة، فأنا ذاهب في هذا الطريق.

وأومأت المرأة برأسِها، ووضعت الكيس على ظهر الصبي ومضيا معًا في الطريق وقد نسيت العجوز أن تُطالب مارتن بثمن التُّفاحة.

ووقف مارتن، يرقُبهُما بنظراته، وهما يسيران جنبًا إلى جنب يقطعان وحشة الطريق بتبادُل الحديث.

وعندما غابا عن عينيه، عاد مارتن إلى المترل. ولّما وجد نظّارته سليمة عى درجات السُّلم، التقطها وأسرع إلى مِخرازه، واستأنف العمل. ولم يكد يعمل قليلاً حتّى بدأت الظُّلمة تنشُر أجنحتها السوداء في كلّ مكان، وتعذّر على مارتن رؤية الثقوب التي يجب أن يمُر خلالها الخيط في جلد الحذاء، ولاحظ أخيرًا أنَّ حامل المِشعل يمُر لكي يُضئ مصابيح الطريق.

أيقن مارتن أنَّ الوقت قد حان لكي يُشعِل المصباح، فقام يُهذِّب من أطراف ذبالة الفانوس، وأشعلها ثم علّق المصباح، وعاد إلى عمله من جديد حتّى انتهى تمامًا من إصلاح الحذاء، ثم أخذ يقلبه بين يديه ويفحصه، حتّى اطمأن إلى جودة عمله ودِقته؛ وجمع عِدته وآلاته معًا، وكنس بقايا القِطَع الجلدية الصغيرة، ووضع جانبًا الخيط والشعر والمِخراز، ثم أنزل المصباح من مكانه ووضعه على المائدة، ثم أحضر الإنجيل من موضعه على رف مخصوص، وقد اعتزم أن يفتحه حيث انتهى بالأمس وقد وضع علامة لذلك، إلاّ أنَّ الكتاب انفتح في موضع آخر.

٦٠.

الرؤيا

عندما فتح مارتن الإنجيل، عادت إلى ذاكرته أحلام الأمس. وما كاد يتذكرها حتّى سمع وقع أقدام، وكأنَّ أحدًا يتحرّك خلفه. فاستدار مارتن، وتراءى له كأنَّ جماعة من الناس قد ربضت في الرُكن المُظلِم من الحُجرة، ولكنه لم يستطِع أن يتبيّن وجوهِهِم، أو يعرف من هم، ولكنه سمع صوتًا يهمس في أُذُنه: مارتن .. مارتن .. ألا تعرفني؟

وغمغم مارتن قائلاً: من أنت؟

وعاد الصوت يقول: إنه أنا ..

وبرز من الرُكن المُظلم ستيبانِك يخطو إلى الأمام على مهل ويبتسم، ثم اختفى كسحابة عابرة، ولم يعُد مارتن يراه. ولكن الصوت عاد يُكرِّر: إنه أنا .. ثم خرجت من وسط طيّات الظلام المرأة المسكينة، تحمل طفلها بين ذراعيها، وابتسمت المرأة وضحك الطفل الرضيع، ثم غابا في الضباب أيضًا، واختفيا ... وعاد الصوت للمرّة الثّالثة يقول: إنه أنا ... وفي هذه المرّة ظهرت المرأة العجوز، والصبي يمسك بالتُّفاحة في يده، وتقدّم كلاهُما نحوه، وأشرقت على شِفاهِهِما ابتسامة حلوة، ثم طوتهُما ثنايا الظُّلمات المُتكاثفة.

وهلّل مارتن بالروح، ورسم علامة الصليب على وجهه، ثم ثبّت النظّارة على عينيه، وبدأ يقرأ الإنجيل حيث انفتح، وفي بداية الصفحة أخذ يقرأ:

"كُنتُ جائعًا فأطعمتوني، عطشانًا فسقيتموني، غريبًا فآويتموني".

وفي نهاية الصفحة، وجد الآيات:

"كلّ ما فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر؛ فبي قد فعلتُم".

وتجلّت الحقيقة أمام عيني مارتن، وأيقن أنَّ حُلمه قد تحقّق، وأنَّ المُخلّص قد حضر إليه فعلاً، وأنه قد أدّى واجبه واستقبله كما يليق، ورحّب بمقدِمه.

سنة ١٨٨٥م

بنات صغيرات أحكم

من الرجال

ترجمة أ/ أشرف مكرم

"إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد، فلن تدخلوا ملكوت السموات".

(مت١٨: ٣)

كان الوقت مُبكرًا في يوم عيد الفصح. وقد انتهى استخدام الزلاّجات للتو. ومازال الثلج يفترِش السّاحات، والمياه تسيل في مجاريها تنحدر في شارع المدينة.

ولقد تصادف أن التقت فتاتان صغيرتان من بيتين مُختلفين في زُقاقٍ ما بين مترلين، حيث كوَّنت المياه المُتسخة – بعد جريانها خلال ساحات المزرعة – بِرْكَة ضحلة كبيرة.

كانت إحدى الفتاتين صغيرة جدًا، وكانت الأخرى أكبر منها قليلاً. ولقد ألبستهُما والدتاهما كلتاهما ثوبين جديدين. الصُغرى كانت تلبس ثوبًا أزرق، بينما الأخرى كانت ترتدي ثوبًا أصفر مطبوع. وعلى رأسيهِما منديل أحمر.

لقد أتت الفتاتان حالاً من الكنيسة عندما تقابلتا، وأولاً أرت كلتاهُما الأخرى ملابسها، وبعد ذلك بدأتا يلعبنَ. وسُرعان ما أخذهُما حماسة اللعب وبدأتا تذرية الماء. وكانت الصُغرى في طريقها للسير داخل البِرْكَة عندما أوقفتها الأخرى قائلةً لها "لا تدخُلي في البِرْكَة هكذا يا ملاشا Malásha، فإنَّ أُمكِ سوف تُوبخكِ. سوف أنزع أنا حذائي وجواربي، وأنتِ تترعين حذائكِ وجواربكِ"

بعد أن فعلتا ذلك، رفعت كلتاهُما تنُورتَهما وبدأتا في السير تجاه بعضهما البعض خلال البِرْكَة. ولقد وصلت المياه إلى كاحل رِجْل ملاشا فقالت "إنَّ البِرْكَة عميقة يا أكوليا Akoúlya إني خائفة".

فردَّت عليها الأخرى قائلة ''تعالي ولا تكوني مُرتعبة، فلن تكون المياه أعمق من ذلك''.

وعندما أصبحتا بالقُرب من بعضِهما البعض، قالت أكوليا ''احترسي يا ملاشا، لا تنثري المياه. سيري بحرص''. ولم تكد تقُل ذلك إلاّ وكانت ملاشا قد دفعت قدمها في الماء، ولذلك فقد تناثرت المياه على ثوب أكوليا مُباشرةً، وكذلك عينها وأنفها.

وعندما رأت أكوليا البُقَع على ثوبِها، غضبت وأسرعت وراء ملاشا تُريد أن تضربها. ارتعبت ملاشا وإذ رأت أنها أوقعت نفسها في مُشكلة، اندفعت خارجة من البِرْكَة واستعدت للعدو إلى المترل. عندئذٍ تصادف مرور والدة أكوليا، ورأت أنَّ تنُّورة ابنتها قد تلطخت وقد اتسخت أكمامها، قالت ''إنَّكِ فتاة شقيَّة مُتسخة. ماذا كُنتِ تفعلين؟''

أجابت الفتاة ''إنَّ ملاشا فعلت ذلك عن قصد''.

وعندئذٍ أمسكت والدة أكوليا بملاشا وضربتها على مُؤخرة عُنُقها. وبدأت ملاشا تصرُخ لدرجة أنَّ صوتها سُمِع في كلّ الشارع، ولقد خرجت والدتها وهي تتساءل ''على أي شيء تضربين ابنتي؟'' وبدأت تُوبِخ جارتها. وكلمة مُقابِل الأخرى ونَشَبْ شِجار غاضب بين الاثنتين.

خرج الرجال وتجمّع الجمهور في الشارع، الجميع يصيحون ولا أحد يسمع. وجميعهم تشاجروا إلى أن قام أحدهم بدفع الآخر وتطور الأمر إلى لَكَمَات.

وعندما دخلت جدّة أكوليا في وسطِهم مُحاولة أن تُهدِّأهم قائلة ''ماذا تظنون أيها الأصدقاء؟ أهو صحيح أن تسلكوا هكذا؟ في يوم مثل هذا

أيضًا! إنّه وقت للفرح وليس لمثل تلك الحماقات".

ولكنهم لم يستمعوا للسيِّدة العجوز وتقريبًا أوقعوها على قدميها. ولم تستطِع أن تُهدئ المُتجمهرين إلاّ بتدخُّل أكوليا وملاشا أنفسهُما. فبينما كانت النساء تسِب أحداهما الأخرى، مسحت أكوليا الطين من على ثوبها وعادت ثانية إلى البِرْكَة. أخذت حَجَرًا وبدأت في كشط الأرض من أمام البِرْكَة لتعمل قناة تجري من خلالها المياه إلى الشارع. وفي الحال انضمت إليها ملاشا وبمساعدة قطعة صغيرة من الخشب ساعدتها في حفر القناة. وبينما كان الرجال قد ابتدأوا في التعارُك، جرت المياه من القناة التي عملتها الفتاتان إلى الشارع تجاه المكان الذي كانت فيه السيِّدة العجوز وهي تُحاول تهدئة الرجال.

فتبعت الفتاتان المياه وقد جرت كلتاهُما على جانب من المجرى الصغير. وصاحت أكوليا "الحقيها يا ملاشا، الحقيها"، بينما لم تستطِع ملاشا التكلُّم من كثرة ضحِكها.

وإذ كانتا مسرورتين بشدّة وهما تُشاهدان الخشبة الصغيرة وهي تطفو عبر المجرى، جرت الفتاتان الصغيرتان في وسط مجموعة الرجال. وإذ قد رأتهُما السيِّدة العجوز قالت للرجال "ألا تخجلوا من أنفُسكم؟! أن تتعاركوا من أجل هاتين الفتاتين، بينما هما أنفُسهُما قد نسيا كلّ شيء ويلعبان معًا بسعادة. أيتها الأنفُس الغالية، إنهما أحكم منكم".

نظر الرجال إلى الفتاتين الصغيرتين وقد خجلوا، ثم ضحكوا على أنفُسهُم وعادوا كُلٌّ منهم إلى منزله.

سنة ١٨٨٥م

ما مساحة الأرض
التي يحتاج إليها الإنسان؟

اشترك في الترجمة د/ سحر صفوت

-١٠-

الشقيقتان

جاءت الأخت الكبرى من المدينة، لزيارة شقيقتها الصغرى في قريتها. كانت الأولى زوجة تاجر على جانب من الثراء بينما شقيقتها زوجة فلاّح في هذه القرية وإن كان على جانب لا بأس به من اليسار. وبينما كانت الشقيقتان تحتسِيان الشاي وتقضيان الوقت في الحديث أخذت الكبرى تتحدّث عن حياتها في المدينة يملؤها الزهو والفخار ولا بأس لو بها من المُغالاة في الحديث والمُبالغة في الوصف: كيف تعيش وكيف تتجوّل في المدينة في سهولة ويُسر، كيف يلبس أطفالها؟ وماذا يأكلون وماذا يشربون، كيف تقضي بعض الأوقات المرحة في التزحلُق على الجليد، أو في المسرح أو في أماكن النُّزهة حيث يحلو اللهو البريء مع أصدقائِها وأصدقاء زوجِها ...

وأحسّت الأخت الصغرى بشيء من الغضب والاستفزاز من هذا الحديث الذي لا يخلو من المُبالغة والأكاذيب. فأجابت في رد لا يخلو من الحِدَّة تُدافع عن حياة زوجها الفلاّح الذي يجمع إلى عمله كفلاّح مشروعه التُجاري الذي يُزوِّد الفلاّحين باحتياجاتِهِم الخاصة من دُكّانه الصغير والذي يُدِر عليهم دخلاً لا بأس به. وحاولت بقدر طاقتها أن ترفع من قدر حياتها الفردية ولكنها لم تستطِع أن تُجاري أختها الكبرى فقالت:

- من ناحيتي أنا لا أقصِد أن أُقارن حياتي بحياتِك، وأنا أعترف أنَّ حياتنا في القرية هادئة وادعة تخلو من النشاط المُثير والأحداث الصّاخبة التي

تتحدثين عنها في المدينة. وإن كُنَّا لا نعرف هذه الحياة المُرفهة التي تُمارسونها، إلاّ أنَّه من ناحية أخرى فأنا أظُن أنَّ مثل هذه الحياة لها مخاطرها ولابد أن تدفعوا ثمن هذه المُتعة ولابد أن تكون تجارتكم واسعة حتّى تستطيعوا أن تُوفوا هذه النفقات ... ولكن الأرباح لا يُمكن أن تدوم أيضًا، ولعلّك تعرفين المَثَلْ القائل إنَّ الخُسارة هي الشقيق الأكبر للرِبح.

حَسَنٌ يُمكنِك أن تكوني اليوم ثرية وتستمتعين بهذا الثراء على قدر ما تستطيعين، ولكن ماذا يكون موقِفك عندما يقلِب الدهر لكِ ظهر المجنّ، فتجدين نفسكِ بلا ثروة أو بلا مال أو حتّى بلا مأوى؟

إنَّ حياتنا هنا في القرية لها أسلوب أفضل. فقد تكون معدة الفلاّح رقيقة ولكنها طويلة المدى أي أنَّه قد لا يكون على هذه الدرجة من الثراء أو الرّفاهية أبدًا ولكنه لديه على الدوام ما يكفيه.

ولم تستطِع الأخت الكبرى أن تحتمل هذه الإجابة، فأردفت برد حاد وسريع

– كفى حقًا .. كفى هذا اللغو .. فلا شيء في حياتِك سوى خنازيرِك التَعِسة، وبعض صِغار البقر .. كفاكِ هذا بلا فساتين جميلة وأنيقة، بلا أصدقاء أو مرح أو سعادة مهما بذل زوجِك من جهد أو عمل فلا مخرج له من الحياة في الطين ... وهناك تموتين أيضًا وأطفالِك من بعدِك. أواه .. من يحتمل الحياة في هذا البؤس وهذا الشقاء، وعادت الأخت الصغرى، لترد الصاع صاعين في هذا التحدي.

– هو كذلك معنا ... وبالرغم من أننا نعيش بشيء من الصعوبة والعناء .. ولكن هناك على الأقل هذه الأرض تبقى مِلكًا لنا، ولا نحتاج أن ننحني

أو نتذلَّل أمام أحد. ولكن مع مُضي الوقت تتغيّر الأمور، وقد تنظُر إليكِ العيون الشِّرّيرة، أو يجد رجُلِك نفسه مُجربًا ومُحاربًا من الخمر أو القمار أو وهم من أوهام الحُب، فتجدي نفسِك ورجُلِك في هُوَّة الإفلاس. أليس الأمر كذلك؟

على مقرُبة منهما كان يجلس بجوار المدفأة باكوم زوج الشقيقة الصغرى، وكان يُصغي إلى هذا الحوار، ووجد أنَّ الوقت قد حان لكي يتدخّل في الحوار ويحسِم المُناقشة.

- هذا صحيح ... لقد كُنت أصول وأجول حول أُمنا الأرض منذ طفولتي، ولذلك لم أجد من الوقت ما يسمح لمثل هذه السخافات أن تدخُل رأسي ... وأنا راضٍ عن حياتنا في القرية باستثناء واحد. فأرضي صغيرة جدًا بالنسبة لغيري من كِبار المُلاَّك ... فقط أعطني أرضًا، وأنا لن أخون إنسانًا .. لا ولا حتّى الشيطان نفسه.

إنتهت السيِّدتان من احتساء الشاي، ولكن الحديث لم ينقطِع ولكنه تطرَّق إلى نِقاط أخرى حتّى أنَّ حديثهُما عن الملابس وأحدث خطوط الموضة لم يستغرِق وقتًا طويلاً، ونهضتا لغسل الأواني الفُخارية التي كان فيها الطعام أو الشاي، ثم ذهبتا إلى فراشِيهما للنوم.

ويبدو أنَّ الشيطان كان حاضرًا طُوال هذا الوقت، جالسًا خلف المدفأة ينصِت إلى هذا الحوار الذي استمتع به تمامًا وجعلهُ يشعُر بشيء من السعادة خصوصًا عندما لاحظ أنَّ زوجة الفلاّح استطاعت أن تدفع زوجها الفلاّح إلى التفاخُر والزهو بالذات خصوصًا عندما قال إنَّه إذا امتلك أرضًا فلن يستطيع حتّى الشيطان أن يسلِبه إيَّاها.

وبعد فترة من التفكير هتف في نفسه قائلاً:

- حسنًا ... سأقبل التحدي، وأُحاول معك مرّة أخرى، سوف أعطيك الكثير من الأراضي ... ثم أنتزعها منك ثانية .. ماذا تفعل عند ذلك يا صاحب؟

-٢٠-

المتاعِب

بجوار هؤلاء الفلاّحين، كانت تسكُن إحدى السيِّدات من أصحاب الأملاك، ولديها ثروة من الأراضي لا تتجاوز ١٢٠ فدّانًا. وكانت في البداية على علاقة طيبة بالفلاّحين، ولم يحدُث أن أساءت استخدام حقوقها بأي طريق، ولكنها الآن تغيّرت الأحوال منذ أن ألحقت بخدمتها أحد الجنود المُتقاعدين كرئيس فَعَلَة. ومنذ أن احتل هذه الوظيفة لم يكُف عن اضطهاد الفلاّحين ومُلاحقتِهم بالغرامات المالية.

ولكن هذا الأمر بدأ يُقلِق بال باكوم كثيرًا، فقد التزم جانب الحذر. فقد يدخُل أحد خيوله إلى حقل الشعير الذي تملُكه السيِّدة، أو تدخُل إحدى الأبقار عن طريق الخطأ إلى حديقتها، وأحيانًا كانت صِغار البقر تقتحم مراعيها. وبسبب هذه الأمور كان لابد من فرض الغرامات المالية. كان باكوم يدفع الغرامة ثم يُنفِس عن غضبه المكتوم بضرب أفراد أُسرته والشِجار معهم. لقد كثُرت مشاكله مع رئيس الفَعَلَة بسبب أعمال الصيف، حتّى أنَّه شَعَر من كلّ قلبه بالشُكر حين وجد ماشيته في حقل القش مرّة أخرى، وقد ندم على ثمن بقائِها في هذا الحقل. ولكن هذا الأمر لم يعُد يُقلِقه كما كان الحال من قبل.

عندما حل فصل الشتاء سرت شائعة بين الفلاّحين أنَّ البارينا – السيِّدة الثرية – سوف تبيع الأرض، وأنَّ رئيس الفَعَلَة يُعِد العُدَّة حتّى يتقدّم

لشرائِها وشراء الأراضي المُتصلة بها حتّى الطريق السريع. وبينما كان الفلاّحون يتداولون هذه الأنباء كانوا يشعرون بالإحباط وخيبة الأمل. وانتشرت بينهم هذه المقولة:

– لو أخذ رئيس الفَعَلَة هذه الأرض حقًا، فلن يتورّع عن مُطاردتنا بالغرامات المالية والشكاوي للسُّلطات أسوأ مِمّا كان عليه الحال تحت إشراف البارينا ... إنَّ أفضل ما يُمكن أن نفعله في هذه الحال أن نمتلِك نحن هذه الأرض بأي وسيلة، خصوصًا وأننا جميعًا نسكُن في الدائرة التي تُحيطُ بها.

واتفق الفلاّحون على انتداب مجموعة منهم للتوجُّه لمُقابلة البارينا، والتوسُل لديها حتّى لا تبيع الأرض لرئيس الفَعَلَة، وأن تُعطيهم حق الرفض، وحق المُنافسة والمُزايدة، وقد لاقت هذه المطالب هوى في نفس البارينا فوافقت عليها. وأخذ الفلاّحون من جانبهم يُرتِبون أمورهم لشراء كلّ أملاكها. وتقابلوا معًا وتشابكوا في الحوار والحديث، ولكن الأمر لم يجرِ في سهولة. وفي الحقيقة كان الشِرّير يُعطِل هدفهم لأنه جعلهم يفشلون في الاتفاق والتضامُن معًا. وفي النهاية استقر رأي الفلاّحين أن يُحاولوا شراء الأرض في قِطَع مُتفرقة، كلّ واحد على قدر ما يستطيع. ولم يكُن في ذلك ما يُسيئ إلى صاحبة الأرض بل على العكس لقد أعجبها هذا الإقتراح وارتضت به.

وسمع باكوم في يوم من الأيام أنَّ جاره اشترى ٢٠ فدّانًا، وأنَّ البارينا وافقت أن تتقاضى نصف الثمن فورًا وتُؤجِل النصف الباقي لمدة عام. وشَعَرْ باكوم بالحِقد، وامتلأ ذهنه بالمرارة وهو يقول لنفسه:

– إذا اشترى الباقون كلّ الأرض، فسوف أشعُر أني قد تُرِكت في العراء.

ثم استشار زوجته المُتعاطفة معه قائلاً: كلّ شخص يشتري الآن جزءًا من الأرض، ويحسُن بنا أن نحصُل نحن أيضًا على عشرة أفدنة. إننا لا نستطيع المعيشة الآن كما يليق لأنّ رئيس الفَعَلَة يقتنِص كلّ معيشتنا عن طريق الغرامات المالية.

أخذا يُفكِران معًا كيف يُدبران هذه الصفقة. كانا قد استطاعا أن يقتصِدا من قبل مبلغ مائة روبِل فإذا أضافوا إلى هذا المبلغ ثمن بيع الفَرَس ونصف عدد المناحِل التي يمتلكونها واستطاعوا أن يلحقوا ابنهم بوظيفة مُعيّنة فسوف يتوفر لديهم نصف الثمن المطلوب لشراء مساحة لا بأس بها من الأرض.

وجَمَعْ باكوم فعلاً كلّ هذا، واختار قطعة أرض تبلُغ الخمسة عشر فدّانًا بالإضافة إلى نصيب من مخزن أخشاب وذهب إلى البارينا لترتيب الأمور، وانتهت المُساومة بالتعاقُد وتصافحوا بالأيدي تصديقًا على إبرام الصفقة. ودفع باكوم التأمين ثم ذهب إلى المدينة، وأكمل إجراءات نقل العقار إلى مِلكيته بدفع نصف الثمن فورًا والنصف الآخر مُؤجّل الدفع خلال عامين.

عجبًا ... لقد أصبح باكوم من أصحاب الأملاك ... صاحب أرض

ثم اقترض أيضًا مبلغًا صغيرًا من المال من أخيه، اشترى به بعض الحبوب، وألقى البِذار فور استلامه الأرض التي وضع يده عليها حديثًا. ونما زرعه جيدًا وحقّق محصولاً لم يكُن في حُسبانه حتّى أنّه في بحر عام واحد استطاع أن يُسدِّد ديونه للبارينا وأخيه. وأصبح السيِّد المُطلق الذي يمتلِك هذه الأرض. لقد صارت الأرض التي يبذِرها مِلْكًا له، والبرسيم الذي يحصُده

مِلْكًا له كذلك، والخشب الذي يقطعه للنار يُخُصُّه هو وحده لا سواه، والماشية التي يرعاها هي ماشيته هو لا غير. كُلَّما ذهب إلى أرضه للحرث أو التفتيش على المحصول والمراعي، كان يشعُر بسعادة غامرة.

هذه الحشائش بدت له مُختلفة ومُتميزة عن سواها، والأزهار تتفتَّح بطريقة تختلِف تمامًا عن غيرها ... تذكَّر أنَّه فيما مضى ركب إلى هذه الأرض، ولكنها كانت مُجرّد أرض ... لا تعني شيئًا له. أمَّا الآن فبالرغم من أنها مازالت أرضًا كما هي، إلاّ أنَّه كان يراها أرضًا مُختلفة تمامًا.

-٣٠-

إشاعة

عاش باكوم سعيدًا قرير العين ردحًا من الزمن، وكان كلّ شيء جيدًا لولا بعض الأمور التي كانت تُنغِص عليه حياته بين الحين والآخر. فالفلاّحون الآخرون لم يتركوا قمحه أو مراعيه في سلام. لقد ذهبت كلّ مُحاولاته لحمايةِ مُمتلكاته أدراج الرياح. وفي نفس الوقت فإنَّ مُحاولاتِهِم في التعدِّي على أرضه وقمحه ومراعيه باءت في الفشل. كان الرُّعاة يقودون مواشيهم إلى مراعيه، وكانت بعض الخيول تدخُل أجرانه أثناء الليل. وكان المرّة بعد الأخرى يدفعهم خارجًا، وأخذ يقلِب النظر في الأمر، وفي النهاية ثارت ثائرته وقدّم شكواه إلى البلاط المَلَكي الصارِم. كان يعلم أنَّ الفلاّحين يفعلون هذا بسبب ندرةِ الأراضي وليس بسوء قصد، ومع ذلك لم تكُن هذه الأفعال مسموحًا بها لأنَّ هذا العدوان كان يُشكِّل انتهاكًا للحقوق واستهلاكًا للإنتاج. كان لابد أن يُلقنهم هذا الدرس. لقد فَعَلْ هذا أولاً لأحدهم وهو في البلاط وكرَّر ذلك عدَّة مرّات ... ومع ذلك فقد آثار هذا التصرُّف مشاعرهم ضده، وبدأ جيرانه يسرقون محاصيله عن عمد. وفي إحدى الليالي دخل أحدهم إلى المزروعات ونزع لُحاء الأشجار عن عشرة من أشجار الزيزفون على الأقل. وعندما أصر باكوم على إنتهاج هذا السبيل ورأى ما حدث اصفر لونه واقترب فرأى اللُحاء منزوعًا وقد أُلقِيَ بعيدًا ثم فُوجئ ببعض الأشجار منزوعة من جذورها. شجرة واحدة فقط تركها

اللص الوغد بعد أن قطع كلّ فروعها، ولكن الباقي أزاله تمامًا في عدوانه الشِّرِّير، وأخذ يُفكِر غاضبًا.

- آه ... لو علمت فقط من الذي فَعَلْ هذا، فسوف أنتقم منه شر انتقام

تعجّب وتحيّر مَنْ يكون هذا المُعتدي، وأخذ يستعرِض في مخيلته جميع الذين يعرفهم ويعرف فيهم هذه النزعة الحقودة الشِّرِّيرة ... هل يُمكن أن يكون هو سيمون؟ وذهب إليه وحاول أن يستدرِجه إلى أي اعتراف، ولكنه لم يستطِع أن ينتزع منه أي كلمة يُمكن أن تُشير أنَّه الفاعل ولكنه استمع إلى سيل جارف من الألفاظ الوقِحة. لقد سيطر عليه شعور قوي أنَّ سيمون لابد وأن يكون هو الجاني، وقدّم شكوى ضده إلى البلاط، واستدعى البلاط كليهِما للمثول أمام قُضاة التحقيق. ولمّا حان موعد النظر في الشكوى واستمع القُضاة إلى الاتهام الذي لم يستنِد إلى شاهد أو دليل حسي قاطع، تقرَّر رفض النظر في الدعوى لافتقار الاتهام إلى الأدلَّة.

لقد ثار غضب باكوم إلى الغاية، وزَل لسانه فَقَدَح في نزاهة شيخ البلد والقُضاة حتّى أنَّه صاح فيهم قائلاً:

- أيها القُضاة لا شك أنَّكم مُتواطِئون مع اللصوص ... ولو كُنتم رِجالاً أُمناء أو قُضاة عدول، لِمَا كُنتم أطلقتم سِراح سيمون.

لم يكُن هناك أدنى شك، أنَّ باكوم لم يكُن راضيًا عن القُضاة ولا عن مسيرة العدالة في بلده ولا عن جيرانه. وبدأ هذا الشعور يقتاده إلى الحياة في عُزلة وكآبة يصُب كلّ اهتمامه في أرضه ولا يشترك إلاّ قليلاً مع جماعة قليلة من الفلاّحين.

وفي هذه الأثناء راجت بينهم شائعة أنَّ بعضًا منهم يُفكِرون في الهجرة ..

ووصلت الإشاعة إلى باكوم مِمّا دفعه إلى التفكير!

– ولكن ما هو الدافع إلى هذا؟ بالنسبة لي هناك ما يدفعني إلى ذلك، فلا يُمكن أن أُفكِر في ترك أرضي ... ولو أنَّ الآخرين سيرحلون، فسوف يتيحون لي مكانًا أكبر. إنني أستطيع أن أشتري أراضيهم وأسيِّج حولها بالأشجار وأعيش حياة أكثر راحة ودِعة ... في الوقت الحاضر أشعُر بتوتر شديد.

وحدث بعد ذلك أنَّ باكوم كان جالسًا في منزله في أحد الأيام، عندما زاره أحد الفلاّحين كان مُسافرًا على غير ميعاد، فأعطاه باكوم غُرفة لمبيت ليلة كما قدّم له الغذاء وهما يتجاذبان أطراف الحديث وسأل باكوم الفلاّح عن المكان الذي جاء منه، وأجابه الرجُل بأنَّه أتى من جنوب النهر من بُقعة تقع وراء نهر الڤولجا حيث كان يعمل في خدمة أحد الأثرياء. ثم استرسل في حديثه يصِف استقراره هناك وشرح كيف أنَّ كلّ مُقيم هناك اسمه مُقيّد في جماعة الفلاّحين يأخذ في حيازته عشرة أفدِنة من الأرض ويا لها من أرض ... كانت الأرض بِكرًا وقوية، فينبُت النبات وتستطيل عِيدانه حتّى أنَّ الحُصان يستطيع أن يختبئ بينها، وعِيدانه ليست طويلة بهذا القدر فحسب بل كانت سميكة وقوية ... واستطرد قائلاً

– أعرف واحدًا من الفلاّحين وصل هناك فقيرًا مُعدمًا لا يملُك سوى يديه يعمل بهما يزرع الآن خمسين فدّانًا من الذُرة .. حقًا ... في غضون الأعوام القليلة الماضية حصل هذا الرجُل على خمسة آلاف روبل من الذُرة وحدها.

وهاجت خواطر باكوم واشتعلت روحه بهذا الذي سمعه. وفكّر في

نفسه:

– لماذا أبقى هنا فقيرًا ومُحبطًا بينما في مقدوري أن أحيا حياة رغدة مثل هذه؟ سوف أبيع الأرض والبيت وأذهب إلى هناك حيث أبني لنفسي بيتًا جديدًا وأتملّك نصيبًا أكبر من الأرض ... أمّا هنا وفي بلدي هذه فقد أصبحت الحياة ضنكة والعمل مُمِلاً والتعايُش مع الناس يدعو إلى الضيق وإلى الكثير من المشاكل والمتاعب، لقد صارت المعيشة همًّا مُتواصلاً ... على أيَّة حال قبل أن آخُذ خطوة عملية في هذا الطريق يُمكني أن أقوم برحلة إلى تلك الأصقاع وأقوم بعمل بعض التحريات والاستفسارات وأعايِن كلّ شيء على الطبيعة.

فلمّا جاء الصيف، وكان قد قرّ قراره على هذه الخطة، جهّز نفسه وخرج للرحلة. أخذ الباخرة جنوبًا إلى الڤولجا إلى سمارة، وهناك أخذ يتنقّل على مهل طُوال ٤٠٠ فرسخٍ حتّى وصل إلى المكان المنشود. وأخذ يُعاين ويسأل ويُحقّق ويُدقق حتّى تأكّد بالفعل أنّ الأمور تسير على المنوال الذي وصفه له الفلاّح المُسافر.

الفلاّحون يعيشون في رفاهية، ولكلّ نفس عشرة أفدنة حُرّة، كما استقر في يقينه أنّ الفلاّحين سوف يرحبون بمقدِمه. كما نما إلى علِمه أنّ أي شخص يذهب إلى هناك ومعه ماله يستطيع بماله هذا أن يشتري أرضًا إضافية تُضَمْ إلى الفدادين العشرة ... يستطيع أن يشتري كما يشاء وأن يتملّك فورًا وإلى الأبد. يستطيع أن يدفع ٣ روبلات في مُقابل الفدّان الواحد. وهذا ينطبق على أجود الأراضي هناك.

جَمَعْ معلوماته هذه وأخذ يُمعِن التفكير فيها، وعاد إلى بيته في الخريف.

ولم يكد يستقر في بيته حتّى بدأ البيع فورًا، ونجح في التخلُّص من الأرض والمترل والسِلَع المخزونة لديه وقد أصاب رِبحًا وفيرًا. ثم حذف اسمه من سِجِل جماعة الفلاّحين في بلده وشد رِحاله في الربيع مع عائلته ينشِد جنوب الفولجا.

- ٤ -

البئر

وصل باكوم إلى الجهة المقصودة على الوجه المطلوب، وقد كان اسمه قد تم تسجيله مُسبّقًا في جماعة الفلاّحين في تلك المُستعمرة الضخمة بعد إرضاء كبير الجماعة. ولم يستغرِق زمنًا طويلاً لإتمام الإجراءات وتحرير الوثائق اللازمة وأفرزوا له خمسين فدانًا من الأرض على أساس عشر فدادين باسم كلّ فرد من أفراد أُسرته في قِطَع مُختلفة من الأراضي الزراعية بالإضافة إلى مساحة مُعيّنة من المراعي. وبنى باكوم لنفسه بيتًا كبيرًا مُتسِعًا مع ما يتبعه من مخازن للبضائع المُختلفة وكدّسها بكمية ضخمة من السِلَع. كانت أرضه المُسجلة وحدها ضِعْف ما كان يمتلكه في بلده القديم، وبالتالي كان المحصول يطرح غلَّة مُضاعفة. وعلى وجه العموم كانت الحياة في هذه المنطقة أفضل عشر مرّات مِمّا كان، فقد كان تحت تصرُّفه أرضًا جيدة صالحة تمامًا للزراعة، أمَّا المراعي فكانت تكفي عددًا أكبر من الماشية التي يُريد أن يمتلكها، أكثر كثيرًا مِمّا كان يطلُبه في البداية.

وفي أثناء البُناء والتخزين ظن أنَّ كلّ شيء رائع، ولكنه فيما بعد عندما استقر فترة قصيرة بدأ يشعُر مرّة أخرى بالتوتُر ولعلّ شعوره في هذه المرّة كان أكثر حِدّة مِمّا كان، فقد أخذ يتطلّع إلى زراعة القمح الأبيض التُركي كما فعل الآخرون ولكن لم تكُن لديه المساحات الكافية التي يُمكنه فيها أن يزرع هذا الصنف فالقِطَع التي خُصِّصت له كانت صغيرة — إذا نظرنا إلى

كلٍّ منها على حدة، بينما القمح المذكور يحتاج في نموه أن يُزرع فوق أرض حشائش جديدة أو أرض تُزرع موسمًا ثم تُترك بدون زراعة الموسم التالي لكي تستريح الأرض. ومثل هذه الأرض تُبذَر فيها الحبوب سنة ثم تُترك سنتين حتّى تنمو الحشائش مرّة أخرى. لقد كان في حيازته الآن أرضًا ناعمة تمامًا حسب رغبته وطموحه ولكنها لا تصلُح إلاّ لنبات مُعيّن بينما القمح الأبيض يحتاج إلى أرض صلبة. كان الإقبال على الأرض الصلبة كبيرًا ولم يكُن هناك كفاية لتلبية جميع الطلبات. وفوق ذلك فقد أدّت هذه الأرض إلى نشوب النزاع بين الفلاّحين، فالزُرَّاع الأغنياء كانوا يبذِرون أرضهم أمَّا الفُقراء فقد اضطروا أن يرهنوا أراضيهم عند التُجار حتّى يحصلوا على احتياجاتِهم من هذا القمح.

في السنة الأولى زرع باكوم حِصَصه من الأرض بالقمح، درّت عليه محاصيل رائعة. وأراد أن يُعيد زراعتها مرّة أخرى بهذا القمح ولكن المساحات التي امتلكها لم تكُن تسمح بإلقاء البِذار في أرض جديدة، فاضطر إلى ترك أرض العام الأوَّل بدون زراعة. وشعر أنَّه مُحتاج إلى قِطَع ومساحات أكبر اتجه إلى أحد التُجار وأبرم معه عقدًا لاستئجار أراضي أخرى جديدة لمدة عام حتّى يتسنّى له زراعتها بالقمح كما يشتهي. ولا شك أنَّه اشترى بِذارًا كثيرة على قدر استطاعتهِ لكي يزرعها في هذه المساحات الجديدة. وتحقّق له محصول هائل ورائع. ولكن الشيء الذي ضايقه وأفسد عليه بهجته أنَّ هذه الأراضي كانت بعيدة عن مسكنه ومخازِنه، وكان لابد له أن ينقِل هذا المحصول ١٥ فرسخًا. ولاحظ باكوم أنَّ تُجار القمح يُقيمون في منازل جميلة وفاخرة ويزداد ثراؤهم لأنهم يُقيمون

على نفس هذه الأرض. وهذا دعاه إلى التفكير: وماذا يكون الحال لو حصلت على تعاقُدات لُمدة أطول بحيث يتسنّى لي أن أُقيم بيتًا آخر فوق موقع الأرض مثلما فعلوا؟ حينئذٍ أكون قد وفّرت الكثير من مصاريف النقل وتتهيّأ لي الفُرصة للتعامُل في السوق. وشَرَعَ فعلاً في تنفيذ القرار.

وهكذا عاش باكوم خمسة أعوام مُتصلة لا ينقطع فيها عن زراعة القمح، فعندما يترُك بعض المساحات للراحة تكون القِطَع الأخرى مُستعدة لزراعتها، وقد جلبت له هذه الخطة محاصيل وفيرة. واندمج في هذه التجارة التي كانت تُدِر عليه رِبحًا وفيرًا. ولكنه رأى أنّ هذا الدخل يكاد يكفي بالكاد مطالب الحياة الجديدة ومظاهرها. كما سَئمْ استئجار الأراضي والانتقال إلى المواقع الجديدة كلّ عام وتحويل بضائعه ومخازنه إلى هناك. وكلّما كانت هناك فرصة لاستئجار قِطَع جديدة وجيدة من الأراضي كانت المُنافسة قوية بين الفلاّحين للحصول عليها وفي كثير من الأحيان لم يستطِع الفوز بعقد إيجارها قبل التقسيم لزراعتها ككُلّ.

وفي إحدى المرّات شارك أحد التُجار في استئجار قِطَعْ أراضي مراعي من بعض الفلاّحين وبعد أن حرثها خسرها في قضية مع هؤلاء الفلاّحين وضاع تعبه هباء. لو كانت هذه الأراضي مِلكه مِلكية مُطلقة لِمَا زاحمه أحد أو تنازل عنها لأحد وتفادى وقوع مثل هذه المتاعب والخسائر. فبدأ يبحث بعد ذلك عن الأراضي التي يستطيع أن يشتريها فتُصبِح له بلا مُنازِع، وبالتالي لا يحتاج إلى استئجار أراضي أخرى. وقد حالفه الحظ في هذه السياسة الجديدة فقد ألقت إليه المقادير بفلاّح كان يُواجه شبح الإفلاس، وكان مُستعدًا أن يبيع أملاكه من الأرض دُفعة واحدة، وكان يمتلِك

خُمسمائة فدّان وكان مُستعدًا أن يتنازل عن جزء من ثمنها إذا باعها صفقة واحدة. ودخل باكوم في مُفاوضات مضنية معه، وبعد مُناقشات طويلة اتفقا على خُمسمائة روبل، النصف فورًا والباقي مُؤجّل.

وبعد أن تم إبرام العقد، فُوجئ باكوم يومًا بالتاجر يأتي إليه في بيته لكي يُساوم في ثمن الخيول. وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث أثناء احتساء الشاي، وقد شربا في هذه الجلسة كمية لا يُستهانُ بها. وتطرّق الحديث إلى سَفَر التاجر الذي اعترف فيه هذا التاجر بأنه مُزمِع أن يقطع مسافة طويلة من قرية باكوم حيث اشترى توًا خمسة آلاف فدّان في صفقة طيِبة لأنه اشتراها بألف روبِل فقط. وقد آثار هذا الموضوع فضول باكوم ليسأله عن نوع الأرض وكيفية الحصول عليها وقد أجاب التاجر على تساؤلاته

- كلّ ما فعلت أني قدّمت بعض الهدايا للكِبار سواء من السجاد أو أباريق الشاي، كما وزّعت كمية من الفودكا على الذين يميلون إليها بما يُساوي مائة روبِل حتّى نجحت في شراء الفدّان بمبلغ ٢٠ كوبِيك فقط.

ولكي يُؤكد الرجُل حقيقة هذه الصفقة، أبرز العقد لكي يُطلِع باكوم عليه، وعلّق بالتالي على هذه المعلومات

- هذه الأراضي في منطقة الإستِبس، وكلّها منطقة مفتوحة للتملُّك

واستطرد التاجر

- إنَّكَ لن تجد أرضًا مثلها في سنة كما هو الحال في كلّ أرض البشكيرز، وفوق ذلك فإنَّ الناس هناك طيِبون، بُسطاء كالحِملان كُرماء وأسخياء بحيث تستطيع أن تنال منهم أي شيء بلا مُقابل.

وبدأت الأفكار تُهاجم باكوم، وهو يقلِب الأمر في ذهنه

- حسنًا ... ما فائدة دفع ألف روبِل مُقابل خُمسمائة فدّان فقط، وأظل مُثقّلاً بالدِين في عُنُقي، بينما الفُرصة سانحة أمامي لكي أكون من ذَوِي الأملاك الشاسعة هناك، وبنفس القدر من المال؟

.٥.

المُعسكر

بعد أن رحل التاجر، لم يستطِع باكوم أن يكتِم فضوله فأخذ يجمع المعلومات المُستفيضة عن إقليم الباشكيرز وطريق الوصول إليه وسُبُل الحياة هناك. ولم يُقاوم رغبة عارمة لُمعاينة كلّ شيء بنفسه، فأخذ يستعِد لرحلة إلى هناك على أن يترُك زوجته وأولاده في المترل حتّى يصل إلى قرار بالانتقال. وأخذ معه بعض العُمّال فقط. ذهب أولاً إلى المدينة حيث اشترى بعضًا من الهدايا التي تُسهِّل طريقه؛ بعض قِطَعْ من السجاد وعددًا من الأباريق المُلونة، وكمية لا بأس بها من الفودكا، وهدايا أخرى كما نصحه التاجر. ثم بدأ مسيرته التي قطع فيها مسافة خُمسمائة فرسخ، وفي اليوم السَّابِع وصل إلى مُعسكر الباشكيرز ... كلّ شيء ينطبق عليه وصف التاجر.

الناس هناك يعيشون في عربات مُغطّاة، وكانت هذه العربات مُقامة على جانب النهر الذي يجري في وسط منطقة الإستبس المفتوحة ... كانت الماشية تهيم على وجهها في مراعي الإستبس الشاسعة مع الخيول. أمَّا إناث الخيول فكانت مربوطة إلى ظهر العربات. كانوا يقودون الأُمهات لإرضاع الصِغار مرتين في اليوم. وكان الغذاء الأساسي للباشكيرز هو لبن أُنثى الفَرَس، كما كانت النساء تستعمل هذا اللبن في صُنع مشروب الكيومس، كما كان يُمكن خضخضِة الكيومس لعمل الجُبْن. في الواقع كان الكيومس

هو الشراب الوحيد الذي يعرفه الباشكيرز بالإضافة إلى الشاي، كما كان لحم الضأن هو غذاؤهم الوحيد. وفي أوقات الفراغ – وكانت كلّ أوقاتِهم فراغًا – كانوا مُولعين بالعزف على المزمار ولم يكُن لديهِمْ وسيلة أخرى للتسلية.

ومع كلّ ذلك فقد كان يبدو عليهم البِشْر والمرح، ودأبوا على إقامة الاحتفالات على مدار السنة؛ ولعلها كانت هي شُغلهم الشاغل لأنهم لم يكونوا يحرثون أو يزرعون أو يبحثون عن المحاصيل الزراعية. لقد ترفّعوا عن العمل وتركوه تمامًا للفلاّحين الروس. فيما يختص بالتعليم فقد كانوا مُتخلفين تمامًا حتّى اللُغة الروسية لم يعرفوا شيئًا عنها ولكنهم كانوا يمتازون بالجاذبية والتعاطُف.

ما أن وقعت أبصارِهِم على باكوم حتّى خرجوا من عرباتِهم وأحاطوا بالضيف الغريب، ووجدوا مُترجمًا ينقِل الحديث بينهم وبينه، وأعلن باكوم لهم عن مشروعه ونيته في شراء أرض. وتلقّى الناس هذه الأخبار بترحاب وبهجة، عانقوه بحرارة وساروا في معِيته حتّى وصل إلى إحدى العربات التي تميّزت عن غيرها في الشكل والتصميم. ودعوه للجلوس فوق كومة من الخِرَق البالية تُغطيها وسائد ناعمة، ثم أمروا له ببعض الشاي وشراب الكيومس وإمعانًا قي إكرامه ذبحوا له إحدى النِعاج وأعدُّوا له وليمة دَسِمة من لحم الضأن. بعدها لم يملُك باكوم سوى أن يُخرِج ما في جُعبته من الهدايا ووزّعها عليهم. وأخذ يحتسي نصيبه من الشاي بينما انشغل جماعة الباشكيرز في الحوار فيما بينهم فترة من الوقت أشاروا بعدها للمُترجِم لكي يتكلّم فقال:

- عليَّ أن أُخبِرك أنهم جميعًا قد أُعجِبوا تمامًا بشخصيتك. ومن عاداتنا أن نستجيب لرغبات الضيوف بكلّ الوسائل المُمكنة في مُقابل الهدايا التي يُقدِّمها لنا. ومادُمت قد أعطيتنا هذه الهدايا، عليك أن تُدلي لنا برغباتك لكي نُحقّقها لك

- إنّ ما يُعنيني بصفة خاصّة هو الأرض ... فقد جِئت من بلدي حيث لا يوجد ما يكفي من الأرض، والموجود منها تم استغلاله كثيرًا، بينما أرى أنّ لديكم الكثير منها والأرض جيدة لم أرَ لها مثيلاً من قبل

ونقل المُترجم هذا الكلام، وتجمّع الباشكيرز للمُناقشة والجَدَل. ومع أنّ باكوم لم يفهم شيئًا مِمّا يقولون فقد أرهف سمعه وتابع بعينيه صُراخِهِم وجَدَلِهِم الذي كانت تسري فيه لمسة من المرح حيث كانوا ينفجرون ضاحكين بين الفينة والأخرى ثم توقفوا أخيرًا عن الجدل، وأحدقوا به وأحاطوه بعيونِهِم بينما تولّى المُترجِم الكلام.

- عليَّ أن أُبلّغك أنّه ردًا على مُعاملتك وطَلَبَاتَك، فنحن على استعداد أن نُبيعَك أكثر ما يُمكنّا من الأرض. كلّ ما نطلُبه منك أن تُشير بيدك لتُبيِّن ما تُريده وهو لك.

ولم يكُن باكوم يطمع في أكثر من هذه النتيجة. وعند هذا الحد عادت الجماعة إلى الثرثرة من جديد، وأخذوا يتجادلون حول أمرٍ ما، وسأل باكوم المُترجِم حتّى يُشبِع فضوله عن السبب وراء هذا الجَدَل، فأجاب

- بعضهم يرى أنّ من الواجب أن يستأذنوا شيخ البلد أولاً، لأنّه لا يجوز إبرام أي أمر بدونه، بينما البعض الآخر لا يرى ضرورة لذلك.

.٦٠

شيخ البلد

بينما استغرق الباشكيرز في الجَدَل والمُناقشة، وصلت عربة بها رجُل على رأسه قُلنسوة من جِلد الثعلب. وما كاد يدخُل حتّى نهض الجميع واقفين، بينما أسرع المُترجِم إلى باكوم قائلاً

– هذا هو شيخ البلد

وما كاد باكوم يسمع هذا حتّى أخرج أجمل ما عنده من الحُلي، وقدّمه إلى التريل الجديد كما أعطاه خمسة أرطال من الشاي، فَقَبِلَها الرجُل في وقار ثم جلس في مكان الشرف بينما التف حوله الباشكيرز يعرضون عليه مُختلف الأمور والقضايا ... وأنصت ثم أنصت .. ثم تراقصت على شفتيه ابتسامة عريضة وهو يُوجِه حديثه لباكوم باللُغة الروسية:

- حسنًا .. أرجو أن تختار من الأرض ما يروقُ لك، فنحن نمُلك الكثير.

وتواردت على ذِهن باكوم الخواطر، وفكّر في نفسه قائلاً:

- إذًا يُمكنني أن آخُذ من الأرض ما أُريد .... ولكن يجب أن أتشدّد في المُساومة بأي طريقة، فقد يقولون هذه الأرض لك ولكنهم قد يأخذونها مني ثانية

ثم أجاب بصوت مُرتفع

- أشكُرك على مُجاملتك الرقيقة ... وكما تقول عندك الكثير من الأرض ... وأنا أحتاج إلى شيء منها. كلّ ما أُريد أن أعرفه أيَّة أرض

ستؤول إليَّ حتّى يُمكنّا قياسها، ثم تنقِل ملكيتها إليَّ قانونيًا. فالله وحده هو رب الحياة والموت ... ومع أنّكم رجال طيِبون، وتُقدِّمون لي هذه الأرض بإرادتكم، فقد يحدُث أن يغيّر خُلفاؤكم رأيهم ويستردوها مني.

وابتسم شيخ البلد ابتسامته العريضة مرّة أخرى، وهو يُجيب

- أمَّا عن نقل ملكيِة الأرض، فقد تم ذلك فعلاً لأنَّ اجتماعنا هذا هو طريقتنا في توثيق البيع، ولا يوجد ما هو أكثر ضمانًا من ذلك.

ولكن باكوم لم يستسلِم، بل واصل حديثه ودِفاعه عن رأيه قائلاً:

- ولكن أحد التُجار الذين زاروكم قريبًا، واشترى منكم بعض الأرض قال لي أنَّكم أعطيتموه صكًّا، ولذلك أرجو أن تُعاملوني بنفس الطريقة.

وبدا على شيخ البلد أنَّه أدرك ما يرمي إليه باكوم فأجابه بقوله:

- حسنًا .. يوجد عندنا كاتب، وسنذهب إلى المدينة ونحصُل على الأختام اللازمة.

وعاد باكوم يسأل في شَغَفْ

- ولكن ما هو ثمن الأرض الذي ينبغي عليَّ أن أسدِّده

- الثمن هو ألف روبِيل حسب اليوم

وزوى باكوم ما بين حاجبيه، وبدت عليه إمارات الحيرة والقلق، لأنَّه لم يفهم المقصود من عبارِة سعر اليوم فعاد يتساءل مُستوضِحًا:

- عن أي مساحة؟

ونظر شيخ البلد نظرة طويلة فاحصة، وأجاب:

- نحن لا نحسب بهذه الطريقة. نحن نبيع باليومَ أي كمية الأرض التي تستطيع أن تمشي حولها في اليوم الواحد، فتُصبِح هذه الأرض مِلْكًا لك. هذا

هو القياس، أمَّا الثمن فهو ألف روبل.

وصُعِق باكوم عند سماعه هذا البيان وقال:

- في اليوم الواحد يستطيع الإنسان أن يمشي حول مساحة كبيرة

وابتسم الشيخ مرّة أخرى وهو يقول:

- حسنًا .. ليكُن .. فهذا سيكون مِلْكًا لك. فقط يوجد شرط واحد: إذا لم تعُد إلى النقطة التي بدأت منها في نفس اليوم تفقِد المال الذي دفعته.

- وكيف تُحدِّدون البُقعة التي يبدأ منها؟

- أنت هو الذي تُحدِّد البُقعة التي تبدأ منها .. فنقف أنا ورجالي في ذلك المكان، بينما تبدأ رحلتك على شكل دائرة. ويتبعك بعض الفُرسان لكي يغرسوا أعوادًا تُبيِّن حدود الأرض التي اجتزتها حيثُما تُريد، ثم يقود أحدهم المحراث حول هذه الأعواد. ويُمكنك أن ترسم الدائرة كما تشاء، ولكن يجب أن تعود إلى نفس البُقعة التي بدأت منها عند غروب الشمس. وكلّ مساحة الأرض التي تدور حولها ستكون لك.

وقَبَلْ باكوم هذه الشروط، واتفقوا على اللقاء في الصباح الباكر من اليوم التالي ثم بدأت الأحاديث من جديد بين أفراد الجماعة، وأخذ يعبُّون من الكيومس ويأكلون من لحم الصفائِد ثم إلى أكواب الشاي. واستمرت هذه الاحتفالات حتّى حلول الظلام، وذهب باكوم للنوم بينما تفرّق الباشكيرز بعد أن تواعدوا على الاجتماع في الغد فيما وراء النهر على أن يصلوا إلى البُقعة المُتفق عليها قبل شروق الشمس.

-٧-

الحِلْم

استلقى باكوم على فِراشه، ولكن النوم لم يُراوِد جفنيه لحظة واحدة. فقد راح ذِهنه في دوّامة من الفِكر العنيف حول الأرض

- سأزرع حقلاً هنا ... لأني أنوي أن أحوز أكبر مساحة من الأرض غدًا، واستطرد يقول في نفسه

- أستطيع أن أُغطي ٥٠ فرسخًا في اليوم على الأقل ومعنى ذلك أنَّه لابد أن أدور حول ١٠٠٠ فدّانًا. وحينئذٍ لن أكون تحت سُلطة أحد، وسأكون قادمًا على شِراء ثورين للحراثة واستأجر عاملين. سوف أحرُث أجود أرض والباقي أربِّي عليه الماشية.

طُوال الليل ظلّ باكوم مفتوح العينين، يتقلّب على فِراشه حتّى أعياه التعب فذهب في إغفاءة قصيرة قبل الفجر مباشرةً. وفي هذه اللحظات القليلة رأى حِلْمًا عجيبًا ... لقد بدا مُستلقيًا في تلك العربة وترامى إليه صوت إنسان يضحك بصوتٍ عالٍ وهو يتحدّث في الخارج. واستبدت به الرغبة أن يرى هذا الإنسان الذي يُقهقِه على هذه الصورة، فخرج خارجًا ورأى شيخ البلد جالسًا على الأرض مُمسِكًا بجنبيه وهو يتدحرج في نشوة وطرب ومرح، وسار إليه باكوم وسأله عن ماهية النُكتة التي جعلته يستغرِق الضحك ويصنع هذه الجَلَبة. ولكنه رأى في الحال أنَّه لم يكُن شيخ البلد على الإطلاق، بل كان هو التاجر الذي زاره أخيرًا في بيته لكي يُحدِّثه عن

هذه الأرض.

ومرّة أخرى تهيّأ له أنَّ شكل الرجُل قد تغيّر، فبادره بالسؤال

- أَلَمْ أرَكَ في منزلي منذ فترة بسيطة؟!

وفي هذه اللحظة تغيّر شكل التاجر تمامًا، ليرى فيه الفلاّح الذي من جنوب الڤولجا الذي زاره في حقله في القرية القديمة. وفي النهاية اكتشف باكوم أنَّ هذا الفلاّح لم يكُن فلاّحًا على الإطلاق بل كان هو الشيطان وله قرون وحوافِر، وأنّه كان يحدِق في شيءٍ ما بتركيز، بينما كان جالسًا يضحك. واستبد الفضول بباكوم وهو يتساءل:

- عَلاَمَ ينظُر؟ ولماذا يضحك كثيرًا هكذا؟

وفي الحلم خطا جانبًا قليلاً لكي يستطلِع الأمر، فرأى رجُلاً حافي القدمين وقد ارتدى قميصًا وبنطلونًا حتّى الرُّكبتين، وقد استلقى على ظهره، ووجهه شاحِب أبيض كالورق. وحينئذٍ أخذ ينظُر باهتمام ويتمعّن ملامح ذلك الرجُل وإذا به هو نفسه شخصيًا فأطلق شهقة من الأعماق، وصحا من النوم وقد داهمه شعور قوي بأنّه لم يكُن حُلمًا بل هو الحقيقة بعينها. ثم تلفّت حواليه فرأى بصيصًا من ضوء الفجر

- إنّه وقت البداية. لابد أن أذهب لأُوقِظ هؤلاء الناس الطّيبين.

-٨٠-

الوادي الضيّق

استيقظ باكوم وأيقظ رِجاله، وطلب إليهم أن يدخلوا الحُصان وأن يذهبوا ليُنادوا الباشكيرز، لأنّه كان هذا هو وقت الذهاب إلى الإستِبس لقياس الأرض. واستيقظ الباشكيرز فعلاً وأعدُّوا أنفسهم للمسير، ووصل شيخ البلد أيضًا وانكبُّوا على الكيومس حتّى انتهى، وقدَّموا له بعض الشاي ولكنه لم يطِق الانتظار. وقال وهو يحثّهم على السُرعة.

- إذا كُنّا سنذهب فلنذهب ... إنّ المسألة مسألة وقت!

فألجم الباشكيرز خيولهم، وخرجوا بعضهم على ظهر الخيول والبعض الآخر في عرباتِهِم، بينما سار باكوم في عربته مع رِجاله، فجاءوا إلى منطقة الإستِبس عند بزوغ الفجر. وتقدّموا نحو ربوة صغيرة. ثم نزل الناس الذين كانوا في العربات وترجّل الفُرسان عن خيولِهِم والتأم الجمع معًا. واقترب شيخ البلد من باكوم، وأشار بيده إلى كلّ الدائرة المُحيطة:

- كلّ ما تراه من هنا هو مِلْكك وتحت أمرك. اختر منها ما يعجبك

فتألقت عينا باكوم لأنّ كلّ الأرض كانت تغُص بالحشائش الكثيفة الطويلة، مُستوية وسوداء تحت الأرض المُغطّاة بهذه الحشائش مثل رأس العبد. وفي المكان الذي يوجد فيه الوادي الضَّيِّق، يوجد فراغ بين الحشائش التي في ارتفاع صدر الإنسان، وخلع شيخ البلد قُلنسوته ووضعها في وسط الربوة بالضبط وهو يقول:

- هذه ستكون العلامة: ضع مالك فيها، وسيظل خادمك إلى جوارها، بينما تمضي أنت في رحلة القياس. تبدأ من هذه العلامة وإليها تعود، وبقدر الأرض التي تسير حولها تكون المساحة التي تُصبِح مِلْكًا لك.

أخرج باكوم نقوده ووضعها في القُلنسوة ثم خلع عباءته، وتجرّد من ملابسه حتّى صديريته، وثبّت حزامه حول بطنه، وعلّق في عُنُقه كيسًا به بعض الخُبز كما ثبّت قدر الماء على كِتفه، ولَبِسْ حذاءه الطويل وأخذ يُناقش نفسه أي الطُرُق أفضل لكي يتخذها لأنّ الأرض كانت جيدة في كلّ مكان، وأخيرًا استقر على رأي فقال

- مادامت الأرض جيدة في كلّ مكان، فلأتجه نحو الشمس المُشرقة.

وهكذا يمّم وجهه نحو المشرق، وأجرى بعض التمرينات الرياضية على أطرافه وهو ينتظِر بزوغ الشمس بينما دارت الخواطر في عقله:

- لا ينبغي أن أضيّع الوقت، لأنني مُحتاج أن أبذِل قصاري جهدي في المشي خصوصًا مادام الهواء عليلاً.

وعندما امتطى الباشكيرز صهوة جيادِهِم وصعدوا فوق الربوة وأخذوا أماكنهم خلف باكوم كانت الشمس تُرسِل أوّل أشعتها فوق الأُفق حتّى قفز باكوم إلى الأمام يسير في همّة ونشاط وسط الإستِبس والفُرسان يتبعونه.

لم يُهروِل في مسيره ولكنه في نفس الوقت لم يتباطأ. وبعد أن مضي مسيرة فرسخ أمَرْ بتثبيت عود من العيدان، واستأنف المسير وبدأ يفقد تصلُّب المشية ويُطيل خُطواته. وبعد قليل توقف مرّة أخرى لكي يُثبّت العود الثاني. ثم تطلّع الشمس التي زها نورها وأضاءت الربوة بوضوح، وكشفت عن جماعة الواقفين وقدّر المسافة التي قطعها بخمسة فراسِخ. ومضى ثانية

حتّى قطع خمسة فراسِخ أخرى، ثم توقف لأنّ الجو صار حارًا، ونظر إلى الشمس مرّة أخرى ورأى أنّها ارتفعت في كبد السماء. وامتلأت نفسه بالرضا وهو يُردِّد في نفسه أنّ أوّل مرحلة قد انتهت ومازال أمامه أربع أُخَرْ ولكن الوقت مازال مُبكرًا، ويستطيع أن يغيّر اتجاهه إذا أراد. ومع ذلك فقد رأى أنّ من الأفضل أن يخلع حذاءه فجلس وفَعَلْ ذلك. واستأنف المسير فقد أصبح السير أسهل من ذي قبل، وقال في نفسه

- عندما أقطع خمسة فراسِخ أخرى، سوف أتحوّل إلى اليسار. لا شك أنّ هذه البُقعة هي من أجمل البِقاع المُختارة. كلّما مضيت في المسير، كلّما ازدادت الأرض جودة وخصوبه.

وهكذا مضى قُدُمًا، وعندما نظر إلى الخلف كانت الربوة قد اختفت عن عينيه تقريبًا وكان الواقفون يبدون كالنمل الأسود، ثم قال لنفسه أخيرًا:

- الآن قد صارت الدائرة كبيرة بما فيه الكفاية. ويجب أن أقفِل راجعًا.

كان جسده يتصبّب عرقًا، وأخذ منه العطش كلّ مأخذ، فرفع القدر إلى فمه وأخذ جُرعة طيبة من الماء. وثبّت عودًا عند هذه النُقطة. ثم استدار إلى اليسار استدارة حادّة ومضى في سيره وسط الحشائش العالية والشمس الحارقة. وبدأ التعب يتسلّل إليه. وعندما رفع عينيه رأى أنّه وقت الظهيرة ولم يجد بأسًا أن يأخُذ قِسطًا من الراحة فتوقف قليلاً، وتبلّغ ببعض الخُبز، ولكنه رفض الجلوس على الأرض:

- لو جلست مرّة واحدة فسأجد نفسي راقدًا وهذا ينتهي بالنوم.

وبعد أن شَعَرْ أنّه أصاب قسطًا كافيًا من الرّاحة، مضى قُدُمًا، وفي بدايةِ الأمر وجد المشي سهلاً، لأنّ الوجبة التي تناولها جدّدت قُواه. ولكن

الشمس اشتدت حرارتها أكثر فأكثر وهي تميل ناحية الغرب، وأخذ يحس بالإعياء ولكنه شجّع نفسه:

– ساعة ألم قد تُعطي رِبح قرن من الزمان

وبعد أن قطع عشرة فراسِخ من وسط الدائرة، وكان على وشك الإلتفاف للعودة، لمحت عيناه قطعة رائعة من الأرض حول سهل مُنخفِض ، وهز رأسه قائلاً:

– من المُؤسِف حقًا أن أترُك مثل هذه الأرض. لا شك أنّ الكِتّان سينمو مُمتازًا في هذه القطعة، وهكذا استمر في مسيرته حتّى أحاط بالسهل المُنخفِض كلّه، وبعد أن ثبَّت عودًا آخر، استدار إلى الخلف، وعندما مدّ بصره إلى الربوة رأى الناس مازالوا وقوفًا ولكنه لم يستطِع أن يُميِّزهم، كانت المسافة لا تقل عن ١٥ فرسخًا، فقال في نفسه

– لقد قطعت جزءًا كبيرًا من الدائرة، وعليَّ أن آخُذ اتجاهًا مُباشرًا لكي أقطع أقصر مسافة مُمكنة

وحث خُطاه، ونظر مرّة أخرى نحو الشمس، لقد بدأت تقترب من وقت وجبة المساء ولم يكُن قد قطع سوى فرسخين فقط، ومازالت نقطة البداية تبعُد ١٣ فرسخًا

– ولابد أن أُسرِع أكثر فأكثر مهما كانت الأرض وجودتها. الأرض وعرة ولا يجب أن آخُذ المزيد من الأرض في طريقي. لقد أخذت ما فيه الكفاية

ويمَّم باكوم وجهه نحو الربوة.

-٩٠-

القبر

وواصل السير في اتجاهه، ولكنه وجد السير صعبًا وأنّ قدميه تُؤلمانه ولا تستطيعا أن تحملاه أو تنقلاه بسهولة عدا الكدمات والجروح. وبدأ يترنح وقد كان مُستعدًا في ذلك الوقت أن يدفع أي مبلغ لقاء الرّاحة ولكنه كان يضع نِصب عينيه أنّه لابد أن يصِل إلى الربوة قبل غروب الشمس. و لم تكُن الشمس مُستعدّة أن تنتظِر؛ وبدا كغاطِس شدّد الوثاق، ومن وقت إلى آخر كان يترنح في مشيته، وتتردَّد الخواطر في ذِهنه:

– لا شك أنني لم أُخطئ في الحساب، ومن المُؤكد إني لم أستولِ على أرض أكبر مِمّا أستطيع لدرجة أني أعجز عن الرجوع إلى النُقطة الأولى ... ومع أني أُسرِع في طريقي، إلاّ أنّ الطريق مازال يبدو بعيدًا ... إني شخص ميِّت لا محالة ... هل يُمكن أن تكون كلّ أموالي وتعبي قد ذهبا أدراج الرياح، ولكن يجب أن أبذِل كلّ ما في وسعي.

شدّ باكوم نَفَسًا طويلاً وبدأ يجري ... لقد تورّمت قدماه حتّى بدأ ينزِف دمًا، ومع ذلك فقد ظلّ يجري ويجري أبعد وأبعد ... أطاح بحزامه وحذائه وقُلنسوته .. وفكّر

– آه لقد أعجبت أَيّمَ إعجاب بما رأيت، أمّا الآن فإنّ كلّ شيء قد ضاع هباء ... ويبدو من المُستحيل أن أصل إلى العلامة قبل الغروب. وقد أدّت هذه المخاوِف في حد ذاتها إلى زيادة شعوره بالتعب والإرهاق ...

ولكنه ظلّ يجري وقد ألصق العرق قميصه وبنطلونه القصير على أطرافه. كان فمه يابسًا وجافًا ... وفي تنفُسه أخذ يستمِع إلى حشرجة تُشبِه حشرجة الموت، وكان قلبه مثل مطرقة النجار وشَعَرْ أنّ رِجليه سوف تتحطّم تحته ولن تعُد له بعد ذلك. وفكّر في كلّ ذلك وهو يرجو ألاّ يموت من التعب والإعياء. وبالرغم من أنَّ الخوف قد سيطر عليه من الموت إلاّ أنّه لم يستطِع التوقف وقال في نفسه:

– أن أذهب بعيدًا جدًا بهذا المقدار، ثم أقف فسوف يظنونني غبيًا.

وفي هذا الوقت سمع الباشكيرز يهتِفون له ويُنادون عليه، وبعثت صيحاتِهم الرِجفة في قلبه، واستمد منها روحًا جديدة فأخذ يجري يجري بكلّ ما تبقّى له من قُوّة بينما الشمس تُلامِس الأُفق

آه ... لقد كان قريبًا من نُقطة البدء الآن، وكان يرى النّاس فوق الربوة يُلوِحون بأيديهم ويُشجِعون، ويرى القُلنسوة المصنوعة من جِلْد الثعلب مُلقاة على الأرض وفيها النقود، وشيخ البلد جالسًا بجوارها واضعًا يديه في جنبيه. وفجأة تذكّر باكوم كلمات كثيرة مِمّا عُيِّرَ به في الماضي ففكّر قائلاً:

– ولكني الآن لديَّ أراضي كثيرة ... لو أنَّ الله يوصلني سالمًا لأعيش عليها!! ولكن قلبي يُحدِّثني إنني قد قتلت نفسي

ولكنه ظلّ يجري، ولآخر مرّة رأى الشمس فوجدها كبيرة جدًا ومحمرة وقد لامست الأرض وبدأت تغرق وراء الأُفق

وصل باكوم بعد غروب الشمس مُباشرةً، فصرخ في يأس لأنّه أدرك أنّ كلّ شيء قد ضاع. ولكنه فجأة تذكّر أنّه لا يستطيع الرؤية جيدًا وهو في بُقعة مُنخفضة، بينما الأمر يختلف بالنسبة للذين فوق الربوة، فبالنسبة لهم لم

تكُن الشمس قد غَرُبَت بعد، فهرع إلى المُنحنى وكان يرى – وهو يبلُغها – أنّ القُلنسوة كانت لا تزال في موضِعها. ثم تعثّر وسقط وأثناء سقوطه مدّ ذراعيه نحو القُلنسوة وجَمَعْهَا في يده، وصاح شيخ البلد

– أواه أيها الشاب لقد كسبت أرضًا كثيرة حقًا

وجرى خادم باكوم إليه وحاول أن يرفعه، ولكن الدماء كانت تنزِف بغزارة من فمه، وسقط من بين يدي خادمه ميّتًا ... فصرخ خادمه في ذهول، ولكن شيخ البلد ظلّ في مكانه جالسًا يضحك مُمسِكًا جنبيه بيديه.

وبعد فترة نهض من مجلِسه، وأخذ فأسًا من على الأرض وأعطاه للخادم آمرًا:

– ادفنه

فنهض الباشكيرز ورحلوا، وبقى الخادم وحده، وحَفَرَ قبرًا بطول باكوم من رأسه حتّى أخمص قدميه ٣ أقدام روسيّة [١]، ودَفَنَه.

سنة ١٨٨٦م

[١] أقل من مترين طولاً.



النُّسَاك الثَّلاثة

(أسطورة قديمة مألوفة في مُقاطعة فولجا)

ترجمة أ/ أشرف مكرم

"وحينما تُصلُّون لا تُكرِّرُوا الكلام باطلاً كالأُمم.

فإنَّهُم يظُنُّون أنَّهُ بكثرة كلامِهِم يُستجابُ لهُم.

فلا تتشبَّهوا بِهِم. لأنَّ أباكُم يعلمُ ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه".

(مت٦: ٧، ٨)

كان هناك أُسقف يبحر من منطقة رئيس الملائكة إلى دير سولوفيتسك Solovétsk، وكان يوجد في نفس السفينة عدد من الحُجّاج في طريقِهِم لزيارة المزارات المُقدسة في نفس المكان. كانت الرحلة البحرية لطيفة والرياح مُحبَّبة والجو مُعتدل. ولقد رقد الحُجّاج على ظهر السفينة يأكلون، أو يجلسون في مجموعات يتحدّثون بعضهم لبعض. وكان الأُسقف أيضًا على ظهر السفينة، وبينما كان يتمشّى جيئة وذِهابًا، لاحظ مجموعة من الرجال واقفين بالقُرب من مُقدمة السفينة وكانوا يصغون لأحد الصيّادين والذي كان يُشير إلى البحر ويُخبرهم عن شيءٍ ما. فتوقف الأُسقف ونظر في الاتجاه الذي كان يُشير إليه الصيّاد. ولكنه لم يستطِع أن يرى شيئًا غير أمواج البحر التي تتلألأ في ضوء الشمس.

فاقترب منهم لكي يسمع، ولكن عندما رآه الرجُل خلع قُبَّعته وصَمَتْ. وبقية الناس أيضًا نزعوا قُبَّعاتِهِم وانحنوا.

فقال لهم الأُسقف: "لا تدعوني أزعجكُم أيها الأصدقاء. لقد أتيت لكي أستمِع إلى ما كان يقوله هذا الإنسان الطَّيب".

"إنَّ الصيّاد كان يُخبرنا عن النُسَاك" أجابه أحدهم وكان تاجرًا، وأكثر جرأة من الآخرين.

فسألهم الأُسقف وهو يذهب لجانب السفينة ويجلس على صندوق "أي نُسَّاك؟ أخبروني عنهم، فإني أرغب في أن أستمِع. ما الشيء الذي كُنت تُشير إليه؟".

"أترى تلك الجزيرة الصغيرة التي هناك" ردَّ الرجُل وهو يُشير إلى نقطة أمامه وقليلاً ناحية اليمين. "هذه هي الجزيرة التي يعيش فيها النُّسَاك لأجل خلاص نفوسِهِم".

فسأله الأُسقف "أين الجزيرة؟ فأنا لا أرى شيئًا".

"هناك على بُعد. فلو سمحت ونظرت على امتداد يدي. هل ترى تلك السّحابة الصغيرة؟ أسفلها قليلاً ناحية اليسار يوجد بالضبط خط باهت. تلك هي الجزيرة".

نظر الأُسقف بعناية ولكن عينيه غير المُعتادتين لم تستطيعا تمييز شيء سوى المياه تترقرق في ضوء الشمس. فقال: "إني لا أستطيع أن أراها. ولكن من هم النُّسَاك الذين يعيشون هناك؟".

فأجابه الصيّاد قائلاً: "إنهم رجال قديسون. فمنذ زمن طويل قد سمعت عنهم، ولكن لم تسنح لي الفرصة لرؤيتهم إلاّ في العام قبل الماضي". وبدأ الرجُل يروي كيف ذات مرّة بينما كان خارجًا للصيد أنّه جَنَحْ ناحية تلك الجزيرة وهو لم يكُن يعلم أين هو. وفي الصباح بينما كان يتجوّل في الجزيرة، أتى إلى كوخ من الطين وقابل رجُلاً عجوزًا واقفًا بجواره. وفي الحال خرج رجُلان آخران، وبعدما أطعموه وجفّفوا أغراضه، ساعدوه في إصلاح قاربه.

"وماذا كان منظرهم؟" سأله الأُسقف.

"أحدهم كان رجُلاً صغير الحجم وظهره كان مُنحنيًا. وكان يرتدي رداءً كهنوتيًا، وكان عجوزًا جدًا لابد أنّه كان يتعدّى المائة عام. ولقد كان عجوزًا جدًا للدرجة التي كان فيها بياض لحيته يميل إلى اللون الأخضر

الخفيف، ولكنه كان مُبتسِمًا دائمًا ووجهه مُضيء كملاك من السماء. والثّاني كان أطول ولكنه أيضًا عجوز جدًا وكان يرتدي معطفًا ريفيًا مُهلهل. لحيته عريضة وذات لون رمادي مصفر. وقد كان إنسانًا قويًا، فقبل أن أجد الوقت لمُساعدته، كان قد قَلَبْ قاربي كما لو كان مُجرّد دلو. وهو أيضًا طَيِّب وبشوش. أمَّا الرجُل الثَّالِث فكان طويلاً وله لحية بيضاء كالثلج وتصل إلى رُكبتيه. لقد كان مُتجهِمًا وحاجباه مرفوعين ولم يكُن يرتدي شيئًا سوى قطعة قُماش حول وسطه". فسأله الأُسقف "وهل تحدّثوا معك؟"

أجابه الرجُل "لمُعظم الوقت فعلوا كلّ شيء وهم صامتون، ولم يتحدّثوا إلاّ قليلاً حتّى لبعضهم البعض. كان أحدهم بمُجرّد أن يُعطي نظرة تلميحية، كان الآخران يفهمانه. وسألت أطولهم إن كانوا قد عاشوا هنا طويلاً، فتجهّم وتمتم بشيء كما لو كان غاضبًا، ولكن الأكبر سنًا أمسك بيديه وابتسم وحينئذٍ هدأ الشخص الطويل. والأكبر سنًا قال فقط 'ارحمنا' وابتسم".

وبينما كان الصيّاد يتكلّم، كانت السفينة قد اقتربت أكثر نحو الجزيرة. فقال التاجر وهو يُشير بيده "هناك، الآن تستطيع رؤيتها بوضوح لو تفضّلت نيافتك بالنظر".

نظر الأُسقف وبالفعل فإنه الآن قد رآى شريطًا غامقًا ألا وهو الجزيرة. وإذ قد نظر لها لبُرهة، فقد ترك مُقدمة السفينة وذهب إلى مؤخرة السفينة وسأل مدير الدَّفة "ما هذه الجزيرة؟".

فأجابه الرجُل "تلك الجزيرة ليس لها اسم. فهناك الكثير منها في هذا

البحر".

فسألهُ الأُسقف "أهو صحيح أنَّ هناك نُسَّاك يعيشون فيها لأجل خلاص أنفسهم؟".

"هكذا يُقال، نيافتك، ولكني لا أعلم إن كان هذا صحيحًا. فالصيّادون يقولون إنهم رأوهم، ولكن بالطبع قد تكون مُجرّد قصص منسوجة".

قال الأُسقف: "إنني أرغب أن أحُط على هذه الجزيرة وأرى هؤلاء الرجال. كيف يُمكنني أن أتدبر ذلك".

فردَّ الرجُل "إنَّ السفينة ليس بإمكانها أن تقترب إلى الجزيرة، ولكن يُمكنك أن تجدِّف إلى هناك بمركب. من الأفضل أن تتحدَّث مع القُبُطان".

فأرسلوا إلى القُبُطان وحضر.

قال له الأُسقف: "إنني أُحِب أن أرى هؤلاء النُسَاك، فهل يُمكنني أن أذهب إلى الساحل بقارِب؟".

حاول القُبُطان أن يُثنيه فقال: "بالطبع يُمكنك ذلك، ولكننا سنفقِد الكثير من الوقت. وإذ أتجرأ على القول لنيافتك فإنَّ هؤلاء الرجال الشيوخ لا يستحقون مشقتك. لقد سمعت قولاً إنهم رجال شيوخ حمقى لا يفهمون شيئًا ولا يتفوهون بكلمة أبدًا، مثلهم مثل السمك في البحر".

إلاّ أنَّ الأُسقف قال: "إنني أرغب في رؤيتهم، وسوف أدفع لك نظيرًا لأتعابك وفُقدان الوقت. من فضلك دعني أحصُل على قارِب".

وإذ لم يكُن هناك مفر، فقد أعطيتُ الأوامر. وقام البحّارة بتحويل مجرى الشراع، وأدار مدير الدَّفة مقبض الدَّفة، وانطلقت السفينة في مسارها نحو الجزيرة. ووُضِعَ كرسي للأُسقف عند مُقدمة السفينة حيث جلس هناك

ناظرًا للأمام. وتجمَّع المُسافرون عند مُقدمة السفينة وحدَّقوا النظر نحو الجزيرة. واستطاع منهم مَنْ كان لهم أعيُن حادَّة أن يتبيَّنوا الصُّخور على الجزيرة، ثم رأوا كوخًا طينيًا. وفي النهاية رأى أحدهم النُّسَاك أنفسهم فأحضر القُبُطان منظارًا مِنظارًا مُكبِرًا وبعدما نظر من خلاله، سلّمه للأُسقف قائلاً: "إنَّه صحيح تمامًا. فهناك ثلاثة رجال واقفين عند الشاطئ. هناك قليلاً نحو اليمين من تلك الصَّخرة الكبيرة".

أخذ الأُسقف المِنظار وجعله في وضعه المُناسب ورأى الثَّلاثة رجال: رجُلاً طويلاً، ورجُلاً قصيرًا، وآخر قصيرًا جدًا ومُنحني، وهم واقفون عند الشاطئ ومُمسكين أيدي بعضهم البعض.

التفت القُبُطان نحو الأُسقف وقال: "لا تستطيع السفينة الاقتراب أكثر من ذلك. فإذا رغبت في الذهاب للشاطئ فعلينا أن نطلُب منك الذهاب في مركِب بينما نرسو نحن هنا".

أنزل البحّارة السلسلة الحديدية، وألقوا بالمرساة وأخفضوا الأشرِعة. كان هناك هزَّة وارتجت السفينة. ثم أنزلوا قاربًا وقفز المُجدِّفون بداخلها ونزل الأُسقف بواسطة السُّلم المُعلَّق واتخذ مجلِسه في القارب. قام الرجال بالتجديف وتحرَّك القارب مُسرعًا نحو الجزيرة.

عندما أتوا على بُعد رمية حجر رأوا الرجال الشيوخ الثَّلاثة: رجُلاً طويلاً بقطعة قُماش فقط حول وسطه، وآخر أقصر بمِعطف ريفي مُهلهل، ورجُلاً عجوزًا جدًا أحناه العُمر ويرتدي رداء كهنوتيًا قديم. وثُلاثتهم واقفون مُمسكين أيدي بعضهم البعض. قام المُجدِّفون بالوصول إلى الجزيرة وثبَّتوا القارب بالخُطَّاف بينما هبط الأُسقف.

انحنى الرجال للأُسقف الذي منحهم بَرَكَته فانحنوا أكثر. ثم ابتدأ الأُسقف يتحدّث معهم. قال لهم: "لقد سمعت أنَّكم أيها الرجال القديسون تعيشون هنا لأجل خلاص نفوسكم وتُصلُّون إلى ربنا يسوع المسيح لأجل رُفقائكم من البشر. وأنا – الخادم غير المُستحق للمسيح – قد دُعيت – برحمة الله – لأرعى وأُعلِّم قطيعه. لقد رغبت أن أراكم يا خُدَّام الله وأن أفعل ما باستطاعتي لكي أُعلِّمكم أيضًا".

نظر الرجال بعضهم لبعض مُبتسمين ولكنهم ظلُّوا صامتين.

فقال لهم الأُسقف: "أخبروني ما الذي تفعلونه لأجل خلاص نِفوسِكُم، وكيف تخدمون الله في هذه الجزيرة".

تنهَّد النَّاسك الثَّاني ونظر إلى الأكبر سنًا، العجوز جدًا، والذي بدوره ابتسم وقال: "نحن لا نعلم كيف نخدم الله. نحن فقط نخدم ونُسانِد أنفُسنا، يا خادم الله".

فسأله الأُسقف "ولكن كيف تُصلُّون إلى الله؟".

أجاب النَّاسِك قائلاً: "نحن نُصلي هكذا: أنت ثلاثة (الآب والابن والروح القدس الإله الواحد) [1]، ونحن ثلاثة، ارحمنا".

وعندما قال الرجُل العجوز ذلك، رفع ثلاثتهم أعينهم إلى السماء وكرَّروا "أنت ثلاثة، ونحن ثلاثة، ارحمنا".

ابتسم الأُسقف وقال: "من الواضح أنَّكم سمعتم شيئًا عن الثَّالوث القدوس، ولكنكم لا تُصلُّون بطريقة صحيحة. لقد نلتُم إعجابي أيها الرجال

---

[1] العبارة الموجودة بين القوسين أضافها المُترجِم للإيضاح.

القديسين. أرى أنَّكم ترغبون في إرضاء الله، ولكنكم لا تعلمون كيف تخدمونه. فهذه ليست الطريقة لكي تُصلّوا. ولكن استمعوا إليَّ، وأنا سأُعلّمكم. سوف أُعلّمكم ليست طريقتي الخاصة في الصلاة، ولكن الطريقة التي أمر بها الله جميع الناس في الكُتُب المُقدسة أن يُصلّوا بها إليه".

وبدأ الأُسقف يُفسر للنُّسَاك كيف أنَّ الله أعلن نفسه للبشر، وأخبرهم عن الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس. وقال لهم: "الله الابن نزل إلى الأرض لكي يُخلّص البشر. وهذه هي الطريقة التي علّمنا أن نُصلي بها. اسمعوا وكرّروا بعدي: أبانا"

وكرَّر الرجُل الأوَّل العجوز خلفه "أبانا"، وقال الثَّاني: "أبانا" والثَّالِث قال: "أبانا".

أكمل الأُسقف قائلاً: "الذي في السموات".

كرَّر النَّاسِك الأوَّل "الذي في السموات"، ولكن الثَّاني تلعثم في الكلمات، ولم يستطِع النَّاسِك الطويل أن يقولها بطريقة مُلائمة. لقد نما شعره فوق فمه ولذلك لم يكُن يستطيع أن يتكلّم بوضوح. والنَّاسِك العجوز جدًا لم يكُن له أسنان، فهو أيضًا تمتم بطريقة غير واضحة.

كرَّر الأُسقف الكلمات مرّة أخرى، وكرّر الرجال الكلمات بعده. جلس الأُسقف على حجر، ووقف الرجال أمامه يُراقبون فمه ويُكرِّرون الكلمات التي يتفوه بها. وطُوال اليوم اجتهد الأُسقف في قول الكلمة عشرين وثلاثين ومائة مرّة، والرجال الثَّلاثة يُكرِّرون خلفه، هم يَزِلُّون وهو يُصحِح لهم ويجعلهم يبدأون مرّة أخرى.

ولم يُغادر الأسقف إلاّ بعد أن علَّمهم الصلاة الرَّبانية كاملة للدرجة التي

لم يستطيعوا فيها أن يُكرِّروا الصلاة فقط، بل أن يقولوها بأنفُسِهِم. الرجُل الأوسط كان أوّل من تعلّمها، وأوّل من كرَّرها كاملة بمُفرده. وقد جعله الأسقف يقولها مرّة وأخرى. وفي النهاية استطاع الآخران أن يقولاها أيضًا.

لقد بدأ الظلام يحل وبدأ القمر في الظهور فوق المياه، قبل أن ينهض الأسقف للعودة إلى السفينة. وعندما كان الأسقف يُغادر الرجال الشيوخ قاموا كلّهم بالسجود له إلى الأرض أمامه. فأقامهم وقبَّل بعضهم البعض، وأخبرهم أن يصلُّوا كما علَّمهم. ثم دخل إلى القارب وعاد إلى السفينة.

وبينما كان الأسقف في القارب وهم مُجدفين للعودة إلى السفينة كان يسمع أصوات النُّسَاك الثّلاثة يُكرِّرون بصوتٍ عالٍ الصلاة الرَّبانية. وإذ كان القارب يقترب من السفينة لم يكُن بالإمكان الاستماع لصوتِهِم بعد. ولكن كان يُمكن رؤيتهم على ضوء القمر واقفين مثلما تركهم على الشاطئ: الناسك الأقصر في المُنتصف وعلى يمينه الأطول وعلى يساره الناسك المُتوسط. وحالما وصل الأسقف للسفينة وصعد على سطحها، رُفِعَت المرساة وفُرِدَت الأشرعة وامتلأت بالرياح وأبحرت السفينة مُبتعدة، واتخذ الأسقف مجلسه في مؤخرة السفينة وهو يُشاهد الجزيرة التي تركوها. ولفترة استطاع أن يرى النُّسَاك، ولكنهم الآن قد اختفوا من المشهد على الرغم من أنَّ الجزيرة كانت لا تزال مرئيّة. وفي النهاية تلاشت هي الأخرى، وبقى البحر فقط الذي يُمكن رؤيته وهو يتموج في ضوء القمر.

رقد الحُجّاج للنوم، وكان كلّ شيء هادئًا على ظهر السفينة. ولكن الأسقف لم يكُن راغبًا في النوم، فجلس بمفرده في مؤخرة السفينة مُحدِّقًا في البحر حيث لم تعُد الجزيرة مرئيّة بعد، وكان يُفكر في الرجال الشيوخ

الطَّيبين. فكّر في كيف كانوا مسرورين بحِفظ الصلاة الرَّبانية، وشَكَرْ الله لأنه أرسله لتعليم ومُساعدة أولئك الرجال القديسين.

لذا فقد جلس الأسقف يُفكِر ويُحدِّق في البحر حيث اختفت الجزيرة. وضوء القمر يخفِق (يُضئ ويخبو) أمام عينيه، يتلألأ مرّة هنا وأخرى هناك فوق الأمواج. وفجأة رأى شيئًا أبيض لامعًا على المسلك المُضئ الذي ألقاه ضوء القمر عبر البحر. أكان ذلك طائر النورس؟ أهو شراع صغير مُضئ لمركب ما صغيرة؟

ثبَّت الأسقف نظره مُتعجبًا. ''لابد أنَّه قارب يبحر خلفنا'' ظنَّ ذلك ''ولكنه يُدركنا بسُرعة جدًا. فمنذ دقيقة كان بعيدًا جدًا جدًا، ولكنه الآن اقترب كثيرًا. لا يُمكن أن يكون ذلك قارب، إذ أنني لا أستطيع رؤية شراع. ولكن مهما يكُن من أمر، فإنَّ ذلك الشيء يتبعنا ويلحقنا''.

ولم يستطِع أن يتبيَّن كنه هذا الشيء. لا هو قارب، ولا هو طائر، ولا هو سمكة. وهو أكبر بكثير من أن يكون رجُلاً بالإضافة أنَّه لا يُمكن أن يكون هناك رجُل في مُنتصف البحر. نهض الأسقف وقال لمدير الدَّفة: ''انظُر هناك ما هذا يا صديقي؟ ما هذا؟'' كرَّر الأسقف سؤاله على الرغم من أنَّه الآن يستطيع أن يرى بوضوح هذا الشيء. لقد كان النُّسَاك الثَّلاثة يجرون على الماء وهم يشعُّون بلون أبيض، ولُحاهم الرمادية تلمع، يقتربون من السفينة مُسرعين كما لو كانت جامدة في مكانها.

نظر مُوجِّه الدَّفة وقد ألقى من يده مِقبض الدَّفة في رُعب قائلاً: ''يا إلهي، إنَّ النُّسَاك يجرون وراءنا على الماء كما لو كانت أرضًا يابسة''.

وإذ سمع الرُّكاب ذلك وثبوا وقوفًا وتجمهروا عند مؤخرة السفينة. ورأوا

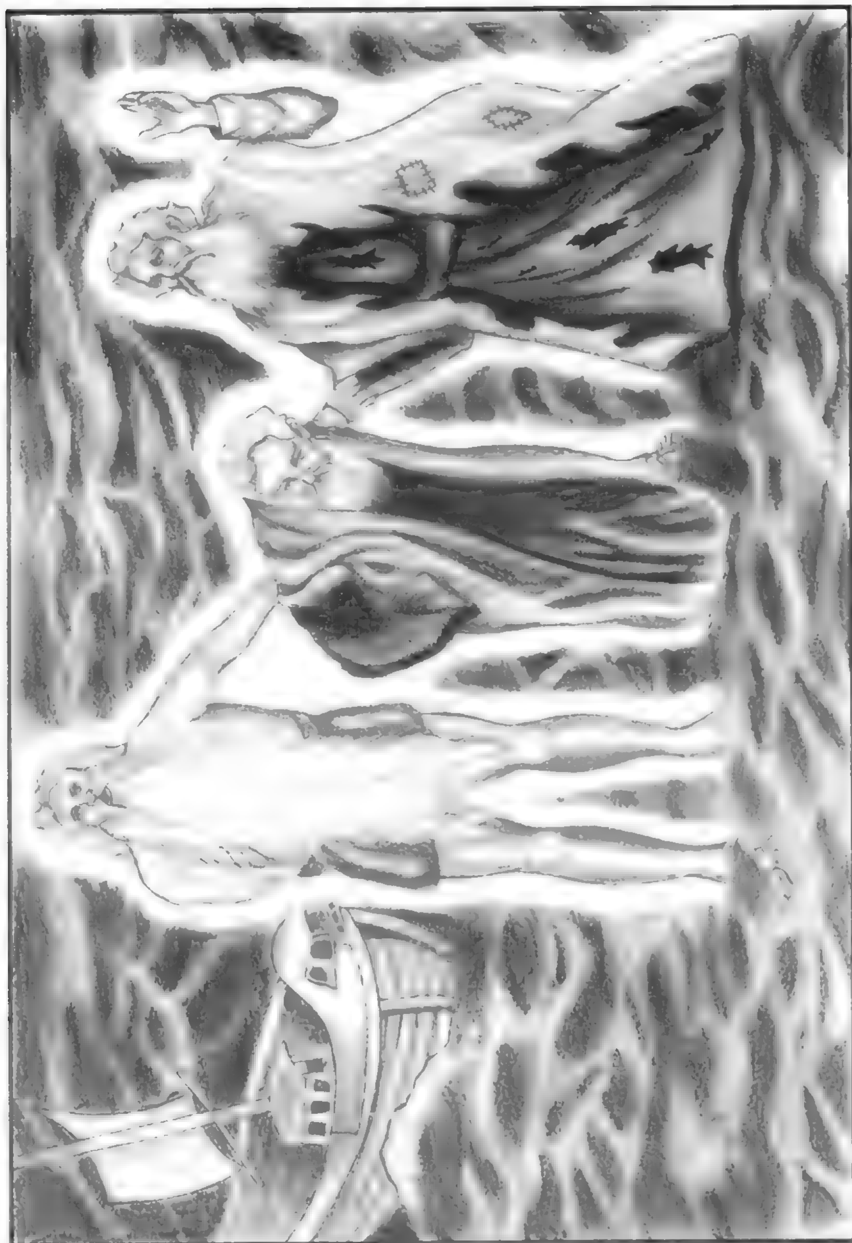
النُّسَاك وهم قادمون مُمسكين بعضهم يدًا بيد، والاثنين اللذين على الطرفين يُلوِحون للسفينة بأن تتوقف. ثلاثتهم يتزلّج على الماء بدون أن يحرّكوا أقدامِهِم.

وقبل أن تتوقف السفينة كان النُّسَاك قد لحقوا بها. ورفعوا رُؤوسِهِم وبصوت واحد بدأ ثلاثتهم يقولون: "لقد نسينا تعليمك يا خادم الله. فكلّما كُنّا نُردِّد الصلاة كُنّا نتذكرها، ولكن عندما توقفنا عن تلاوتها لفترة سقطت كلمة منّا، والآن قد تحوّلت كلّ الصلاة إلى شذرات. ولا يُمكننا أن نتذكر أي شيء منها. علِّمنا مرّة أخرى".

رشم الأسقف الصليب على نفسه، ومال نحو جانب السفينة قائلاً لهم: "إنَّ صلاتكم الخاصة ستصِل إلى الله، يا رجال الله. ليس أنا من يقوم بتعليمكم. صلُّوا عنّا نحن الخُطاه".

وانحنى الأسقف لأسفل أمام الرجال الشيوخ، وهم داروا وعادوا عبر البحر. وظلّ نور يشعِ حتّى مطلع النهار في الموقع الذي اختفوا فيه عن الأبصار.

سنة ١٨٨٦م



الخاطئ التائِب

ترجمة أ/ أشرف مكرم

"اذكُرني يارب متى جِئتَ في ملكوتك. فقال له يسوع الحقَّ أقولُ لك إنَّكَ اليوم تكونُ معي في الفِردوس".

(لو٢٣: ٤٢، ٤٣)

حدث أنَّه كان هناك رجُل قد عاش لُمدّة سبعين عامًا في العالم، وعاش في الخطية كلّ هذا الوقت. وحتّى عندما مرض لم يتُب، إلاّ في اللحظه الأخيرة بينما كان يموت، بكى وقال "يارب سامحني، كما سامحت اللص الذي كان على الصليب".

وإذ قال هذه الكلمات، فارقت روحه جسده. وإذ قد شعرت روح هذا الخاطئ بالمحبَّة لله، وبالإيمان برحمته، ذهبت إلى أعتاب السماء وطرقت الباب مُتضرعة أن يُسمح لها بالدخول للملكوت السماوي.

حينئذٍ تكلَّم صوت من خلال البوابة قائلاً: "أيُّ إنسان ذاك الذي يطرِق على أبواب الفِردوس، وما الأعمال التي عملها أثناء حياته؟".

وَرَدَّ صوت المُشتكي (إبليس) مُعدِّدًا جميع شرور الإنسان ولم يذكُر أي عمل صالح واحد.

فأجاب الصوت من وراء الباب وقال "لا يُمكن للخُطاه الدخول إلى ملكوت السموات، اذهب من هنا".

حينئذٍ قال الرجُل "يا سيِّدي، إني أسمع صوتك، ولكني لا أستطيع رؤية وجهك، ولا أعرف اسمك".

فأجاب الصوت: "أنا بطرُس الرَّسول".

فردَّ الخاطئ قائلاً: "أشفق عليَّ أيها الرَّسول بطرُس، تذكَّر ضعف الإنسان ورحمة الله، أَلَمْ تكُن أنت تلميذ للسيِّد المسيح، أَلَمْ تستمِع إلى تعليمه الخارج من شفتيه؟ أليس مِثاله أمامك؟ تذكَّر حينئذٍ كيف أنَّ السيِّد

المسيح عندما حزن واكتئب بالروح وطلب منك ثلاثة مرّات أن تسهر وتُصلي إلاّ أنّكَ نِمت إذ كانت عيناك ثقيلتين، وثلاثة مرّات وجدك نائمًا. هكذا هو الحال معي، تذكّر كيف أنّكَ وعدته أن تكون مُخلِصًا حتّى الموت إلاّ أنّكَ قد أنكرته ثلاث مرّات، عندما أخذوه ليقف أمام قيافا. هكذا هو الحال معي، وتذكّر أيضًا كيف عندما صاح الديك أنّكَ خرجت وبكيت بُكاءً مُرًّا. هكذا هو الحال معي، أنّكَ لا تستطيع أن ترفُض دخولي".

وإذ بالصوت الذي من خلف الباب يصمُت.

ثم وقف الخاطئ لبُرهة، ومرّة ثانية بدأ يطرُق الباب ويسأل أن يُسمح له بالدخول إلى ملكوت السموات.

وسمع صوتًا آخر يأتيه من خلف الباب قائلاً: "من يكون ذلك الرجُل؟ وكيف عاش على الأرض؟ ".

ومرّة ثانية يُجيب صوت المُشتكي مُكرِّرًا كلّ شرور الخاطئ ولم يذكُر عملاً واحدًا صالحًا.

فَرَدَّ الصوت من خلف الباب وقال: "اذهب من هنا. مثل هؤلاء الخُطاه لا يُمكنهم أن يعيشوا معنا في الفردوس".

حينئذٍ قال الخاطئ: "يا سيِّدي، إني أسمع صوتك ولكني لا أستطيع رؤية وجهك، ولا أعرف اسمك".

فأجاب الصوت: "أنا داود الملك والنبي".

لم ييأس الخاطئ ولا غادر أبواب الفردوس ولكنه قال "أشفِق عليَّ أيها الملك داود، تذكّر ضعف الإنسان ورحمة الله. إنّ الله أحبّك ورفعك من بين

البشر. وكان لديك الجميع: مملكة وكرامة وغِنَى وزوجات وأطفال، ولكنك رأيت من سطح بيتك زوجة رجُل فقير ودَخَلَتك الخطية وأخذت زوجة أُوريّا وذَبَحته بسيف العمُّونيين، إنَّكَ — وأنت الغني — أخذت من الرجُل الفقير نعجته الوحيدة، وقتلته هو. وأنا فعلت بالمِثل، تذكّر حينئذ كيف تُبْتَ وكيف قُلت «لأني عارِف بإثمي، وخطيتي أمامي». إني فعلت نفس الشيء، لا يُمكنك أن ترفُض السماح لي بالدخول".

وإذ بالصوت الذي من خلف الباب يصمُت.

وقف الخاطئ لفترة، ومرّة أخرى عاود الطرق على الباب سائلاً أن يُسمح له بالدخول لملكوت السموات، وإذ بصوت ثالِث يأتي من خلف الباب قائلاً: "من ذلك الإنسان؟ وكيف قضى حياته على الأرض؟".

فأجاب صوت المُشتكي لثالِث مرّة مُعدِّدًا شرور الخاطئ ولم يذكُر عملاً واحدًا صالحًا.

فقال الصوت الذي من خلف الباب: "ارحل من ههُنا، لا يُمكن للخُطاه الدخول لملكوت السموات".

قال الخاطئ "إني أسمع صوتك، ولكني لا أرى وجهك ولا أعرف اسمك".

فأجاب الصوت: "أنا يوحنَّا اللاهوتي. التلميذ الذي كان يسوع يُحبُّه".

فابتهج الخاطئ وقال "بالتأكيد، الآن سيُسمح لي بالدخول، يجب على بُطرس وداود أن يُدخلاني، لأنَّكَ تعرف ضعف الإنسان ورحمة الله. وأنَّكَ سوف تُدخلني لأنَّكَ أحببت كثيرًا".

"ألستَ أنت يا يوحنَّا اللاهوتي الذي كتبت أنَّ الله محبَّة، وأنَّ الذي لا يُحب لا يعرف الله؟ ألَمْ تقُل في شيخوختك للناس 'يا إخوتي، أحبُّوا بعضكم بعضًا''"، من ثمَّ كيف يُمكنك أن تنظُر إليَّ ببُغض، وتبعدني؟ إمَّا أنَّكَ تتخلّى عمّا قُلت، أو أن تُحبني ويجب أن تدعني أدخُل ملكوت السموات.

وإذ بأبواب الفردوس تُفتح، وعانق يوحنّا الخاطئ التائب وأدخله إلى ملكوت السموات [1].

سنة ١٨٨٦م

---

[1] (القصة رمزية تدُل على عدم اليأس من رحمة ربنا إلى النَّفْس الأخير، ولكن لا يجب تأجيل التوبة لأنَّ الإنسان لا يعرِف متى ينتهي عُمره).

حبَّة قمح
في حجم البيضة!

عن مجلة مرقص

''وكان لجمهور الذينَ آمنوا قلبٌ واحدٌ ونَفْسٌ واحدةٌ. و لم يكُن أحدٌ يقول إنَّ شيئًا من أموالهِ لهُ بل كان عِندهُم كُلُّ شيءٍ مُشتركًا''.

(أع٤: ٣٢)

في يوم من الأيام عثر بعض الأطفال في وادٍ صغير على شيء ما غريب الشكل: أشبه ما يكون بحبَّة قمح وفي وسطها الثُقب الصغير الذي تخرُج منه البادرة، لكنها في حجم بيضة الدجاج، فأخذوا يلهون بها. وعَبَرَ عليهم أحد المُسافرين، ورأى هذا الشيء فاشتراه منهم بقرش صاغ واحد! وأخذه وباعه إلى الملك، كتُحفة نادرة الوجود.

دعا الملك حُكماء الدولة، وأخبرهم بما اشتراه وطالبهم بأن يعرفوا ما كُنه هذا الشيء. وأخذ الحُكماء يتفحَّصون ويُفكِّرون في الأمر مليًا، ولم يعرفوا لهذا الشيء أصلاً ولا فرعًا! إلى أن كان يوم، وبينما كان هذا الشيء موضوعًا على حافة نافذة، إذا بدجاجة تطير عليه وتنقُره إلى أن صنعت فيه ثُقبًا، حينئذٍ اتضح للجميع أنَّ هذا الشيء هو حبَّة قمح. فذهب الحُكماء وأخبروا الملك: "إنه حبَّة قمح".

عندئذٍ تعجّب الملك جدًا، وأمر العُلماء أن يجدوا أين ومتى يُزرع هذا القمح الكبير الحجم؟ وأخذ العُلماء يتفحَّصون ويُفكِّرون في الأمر مليًا، وصاروا يبحثون في كُتبهم، لكنهم لم يجدوا شيئًا بخصوصه. حينئذٍ رجعوا إلى الملك وقالوا له:

– "إنه لا يُمكننا أن نُعطي جوابًا في هذا الأمر. ولا شيء وَرَدَ عنه في كُتبنا. وما عليك إلاَّ أن تسأل المُزارعين، فربما يكون واحد منهم قد سمع من آبائهِ أين ومتى يُزرع هذا القمح وينمو إلى هذا الحجم الكبير!"

لذلك أرسل الملك أوامره بأن يُحضِر الفلاّحون الشيوخ ليقفوا أمامه.

ووجد خُدّام الملك واحدًا من هؤلاء الفلاّحين فأحضره إلى الملك. ودخل الفلاّح العجوز إلى حضره الملك، وكان عجوزًا شاحبًا شُحوب الموتى، وقد فَقَدَ أسنانه، وكان يتحرك مُتوكئًا على عُكّازين اثنين، مُترنحًا في مشيته نحو الملك.

وأظهر الملك حبَّة القمح للفلاّح، ولكن الفلاّح استطاع بالكاد أن يرى حبّة القمح جيدًا لضعف بصره، بل أخذها وصار يتحسّسها بين يديه. فسأله الملك:

- "هل يُمكنك أن تدلني أين تنمو مثل حبّة القمح هذه؟ هل اشتريتَ مثلها، أو زرعتها في حقلك ؟"

وكان الفلاّح ضعيف السمع، وبالكاد كان يسمع ما يقوله الملك. ولكنه فَهِمَ فقط مضمون السؤال بصعوبة شديدة.

وأخيرًا، أجاب على السؤال:

- "لم يحدُث أني زرعت أو حصدتُ في حقلي شيئًا مثل هذا، ولا اشتريتُ مثل هذا. وحينما كُنّا نشتري القمح، كانت حبّات القمح كُلّها صغيرة مثل تلك الموجودة الآن. ولكن يُمكنك أن تسأل والدي. فربما يكون قد سمع عن زراعة مثل هذا النوع من القمح".

حينئذٍ أرسل الملك في طلب والد هذا الفلاّح، فوجدوه وأحضروه إلى الملك. فأتى مُتوكئًا على عُكّاز واحد فقط. وسأله الملك:

- "هل يُمكن أن تدلني أيها الشيخ، أين يُزرع مثل هذا النوع من القمح؟ وهل سبق أن اشتريت مثله، أو زرعته في حقلك"

وبالرغم من أنّ هذا الشيخ كان يسمع الملك بصعوبة، لكنه سمع سؤال

الملك بطريقة أفضل مِمّا سمع به ابنه. فردَّ قائلاً:

– "لا، لم أزرع أبدًا مثل هذا القمح في حقلي. أمَّا من جهة الشراء، فأنا لم أشترِ شيئًا من ذلك، لأنه في زماننا لم تكُن النقود مُستعملة بعد؛ فكلّ واحد كان يزرع قمحه، وحينما كان أحدنا يحتاج لشيء منه كُنّا نُشارك بعضنا بعضًا في احتياجاتنا. ولكني لا أعرف عن قمح مثل هذا كان يُزرع. كان القمح أيامنا أكبر من قمح الأيام الحاضرة، وكذلك كان المحصول أوفر مِمّا في أيامنا الآن. ولكني لم أرَ قمحًا بمثل هذا الحجم. ولكني سمعتُ والدي يقول إنَّ في زمانه كان القمح ينمو أكبر ويُنتِج دقيقًا أكثر مِمّا في أيامنا الآن. فما عليك إلاّ أن تسأله أفضل مني".

حينئذٍ أرسل الملك يستدعي والد هذا الفلاّح، فوجدوه أيضًا وأحضروه إلى الملك. ودخل ماشيًا بسهولة وبدون التوكُّؤ على أي عُكّاز، وعيناه كانتا لامعتان تبرُقان، وسَمَعُه كان جيدًا، وكان يتكلّم بوضوح، وأسنانه كاملة لم يَضِع منها سن واحد. وأراه الملك حبّة القمح، فنظر إليها الجِد مُتفحصًا، وقلّبها بين يديه. وردّ على الملك:

– "يا سلام! إنه منذ زمانٍ طويل رأيتُ مثل هذه القمحة الجيدة".

قال هذا وقضم بأسنانه القوية قطعة منها وتذوّقها. وأضاف قائلاً:

– "إنها من نفس النوع الذي زرعتهُ!"

فقال له الملك:

– "أخبرني يا جدي، أين ومتى كان مثل هذا القمح يُزرع؟ وهل اشتريتَ مثله من قبل؟ أو زرعته في حقلك؟"

فأجاب الرجُل العجوز:

- "إنَّ مثل هذا القمح كان يُزرع في كلّ مكان في زماننا. وقد عِشتُ على خُبز من مثل هذا القمح في أيام شبابي، وأطعمتُ أولادي منه. لقد كان القمح الذي كُنّا نزرعه ونحصُده ونُذرِّيه مثل هذه القمحة".

ثم سأله الملك:

- "أخبرني، يا جدي: هل اشتريت مثله من أي مكان، أو كُنت تزرعه بنفسك؟"

وابتسم الرجُل العجوز، وأجاب:

- "في زماننا لم يكُن أي واحد يُفكِر في خطية كهذه: أن يشتري أو يبيع خُبزًا؛ إننا لم نكُن نعرف شيئًا عن النقود. كلّ واحد كان عنده من القمح ما يكفي لنفسه".

وسأله الملك:

- "ثم أخبرني يا جدي، أين كان حقلك؟ أين كُنت تزرع قمحًا مثل هذا؟"

وردَّ الجد الكبير:

- "حقلي كان هو أرض الله! حيثما كُنتُ أحرُث أرضًا، فهناك كان حقلي. الأرض كانت بلا ثمن. لم يكُن أحد يدّعي أنَّ شيئًا ما مِلْكُه. العمل بعرق الجبين كان هو الشيء الوحيد الذي يمتلكه كلّ إنسان".

ثم سأله الملك:

- "أجبني عن سؤالين آخرين: لماذا كانت الأرض تُخرِج مثل هذا القمح آنذاك، وكفّت عن ذلك الآن؟ والسؤال الثاني: لماذا يمشي حفيدك مُتوكئًا على عُكّازين، وابنك على عُكّاز واحد وأنت بلا أي عُكّاز؟ ولماذا



عيناك تبرُقان بلمعان، وأسنانك سليمة كُلّها، وكلامك واضح وسارّ للسامع؟ كيف صارت الأمور هكذا؟“

وهنا أجاب الرجُل العجوز:

– ”هذه الأمور تغيّرت إلى ما هي عليه الآن، لأنَّ الناس كفُّوا عن أن يعيشوا على عمل أيديهم وبعرق جبينهم؛ بل صاروا يعتمدون على عمل الآخرين وعرق جبينهم. في القديم كان الناس يعيشون حسب ناموس الله. لقد كانوا يقتنون ما هو لهم، ولم يكونوا أبدًا يحسدون الآخرين على ما في أيديهم!“

سنة ١٨٨٦م

الابن الروحي

"سمعتُم أنه قيل: عين بعين، وسِن بسِن. وأمَّا أنا فأقول لكم: لا تُقاوِموا الشَّر".

(متّى ٥ : ٣٨، ٣٩)

"لأنه مكتوب لي النقمة: أنا أُجازي يقول الرب".

(رومية ١٢: ١٩)

الوليد الصغير

كان فلاّحًا فقيرًا، ولكنه كان يتمنّى أن يرزقه الله طفلاً ويغمُره السرور كلّما سرح خياله في صورة هذا الصغير، وأحشاؤه تذوب حنانًا وهو يتمثله على يديه يُناغيه أو في حِجره يُداعبه ... ثم تحقّق الأمل وصار الفلاّح أبًا وكاد يطير من الفرح وهو يتأمله يومًا بعد آخر ينمو ويكبر حتّى حان موعد تعميد الطفل، وهذه مُناسبة سعيدة ينبغي له أن يفرح فيها ويشترك معه آخرون في هذا الفرح. وكان يعلم أنه لابد للطفل من إشبين [1] يحتمِل مسئولية الصغير عند وبعد عِماده، فأسرع إلى أحد جيرانه الموسُرين يطلُب إليه أن يكون الإشبين ولكن جاره هذا لم يُبدِ شيئًا من الحماس للقيام بهذا الواجب، بل لعله كان يميل إلى الفظاظة وهو يعتذِر بما يُشبِه الرفض لأنه لا يُرحِب أن يكون أبًا روحيًا لابن فلاّح فقير. ولم يشأ الفلاّح في طِيبته أن يرتبِك لهذا الرفض فذهب إلى جار آخر يطلُب نفس الطلب ولكن الجار الثاني لم يكُن أحسن استقبالاً له من الأوّل. ولم يُداخله اليأس رغم أنَّ شيئًا من الحُزن أخذ طريقه إلى قَسَمَات وجهه، فمضى إلى ثالث ورابع يرجو

---

[1] الإشبين هو الشخص الذي يتعهد تربية الطفل في الإيمان وقد يكون هذا الشخص شماس الكنيسة إذا لم يكُن أحد أقارِب الطفل يصلُح لأداء هذا الواجب حتّى ولو كان ذلك هو الأب أو الأُم. وقد جرت العادة في كثير من الكنائس أن تختار الأُسرة الإشبين من بين أصدقاء الأُسرة أو الشخصيات المعروفة.

ويلتمِس ولكن الجواب لا يتغيّر ويعجب في نفسه من هذه المُعاملة الـــتي لم يكُن يتوقعها في مثل هذه المُناسبة، إذ لم يخطُر على باله أنّ فقره يُشكّل مثل هذه العقبة الكؤود في سبيل حصول ابنه الصغير على نعمة العِماد.

ويمّم وجهه شطر قرية أخرى مُجاورة يبحث فيها عن غايته، وأخذ يقطع الطريق وقد أثقل قلبه الهم، ودارت الأفكار تتصارع في ذِهنه تتراوح بين الفشل والنجاح وتنتقِل الأفكار من عقله إلى صفحة وجهه فيبتسِم تارة ويتجهّم وجهه تارة أخرى حتّى قطع حبل أفكاره صوت فاجأهُ من الاتجاه المُضاد وهو يُناديه في رِفق ووداعة: طاب صباحك يا صديقي، إلى أين أنت ذاهب في رعاية الله؟

فتوقف الفلاّح وتأمّل مُحدِثه مَلِيًا ثم أخذ يروي قصته: لقد وهبني الله طفلاً عزيزًا، هو بهجتي في شبابي، وراحة لي وعونًا في شيخوختي، وذكرى لنفسي بعد موتي .. ولكن لا أستطيع أن أجد له أبًا روحيًا .. بسبب رِقة حالي وفقري .. فتركت قريتي وها أنا مُسافر إلى أوّل قرية أُقابلها في هذا الطريق لعلّ أحدًا فيها يقبل طلبي ويُصبِح إشبينًا لولدي.

وأنصت الغريب لحديث الفلاّح في عجب، وقد بدت على ملامحه علامات الاستنكار، ولكنه تقدّم ووضع يده على كِتف الفلاّح في تفهُم ورِفق، وهو يقول: ما رأيك يا صديقي؟ هل تقبلني إشبينًا لابنك؟

ولم يتمالك الفلاّح نفسه من الفرح، وشكر الغريب على مُساعدته، وانطلق يُثني عليه في عبارات مُتقطِعة كأنّ ألفاظه تُسابِق أفكاره، حتّى انتهى إلى قوله سائلاً: ومن تلك السيِّدة التي ستكون أُمًّا روحية له؟

وأجابه الغريب: ابنة أحد التُجار الذين أعرفهم .. ادخُل هذه المدينة التي

في مُقابِلك وسِر في الطريق حتّى يُقابِلك بُناء حَجَري أسفله بعض الحوانيت التي تُطِل على الميدان .. ادخُل أوّل هذه الحوانيت واطلُب من صاحبه أن يسمح لابنته أن تكون إشبينًا لابنك.

ولكن الفلاّح امتعض ولوّح بيده في خيبة أمل وهو يُجيب: يا سيِّدي ... من أنا حتّى أذهب إلى تاجر غني .. إنه سينفُر مني في ضَجَر، ويرفُض السماح لابنته أن تُحقِّق رجائي.

– لو حدث ذلك فلن يكون هذا ذنبك .. ولكن اطمئن واذهب ثم امضِ إلى الكنيسة لإعداد المعمودية للغد، وسوف تجدني في الموعِد المُحدد.

ورجع الفلاّح إلى بيته أوّلاً، ثم عرج على كنيسة القرية وبعد ذلك قَفَلَ راجعًا إلى المدينة يحدوه الرجاء في الكلمات الواثقة التي قالها له الغريب، ولكن تفكيره لم ينأى عن التوجُس خيفة من رفض التاجر الغني أسوة بما حدث له في قريته .. وهكذا بين أخذ وردٍّ وصل إلى منزل التاجر في المدينة، وأخذ يربُط حصانه في فناء المنزل عندما خرج إليه التاجر وهو يقول: ماذا تُريد؟

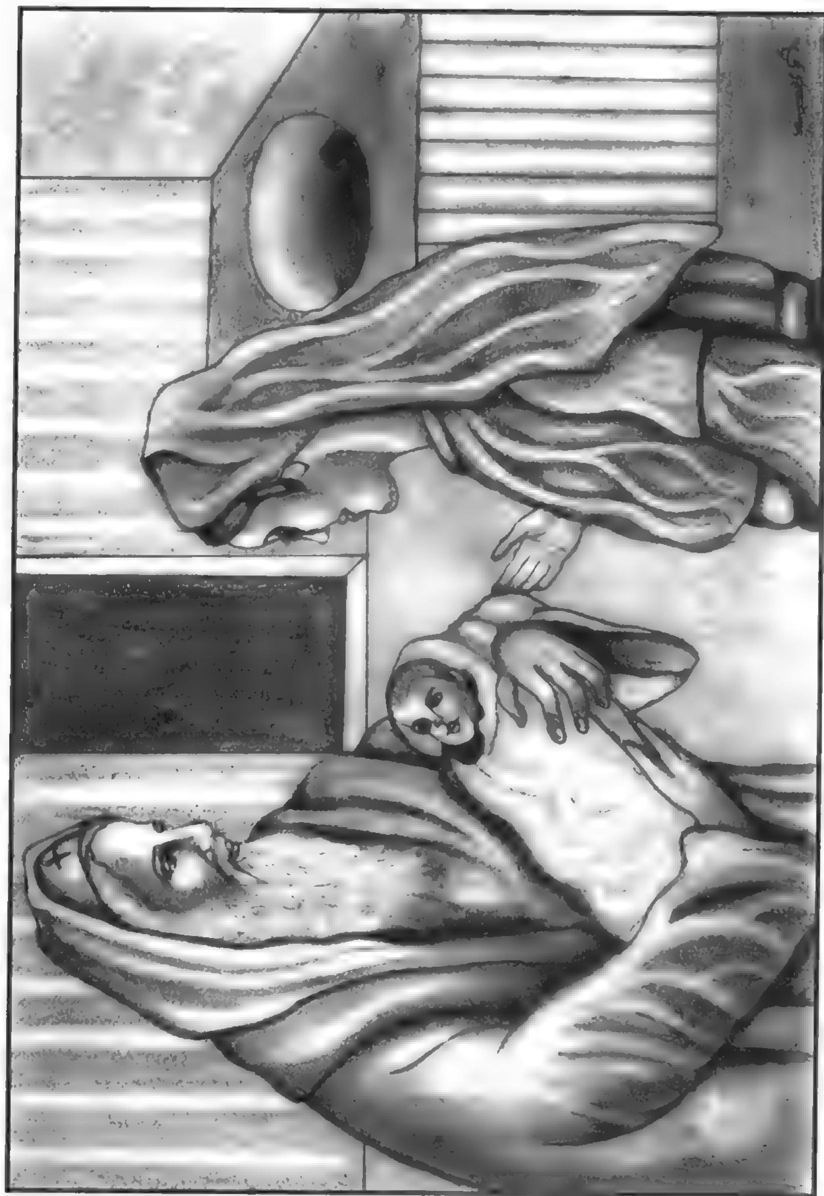
– يا سيِّدي العزيز، لقد وهبني الله طفلاً عزيزًا، هو بهجتي في شبابي، راحة لي وعونًا في شيخوختي، وذكرى لنفسي بعد موتي .. أرجوك أن تسمح لابنتك أن تكون إشبينًا لابني.

– ومتى سيكون العِماد؟

– غدًا صباحًا، في كنيسة قريتنا.

– حسنًا. ليكُن لك ما تُريد، والرب معك. غدًا ستكون ابنتي في قُدّاس المعمودية.

وتم كلّ شيء حسب الترتيب المُتفق عليه، وصل الأب والأُم الروحيين في الصباح وأخذ الكاهن الطفل منهما بعد جحد الشيطان وبعد أن نفخ في وجه الصغير ومسحه بالزيت فغطّسه في ماء المعمودية حتّى رأسه ثم أصعده بسرعة وهو يقول: أعمِدك يا صاروفيم باسم الآب وأخذ الطفل يهز رأسه في عُنف يمينًا ويسارًا لينفُض الماء عن أنفه وفمه، وعندما بدأ يصرُخ كان الكاهن قد غمره ثانية وهو يُعمده والابن ولكن الطفل أخذ يرفُس برجليه ويضرب بيديه في حركات عشوائية ولكنه لم يستطِع أن يُحقّق رغبته في البُكاء لأنّ الكاهن كان أسرع منه وهو يغطّسه للمرّة الثّالثة ويُعمِده والروح القدس ويرفعه من الماء تمامًا ليضعه في ذراعي أُمه الروحية التي أخذت تُجففِه وتضُمه في حنان إلى حُضنها وقد رفع عقيرته بالصُراخ والبُكاء، ثم انتقل إلى ذراعي زوجة الفلاّح التي وقفت إلى جوار زوجها لكي تُقدِّم رضيعها لمسحة الميرون المُقدس ... وبعد أن انتهت مراسِم المعمودية. تلفّت الفلاّح مُفتِشًا عن الغريب ولكنه لم يكُن هناك ... لقد خرج دون أن يشعروا، ودون أن يفصِح عن شخصيته .. ولم يرهُ بعد ذلك.



وكان الصبي ينمو ويتقوى

أخذ الصبي ينمو ويكبر في الجسد والعقل، وأخذت تبدو عليه علامات النجابة والذكاء وقد امتلأ حيوية وقُوّة ونشاطًا، لا يميل إلى الكسل، ولا يغتر بنضارتِهِ وقُوّتِهِ بل كان مُسالِمًا ومحبوبًا.

وعندما ناهز العشر سنوات، أرسله والداه إلى المدرسة لكي يتعلّم القراءة والكِتابة ومبادِئ الحساب فاستوعب وأجاد وتقدّم في دراسته تقدُمًا ملحوظًا واستطاع في مدى سنة واحدة أن يُتقِن ما يتعلّمه رِفاقه في خمس سنوات.

وفي نهاية أسبوع الآلام – كما جرت العادة – ذهب صاروفيم لزيارة أُمه الروحية، ويُقدم لها تحية العيد. ولكنه في تلك السنة عندما رجع إلى البيت بادر والديه بسؤال أخذ يِلح على ذهنه طويلاً: أبي وأُمي العزيزان، أين يعيش أبي الروحي .. إنني أُحب أن أذهب إليه وأُحييه، أما يجب أن أُقدِّم إليه تحية العيد أيضًا.

وفُوجِئ الأب بالسؤال، ولكنه لم يُفكِر طويلاً بل أجاب صغيره قائلاً: أننا لا نعلم أين يعيش أباك الروحي يا بني .. كثيرًا ما راودنا الهم والضيق من أجل هذا الموضوع. العجيب أننا لم نجد له أثرًا، ولم نسمع عنه شيئًا منذ ذلك اليوم الذي تم فيه عِمادك. وهكذا لا نعرِف أين يعيش ولا نعلم حتّى إذا ما كان حيًّا يُرزق أم لا.

وأسرع الصغير ساقطًا على رُكبتيهِ في ضراعة ورجاء ... إذًا أرجو أن تسمحا لي أن أذهب وأُفتِش عنه، فقد أجده ... وأُعطيه تحية العيد وهديته.

وأمام صِدق الصغير وحرارته، استسلم الوالدان وسمحا له أن يخرج ويبحث عن أبيه الروحي. ومضى في طريقه تُشيِعه النظرات الحانية والدُعاء له بالتوفيق والنجاح.

اللقاء

بعد أن مضى الصغير في طريقه فترة ليست بقليلة اقترب من مُنعرج الطريق فالتفت إلى الوراء وألقى نظرة أخيرة على الكوخ وعلى أبويهِ الحبيبين، وعندما استدار على يُمناه مع الطريق، ثبّت سِمته إلى الأمام ومضى لا يلوي على شيء يحِث خُطاه شعور عميق ويشدُّه الشوق إلى الأب الروحي المجهول.

ومضى الصباح وارتفعت الشمس في الأُفق حتّى انتصف النهار دون أن يتوقف يكاد لا يلتفِت يُمنه أو يُسره، حتّى استوقفه رجُل غريب بادره بقوله: طاب يومك يا ولدي، ما هي وجهتك بمشيئة الله؟

- في هذا الصباح ذهبت لزيارة إشبينتي وقدمت لها تحية العيد، فلما رجعت إلى البيت سألت والديّ عن إشبيني وطلبت منهما أن يدلاني على مكان إقامته حتّى أزوره هو أيضًا، وأُقدِّم له اعترافي بجميله في هدية العيد وآخُذ بَرَكته، ولكنهما قالا لي: أننا لا نعرف أين يعيش أبوك الروحي لأنه ما كادت مراسيم عِمادك تنتهي حتّى كان قد فارقنا، ومنذ ذلك الحين لا نعرِف عنه شيئًا، هل هو حي يُرزق، أم لعله فارق الحياة؟! ولكن يُخامرني شعور جارِف ورغبة قوية أن أرى إشبيني وقد غادرت البيت يحدوني الأمل في أن أجده.

ونظر الغريب إلى الصبي نظرة فاحصة طويلة، واقترب منه وقد أشرقت أساريره بابتسامة رقيقة على شفتيه، وربت على كِتف صاروفيم وهو يقول:

لقد وجدت يا ولدي من تبحث عنه أنا هو إشبينك.

وندت من صدر الصغير صيحة فرح مُقتضبة، أعقبها بتحية العيد إخرستوس أنيستي ثم تشبث بيده قائلاً: ولكن إلى أين أنت ذاهب يا أبي الحبيب لقد طالت غيبتك عنّا، ولعلك في الطريق إلينا .. إذاً تُرافقني إلى كوخنا الصغير ..

ورفع عينيهِ إلى وجه الغريب وأدرك من ملامحه أنه لم يصِب الهدف. فاستأنف حديثه الفرح بقوله: أمَّا إذا كنت راجعًا إلى بيتك فدعني آتي معك وآخُذ بركتك.

– مهلاً يا عزيزي. لا أستطيع أن أذهب إلى بيتكم لأنَّ لديّ أعمال كثيرة في القرية وليس عندي كفاية من الوقت .. ولكني سأعود إلى بيتي غدًا ويمكنك عندئذٍ أن تأتي إليَّ. ما رأيك؟

– ولكني لا أعرِف الطريق إلى بيتك؟

– حسنًا يمكنك أن تسير في خط مُستقيم نحو مشرِق الشمس فتصِل إلى غابة، وفي وسط الغابة دغل واسع قد قُطِعت أشجاره، اجلس هناك حتّى تُصيب شيئًا من الراحة، ولاحظ ما يدور من أحداث في تلك البُقعة، وبعد ذلك اتجه إلى خارج الغابة حيث تجد هناك حديقة وارفة يتوسطها بُناء صغير يعلوه سطح ذهبي اللون. هذا هو بيتي. سِرْ قدمًا حتّى بوابة الحديقة .. هناك تجدني في انتظارك.

وما كاد الغريب ينتهي من هذا الوصف، حتّى اندس في وسط الزحام وغاب عن عيني الغُلام.

الغابة

قبل أن تُشرِق شمس الغد، كان صاروفيم قد بدأ طريقه المُضني إلى الغابة، تمامًا كما وصفه له أبوه الروحي، أخيرًا وصل إلى الغابة وسار على الدرب حتّى وصل إلى الدغل الفسيح بين أشجار الغابة الكثيفة.

في وسط هذه المنطقة ارتفعت إحدى أشجار الصنوبر في خيلاء نحو السماء بينما كان يتدلّى من أحد فروعها حبل قوي ينتهي بكتلة ثقيلة من الخشب مُرتفعة عن الأرض مسافة صغيرة واستقر تحتها على الأرض دلو مملوء بالعسل وحاول الفتى أن يجد تفسيرًا لوضع العسل تحت هذه الكتلة الخشبية على هذه الصورة، واستغرق في التفكير وقد أخذ منه العجب كل مأخذ.

وبينما هو على هذا الحال ترامى إلى أُذنيه صوت طرقعة مُزعجة، فحوّل عينيهِ جهة مصدر الصوت، فرأى بعض الدِبَبَة في طريقها إلى الدغل، في المُقدمة كانت تسير الدِبّة الأُم وخلفها أخرى صغيرة تُناهِز العام الواحد وخلفهُما ثلاثة أشبال صغيرة رفعت الأُم رأسها وأرهفت أنفها تتشمّم الريح حولها ثم اتجهت فورًا نحو دلو العسل وجرى في أثرها الثّلاثة الصغار ثم تدافعوا برؤوسِهِم يزجون بها في الدلو ويلعقون العسل.

ولكن تدافُعهُم على هذه الصورة جعلهم يرتطِمون بكتلة الخشب فتهتز قليلاً في حركة كبندول الساعة ترتد بعدها إلى الخلف فتصطدِم بالصغار وتُلقي بهم إلى الوراء. وعندما رأت الأُم ما آل إليه أمر الصغار تقدمت

ودفعت كتلة الخشب بكفها فتأرجحت الكتلة الثقيلة إلى مسافة أبعد ولكنها ارتدت ثانية، وعند عودهّا صدمت اثنين من الأشبال صدمة قوية أحدهما في رأسه والثاني على ظهره فصرخ كلاهُما وقفزا جانبًا.

وازداد حنق الأُم وغضبها، ورفعت راحتيها وأمسكت بالكتلة الخشبية ودفعتها بكل قُوّهّا بعيدًا عن دلو العسل فتأرجحت عاليًا وأسرعت الدِبّة الحولية إلى الدلو ودسّت أنفها في العسل تعبِ منه في شراهة، كما بدأ الشبلان في العودة ... ولكنهما قبل أن يصلا إلى الدلو كانت كتلة الخشب قد ارتدت بقوة وخبطت الدِبّة الكبرى على أُم رأسها فأردهّا قتيلة على الفور. وهاجت الدِبّة الأُم وأطلقت زمجرة مُخيفة، وهجمت على الكتلة الخشبية وأمسكتها بشراسة وطوّحت بها في عُنف وشدّة، فطارت الكتلة عاليًا جدًا حتّى ارتفعت على الفرع الذي قُيِّدَ فيه الحبل، وتقدمت الدِبّة الضخمة أشبالِها نحو الدلو وتشجّع الأشبال في إثر أُمهم ولكن الكتلة بدأت هَبِط من جديد وسُرعتها تزداد بفِعْل وزنها وثُقلها وسقطت على رأس الدِبّة الأُم فقضت عليها بعد أن دارت حول نفسها كالمخمور واستلقت على الأرض بلا حِراك وقضت نحبها بينما أطلق الشبلان سيقاهُم للريح.

بيت الأسرار

كان مشهدًا عجيبًا أخذ بمجامع قلب الصغير، واستولى على لُبُّه يتأمله من كلّ ناحية، يُحاول أن يسبِر غوره لأنه أدرك أنَّ في الأمر سرًا يختفي وراء هذه الظواهر العجيبة، خصوصًا وأنَّ أباه الروحي أوصاه أن يُلاحظ ما يجري هناك من أحداث. ولكن ذِهنه الصغير أحاط بالظواهر دون مكنوناتِها من أسرار. وهكذا قطع الطريق حتّى وصل إلى الحديقة الفسيحة يتوسطها البُناء ذو السطح الذهبي. إذًا فقد وصل إلى بيت أبيه الروحي، وها هو يقف في انتظاره عند البوابة كما وعده. استقبله هاشًا باشًا يُرحب به في حُب وفرح واستصحبه إلى الداخل، وأخذا يتمشيان في ممرات الحديقة الرائعة. وأخذ صاروفيم يتأمّل هذا الجمال المهيب الذي يُحيط به من كلّ ناحية. لم يسبِق له أن يرى مثل هذا الفن البديع، حتّى ولا في الأحلام. ثم أمسك الشيخ بيد ابنه الروحي وقاده إلى داخل البناء وأمسك لسان الصبي عن الكلام وتاهت عيناه في هذا الإبداع الذي فاق طبيعة الحديقة جمالاً وبهاء، وأخذا يتنقلان في أبهاء المبنى وحُجراته حتّى وصلا إلى باب موصد، وقفا أمامه طويلاً حتّى قطع الشيخ ذلك الصمت بقوله:

– هل رأيت هذا الباب؟

– لا توجد أقفال في الباب، هنالك أختام فقط.

– ومع ذلك ففتحه ليس بالأمر العسير. ولكني أطلُب إليك ألاّ تفعل ذلك، بل لا تُحاول أن تفتحه، يمكنك أن تعيش في هذا البيت كما يحلو

لك، وأن تلعب وتستمتِع بكلّ هذه الأشياء كما يبدو لك. ولكن هذا هو مطلبي الوحيد والشرط الواحد الذي لا مزيد عليه؛ أعني ألاّ تفتح هذا الباب ... فإن فعلت فسوف تتذكّر كلّ ما رأيت في الغابة.

ثم حدج الشيخ ابنه الروحي بنظرة تحذير لا تخلو من صرامه ولا يُخفى فيها الحنان البالِغ. ووقف صاروفيم مبهوتًا مشدودًا حتّى لم يشعُر أنَّ أباه الروحي قد غادر المكان، فلمّا أفاق إلى نفسه دار بعينيهِ في أرجاء المكان ثم انطلق يبحث عنه في كلّ حُجرات المترل دون جدوى. لقد اختفى تمامًا و لم يعُد له أثر.

كانت كلمات الشيخ ترِن في أُذني الغُلام، ويتردّد صداها في أرجاء البيت الذي أخذ يعتاد الحياة فيه بلا سأم ولا ضجر، بل على العكس كان شعور الفرح والسعادة الغامرة يملأ نفسه طُمأنينة وسلامًا. بدا له أنه قد أمضى ثلاث ساعات كاملة في هذا البيت السعيد، عندما وقف أمام الباب المُغلق، لم يكُن يعلم أنه قضى ثلاثين عامًا كاملة، وهو يتأمّل هذه الأختام ويقدح زِناد فِكره مُتسائلاً: لماذا نهاني الرجُل العجوز عن دخول هذه الحُجرة؟ .. وماذا تُرى يحدُث لو دخلت لأُلقي نظرة سريعة على محتوياها؟ وتراكضت في قلبه الرغبة الجامحة في الكشف عن سر هذه الحُجرة فدفع الباب، وسقطت الأختام، وانفتح الباب وولجه في حذر واحتياط، ودَلَفْ إلى الداخل ووجد نفسه في وسط قاعة رحبة أكثر اتساعًا وبهاء من كلّ ما رآه. وفي وسط القاعة عرش ذهبي نادر الجمال. فسار بخُطى وئيدة وأخذ يصعد درجات العرش حتّى يصِل إلى التاج. وقبل أن يجلس على العرش لاحظ صوجانًا قائمًا يستنِد إلى العرش فمد يده وأمسك به وإذا بالجُدران الأربع

تتلاقى في لحظة وامتد بصره عبرها ليرى العالم كلّه في طرفة عين، وانكشفت أمام بصره كلّ أعمال الناس: أمامه كان يرى البِحار والسُّفن تمخُر عِبابها، وتلفّت إلى اليمين فشاهد حياة كلّ الأُمم الغريبة التي لم تُؤمِن بعد بالمسيح، وعن يساره شاهد أعمال الشعوب المسيحية عدا روسيا، وأخيرًا في الجهة الرّابعة رأى روسيا المسيحية وكيف كانت تعيش شعوبها. وخطر في باله أن يرى ما عساه يحدُث في بيت أبيه الفلاّح، وهل المحصول طيِب يُرضي قلب أبيه؟!

ورأى الحقل، وقد اصطفت فيه حِزَم المحصول وأخذ يعِدّها ويُحصيها وفيما هو يفعل ذلك، رأى عربة تسير في الحقل وبها أحد الفلاّحين الأُجراء. في بداية الأمر تبادر إلى ذهنه أنَّ هذا الفلاّح هو أبوه في طريقه لجمع ونقل الحِزَم ليلاً، ولكنه عندما أمعن النظر عرف فيه الأجير باسيلي كندنشوف وهو معروف بسرقاته، رآه يدفع العربة نحو الحِزَم يقذفها إلى داخل العربة، ففزع صاروفيم ولم يتمالك نفسه أن يصرُخ إلى أبيه: أبي أسرِع أنهم يسرقون المحصول من حقلك.

ونهض الأب فزعًا من نومه وهو يُردِّد: لقد حلمت أنَّ محاصيلي قد سُرِقت. لابد أذهب وأطمئِن. وهرول إلى حصانه فامتطاه وانطلق به الجواد كالسهم نحو الحقل، وما أن وصل هناك حتّى رأى باسيلي هناك فصاح الفلاّح بأعلى صوته وأسرع إليه الفلاّحون الذين باتوا في حراسة حقولِهم وقبضوا على اللص وأوسعوه ضربًا وقيدوه وحملوه إلى السُّلطات التي أودعته في السجن.

ثم مال صاروفيم بعينيهِ إلى المدينة لكي يُشاهد إشبينته وكيف تعيش.

وجد أنها زوجة لأحد التُجار وقد استسلمت لنوم هادئ في فراشها، بينما زوجها الذي يتظاهر بالنوم، عندما يتأكد أنها قد استغرقت في نوم عميق يتسلّل من فِراشه ويعبُر الأبواب في طريقه إلى حُجرة معشوقته.

وللمرّة الثانية تثور الدماء في عروق الفتى ويُنادي أُمه الروحية: قومي واستيقظي. إنَّ رجُلِك أوشك أن يسقُط في شر عظيم. وقفزت الزوجة من فِراشها مذعورة، ولفّت جسدها بسرعة في مِلاءة تُغطيها وهرعت تُفتِش عن زوجها حتّى وجدته وانهالت عليه لومًا وتقريعًا كما أوسعت معشوقته ضربًا وطردهُما خارجًا.

وعاد الشاب يتطلّع إلى بيته ليرى أُمه الفلاّحة في سُبات عميق في الكوخ وفي ذلك الوقت دخل أحد اللصوص وأخذ صندوقها المُحكم وبدأ يُعالِج القفل لعله ينفتِح. ولكنها وفي هذه اللحظة بالذات هبّت من نومها وقد أخذ الهلع منها كل مأخذ، وما أن رأت اللص حتّى صرخت بأعلى صوتها، ولكن اللص أراد أن يُعالجها بضربة من فأس في مُتناول يده. ولم يستطِع صاروفيم أن يقف مكتوف اليد وأُمه في هذا الخطر الداهِم فأمسك بالصولجان المُستنِد إلى العرش ودفع به في اتجاه اللص فارتطم برأسه وسقط اللص يتخبط في دِماه.

العِبرة بالخواتيم

في اللحظة التي سقط فيها اللص قتيلاً، عادت جُدران القاعة التي يتوسطها العرش إلى ما كانت عليه، وانفتح الباب ودَلَفْ منه الإشبين الذي اتجه فورًا نحو العرش وأمسك صاروفيم من يده وأنزله ثم قال في صرامة وحزم: وهكذا لم تصدع بأمري أو تطِعه، لم يكُن لك أن تفتح الباب ولكنك فعلت، وما كان يجب أن تعتلي العرش وكان ذلك هو الخطأ الثاني الذي ارتكبت، كما أخذت الصولجان ثم جاءت الطامة الكُبرى لأنك صنعت شرًا في العالم، ولو طال جلوسك على العرش ساعة أخرى لقضيت على نصف الجنس البشري.

ثم اقتاد الشيخ ابنه الروحي مرّة أخرى إلى العرش، وأخذ الصولجان بيده وللوقت اختفت جُدران القاعة، وانكشفت أمام أعينهُما كلّ أرجاء العالم، ثم قال الشيخ مُوبخًا: انظر ما فعلت بأبيك .. لقد أودع باسيلي في غياهِب السجن عامًا كاملاً، ولكنه تلقن هناك كلّ أنواع الشرور، لقد أوغر الرِفاق صدره وجاش قلبه بالرغبة في الانتقام. انظر الآن .. لقد سرق للتو جوّادين من جياد أبيك، وها هو قد أعدّ العُدّة لكي يُشعِل النار في حقل أبيك ... إنَّ جريرة هذه الأفعال إنما تقع عليك، تأمّل ما صنعته بأبيك!!

وما كاد صاروفيم يرى اللهب يرتفِع من حقل أبيه وتضطرِم فيه النيران، حتّى أخفى الشيخ هذا المنظر عن عينيهِ، وطلب إليه أن يُوجه النظر في اتجاه آخر، وهو يقول: لقد مضى الآن عام كامل على الحادِث الذي رأيته في

بيت إشبينتك، وأبيت إلاّ أن تتدخّل في حياتها .. لقد هجرها زوجها التاجر الخائن ولكنها أخذت تجتر آلامها وأحزانها حتّى وجدت سلواها في الخمر فأدمنته وها هي رفيقة زوجها في الخطية وقد انصبت عليها النوائِب .. وهكذا آلت حياتهم إلى البؤس والدمار .. ولا تنسى دورك الفعّال في كلّ هذا الشقاء؟!

وغابت الصورة أيضًا عن عين صاروفيم، وانتبه لصوت أبيه الروحي وهو يُشير إلى مكان آخر .. كان ذلك هو كوخ أبيه، وقد جلست أُمه تندِب خطاياها وعثراتها، وتُردِّد باكية: ليتني مُتْ في تلك اللحظة، لقد كان أفضل جدًا أن يقتلني اللص .. لأنَّ هذا الموت كان يعفيني من ارتكاب كلّ هذه الآثام ... أنَّ الموت أكثر رحمة وأطيب مذاقًا من الحياة في مرارة الخطية وهموم الندم، وصوّب الشيخ نظرة حزينة إلى ابنه الروحي وهو يقول: هذا ما فعلته بأُمك .. لم تنجَ من آثار خطيتك .. وهذا هو حصادها.

ثم أشار الشيخ إلى أسفل، فغابت صورة الأُم الباكية في كوخها، لكي يرى اللص الذي شج صاروفيم رأسه بالصولجان .. رآه واقفًا في سجن مُظلِم تحت الأرض، وعلى جانبيهِ وقف حرس السجن، ولعلّ صاروفيم فكّر أنَّ هذا هو الجزاء الحق لهذا اللص، ولكن أباه الروحي قطع عليه تأمُلاته قائلاً: هذا الرجُل ارتكب تسع جرائِم قتل في حياته الشّرّيرة ولكنه كان يُمكنه أن يلِج باب التوبة، ويُكفِّر عن شروره لولا أنَّكَ لم تُمهله فقتلته ... وهكذا تحوّل هذا السِجِل الحافِل بالذنوب والخطايا إليك، لأنك تحمِل وِزر كلّ ما نَجَمْ عن تدخُلك فيما لا يعنيك، وهذا بدوره نَجَمْ عن هذه الخطايا بالتوبة عن هذه الآثام جميعها .. وهذا ما ارتكبته في حق نفسك.

واستطرد الشيخ المهيب في حديثه، وقد حوّله إلى أحداث الغابة: في المرّة الأولى التي دفعت فيها الدِبّة الأُم كتلة الخشب الثقيلة كانت دفعة كفيلة بأن تُفزِع الصِغار فقط، ولكنها في المرّة الثانية كانت الدفعة قوية بحيث قتلت الدِبّة ذات السنة الواحدة وهي أكبر أطفالها، أمَّا في المرّة الثّالِثة فقد استخدمت كلّ قُواها بما تحمله من غضب وسخط وفي هذه المرّة قتلت نفسها وقضت نحبها. وهذا ما فعلته أنت أيضًا ..

وأطرق الشيخ قليلاً، وقد خيّم عليهِما صمت ثقيل رهيب، ثم رفع رأسه وحدجه بنظراته الصارِمة التي لا تخلو من شُعاع الحُب والحنان: سأعطيك فرصة للجهاد والعمل على تطهير نفسك وتنقية قلبك .. لك منذ الآن ثلاثون عامًا أخرى تُجاهد من أجل ذنوب هذا اللص التي صارت على كاهِلك .. فإن لم تنجح في ذلك في الوقت المُحدّد فسيكون مصيرك هو نفس مصيره.

وفي صوت خفيض رفع صاروفيم صوته مُتسائلاً: وكيف أُكفِّر عن خطايا هذا اللص.

– بقدر ما فعلت لكي تُخلِّص العالم من الشر، بقدر ما أضفت فيه من الآثام، ولذا فلابد لك أن تُكفِّر عن خطايا اللص.

– ولكن هل يُمكنني أن أُخلِّص العالم من الشر؟!

– إذا أردت، فاذهب في اتجاه الشمس حتّى تصِل إلى حقل به بعض الرجال، لاحظ وتأمّل ما يفعلون ثم علِّمهم ما تعلّمته أنت، وبعد ذلك امضِ قدمًا وتأمّل بذهنك كلّ ما ترى، فإذا جاء اليوم الرّابع ستجد نفسك في غابة يسكنها أحد النُّساك القديسين في قلايته. التصق بالشيخ العجوز

واعترِف أمامه بكلّ ما بدر منك وصِف له كلّ ما حدث .. سوف يُرشِدك ويقود في الطريق خُطاك فإذا أطعت ونفّذت كلّ ما يطلبه منك ستكون قد أوفيت دينك ودين اللص أيضًا، وتنال الغُفران.

وبعد أن وصل بهما الحديث إلى هذا الحد، قاد الأب الروحي ابنه صاروفيم إلى بوابة الدخول وصَرَفه مُودِعًا وداعيًا له.

الطريق إلى أعلى

أخذ صاروفيم في المسير وقد أطلق لأفكاره العنان .. كيف أُخلِّص العالم من الشر؟ ومن يستطيع أن يفعل ذلك؟ إنَّ العالم يُخلِّص نفسه من الشر ببتر الأعضاء الفاسدة، وطرد الأشرار سواء بإلقائِهِم في السجون، أو إعدامِهِم بحبل المشنقة .. كيف يمكني إذًا أن أُنقِذ العالم من الشرور دون أن أحمِل على كتفي آثام الآخرين؟!

وهكذا أخذ يقلِب أوجه الفِكر عسى أن يصل إلى قرار .. ولكن دون جدوى وظل في مسيرته حتّى بلغ حقلاً كثُرت غلّته ونضجت تنتظر الحصاد .. وعلى حين غُرّة رأى عِجلاً صغيرًا يجري في الحقل، ما أن رآه الفلاّحون حتّى امتطوا جيادِهِم وأسرعوا يُطارِدون العِجْل في كلّ اتجاه، وعندما أوشك على الخروج من الحقل تصدّى له أحد الرجال فإذا به يجفل ويتقهقر إلى الوراء في فزع شديد .. وعاد الفلاّحون يُطاردونه من جديد في وسط الحقول. وفي نفس الوقت وعلى قارعة الطريق وقفت امرأة تبكي وتنوح وتصرُخ نحو الفلاّحين إنهم سيدفعونه إلى الموت .. ولكن صُراخها ذهب أدراج الرياح.

إلاّ أنَّ صاروفيم جرى نحو الفلاّحين وهو يقول: لماذا تُطاردونه على هذه الصورة .. ابتعدوا أنتم عن الجُرن، وتُنادي السيِّدة على عِجلها وهو يعرف صوتها بلا شك. وبعد لأي استمع الفلاّحون إلى إلحاحه، فتراجعوا إلى حدود الجُرن، بينما رفعت السيِّدة صوتها بالنداء: تعال هنا .. هنا يا صغيري

الطائِش .. تعال هنا. وتوقف العِجْل هنيهة وقد أرهف أُذنيه وظل ينصِت إلى الصوت برهة ثم أخذ يجري نحو المرأة حتّى وصل إليها ودفن رأسه في جلبابها الفضفاض حتّى كادت تسقُط، فعاد الفلاّحون راضين، كما مضت المرأة قانعة بهذه النهاية وهي تمسح بيدها على العِجْل المُطيع.

واستمر صاروفيم في طريقه وقد ومضت في ذهنه فكرة لم تتبادر إليه من قبل .. لقد رأيت الآن أنَّ الشر لا يمكن حقًا أن يدفع بالشر كلّما أجاب الناس على الشر بالخُبث والشر، كلّما ازداد الشر سطوة ونفوذًا، وهكذا يتضح أنَّ الشر يقف مكتوف الأيدي في مواجهة الشر. ولكن كيف يمكن التخلُّص منه أو القضاء عليه. هذا ما لا أعرف. من الطريف أنَّ العِجْل أنصت وعرف صوت المرأة، وإلاّ لِمَا أمكن إخراجه .. وبدأت الخواطر تترى على قلب صاروفيم.

خِبرات جديدة

ظلّ صاروفيم سائرًا حتّى آذنت الشمس بالمغيب، وكان قد وصل إلى مشارِف إحدى القُرى، وأخذ يبحث عن مكان يبيت فيه حتّى وجد كوخًا صغيرًا تقطُنه سيِّدة عجوز طيِبة، تعيش فيه وحيدة فاستقبلته ببشاشة. وما كاد يدخُل حتّى جلس ليستريح. كانت المرأة مُنهمِكة في تنظيف بيتها وأثاثه، فما كان من الضيف إلاّ أن ربض إلى جوار المدفأة بهدوء، ولكنه أخذ يُتابِع المرأة في نشاطها. كانت قد انتهت من أرضية الكوخ وعكفت على المِنضدة فغسلتها جيدًا وأغدقت عليها ماء وفيرًا، ثم أخذت تُجففّها بخرقة بالية ومع أنها مسحت المِنضدة بشدّة ولكن المِنضدة ظلّت على اتساخها لأنَّ الخرقة التي كانت تستعملها تركت بُقعًا على سطح المِنضدة. وفي ضَجَر وضيق غيّرت المرأة اسلوبها في المسح فأزالت بعض البُقَع ولكن بُقعًا جديدة تناثرت على المِنضدة. وعادت تمسحها في اتجاه واحد بالطول، ولكن النتيجة لم تتغيّر، فبينما تختفي بعض البُقع تلمع أخرى غيرها .. صحيح يمكن أن تمسح بُقعة وتُزيلها، ولكن أخرى في موضِع آخر تنشأ من جديد .. ظلّت على هذا المنوال فترة ليست بقصيرة، وصاروفيم يُتابعها ويتأمّل ما تصنعه مليًا ثم هتف قائلاً يا سيِّدتي الطيِبة، ماذا تفعلين؟

- ألا ترى؟ أنني أُنظِف البيت استعدادًا للعيد .. ولكن مع كلّ تعبي ومُثابرتي لا أستطيع أن أُنظِف هذه المائدة.

- ولكن يجب أولاً أن تغسلي هذه الخرقة، وبعد ذلك يُمكِنك أن تُنظفي

المائدة.

وراقت الفكرة للمرأة ولم تتوانَ عن تنفيذها، وفي دقائق قليلة كانت المائدة نظيفة تمامًا، ورفعت بصرها الكليل إلى الغريب شاكرة: لكم أشكرك يا أخي، لقد علّمتني درسًا.

وفي الصباح ودّع صاروفيم مُضيفته شاكرًا، ومضى إلى حال سبيله وقطع شوطًا كبيرًا قبل أن يصل إلى الغابة حيث وجد بعض العُمّال يُحاولون تركيب عجلات جديدة لعرباتِهِم، وكان لابد أن يثبّتوا الإطار الحديدي فوق الإطار الخشبي ولاحظ أنهم يُحاولون تثبيت الإطار الحديدي وثنيه حول الخشبي ولكنهم يدورون والعجلة تدور منهم ولا يصلون إلى غايتِهِم وأدرك فورًا أنهم لم يدُقوا مسمار التثبيت الذي يربُط بداية الإطار الحديدي بالخشبي، ولّما لاحظ ذلك توجه إليهم في رِفق. أيها الإخوة، ماذا تفعلون؟ وأجابوه قائلين: لقد حاولنا أن نُثني الإطار الحديدي مرتين ... ولا فائدة. وعاد يقول: أليس من الأوفق في البداية أن تُثبّتوا الإطارين معًا بمسمار التثبيت وبعد ذلك عندما تُحاولون ثني الإطار الحديدي لا يتزحزح ولا تلِفون حوله دون جدوى.

وعند ذلك استجاب العُمّال لرأيه، وأثمر عملهم ونجحوا في تركيب العجلات الجديدة جميعها. وأمضى صاروفيم الليل معهم.

وطلع يوم جديد، وقبل أن ينبلِج الفجر شَرَع صاروفيم في المسير وقطع يومه وأعقبه الليل كلّه في المسير حتّى وصل إلى بعض تُجار الماشية قبل فجر اليوم التالي فجلس إلى جوارِهِم ورآهم يذبحون بعض الماشية ويُشعلون النار حتّى يتمكنوا من شيّها. ووضعوا بعض العيدان الجافة وأشعلوا فيها وما أن

تشتعِل النار حتّى يضعوا فوقها بعض فروع الأشجار الرَطِبة فتخمُد ألسنة اللهب وتنطفئ جذوة النار .. وكرروا مُحاولتهم مثنى وثُلاثًا دون أن يصلوا إلى بغيتهم، وكاد اليأس يُسيطِر عليهم لولا أنَّ صاروفيم تدّخل بقوله: يا إخوتي لا تتعجّلوا وضع فروع الشجر .. بل يجب أولاً أن تُؤججوا النار جيدًا وعندما يستعِر لهيبها يُمكنكم أن تضعوا الفروع الرَطِبة.

وأخذ التُجار بنصيحة هذا الغريب، وأشعلوا نارًا قوية ثم وضعوا عليها فروع الأشجار التي تجاوبت مع النيران فاشتعلت المجموعة كلّها بشدّة، وعلا سعيرها واضطرمت جذوتها.

وفي نظرة ساهمة أطلق صاروفيم العنان لأفكاره وعقله ولكن سؤالاً بذاته أصابه بالحيرة والعجب: لماذا رأى هذه الأحداث الثّلاث؟ ما الحكمة التي تكمُن وراءها؟ وعند هذا الحد، استسلم للدهشة فنهض وعاود مسيرته.

المُتوحِد

كأنه غائِب عن الوعي، مضى في طريقه حتّى قطع سحابة اليوم، ووصل إلى الغابة التي تضُم قلاية الناسِك، فاقترب منها وطرق الباب فسمع صوتًا من الداخل يُناديه.

- من الطارِق .. من هناك؟

- رجُل خاطئ، أتى لكي يرفع عن كاهله وِزر خطايا الآخرين التي لصقت به فخرج إليه كهل عجوز، وتطلّع إليه بنظرة فاحصة ثم عاد يسأله: وما هي خطايا الآخرين التي يحمِل وزرها.

وبدأ صاروفيم يسرِد له كلّ ما مر به من أحداث، روى له كلّ شيء عن إشبينه، والدِبّة وصِغارِها، وقاعة العرش ذات الأختام، وأمر أبيه الروحي ثم قصة الفلاّحين في الحقل يُطاردون العِجْل الذي هرع إلى المرأة من تلقاء ذاته عندما سمع صوتها وعقّب على ذلك بقوله: وهكذا أدركت أنه لا ينبغي أن نُقاوِم الشر بالشر، ومع كلّ ذلك لا أعرف كيف أتخلّص منه .. ليتك تُعلّمني شيئًا يُعينني على الوصول إلى هذا.

ولكن العجوز بادره قائلاً: ولكنك لم تُحدّثني عمّا قابلت ورأيت في الطريق إلى هنا .. وعاد صاروفيم يقُص عليه ما كان من أمر المرأة التي كانت تمسح المائدة، والعُمّال الذين تعبوا في تطويق العجلة الخشبية بالإطار الحديدي، ثم تُجار الماشية وهم يُوقدون النار ..

فأنصت الشيخ الوقور في انتباه، فلمّا انتهى صاحبنا من قصته دخل

العجوز إلى قلايته ثم عاد مُمسِكًا بفأس صغير، وقال لصاروفيم الذي أراد أن يتتلمذ على يدي الناسك: حسنًا .. تعالى معي. وسارا بمُحاذاة الأرض التي قطعت أشجارها وتجاوزها إلى شجرة ضخمة أشار إليها قائلاً: اقطع هذه الشجرة وأمسك التلميذ بالفأس وهوى بكلّ قُواه على ساق الشجرة، ولم يكُف عن ضربها بالفأس حتّى سمع صوت قرقعة قاصفة، مالت بعدها الشجرة وسقطت. ولكن الشيخ أصدر إليه أمرًا ثانيًا: قسِّمها الآن إلى ثلاث قِطَع .. ولم يتردّد صاروفيم في طاعة شيخه وشق الساق إلى ثلاثة أجزاء، وفي أثناء ذلك مضى العجوز إلى قلايته ورجع ومعه شُعلة مُوقدة أعطاها لصاروفيم وهو يقول: أشعِل النار في القِطَع الثّلاث وصدع صاحبنا بالأمر ثم وقف إلى جوار مُعلّمه يتأملان النار تعمل في ساق الشجرة، حتّى استحالت إلى ثلاث كُتَل من الخشب لا هو بالفحم ولا هو بالنبات ورفع صاروفيم عينيهِ مُتسائلاً عمّا إذا كانت هناك أوامر جديدة، وأجابه العجوز: والآن عليك أن تأخذ كلّ واحدة من هذه القِطَع وتدفنها حتّى منتصف طولها في الأرض، وبعد أن انتهى صاروفيم من تنفيذ المطلوب قال له الشيخ وهو يُشير إلى تل صغير: عند سفح هذا التل ستجد نهرًا جاريًا. خُذ مِلء فمك من الماء وارجع وانثُر من هذا الماء على كلّ قطعة من هذا الخشب المُتفحِم .. دع الماء يتناثر ويروي الأولى بالطريقة التي علّمتها للمرأة التي آوتك في كوخها، ورُش الثانية كما أرشدت العُمّال في تطويق العجلة الخشبية بالإطار الحديدي، والثّالثة كما علّمت تُجار الماشية .. وعندما تتحوّل هذه الأخشاب إلى أشجار مُزهِرة تُثمِر لك التُّفاح ستعرف كيف تُطارِد الشر وتطرده من بين الناس، وحينئذٍ أيضًا تكون قد عوضت عن خطاياك

وكفّرت عنها.

وما كاد العجوز ينتهي من هذا الحديث حتّى اتجه صوب قلايته بخُطى سريعة، بينما جلس صاروفيم يقلِب الفِكر فيما جَدّ عليه من الأمور، ولكنه لم يستطِع أن يصِل إلى تفسير مقبول، ولكنه أخلد إلى الطاعة عالمًا أنّ الأمور ستتكشّف في حينها وأنّ المعرفة لا تهبِط فجأة بل عليه أن يُثابِر في الطاعة وعلى قدر مُثابرته على قدر الاستنارة التي يصِل إليها، ثم نهض لكي يفعل ما أُمِر به.

قاطِع الطريق

ذهب صاروفيم إلى النهر، وملأ فمه بالماء ثم عاد ينثُره على الكُتلة، وكرّر هذا العمل مع الكتلة الثانية ثم الثّالثة وحينئذٍ شَعَر أنَّ قُواه قد خارت كما تذكّر أنَّ مِعدته خاوية، فذهب إلى قلاية الناسك المُتوحد راجيًا أن يُصيب شيئًا من العشاء ولكنه عندما وقف على عتبة الباب، لم يستطِع أن يدخل بل تسمرت قدماه مأخوذًا بما يرى. لقد رأى الشيخ مُمددًا أسفل أيقونة المسيح يعلو رأسه إكليل الشوك. ولكن صاروفيم تنبّه من دهشته بسبب أمعائه تعوي في داخله من الجوع، فدخل وأخذ يبحث حتّى وجد بعض الفطائِر الجافة فأخذها وأكلها في نهم ولّما أحس بالكفاية أخذ الفأس وبدأ يحفُر خارج القلاية قبرًا للعجوز، لكي يُودِع فيه جُثّة هذا المُعلّم القديس.

وفي سكون الليل البهيم، أخذ يُزاوِل واجبه فيُحضِر الماء ويرشه على قِطَع الساق الثّلاث، فلمّا طلع النهار عاد يستكمِل حفر القبر وعندما انتهى من ذلك وأوشك أن يتقدّم لحمل الجُثّة حضر بعض الفلاّحين من القُرى المُجاورة يحملون الطعام وهداياهم للناسك المُتوحد، وعندما عرفوا أنَّ القديس قد فارق هذا العالم أدركوا أنه قد بارك صاروفيم لكي يكون ابنًا له وخليفة من بعده، فسارعوا إلى معاونته في تكفين الجسد وإيداعه في مثواه الأخير ثم تركوا الطعام والهدايا للناسك الجديد واستودعوه ومضوا بعد أن نالوا بركة دُعائه وصلواته.

عاش صاروفيم في قلاية مُرشده الروحي على الطعام الذي كان يُحضِره

إليه الناس من مُحبي ذلك الناسك الصِّدِّيق ولكنه كان أيضًا مُثابرًا على طاعته يسقي الجذوع المحروقة حتّى انصرم العام وشُهرته طارت في كلّ البِقاع المُحيطة به وذاع عنه أنَّ هناك قديس يحيا حياة التكريس الكامل في العبادة النُّسكية والتوحُد أمام الله كما عُرِف عنه كيف يملأ فمه من ماء النهر ليسقي جذوع بعض الأشجار فتزايد عدد الزائرين يومًا بعد آخر ولم يُصبِح زواره من الفلاّحين الفُقراء فقط بل كثير من التُجار الموسُرين كانوا يجلِبون معهم الهدايا إلاّ أنه كان يقبل ما يسِد احتياجاته الضرورية ورفض ما عدا ذلك وكان يرُد تلك الهدايا في رِفق ولين، وما كان يزيد عن احتياجاته اعتاد أن يُوزعه على الفُقراء والمساكين.

وصار نظام حياته روتينيًا مُعينًا لا يكاد يتغيّر: يقضي النصف الأوّل من النهار في ري جذوع الشجرة كما أمره مُعلّمه، أمَّا النِصف الآخر فيقضيه في الراحة أو مُقابلة الضيوف. ومع مُضي الوقت استقر في ذهنه أنَّ هذا لابد وأن يكون الطريق أو الرسالة التي نيطت به في هذه الحياة، وأنه بهذا السلوك سوف يستأصِل شأفة الشر من العالم، ويُكفّر عن خطاياه السالفة بما فيها من عثرات وآثام قادت أو أدّت إلى هلاك الآخرين .. ومضى عام آخر دون أن ينسى أو يتناسى قانون الطاعة ولكن واحدة من هذه الجذوع لم ينبُت أو تظهر عليه علامة من علامات النمو.

وبينما هو يقبع في قلايته سمع وقع أقدام حصان يمشي على مهل، بينما الفارس الذي يمتطيه قد أطلق عقيرته بالغناء. فخرج عساه يعرف ما خطب هذا الفارس، وما الذي جاء به إلى هذا المكان الموحِش. رأى شابًا حَسَنْ المظهر. تبدو عليه ملامح الصحة والقُوّة، يجلس على ظهر حُصانه في خيلاء،

فبادره بالسؤال عن بغيته ووجهته.

وابتسم الفارس وهو يقول: أنا قاطِع طريق .. أركب جوادي وأعيث في الأرض فسادًا، أروع أعمالي أن أُزهِق أرواح الناس، وكلّما ازدادت جرائِم القتل التي تتم على يديّ القويتين، كلّما ازدادت أناشيدي فرحًا ومرحًا.

وفزع صاروفيم لدى سماعه هذه الإجابة، وخاطب نفسه قائلاً: كيف يمكن أن أقطع دابِر الشر من هذا الرجُل. ما أسهل أن أُقدِّم نصائحي وكلمات الوعظ والتعليم للذين يحضرون إليّ ساعين إلى كلمة المنفعة، نادمين على خطاياهم. أمَّا هذا الرجُل الذي يتفاخر بما ارتكب من المعاصي والشرور ويبدو عليه الرغبة في المزيد، فما ...

وارتج عليه القول، ولم تستطِع كلمة أن تنفلِت من بين شفتيه، وأخذ يُفكِر بسرعة، وهو يسير إلى جوار الرجُل: ماذا ينبغي أن أفعل؟ لو وصل هذا الرجُل إلى المدينة سينشُر الفزع والخوف بين الناس. حتّى ضيوفي لن يجرؤا على الحضور. ثم ما هي فائدة حياتي إذًا؟

وتوقف عن المسير، ورفع صوته موجهًا حديثه لقاطِع الطريق: اسمع يا أخي. إنّ الناس الذين يحضرون إلى زيارتي يأتون للبركة لا للتفاخُر بشرهم وإثمهم يأتون للندم والتوبة. ويصلُّوا طالبين مغفرة خطاياهم. هل تحِس شيئًا من الندم، إذا كانت مخافة الله في قلبك؟! ولكن إذا كُنت مُصرًا على شرّك ولا تندم على خطاياك فخُذ جوّادك بعيدًا واقطع الطريق في مكان آخر ولا تعُد إلى هذا المكان ثانية. حتّى لا تُفسِد عليَّ سلامي، وتُزعِج المؤمنين الذين يأتون إليَّ. وإذا لم تمتثِل لِمَا أقول، فسوف يُعذّبك الله.

وضحك قاطِع الطريق. وأخذ يقهقه عاليًا وهو يقول: أنا لا أخاف الله

ولن أستمِع لهذا الهراء الذي تقوله، وليس لك سُلطان عليَّ: أنت تعيش بصلواتك وترتزِق من أعمال التقوى، أمَّا أنا فبواسطة قُوّة ذراعي وجبروتي. كلّ إنسان لابد له أن يعيش بطريقةٍ ما .. يُمكنك أن تُواصِل عملك في تعليم وتلقين العجائِز والبُسطاء الذين يلجأون إليك، ولكن لا تُحاول أن تجعلني أو تظُنني واحدًا منهم. ومع ذلك فقد ذكّرتني بالله، وإكرامًا لك فسوف أقتُل اليوم ضِعْف العدد المُعتاد، ولابد أن أوردهم حتفهم وأُضيف إليهم اثنين في الغد. أمَّا بالنسبة لك أنت، فكنت أُحِب أن تذوق الموت على يديّ الآن .. وتوًا، لولا أني لا أُريد أن أُلوِث يديّ بدمائك. على أي حال اُغرُب عن وجهي، وابتعِد عن طريقي.

وانصرف قاطِع الطريق بعد أن ألقى هذه التهديدات المُروعة في وجه الناسك الجديد، ولكنه لم يعُد إلى هذه الجهة مرّة أخرى وعاود صاروفيم حياته في هدوء وسلام كما كان ودام الحال على ذلك ثلاثين عامًا أخرى.

الهرب

في إحدى الليالي، كان صاروفيم يرُش جذوع الأشجار كما كان دأبه، ثم عاد إلى قلايته يلتمِس شيئًا من الراحة، وفيما هو جالِس ثبّت عينيهِ على الطريق الذي حدّدت معالمه أقدام الزوار، وأرجُل الدواب التي يأتون بها إليه .. وكأنه كان ينتظر أحدًا .. ولكن الوقت مضى دون أن يُقبِل عليه أحد طُوال اليوم التالي أيضًا. جلس وحيدًا لا يُحيط به سوى ظِلال أفكاره وأشباح خيالاته ثم شَعَر بالملل وهو يتذكر ماضيه .. تذكّر قاطِع الطريق، وكيف لامه ووبخه لأنه يرتزِق من أعمال التقوى .. وأخذ شريط الذكريات يترى أمام عينيهِ .. وساورته الهواجِس والشكوك: أنني لا أعيش حسب مشيئة الله، لقد أعطاني الناسك تأديبًا ولكني حوّلت هذا التأديب والتدريب إلى مصدر من مصادر الخُبز ورفاهية الذات. إنني لم أتيقظ لأُدرِك التجربة التي دخلت فيها دون إحساس .. ماذا دهاني؟ إنَّ الزمن يمُر في ثِقَل وملل إذا لم يأتيني ضيوف، وإذا حضر الضيوف يطيب لي أن أسمع مديحهم لتقواي! ليس هذا هو الأُسلوب الذي ينبغي عليَّ أن أتبعه في حياتي. لقد ضللت بسبب مديح الناس، ونسيت تمامًا واجبي في التكفير عن خطاياي السالفة .. بل لعلي جلبت على نفسي خطايا جديدة: إذًا يجب أن أمضي بعيدًا .. إلى مكان آخر حيث لا يعرفني أحد ولا يستطيع أحد أن يجدني .. هناك أحيا وحدة كاملة وأُصلي وأطلُب عن خطاياي، ولا أجلِب على رأسي أوزارًا أخر.

وظلّ هذا الفِكر يدور ويصول في ذِهنه وقلبه حتّى عَقَدْ العزم على أمرٍ ما. أخذ حقيبة الفطائر، وفأسه من قلايته في اتجاه الوادي المُنبسِط حتّى وصل إلى رُكن قصي حيث كان يرجو أن يبني لنفسه كوخًا صغيرًا من الطين يختفي فيه عن أعيُن الناس.

وبينما يُسرع في السير نحو غايته، وكِتفه يكاد ينوء بما يحمل، إذا بقاطِع الطريق يجري نحوه ... وسرى دبيب الخوف إلى قلبه وتطلّع حوله في وَجَلْ، وكأنما ينشِد مهربًا من هذا المأزق، ولكن قاطِع الطريق كان أسرع في الوصول إليه! ووقف تجاهه يسأل: إلى أين؟

وأجابه صاروفيم أنه يُريد أن يختفي عن أعيُن الناس، في بُقعة نائية لا يستطيع أحد أن يزوره فيها.

ورفع قاطِع الطريق حاجبيهِ مُندهِشًا وهو يسأل: ولكن كيف يُمكنك أن تعيش عندما لا يأتي أحد لزيارتك.

وفُوجِئ صاروفيم لأنّ هذا الأمر لم يدُر بخلده من قبل فعلاً، وكأنما سؤال اللص قد فتح دوامة أمام ذهن المُتوحِد، ولكنه سارع يُجيب: لا شك أنّ الله سوف يُدبر كلّ أموري.

ولم ينبس قاطِع الطريق ببنت شفة، بل مضى في طريقه صامتًا. ولكن الناسك عكف على نفسه يلومها ويُوبخها قائلاً: ما هذا الذي أُفكِر فيه؟ كيف حدث إني لم أُوجه إليه كلمة واحدة عن أسلوب حياته؟ من يدريني، فقد يكون الآن نادمًا على ما بدر منه من خطايا الماضي، فهو اليوم يبدو أكثر رِفقًا ولينًا وأطول أناة مِمّا كان عليه من قبل .. لم يُهدِّد ويتوعد بالموت والقتل كما فَعَلْ من قبل.

ثم نادى بأعلى صوته وهو يجري في إثر قاطِع الطريق وهو يقول: أتوسل إليك يا صديقي أن تتوب، إنَّكَ لا تستطيع أن تهرب من أمام وجه الله.

ولكن قاطِع الطريق استدار على أعقابه، وانتضى خنجرًا مُخيفًا من حِزامه، ولوّح به في اتجاه الناسك الذي ولّى هارِبًا وقد دب الخوف في قلبه، إلاّ أنَّ قاطِع الطريق لم يقتفِ أثره ولكنه صاح مُحذرًا: لقد أطلقت سراحك الآن أيها العجوز مرتين، ولكن حِذار من المرّة الثّالثة لأنه لابد أن أقتُلك .. وبعد ذلك لَكَزْ جوّاده فانطلق يُسابِق الريح.

وفي تلك الليلة عندما ذهب صاروفيم ينثُر الماء على جُذوع الأشجار كالمُعتاد، أخذته دهشة بالغة عندما رأى إحداها وقد أنبتت بعض الفروع وبدأ ينمو منها شجرة تُفاح صغيرة.

ثمرة أخرى

وهكذا عاش الشيخ في منأى عن الأنظار، ودخل في حياة الوحدة الكاملة. وعندما نفذت منه الفطائِر التي اختزنها، قال في نفسه: لابد لي أن أخرُج وأجمع بعض النباتات التي يمكن أن أقتات بها. إلاّ أنه ما كاد يُبارِح كوخه سعيًا وراء مطلبه حتّى فُوجِئ برؤية سل صغير يتدلّى من إحدى الشُّجيرات أمام كوخه، وأمسك بالسل ودلاّه من الشُّجيرة وأخذ وأكل .. وتكرّر المشهد حتّى نَفَذْ ما في السل، وهكذا عاش الابن لا يُقلقه هم ولا يضطرب إلاّ لأمر واحد: الخوف من قاطع الطريق ... كلّما سمع وقع أقدام الجواد أو ترامى إليه صوت اللص، أسرع إلى مأواه يختبِئ، وهو يقول في نفسه: لو قتلني لقضيت نحبي دون أن أتمكن من تطهير خطاياي السالفة. وعاش على هذا المنوال عشر سنوات، وكبرت شجرة التُفاح، ونمت فروعها .. أمَّا الجذعان الآخران فقد بقيا كما هما: مجرد كُتلتين من الخشب المحروق.

وفي أحد الأيام، استيقظ مُبكرًا ومضى يُؤدي قانون الطاعة وما كاد ينتهي من رش الجذوع حتّى أحس شعورًا غامرًا من التعب والإرهاق وجلس يستريح، وأخذت الخواطر تتدافع نحو رأسه يبدو أنَّ هناك أخطاء أخرى دخلت في حياتي. لأنه ها أنذا قد بدأت أشعُر بالخوف من الموت. لماذا؟ أليس الموت نفسه طريقًا للتكفير عن الخطايا، ووسيلة للتطهُر من الآثام.

ولم يكد يصل إلى هذا الحد من التفكير، حتّى بُوغِت بسماع قاطِع

الطريق في الطريق إليه، ولم يكُن ما يسمعه مُبشِرًا للخير، بل كان مدعاة لقلق أكثر فقد كان يسِب ويلعن، يرغي ويزبُد. ولكن صاروفيم أخذ يُوطد الثقة في نفسه: لا أحد غير الله يستطيع أن يهبني الطُمأنينة والسلام فإذا فارقته أو فارقني فلا محيص من الضيق والعُسر. ثم اتجه بخطوات ثابتة نحو اللص، ولاحظ للوقت أنَّ قاطِع الطريق لم يكُن وحيدًا بل أردف خلفه على ظهر الحصان رجلاً مُقيد اليدين مُكمم الفم فلا يقوى على الحركة أو الكلام، ولكنه كان الهدف من شتائِم اللص، ينهال عليه بموجع الكلام ولا ينفك عن توجيه أقذع الشتائِم إليه. وواصل صاروفيم سيره حتّى توقف في مواجهة الجواد، وصاح في نبرات رصينة: إلى أين تأخذ هذا الرجُل؟ إلى الغابة. إنه ابن أحد التُجار يرفُض أن يبوح لي بالمخبأ الذي يخفي فيه أبوه أمواله. ولذلك لابد أن أعاقبه وأعاقِب أباه. سوف أجلده حتّى ينطِق بالسر، ثم أراد قاطِع الطريق أن يُواصل مسيرته إلاّ أنَّ صاروفيم تصدّى له وأمسك بلجام الحصان وأبى أن يسمح له بالمسير وهو يقول في حدّة: دع هذا الفتى يمضي إلى حال سبيله وثارت ثورة اللص، ولوّح بقبضة يده مُتهددًا مُتوعدًا، وصاح في غضب: ألعلك تُريد أن تنال نصيبًا مُماثِلاً. لقد سبق لي أن أنذرتك منذ زمن طويل إني لابد أن أقتُلك. تنحّ بعيدًا ودعني أمضي.

أمّا صاروفيم فقد زايلهُ الخوف تمامًا، ورَدْ في إصرار عجيب لن أسمح لك بالمُضي في هذا الطريق. اسمع أنا لا أخافك، لأني أخاف الله وحده. وقد أمرني الله أن أُوقِفك، ودع هذا الشاب يمضي في سلام.

وزوى قاطِع الطريق ما بين حاجبيهِ، وتجهمت قَسَمَات وجهه ثم امتشق خِنجره وأطال النظر إلى الناسك الشيخ، ثم استدار إلى أسيره العاجز ومد

خِنجره وقطع قيوده ثم أطلق سِراحه وهو يقول في تأفُف ظاهر هيا واغرُبا عن وجهي، حِذار أن أرى واحدًا منكما أو أن يعترِض أحدكما طريقي.

وقفز الشاب على الأرض، وأطلق ساقيهِ للريح، وتأهب اللص أيضًا إلى استئناف السير، ولكن صاروفيم أمسك به وفي صوت أجش ونبرات مُنفعلة مُؤثِرة أخذ يُطالِب قاطِع الطريق أن يكُف عن الإثم، وأن يتحول عن طريقه الشرير، ولم يملُك اللص إلاّ أن يجلس وينصِت لهذا الحديث المُتدفق المُشبِع بالحُب والعطف.

وظلّ مُرهف السمع حتّى كفّ الشيخ عن الكلام، فنهض صامتًا وامتطى جواده ومضى.

وفي الصباح التالي، عندما ذهب الابن يُزاول قانون الطاعة وينثُر الماء على الجذوع إذا به يرى جذعًا آخر قد أنبت فروعًا مُزهرة، وأخذت تنمو منها شجرة تُفاح صغيرة.

إكليل النُّصرة

ومضت عشر سنوات أخر، حتّى كان أحد الأيام جلس فيه صاروفيم خاليًا من الهموم والقلق، قرير العين، يفيض قلبه هدوءًا وسكينة، ورفع عينيهِ إلى السماء وهو يقول: ما أكثر النِعَم والبركات التي يهبها الله للإنسان!! ولكن البشر يُقلِقون أنفسهم عبثًا بينما في مقدورِهِم أن يعيشوا في سلام.

ثم سرح بخواطره نحو ذلك البحر الخضم من شرور الإنسان، وأربد وجهه في حُزن وهو يتجسم أمامه أحزان البشر التي يجلبونها على أنفُسهم بلا مُبرر أو غاية .. وفاض في عروقه شعور دافِق بالإشفاق والتأثُر ثم ران على ذهنه خاطر غريب انبثق من أحاسيسه الجيّاشة وعواطفه المُرهفة! لا ينبغي أن تنتهي خطواتي عند هذه المعيشة الآمنة الهادئة، الأحرى بي أن أذهب وأُحدِّث الناس عمّا أعرف ..

وقطع عليه حبل التفكير والتأمُل صوت قاطِع الطريق وهو يقترب ... ولم يتحمس للقيام أو رؤياه، بل رأى في نفسه أن يتجنبه: لا جدوى من كلامي مع هذا الرجُل .. إنّ الشر مُتأصِل في نفسه. ولكنه سُرعان ما لام نفسه وغيّر رأيه، ونهض قائمًا واتجه إلى الطريق. كان اللص على صهوة جواده، وقد تقلّصت عضلات وجهه، تبدو على سِحنته سِمات الحُزن والألم. وقد ثبّت عينيه على الأرض ونظر صاروفيم إليه طويلاً وجاشت في نفسه مشاعر العطف والرثاء، وجرى نحوه وتشبث بركبته قائلاً: يا أخي العزيز ارحم نفسك .. فيك يسكُن روح الله، فإذا واصلت هذا العمل

تُعذِب نفسك والآخرين أيضًا .. لا تُريح ولا تستريح .. وماذا ينتظرك بعد ذلك كلّه؟! .. عذاب أشر وأشنع. ولكن تأمّل كيف يشتاق الله إليك .. وأيّة بركات قد أعدّها من أجلك! لا تُهلِك نفسك يا أخي .. بل بالحري غيّر طريقة حياتك.

ولكن قاطِع الطريق زاد تجهُمًا، وأشاح بوجهه بعيدًا! وهو يقول: دعني وحيدًا من فضلك

إلاّ أنّ صاروفيم ازداد تشبُثًا ونظر إليه مُستعطِفًا، وفتح فمه ولكنه لم يستطِع الكلام بل انفجر باكيًا .. وبكى بُكاءًا مُرًا وامتقع وجه اللص، وأطال النظر إلى وجه الشيخ الوقور، وعلى حين غُرّة، ترجّل عن جواده، وارتمى على رُكبتيهِ على الأرض، وهو يتكلم بصوت تخنقه العبرات:

لقد غلبتني أخيرًا أيها الشيخ العجوز ... لقد جاهدتك ودافعتك عشرين سنة كاملة، ولكنك انتزعت مني قُواي شيئًا فشيئًا، وها أنذا أمامك لا حول لي ولا قُوّة .. افعل بي ما بدا لك لأني أستحِق المُجازاة ... عندما حدّثتني في المرّة الأولى، ازددت حنقًا وغضبًا ولم أعِر كلماتك أي التفات حتّى انسحبت عن أعيُن الناس، وانزويت في وحدتك، وأدركت أنّكَ لستَ في حاجة إلى الناس أو إلى معونتهم، ولكني أخذت على عاتقي من تلك اللحظة أن أُعِد لك أكياس الفطائِر وأُعلّقها على الشجرة عند مدخل خلوتك.

وعند ذلك تذكّر صاروفيم قصة المرأة التي استضافته ورآها وهي تُنظِف المائدة ... لابد من غسل الخرقة البالية حتّى يمكنها أن تُنظِف المائدة عندما كف عن التفكير في نفسه وفي مديح الناس، تنقّى قلبه، وعند ذلك استطاع أن يدخُل إلى قلب هذا المسكين.

واسترسل قاطِع الطريق في حديثه: ولكن المرّة الأولى التي أصابتني بتغيير عميق في قلبي هزني هزًا عنيفًا زلزل كياني كانت عندما وقفت في مواجهتي بشجاعة لا تخشى الموت الذي توعدتك به.

وفي الحال تذكّر صاروفيم العُمّال يُحاولون تثبيت الإطار الحديدي حول العجلة الخشبية .. كان لابد لهم من وضع مُسمار التثبيت قبل أن يثنوا ذلك الإطار .. وتسلّلت ابتسامة إلى شفتيه وهو يهز رأسه لانكشاف السر في هذا اللغز أنه لم يكُف عن الخوف من الموت إلاّ عندما ثبّت قلبه وحياته في الله فقط.

واستأنف اللص حديثه: ولكنك كنت عجيبًا عندما فاض قلبك عطفًا عليَّ، وذرفت الدموع السخينة من أجلي .. لم أحتمِل كلّ هذا الحُب الذي لا أستحقه .. لقد تبدّل قلبي تمامًا.

وفاض قلب الشيخ فرحًا، وأمسك بتلابيب قاطِع الطريق يقوده إلى البُقعة حيث استقرت الجذوع الثّلاث، ووقفا في ذهول لأنّ الجذع الثّالث تولدت عنه شجرة تُفاح جميلة .. وتذكّر صاروفيم أيضًا كيف استعصت النيران المُتوهجة على تُجار الماشية، ولكن الفروع الرطبة عندما تلتهِب تتوهج وتضطرم، وهكذا كان لابد أن يكتوي قلبه بالحرارة والحريق حتّى تسري الحرارة إلى قلوب الآخرين.

وفي سعادة غامرة، شَعَرْ أنّ العِبء الباهِظ الذي أثقل كاهله طُوال هذه السنوات انزاح عنه أخيرًا ... لقد تخفّف قلبه من أوزار الماضي وأخذ يقُص كلّ ما مر به على صديقه اللص، اعترف بكلّ ما اقترف من أخطاء وكلّ ما ران عليه من تهاون وكسل، وكلّ ما جازه من تجارُب وخِبرات، وأخذ يد



قاطِع الطريق بين يديه وهو يميل على فِراشه يستريح وأسنده صاحبه برفق حتّى يعتدِل في رقدته .. وكان الرُّقاد الأخير.

ونهض قاطِع الطريق .. وأودع الناسك في قبره .. واستأنف حياة جديدة.

سنة ١٨٨٦م

النَّاسِك

"لأنها طرحت كثيرين جرحى وكلّ قتلاها أقوياء".

(أمثال ٧ : ٢٦)

النَّاسِك مرآة صادِقة .. تعكِس صورة الإنسان الباطِن، الذي هو تحت الآلام ويُحيط به الضعف ولا يعلم!

النَّاسِك نور يُهدي السائرين في دروب الرب حتّى لا تغفل عيون المُجاهدين عن أخطار الطريق.

.١٠

في الأربعينيات من القرن التّاسع عشر جرت بعض الأحداث العجيبة في مدينة بترسبرج. كان هناك ضابط من سلاح الفُرسان يتميَّز بمسحة من الجمال تنبَّأ لهُ الجميع بالمستقبل الطَّيِّب وكانوا يتوقعون أنَّ الإمبراطور نيقولا الأوّل لابد وأن يضمه إلى فرقة الحرس الإمبراطوري. إلاّ أنَّ هذا الضابط ترك الخدمة، وفَسَخ خطوبته إلى إحدى الفتيات الجميلات الَّتي كانت تنتمي إلى أُسرة عريقة، وكانت من أكثر النساء صداقة للإمبراطورة. والأكثر من هذا أنَّهُ تنازل عن أملاكه لشقيقته ثمَّ اعتزل في أحد الأديرة وصار راهبًا.

بدت هذه الحادثة في أعيُن الذين لا يعرفون الدوافع الباطنيَّة لهذا التصرُّف أنَّها أمر غريب يصعُب تفسيره أو قبوله، ومع ذلك فقد بدا هذا التصرُّف في عيني الأمير إستيفان كازاتسكي طبيعيًا تمامًا لا يملُك أن يتصرَّف تصرُّفًا آخر سواه.

كان أبوه كولونيل مُتقاعِدًا من رجال الحرس، وافتهُ المنية عندما بلغ إستيفان الثَّانية عشرة. وكانت وفاته صدمة بالغة لأُمّهِ الَّتي لم تحتمِل بعد ذلك أن تُفارق ابنها إلاّ أنَّها اضطرت إلى إلحاقِهِ بالكلية الحربيَّة حسب رغبة أبيه.

أمَّا الأرملة نفسها فقد انتقلت إلى بترسبرج مع ابنتها بربارة لكي تكون على مقرُبة من ابنها حتَّى يتسنَّى لهُ قضاء عُطلاته معهما.

وقد حاز الصبي تقدير أساتذته لِمَا تميَّز بهِ مِنْ مقدرة وكفاءة عاليتين،

فضلاً عمَّا عُرِف عنهُ مِنْ تمسُّك بالكرامة والاعتزاز بشخصيته. لقد احتلَّ المركز الأوَّل بين رِفاقه سواء في دراسته – خصوصًا في الرياضيات الَّتي كان مُغرمًا بها – أو في تداريبه العسكرية وركوب الخيل. كان فارع الطول، جميل الطلعة يفيض بالحيويَّة والنشاط ولولا حدَّة طِباعه واندفاعه لصار طالبًا مثاليًا. كان صِدقه والتزامه بكلمته من الصفات الملحوظة، كما عُرِف عنه استقامته وسلوكه السوي فلم ينحرف عن جادَّة الصواب في كل تصرفاته، ولم تستهوِهِ الخمر. كان العيب الوحيد الذي غطَّى كل حسناته هو نوبات الغضب الَّتي كانت تنتابه، فيفقد أثناءها كل سيطرة على عواطفه وتجعل منه وحشًا قاسيًا. لقد كاد في إحدى نوبات غضبه أن يُلقي بأحد زملائه من النافذة لأنَّهُ أثاره أثناء مناقشة حول مجموعته من أنواع المعادن. وفي مرَّة أخرى تملكته ثورة عنيفة، فطوَّح بطبق من شرائح اللحم في وجه أحد الضُّباط أثناء إشرافه على توزيع الطعام، واندفع نحوه كالثَّور الهائج ويُقال إنَّهُ اِعتدى عليه فعلاً. وكان السبب في ذلك أنَّ هذا الضابط لم يفِ بوعد كان قد قطعه على نفسه، ثم برَّر نفسه بأكذوبة فاضحة. لا شك أنَّهُ كان سيُعاقب بتنزيل رُتبته لولا أنَّ مدير الكليَّة تكتَّم الموضوع بكامله وعَزَلَ المشرِف على توزيع الطعام.

عندما بلغ الثَّامنة عشرة كان قد انتهى من دراسته في الكلية الحربية، وعُيِّن ضابطًا برتبة مُلازم في إحدى فِرَق الحرس الَّتي تضُم أبناء النُّبلاء.

لقد استرعى إستيفان كازاتسكي أنظار الإمبراطور نيقولا باڤلوڤتش (نيقولا الأوَّل) وهو مازال طالبًا في الكلية، واستمر يجتذب انتباهه وهو في فِرقته ولهذا السبب تنبَّأ لهُ الجميع بمنصِب ياوران أو أركان حرب الإمبراطور. وكان كازاتسكي نفسه يتوق إلى تولي هذا المنصِب ليس عن طموح فقط بل لأنَّهُ

مِنْ أيَّام الدراسة كان شغوفًا بخدمة مولاه، شديد الولاء لهُ. وكثيرًا ما كان الإمبراطور يزور الكليَّة الحربيَّة، وفي كل مرَّة كان كازاتسكي يتطلَّع بإعجاب إلى قامة الإمبراطور العالية المنتصبة، وصدره المتعالي في بدلته العسكرية بينما يمشي في خطوته العسكرية المتسِقة، حليق الوجه، مقصوص الشارِب، أنفه مُحدَّب كمُنقار النسر. كان يُرهِف سمعه لسماع صوت الإمبراطور المدوي الرنَّان وهو يتبادل التحيَّة العسكريَّة مع الطُّلاب. كانت تتملكه نشوة غامرة أحسَّ بها فيما بعد عندما كان يُلاقي المرأة الَّتِي أحبَّها. في الواقع كان إعجابه القوي بالإمبراطور أشد وأعنف .. كان يتمنى أن يبذِل شيئًا من أجله —كل شيء حتَّى نفسه — حتَّى يُثبِت للإمبراطور ولاءه وإخلاصه العميق. وقد أدرك الإمبراطور — بحِسِّه المرهف وقُوَّة مُلاحظته — ما يُثيره من حماس في نفس الشاب، فكان يتعمَّد إلهاب هذه المشاعر في نفوس الطُّلاب جميعًا. كان الإمبراطور يُشارِكهم ألعابهم ومرحهم، حريصًا على التفافهم حوله، يُعاملهم في بعض الأحيان ببساطة كالأطفال، وفي أحيان أخرى كصديق وبعد ذلك يرتد إلى وقاره المَلَكي وسِمَته الرصينة. ولكن بعد تلك المعركة الَّتِي شبَّت بين كازاتسكي وضابط التعيين (الطعام) أمسك الإمبراطور عن الحديث معه. وعندما كان كازاتسكي يقترب منهُ، كان الإمبراطور يزيحه بيده بعيدًا عنه بطريقة لا تخلو من التصنُّع، مُشيحًا عنه بوجه مُقطب الجبين وهو يهز أصبعه في اتجاه كازاتسكي مُنذِرًا مُتوعِدًا. ولكنه قبل أن يُغادر المكان كان يُوجه حديثه إلى كازاتسكي: تذكَّر .. أنا عارف كل شيء. هناك أشياء لم أكن أحب أن أعرفها ولكنَّها تظل عالقة هنا .. ثم يُشير إلى صدره.

وعندما حلَّ موعد تخريج الطُّلاب، استقبلهم الإمبراطور في حفل رسمي، ولم

ترِد أيَّة إشارة – أثناء الحفل – إلى غلطة كازاتسكي بل تحدَّث إليهم جميعًا – كما جرت العادة – عن واجبهم المقدَّس في خدمة الإمبراطور وأرض الوطن بتفانٍ وإخلاص، وأنَّهُ سيظل أبدًا صديقهم الوفي، وإذا دعت الضرورة فيمكنهم الاتصال به مباشرةً. كان لكلمات الإمبراطور صداها العميق في نفوس الضُّبّاط الشُّبان. واغرورقت عينا كازاتسكي بالدُّموع وهو يتذكَّر الماضي. وعندما حان دوره أقسم أن يخدم مليكه المحبوب ويفتديه بروحه.

وعندما تولَّى كازاتسكي منصبه، انتقلت أُمه مع شقيقته أولاً إلى موسكو ثمَّ إلى ضيعتِهِم في الريف. وقد تنازل كازاتسكي عن نصف ثروته لشقيقته واحتفظ بما يكفيه لكي يُحافظ على مظهره ومكانته في تلك الفرقة الَّتِي التحق بها.

كانت جميع المظاهر تُوحي بأنَّ كازاتسكي ضابط شاب لامع مِنْ ضُبّاط الحرس يشق طريقه بنفسه نحو مُستقبل أزهى وأبهى، إلاّ أنَّ هناك في أعماق نفسه كانت تجيش أشواق وتطلُّعات عميقة ومُبهمة. منذ أيَّام الصبا كانت جهوده ومُحاولاته تبدو مُتباينة ومُتغايِرة، إلاّ أنَّ سمات مُعينة كانت تسود كل هذه التصرُّفات مهما بدا فيها من تناقُض. كان يسعى جاهدًا أن يُؤدِّي كل شيء أو عمل يُعهد إليه إلى ذلك الحد من النجاح والإتقان الذي يُبهِر الأنظار ويغتصِب المديح والإطراء، سواء في دراساته أو تداريبه العسكرية إذ كان يُثابِر على ممارستها وإتقانها حتّى يُعترف له بالتفوق والامتياز ويُصبح قدوة للآخرين. وكلَّما أتقن موضوعًا وأجاده، عَكَفْ على آخر حتَّى حصل على المركز الأوَّل في دراسته. وعلى سبيل المثال، وهو ما زال في الكليَّة لاحظ على نفسه ضعفًا وتعثُّرًا في الحوار بالفرنسيَّة فانكبَّ على دراسة الفرنسيَّة وأتقنها حتَّى استطاع أن يتكلَّم بالفرنسيَّة بنفس الطلاقة الَّتِي يتكلَّم بها اللغة الروسيَّة. وعندما بلغ هذا

الحد اتجه إلى الشطرنج حتَّى صار لاعبًا مُمتازًا.

وبالإضافة إلى عمله الرئيسي، خدمة الإمبراطور والوطن، كان لابد لهُ على الدوام أن يضع نِصب عينيه هدفًا ما. حتَّى ولو كان هذا الهدف تافهًا، فإنه كان يُكرِّس لهُ نفسه تمامًا ويُخصِّص كل جهده للعمل مِنْ أجله حتَّى يتحقَّق هذا الهدف وبمجرد أن يبلُغ غايته، يطفو على السطح هدف جديد يحِل محل سابِقه. هذه الرغبة الجارفة في إثبات وجوده وشخصيته وفي تحقيق هدف ما يتحقق من ورائه إبراز شخصيته ملأت كل حياته وسيطرت عليها. وما أن تولَّى وظيفته حتَّى عمل على الإلمام الكامل بكل ما يتصل بهذه الخدمة وسُرعان ما صار مضرب الأمثال بين زُملائِهِ الضُّباط، إلاّ أنَّ عثرته القديمة وسُرعة هياجه وعجزه عن ضبط نفسه في ثورات الغضب ظلَّت تُلازمه. والآن وهو في السلك العسكري أدَّت بهِ إلى التردي في تصرفات تُغلق دونه باب الترقي والنجاح. وأحسَّ في نطاق الوسط الاجتماعي الَّذِي ينتمي إليه، وفي الأحاديث الَّتِي يتبادلها مع أهل هذه الطبقة أنَّ هناك قُصورًا في ثقافته العامة، فاتجه إلى الكُتُب يقرأ ويستوعب، وينهل المعرفة مِنْ بطونها حتَّى تحقَّق لهُ ما يُريد. ولما كان تواقًا إلى احتلال مركز مرمُوق في المجتمع الراقي، أخذ يتدرَّب على الرقص حتَّى أتقنهُ وسُرعان ما انفتحت أمامه أبواب الحفلات الراقصة على أعلى المستويات، كما دُعِيَ إلى اجتماعاتِهم المسائيَّة ... إلاَّ أنَّ كل هذا لم يُشبع طموح الشاب الَّذِي يُريد أن يكون الأوَّل في كل شيء، فقد أحسَّ في وسط هذا المجتمع، أنَّهُ ما زال مُتخلِّفًا عن الكثيرين، وأنَّهُ لم يصل بعد إلى المركز الأوَّل.

والمجتمع الراقي يتكوَّن مِنْ أربع جماعات، الأولى مِنَ الأغنياء المترددين على

البلاط الإمبراطوري، والثَّانية وإن كانت تقل في الثروة إلاَّ أنَّ أفرادها وُلِدوا ونشأوا في دوائر البلاط، والثَّالثة مِنَ الأغنياء الَّذِينَ يتوددون لرجال البلاط والرَّابعة لا تتميَّز بالثراء ولا تنتمي إلى البلاط ولكنَّها تتملَّق الطائفتين الأولى والثَّانية.

لم يكن كازاتسكي مِنَ الجماعة الأولى أو الثَّانية إلاَّ أنَّهُ كان يلقى ترحيبًا مِنَ الطائفتين الأخيرتين. وعندما اندمج في هذا المجتمع، وضع في نفسه أن يوطد علاقته بإحدى سيدات المجتمع. وقد أخذته الدهشة عندما تحققت غايته بسرعة لم يكن يتوقعها. ومع ذلك فقد تكشَّفت أمامه حقيقة دامية، أنَّ الدوائر الَّتِي ينصب فيها شِرَاك الود والتعارُف لم تكن هي الطبقة الراقية. كما تبيَّن لهُ أنَّ أرقى الطبقات الَّتِي فتحت لهُ أبوابها بالترحاب إنما كانت غريبة عنه، وهو لا ينتمي إليها. كانوا يُعاملونه في أدب بالِغ، ولكن سلوكهم العام كان ينُم أنَّ لهم جماعتهم الخاصة بهم، وأنَّهُ ليس واحدًا منها. وأراد كازاتسكي أن يصل إلى العمق. وقد رأى – تحقيقًا لرغبته – ضرورة الوصول إلى رتبة أركان حرب الإمبراطور وكان يتوقع الإنعام عليه بهذه الترقية قريبًا. ومِنْ ناحية أخرى فقد رأى أنَّ مِمَّا يُحقِّق غايته أن يتزوج من إحدى سيدات ذلك الوسط الخاص. وقد استقر رأيه بالفعل على ذلك. ووقع اختياره على إحدى الفاتنات مِنْ نِساء البلاط الإمبراطوري لم تكن فقط مِنْ الطبقة الَّتِي يُريد الانتماء إليها بل كان يطمع في صداقتها أرقى الطبقات وأكثرهم عراقة ونُبلاً .. كانت هذه الكونتيسة كورنكوڤا ... بدأ كازاتسكي يُلاحقها بالملاطفة حتَّى يجتذِب انتباهها، ولم يكن مسلكه هذا مِنْ أجل مطامعه في الترقي فقد كانت كورنكوڤا على جانب كبير مِنَ السحر والجاذبيَّة وسُرعان ما أخذت بمجامع قلبه، وتدله في هواها. في بداية الأمر كانت علاقاتها باردة إزاءه بشكل ملحوظ ولكنها

تغيّرت فجأة وصارت تُعامله برقة بالغة وكانت والدتها تدعوه بحرارة لزيارتهم. وتقدَّم كازاتسكي يطلُب يدها، فقُوبِل طلبه بالارتياح والترحاب حتَّى تعجَّب لسهولة الَّتي استطاع بها أن يُحقِّق سعادته. ومع أنَّهُ لاحظ أنَّ هناك أُمورًا غير عادية وغريبة في مسلك الأم وابنتها، إلاَّ أنَّ الحب العنيف الَّذِي يجيش بهِ قلبه أعماه تمامًا فلم يُدرك ما كانت المدينة كلّها تعرفه، وبالتحديد أنَّ خطيبته كانت عشيقة الإمبراطور نيقولا في السنة السَّابقة.

وقبل التاريخ المحدَّد للزواج بنحو أسبوعين، كان كازاتسكي في القصر الريفي الَّذِي كانت تقطنه خطيبته. كان يومًا قائظًا مِنْ أيَّام شهر مايو. وبعد أن قضى كازاتسكي وقتًا طيبًا في صحبة خطيبته يتجولان في أنحاء المدينة، جلسا على أحد المقاعد في ظِل خميلة وارفة الظلال. كان ثوبها الأبيض مِنَ الحرير يتسِق تمامًا مع قوامها الجميل وكانت تبدو أمام عينيه تجسيدًا للبراءة والحُب، حينما تميل برأسها قليلاً، وأحيانًا تتطلّع إلى الرجُل الوسيم الَّذِي ينتصِب أمامها في قامته الفارِعة بينما يتحدَّث إليها في حنان بالغ في شيء مِنْ التحفُظ كأنَّهُ يخشى أن يخدش نقاوتها وجمالها الملائكي سواء بالكلمة أو بالحركة.

كان كازاتسكي على شاكلة أولئِك الرِّجال الَّذِين تميزت بهم أربعينيات القرن التَّاسِع عشر .. بينما كانوا يستبيحون لأنفسهم ارتكاب القبائِح والرذائِل دون أن يُخالجهم شك أو يؤنبهم ضمير، كانوا يشترطون الطَّهارة المثاليَّة والنقاوة الملائكيَّة في نسائِهم .. يظنون كل العذارى في طبقتهم من أصحاب هذه العفة والطَّهارة، ويُعاملونهن على هذا الأساس. لا شك أنَّ وجهة نظرهم لا تخلو مِنْ كثير مِنَ الزيف وكثير مِنَ السوء خصوصًا فيما يتصل بما سمحوا بهِ لأنفسهم مِنْ ألوان المتعة، أمَّا فيما يختص بالنساء فقد كان هذا الرأي

التقليدي العتيق ذا قيمة وشأن. وإذ أدركت الفتيات هذه النظرة المشبعة بالإعجاب والتقديس، التمسن كل الوسائل وحاولن أن يكون سلوكهن ملائكيًا يرقى بهنَّ إلى مصاف الآلهة.

على أيّة حال، كان هذا هو رأى كازاتسكي، وبهذه النظرة كان يُحيط خطيبته الحبيبة. وفي هذا اليوم بالذات كان قلبه مشبوبًا بمحبّتها، لا تُخالطه نزوة أو رغبة مِنْ رغبات الجسد، بل – على العكس من ذلك – كان يتطلّع إليها بكل ما في قلبه مِنْ أحاسيس الحُب والإعجاب والتقديس كأنَّها أمل لا يمكن الوصول إليه.

نهض كازاتسكي إلى مِلء قامته المشدودة، وقد وضع يديه على سيفه، ثمَّ تراقصت ابتسامة رقيقة على شفتيه وهو يقول: لقد عرفت الآن فقط ما هي السعادة الَّتِي يتمتع بها الرَّجُل .. أنتِ هي هذه السعادة وأنتِ الَّتِي وهبتِها لي يا عزيزتي.

مثل هذا الحديث العاطفي لم يكن مألوفًا بينهما. وإذ كان يشعر في قرارة نفسه أنَّهُ أدنى منها بمراحل، فقد اضطرب وهو يفصِح عمَّا تجيش بهِ نفسه أمام مثل هذا الملاك.

– ينبغي أن أشكرِك على هذه المعرفة، لقد أدركت الآن إنِّي أفضل مِمَّا كنت أظن.

– أمَّا أنا فقد عرفت ذلك منذ زمن طويل. ومن أجل هذا أحببتك.

وهبَّت نسمة رطبة مِنَ الهواء العليل، تردَّد صداها بين أوراق الشجر الخضراء، وقفزت العصافير تُرفرِف بأجنحتها عن قُرب.

وأخذ يدها بين يديه فقبَّلها، وجالت الدموع في مُقلتيه، وعرفت مِنْ ذلك تعبيرًا عن شُكره لأنَّها صرَّحت بحُبَّها لهُ. وفي صمت سار بِضع خطوات ثمَّ

رجع إليها واقترب منها ثمَّ جلس:

- أنتِ تعرفين ... ينبغي أن أُصارِحك ... عندما بدأت التقرُّب إليكِ، لم يكن ذلك عفوًا، بل كنت أسعى إلى الدخول في الوسط الاجتماعي .. ولكن بعد ذلك، بدا لي هذا الهدف تافهًا عقيمًا إذا ما قارنته بشخصِك، عندما عرفتِك ... أرجو ألاَّ يُغضِبك هذا الاعتراف ..

وأُمسِكت عن الجواب واكتفت بأن ربتت على يده برفق، وكأنَّها تقصِد:

- لا عليك .. لم أغضب.

- لقد قلت ... - ثم تردَّد، ووقفت الكلمات في حلقه، فقد بدا له أنَّها جرأة ما بعدها جرأة - لقد قُلتِ أنَّكِ بدأتِ تشعرين بالحُب نحوي. أعتقد ذلك - ولكن يوجد هناك ما يُقلِقك ويحِد من إحساسِك. ما هذا؟

وسرحت في خواطرها: صحيح - الآن وإلاَّ فلا يمكن أبدًا .. لابد أن يعرف كل شيء بأية طريقة .. ولكن الآن لا يمكن أن يُفارقني .. أمَّا إذا فَعَلْ.. إنَّهُ لأمر مُرعِب وخطير. وحدجتهُ بنظرة فاحصة ودودة طالعت بها قامته المديدة بما فيها مِنْ قُوَّة ونُبْل. إنَّها تُحبّه، تُحبّه الآن أكثر مِمَّا كانت تُحب القيصر. وبغض النظر عن بهاء الملك فهي لن تتردَّد الآن لحظة في تفضيل كازاتسكي على الإمبراطور نفسه.

- اسمع! لا يمكنني أن أخدعك. لابد أن أُصارِحك. أنَّكَ تسألني عن سبب قلقي .. لقد كنت أُحبُّ إنسانًا آخر مِنْ قبل.

ثمَّ وضعت يدها على يده، كأنها ترجوه ضارِعة، بينما أخلد هو إلى الصمت.

- أتُريد أن تعرف مِنْ هو؟ إنَّهُ ... الإمبراطور.

- كلُّنا نُحبَّهُ .. يمكنِّي أن أتصورك كتلميذه في المعهد.

- لا لا .. كان ذلك بعد أيَّام الدراسة. كنت مأخوذة بهِ، ولكن كل شيء قد انتهى .. يجب أن أقول لك ...

- حسنًا. وماذا في هذا؟

- لا لم يكن مجرد ...

ثمَّ غطَّت وجهها بيديها.

- ماذا؟ هل استسلمتِ لهُ؟

ولم تنطِق بكلمة، وعاد هو يقول:

- عشيقته؟

ولم تحر جوابًا.

وقفز مِنْ مكانه واقفًا، وتسمرت قدماه أمامها، وارتعش فكَّاه، واكتسى وجههُ بمسحة مِنْ شُحُوب الموت. وقفزت إلى ذهنه الخواطر، كيف قابله الإمبراطور وهنَّأهُ على خطوبته تهنئة رقيقة.

- يا إلهي ... ما هذا الذي فعلت؟

واستدار على عقبيه، واتجه فورًا إلى البيت. وهناك تلاقى مع أُمِّها الَّتِي بادرتهُ قائلةً:

- ماذا حدث؟ يا أمير ...

وتوقفت عن الكلام عندما ألقت نظرها على وجهه. لقد اندفعت الدماء فجأة إلى رأسه:

- أنتِ تعرفين كل شيء... وتستغلينني سياجًا لهما! لو لم تكوني امرأة!...

صاح غاضبًا وهو يرفع قبضته في الهواء. وأشاح عنها بوجهه، وخرج كالقذيفة لا يلوي على شيء.

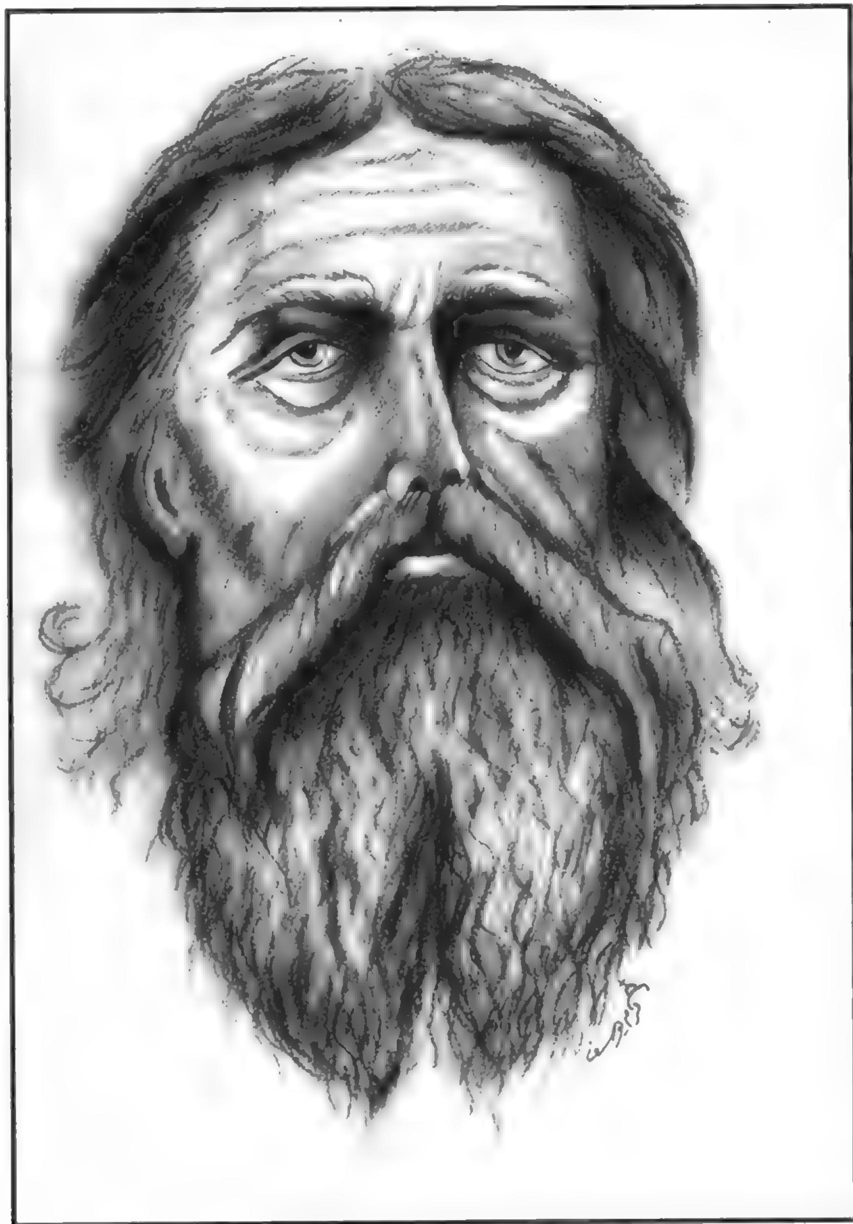
لـو كـان هـذا العشيق شخصًا آخر لقضى عليـه .. أمَّا وهـو الإمبراطـور المحبوب .. !

في اليوم التالي طلب إجازة كما طلب في نفس الوقت إعفاءه من وظيفته. ولكي لا يُقابِل أحدًا، أذاع أنَّهُ مريض، واعتزل في الريف.

قضى شهور الصيف في القرية يُرتِب أموره، وعندما انتهى الصيف لم يرجع إلى بترسبرج بل دخل الدير وانتظم في سِلك الرَّهبنة.

وقد كتبت إليه أُمَّهُ تطلُب إليه أن ينثني عن هذا العزم، ولكنَّهُ أجابها بأنَّهُ شَعَرْ بدعوة الله الَّتِي تفوق جميع الاعتبارات. ولكن أخته وحدها الَّتِي كانت تُشابهه في الطموح والكبرياء استطاعت أن تفهمه.

لقد أدركت أنَّهُ صار راهبًا حتَّى يستطيع أن يسمو على كل الَّذِين كانوا يظنون أنَّهم أرفع منهُ مقامًا. وكانت على صواب فيما أدركت. وإذ صار راهبًا، احتقر كل ما كان يبدو هامًا عند الآخرين. كان يهتم بهذه الأمور عندما كان ضابِطًا أمَّا الآن فقد ارتفع فوق هذه الأمور وأصبح ينظر باحتقار إلى أشواقه الأولى .. ولكن لم يكن هذا فقط – كما كانت تعتقد أخته بربارة – هو الهدف الذي يُسيطر على حياته. لقد كان في أعماقه شيء آخر – إحساس ديني صادق لم تعرفه بربارة. كان هذا الإحساس يرتبط بأحاسيس الكبرياء والرغبة في التفوق وصار حافِزًا مُوجهًا لحياته. كان اكتشافه لحقيقة خطيته الَّتِي كان يرى فيها الطُهر الملائكي، وإحساسه بالإهانة الَّتِي لحقت بهِ مِنَ القُوَّة بحيث أدت بهِ إلى اليأس. واليأس قاده إلى – إلى ماذا؟ إلى الله، إلى إيمان الطفل السَّاذِج، الَّذِي سكن في داخله ولم يتحطم كما تحطمت آماله ومطامِعه في هذا العالم.



- ٢ -

دخل كازاتسكي الدير في عيد شفاعة العذراء المباركة وكان رئيس الدير الَّذِي استقبلهُ مِنْ سُلالة أُسرة عريقة، كاتِبًا واسِع الثقافة مِنْ جماعة المتوحدين تنتمي إلى سلسلة مِنَ الآباء في ولاشبا. وكان مِنْ عادة هذه الجماعة أن يختار الرَّاهب لنفسه مُرشدًا روحيًا ومُعلِّمًا مِنْ شُيُوخ الرُّهبان، يخضع لهُ في طاعة مُطلقة. كان هذا الرَّاهب تلميذًا للأب أمبروسيوس المتوحِد، الَّذِي كان بدوره تلميذًا للأب مكاريوس.

وقدّم كازاتسكي نفسه لهذا الأب طالبًا منه أن يكون لهُ مُعلِّمًا ومُرشدًا روحيًا. وراقت له حياة الرَّهبنة بما أشاعتهُ في نفسه مِنْ شعور بالتسامي، إلاَّ أنَّ نزعاته الَّتِي كان يُمارسها في العالم لم تُفارقه. كان يحس بالرضا العميق عندما يؤدِّي واجباته إلى أقصى درجات الاتقان والكمال سواء في صورتها الخارجيَّة أم كمالها الدَّاخلي. وكما كان دأبه في السلاح لا يكتفي أن يكون بلا لوم بل يتفوق في أداء واجبه إلى أعلى درجات الكفاءة، هكذا أيضًا كان حريصًا في رهبنته أن يكون كاملاً فكان عمَّالاً مُجتهدًا، لا يُفرط في طعام أو شراب بل لعلَّهُ يميل إلى الإقلال من الطعام والشراب، لم يتخلَّ عن خضوعه وطاعته فضلاً عن وداعته وبشاشته كما كان نقيًا في أفعاله، طاهرًا في أفكاره. وكانت الطاعة بصفة خاصة من العوامل الَّتِي جعلت حياته سهلة ميسورة. حتَّى حاجات الحياة في الدير، الَّذِي كان على مقرُبة مِنْ العاصمة، إذا لم ترقَ لهُ أو

كانت مثارًا للتجارُب لهُ، كان يقضي على هذه المشاعر بالطاعة "ليس مِنْ حقي أن أُناقِش، واجبي أن أُؤدّي ما يُطلب منّي مِنْ أعمال، سواء كان ذلك في الوقوف بجوار عِظام القدّيسين، أو الاشتراك مع الشمامسة في الألحان، أو عمل حسابات دار الضيافة بالدير ... . كل الشكوك الَّتِي قد تثور كان يكتمها بالطاعة للرئيس. ولولا ذلك، لتبرَّم ضيقًا مِنْ طول الخدمات الكنسية وصلواتها الرتيبة، ومِنْ الضوضاء الَّتِي يُثيرها الزوار، ومِنْ الصفات الرديئة الَّتِي لا تعجبه في بعض الرُّهبان الآخرين. وقد احتمل كل هذا بفرح وأكثر مِنْ ذلك فقد وجد فيها عزاءً وتدعيمًا لحياته الرُّوحيَّة "لستُ أدري لماذا يجب أن نستمِع إلى نفس الصَّلوات عدَّة مرَّات في اليوم الواحد، ولكنِّي أعلم أيضًا أنَّهُ أمر ضروري، وهام ولهذا فأنا أجد لذة في ذلك". لقد علَّمهُ مُرشده الرُّوحي أنَّهُ كما أنَّ الطعام المادي ضروري للحياة بالجسد، هكذا أيضًا لابد مِنْ الطعام الرُّوحي – صلوات الكنيسة – لنمو الحياة الرُّوحيَّة. صدَّق هذا وآمن بهِ، ومع أنَّ صلوات الكنيسة كانت تستلزم منهُ اليقظة المبكرة، كما كانت صعبة عليه، إلاَّ أنَّها كانت تملأ حياته بالهدوء والرضى. لقد كان ذلك ثمرة وعيه اليقِظ بضعفه ووضاعته، وثقته بأنَّ كل ما يفعله طاعة لمرشده لابد وأن يكون عملاً سليمًا.

لم يقتصر اهتمامه على إخضاع إرادته أكثر فأكثر، بل كان يتوق إلى اقتناء جميع الفضائل المسيحيَّة الَّتِي كان يظُن في بادئ الأمر أنَّ الوصول إليها مِنْ السهولة بمكان. لقد أعطى شقيقته كل ضيعته ولم يُراوده الندم على ذلك، فليس لهُ أي مطالب شخصيَّة. والتواضُع والخضوع حتَّى لمِنْ هم دونه لم يكن أمرًا سهلاً فقط بالنسبة لهُ، بل كان باعثًا على الإحساس بالسرور أيضًا.

حتَّى الغلبة على خطايا الجسد – الطمع والشهوة – استطاع الوصول إليها بسهولة. لقد حذَّرهُ مُرشدهُ الرُّوحي مِنْ الخطية الثَّانية تحذيرًا خاصًا. ولكن كازاتسكي كان يحس بأنَّهُ ليس أسيرًا لها، بل تحرَّر مِنْ قُيودها ولا شك أنَّ هذا كان باعثًا لفرحه ورضاه.

ولكن شيئًا واحدًا كان يُعذِّبه ويقضِ مضجعه ... كلَّما طاف بذهنه شيء يُذكِّره بخطيبته، وليس فقط ذِكراها بل كذلك ما كان عساه يمكن أن يكون لو تمَّ زواجه ... أمر رهيب!! وبلا إرادة كان تداعي الخواطر يضع أمام ذهنه إحدى السيِّدات الَّتي كان لها حظوة لدى الإمبراطور ثمَّ تزوجت وصارت زوجة وأُمًا جديرة بالإعجاب. كان زوجها يحتل مركزًا رفيعًا، يتمتع بنفوذ واسع وشرف عريض، وزوجة صالحة تقيَّة.

كانت هذه الخواطر تترى عليه في ساعات خلواته، ولكنَّهُ كان ينفُض عنهُ ثِقَل هذه الأفكار عندما يتذكَّر أنَّ التجرُبة قد عبرت وانتهت. ولكن كانت تمر بهِ أحيانًا أوقات يرى فيها كل ما يُحيط بهِ وكل ما تقوم عليه حياته يبدو مُظلمًا كئيبًا .. اللحظات الَّتي تُساوره فيها الشكوك حول الهدف مِنْ حياته، ويعجز فيها عن تجديد الثقة فيه، ويُخيِّم على نفسه شعور مُقبِض بالندم على هذا التغيير الَّذِي انتهجه في حياته.

وكان الشيء الوحيد الذي يُنقِذه مِنْ هذه الحالة العقليَّة ومِنْ هذا الضيق النَّفسي هو الطاعة والعمل ومداومة الصَّلاة طُوال اليوم. فكان يُمارس طقوس الصَّلاة على اختلافها، كان يسجُد وينحني، بل كان يُصلِّي أحيانًا فيُطيل أكثر مِنَ المعتاد، ولكنَّها للأسف كانت هذه الصَّلوات مجرد خدمة شِفاه أمَّا روحه فلم يكن لها نصيب فيها. ربما استمرت هذه الحالة يومًا كاملاً وقد تطول

أحيانًا إلى يومين ولكنَّها في نهاية المطاف كانت تختفي من تلقاء ذاتها ... ومع ذلك فقد كانت هذه الأيَّام ثقيلة ومُزعجة. كان كازاتسكي يشعر أنَّهُ لم يعُد مِلكًا لنفسه، ولا بين يدي الله، ولكنَّهُ كان يحس أنَّ هناك شيئًا آخر يُسيطِر عليه. وكل ما كان يستطيع أن يفعله هو طاعة مُرشده مع ضبط النَّفْس والكف عن العمل. ثمَّ الانتظار. وعلى وجه العموم كان طُوال هذا الوقت لا يحيا بمشيئته الخاصة، بل بتدبير مُرشده الرُّوحي، وفي هذه الطاعة كان يجد راحة وهدوءًا بصفة خاصة.

وهكذا أمضى كازاتسكي سبع سنين في هذا الدير. وفي نهاية السنة الثَّالثة تلقَّى نعمة الكهنوت وسُيِّمَ قسًا باسم الأب سرجيُوس، وقد كانت الخدمة حدثًا هامًا في حياته الدَّاخليَّة، قبل ذلك كان يشعر بعزاء عظيم ورِفعة روحيَّة عندما يتقدَّم للتناوُل مِنْ السر المقدس، أمَّا الآن وقد أخذ السُّلطان فقد كان مجرد الاستعداد للقيام بالخدمة يملأ نفسه بنشوة عميقة. ولكن مع مرور الزمن خفَّت حدَّة هذا الانفعال العاطفي تدريجيًا حتَّى أنَّهُ في إحدى المرَّات وهو يؤدِّي خدمة القُدَّاس الإلهي، وهو واقع تحت تأثير حالة نفسيَّة سيِّئة، شَعَرْ أنَّ ذلك الأثر الرُّوحي الَّذِي كان يحس بهِ في صلوات القُدَّاس لن يدوم وقد ضَعُف فعلاً هذا الشعور الرُّوحي العميق ولم تبقَ فيه سوى عادة مُمارسة هذه الصَّلوات الطقسيَّة.

وهكذا عندما أقبلت السنة السَّابِعة مِنْ حياته في الدير كان الأب سرجيُوس قد بلغ منهُ الإعياء درجة عظيمة. لقد تعلَّم كل ما كان يمكنه أن يتعلَّمه، ووصل إلى كل ما كان يمكنه أن يصل إليه. لم يكن هناك ما يمكنه أن يعمله أكثر مِمَّا فعل، ولكن تراخيه وتناومه الرُّوحي كان يتزايد يومًا بعد آخر.

وفي هذه الأثناء سمع بوفاة أُمّهِ كما سمع بزواج شقيقته بربارة، وقد تقبَّل كلا الخبرين دون أن يُعيرهُما أي اهتمامٍ. كل اهتمامه وكل انتباهه كانا مُركّزين على حياته الدّاخليّة.

وفي السّنة الرّابعة مِنْ رسامتِهِ كاهنًا، أظهر الأُسقف اهتمامًا خاصًا بأمره كما أبدى نحوه عطفًا خاصًا. وفي هذه الأثناء استدعاه المرشد الرُّوحي وأوصاه ألاَّ يرفُض الخدمة إذا دُعِيَ إلى منصِب أعلى. وهكذا أحس بذلك الطموح، الَّذِي كان لا يُرضيه في غيره من الرُّهبان وكان ينتقده .. ولكنَّهُ جاش في صدره أحيانًا. كان مُرشحًا لرياسة أحد الأديرة القريبة مِنَ العاصمة. أراد أن يرفُض ولكن مُرشده أمره أن يقبل فأطاع واستأذن مِنْ مُرشده وانتقل إلى ذلك الدير الجديد.

وقد كان انتقال سرجيُوس إلى الدير الكبير حدثًا لهُ خطورته في حياته، فهناك واجه الكثير مِنَ التَّجارُب والإغراءات وقد جَمَعْ أطراف شجاعته وإرادته لكي يُواجهها ويُقاومها.

في الدير السَّابِق لم تكن النساء مصدرًا للتجارُب، أمَّا هنا فقد حاربتهُ التجرُبة بقُوّة وعُنف، واتضحت معالِم التَّجرُبة. فقد كانت هناك إحدى السيِّدات الَّتي عُرِفَت بالتصرُفات الطائِشة الحمقاء — كانت تسعى إليه وتخطُب ودُّه. لقد تحدَّثت إليه، وطلبت إليه أن يُشرِّفها بزيارته ولكنَّهُ اعتذر عن ذلك بحزم. ولكنَّهُ كان يضيق بنفسه وهو يشعُر بتلك الرغبة العنيفة الَّتي تملأ قلبه. لقد اشتد بهِ الضيق حتَّى كتب عن مُشكلته إلى أبيه الرُّوحي. وفضلاً عن ذلك فقد أراد أن يكبح جِماع شهواته فتحدَّث في هذا الأمر إلى أحد المبتدئين، واستطاع التغلُّب على إحساسه بالخجل واعترف لهُ بضعفه وطلب إليه أن يُراقبه بدقة وألاَّ يسمح لهُ بالذهاب هنا أو هناك إلاَّ إذا كانت وجهته إلى

خدمة كنيسة أو لإتمام واجباته.

ولم يكُن هذا هو كل ما يُضايقه، بل كان هناك فخ عميق يكمُن في مشاعره إزاء رئيس الدير الجديد، لم يكُن يُحبُّه بل كان هناك شعور عارِم مِنَ النفور منهُ والتمرُّد عليه .. فقد عرف فيه رجُلاً ماديًا يهتم بالمظاهِر العالميَّة. يسعى بكل ما عنده مِنْ حيلة ودهاء لكي يشُق لنفسه طريقًا في المناصِب الكنسيَّة. لقد حاول سرجيُوس أن يُسيطِر على عواطفه العنيفة، ولكنَّهُ لم يستطيع أن يكبح نفسه. لا شك أنَّهُ كان خاضعًا مُطيعًا لأوامر الرئيس ولكنَّهُ في أعماق نفسه لم يكُف عن إدانته حتَّى أنَّهُ في السَّنة الثَّانية مِنْ إقامته بالدير عيل صبره إزاء مشاعره العنيفة فانفجر بُركان غضبه.

في عشيَّة عيد شفاعة العذراء المباركة، كان هناك عدد كبير مِنَ الزوار يشترك في الصَّلوات الطقسيَّة بالكنيسة الضخمة في الدير، وكان رئيس الدير يقود الصَّلوات بنفسه، كان الأب سرجيُوس واقفًا في مكانه المألوف يُصلِّي بحرارة، كان في ذلك الجهاد الرُّوحي الَّذِي يغمُره أثناء الخدمة المقدَّسة خصوصًا إذا لم يكُن هو الكاهن الخادم في الصَّلاة. كان هذا الصراع يحتد ويشتد في أعماقه إذا كانت الكنيسة حافلة بالنَّاس، خصوصًا الطبقة الراقية، وبالذات الجنس الناعم. حاول ألاَّ يراهم، وحوَّل نظره عنهم حتَّى لا يُلاحظ شيئًا مِمَّا يجري: ذلك الجندي الَّذِي أخذ يُنظِم ويُرتِب، ويدفع البُسطاء والفُقراء جانبًا؛ تُشير السيِّدات الواحدة للأخرى إلى هذا الرَّاهب أو ذاك — كانت بعض هذه الأيدي الناعمة تُشير إليه كما كانت تُشير إلى راهب آخر يمتاز بملامحه الجميلة. حاول أن يحفظ ذهنه مِنَ الشرود، وأن يُثبِّت بصره في ضوء الشموع الَّتِي تحِف بالمذبح المقدَّس، أو في الأيقونات أو في الآباء الكهنة والشمامسة وهم يُؤدُّون

الخدمة المقدَّسة. جاهد في أعماقه حتَّى لا يسمع أي شيء سوى الصَّلوات وألحانها والقراءات، وألاَّ يشعُر بشيء بل أراد أن يفني ذاته في الإحساس بتحقيق الواجب — ذلك الإحساس الَّذي لم يُفارقه إطلاقًا وهو يسمع أو يُتمتِم مُقدِّمًا الصَّلوات الَّتي دَرَج على سماعها دائمًا.

هكذا وقف، يرشم نفسه بعلامة الصَّليب أو يُطأطِئ وينطرِح ساجدًا كلَّما اقتضى الأمر ذلك .. وطُوال الوقت يُصارِع مع نفسه، تارة يستسلِم للإدانة وإحصاء الأخطاء، وتارة يتوه في تداعي الخواطر وراء الإشارات المتعمدة المقصودة. وهناك الأب نيقوديموس المسئول عن حِفْظ الكُتُب المقدَّسة، وأدوات المذبح وملابس الخدمة .. لقد كان حجر عثرة لسرجيُوس الَّذي كان لا يستطيع أن يكتم إدانته وتوبيخه لهُ لأنَّ نيقوديموس دأب على تملُّق رئيس الدير ومُداهنته ... لقد اقترب الأب نيقوديموس نحو الأب سرجيُوس وانحنى أمامه سائلاً إيَّاه أن يتقدَّم للوقوف خلف أبواب الهيكل، فأصلح الأب سرجيُوس مِنْ هندامه، ولَبَسْ قُلنسوته ثمَّ شقَّ طريقه في وسط الجموع وحواسه مُرهفة لكل ما يدور حوله.

وترامت إلى أُذنيهِ كلمات إحدى السيِّدات وهي تقول لجارتها: ليزا. أُنظري إلى اليمين. إنَّهُ هو.

– أين؟ ليس على قدر كبير مِنَ الجمال.

لقد أدرك أنَّ حديث المرأتين كان يدور حوله. لقد تبيَّن كلماتِهما بوضوح، ولكنَّهُ ردَّد بسرعة: ولا تُدخلنا في تجربة. لقد اعتاد اللجوء إلى هذه الكلمات كلَّما هاجمتهُ التَّجارُب، وأحنى رأسه وأغضى بصره ثمَّ عَبَرَ بجوار المنجليَّة ثمَّ دخل الهيكل مِنْ الباب البحري فتفادى — بذلك — الكهنة في ملابسهم

السوداء وكانوا في تلك اللحظة يدخلون عبر حجاب الهيكل. وما أن دخل سرجيُوس إلى الهيكل حتَّى سجد وهو يرشم نفسه بعلامة الصَّليب كالمعتاد، وأدَّى المطانيات أمام الأيقونات ثمَّ نهض قائمًا ورَفَعْ رأسه، ودون أن يلتفِت يُمنة أو يُسره، استطاع بنظرة جانبيَّة أن يرى رئيس الدير واقفًا بجوار شخص آخر تبدو عليه علامات الرِّفعة. كان الرئيس واقفًا بجوار الجدار وقد ارتدى ملابس الخدمة وقد أخرج يديه السمينتين مِنْ تحت البُرنس، وعَقَدْ ذراعيه على جسمه الضخم وكِرشه البارز، ويعبث مِنْ حين إلى الآخر بالمنطقة المشدودة حول وسطه. وتتراقص البسمات على شفتيه وهو يتحدَّث إلى هذا الرَّجُل في سُترته العسكرية الَّتي تدُل على أنَّهُ مِنْ قادة الحرس الإمبراطوري. إنَّ عيني سرجيُوس المدرَّبة الخبيرة استطاعت أن تلمح بسرعة ما ازدان بهِ كِتف الرَّجُل مِنْ علامات الرُّتب العسكريَّة. لقد كان هذا الضابط هو نفس القائد الَّذِي كان يعمل سرجيُوس تحت لوائِه، ولا شك أنَّهُ الآن يحتل مركزًا رفيعًا. ولم يفُت الأب سرجيُوس أن يُلاحظ إدراك رئيس الدير لهذه الحقيقة ولهذا فلا يمكن أن تفوته مثل هذه الفرصة. كان وجهه الأحمر المكتنِز ورأسه الأصلع يُشرِقان بالرضى والسرور. ولكن هذا أثار اشمئزاز الأب سرجيُوس، والتهب غضبه بالأكثر عندما سمع أنَّ رئيس الدير لم يُرسل في طلبه إلاَّ لكي يُشبِع فضول الجنرال الَّذِي أراد أن يرى رجُلاً كان يخدم معهُ مِنْ قبل .. هكذا قال بنفسه.

ومدَّ الجنرال يده ليُصافح سرجيُوس وهو يقول: "إنِّي في غاية الغِبطة أن أراك في هذا الزي الملائكي. وأرجو ألاَّ تكون قد نسيت رفيقًا قديمًا لك".

كان الموقف مُثيرًا للغاية؛ وجه رئيس الدير الباسم في وسط هذه الهالة مِنْ شعره الرمادي، كلمات الجنرال ووجهه الحليق تُشيع فيه ابتسامة الرضى

والاعتزاز، ورائحة النبيذ تنطلِق مع أنفاسه، ألفاظه تختلِط برائحة التبغ .. كل هذا أثار كوامِن الغضب والسخط في نفس الأب سرجيُوس. ولكنَّهُ انحنى ثانيةً أمام رئيس الدير ثمَّ قال: "لقد تنازل قداستكم فأرسل في طلبي".

ثمَّ توقف وملامح وجهه وعيناه تدُل على السؤال الَّذِي أراده ... لماذا؟

وأجاب الرئيس: نعم ... لكي تُقابِل الچنرال.

وعَلَتْ وجه الأب سرجيُوس سحابة مِنَ الشحوب، وارتعشت شفتاه وهو يُجيب: قداستكم يعلم أنِّي قد تركت العالم مِنْ أجل خلاص نفسي، ولكي أنجو بنفسي مِنَ التَّجارُب. لماذا تُعرِّضني لها أثناء الصَّلاة وفي بيعة الله؟

– يمكنك أن تذهب .. اِذهب. قالها رئيس الدير، وقد لمعت عيناه بالغضب، وتجهمت ملامحه.

– في اليوم التالي تقدَّم الأب سرجيُوس يطلُب الصفح والمغفرة مِنْ رئيس الدير و مِنْ الإخوة بسبب كبريائه. إلاَّ أنَّهُ في نفس الوقت، قضى ليلة في الصَّلاة قرَّر بعدها أن يُغادِر الدير وكتب إلى مُرشده الرُّوحي يطلُب منهُ السماح لهُ بالعودة إليه ثانيةً. لقد وصف لهُ – في رسالته – ضعفه وعجزه عن مُقاومة التَّجارُب بدون معونته وإرشاده، كما اعترف بخطيَّة الكبرياء الَّتِي سقط فيها. كانت كلماته تُفصِح عن التوبة والندم. وسُرعان ما وَرَدْ إليه خطاب مِنْ مُرشده أعرب فيه لسرجيُوس أنَّ كبرياءهُ هي السبب في كل ما حدث .. لقد أكَّد لهُ أنَّ نوبات الغضب الَّتِي تنتابه ترجع إلى رفضه كل الكرامات والرُّتب الكهنوتيَّة الَّتِي عُرِضَت عليه، وأنَّ ما يُمارسه مِنْ أساليب وضع الذات ورفض الكرامة لا يُمارسه محبَّة في الله بل استجابة لكبريائِهِ "هوَذا الآن، ألمْ أنجح نجاحًا رائعًا لأنِّي لا أطلُب شيئًا لنفسي" ... هذا هو السبب الَّذِي جعلهُ لا يحتمِل تصرُّف رئيس الدير ولا يطيقه. "لقد جحدت

كل شيء مِنْ أجل مجد الله وها هم يستعرضونني كأنِّي حيوان مُفترس"، لو كنت قد جحدت الغرور والاعتزاز بالذات مِنْ أجل الله لاستطعت أن تحتمِل. إنَّ روح الكبرياء العالمي لم يمُت فيك حتَّى الآن. لقد فكَّرت كثيراً في ظروفك – يا بني سرجيُوس – وصلَّيت كذلك وهاك ما أعطاني الرَّبُّ لكي أقوله لك. في بريَّة تامبوف، كان يعيش القدِّيس هيلاري المتوحد .. وقد انتهى مِنْ جهاده على الأرض وانتقل. لقد قضى ثمانية عشر عامًا في تلك البريَّة. إنَّ رئيس تامبوف يبحث عن أحد الأُخوة الَّذِي يشغل مكان ذلك الناسك .. وخطابك يصل في نفس الوقت. اِذهب إلى الأب بيشوي في دير تامبوف، وسأكتب كذلك إليه حتَّى يسمح لك بالسُكنى في قلاية الأب هيلاري. ليس معنى ذلك أنَّكَ ستحتل مكانة هذا القدِّيس، ولكنَّك في حاجة إلى الوحدة حتَّى تُقمِع كبرياءك، الرَّبُّ يُبارك حياتك.

وهناك كان الأب بيشوي، الَّذِي كان قبل الرَّهبنة رجُل أعمال ناجحًا، وقد استقبل الأب سرجيُوس في بساطة وهدوء، وأعطاه قلاية الأب هيلاري للسُكنى، وفي البداية خصَّص لهُ أحد الأُخوة العلمانيين لخدمته ولكنَّهُ فيما بعد تركهُ وحيدًا في وحدته استجابة لرغبة سرجيُوس نفسه. كانت قلايته عبارة عن مغارة مُزدوجة، محفورة في جانب الجبل، وفي هذه المغارة تم دفن المتنيح الأب هيلاري في الجزء الخلفي منها حيث كان قبره، بينما خصَّص الجزء الأوَّل منها للنوم، فيه حشية (مرتبة) مِنَ القش، ومنضدة صغيرة ورف صُفَّت عليه الكُتُب والأيقونات. خارج الباب الَّذِي يُغلق بواسطة خُطَّاف، يوجد رف آخر حيث يحضر أحد الرُّهبان مرَّة كل يوم ليضع عليه الطعام. وهكذا صار سرجيُوس ناسكًا مُتوحدًا.

٣٠.

في السَّنة السَّادسة مِنْ حياة الوحدة الَّتِي أُخلِدَ إليها سرجيُوس، وفي رِفاع الصوم الكبير الَّذِي اعتاد النَّاس أن يحتفلوا بهِ احتفالاً صاخبًا، التأمت جماعة مرحة مِنْ الأغنياء، رجال ونساء مِنْ المدينة المجاورة واستمتعوا بأطايِب الطعام والنبيذ. كانت الجماعة تضُم اثنين مِنْ المحامين؛ وأحد أصحاب الأملاك الأثرياء، وضابطًا ثمَّ أربعة سيدات؛ إحداهن كانت زوجة الضابط، والثَّانية زوجة الثري، والثَّالثة هي شقيقته وهي فتاة في ريعان الشباب، والرَّابعة سيِّدة مُطلَّقة، جميلة وغنيَّة، ولكنَّها تتميَّز بالشذوذ في تصرُّفاتِها، وأهل المدينة كثيرًا ما أصابتهم الدهشة لمغامراتِها وهربها مِنْ حينٍ إلى آخر، فصُدِمت مشاعرهم.

كان الجو رائعًا، والطريق تُغطيه الثلُوج الناعمة وكأنَّها جزء سوي منه. وانطلقت عرباتِهم خارج المدينة حتَّى قطعت سبعة أميال ثمَّ توقفوا. أخذوا يتشاورون فيما إذا كانوا يعودون أدراجِهم أو يُواصلوا رحلتهم إلى مسافة أخرى.

وسألت المطلَّقة الجميلة ماكوفكينا: ولكن .. إلى أين يؤدِّي هذا الطَّريق؟

وأجاب أحد المحامين، الَّذِي كان يخطُب ودَّها، بقوله: إلى تامبوف .. على بُعد ثمانية أميال مِنْ هذا المكان.

---

[1] لقد تمَّ ترجمة هذا الفصل بتصرُّف في الطبعة الثَّانية والثَّالِثة؛ ولكن فضَّلنا أن يكون بدون تصرُّف كما في الطبعة الأُولى في هذه الطبعة الرَّابعة حتى نهاية هذه القصة.

- وبعد ذلك .. إلى أين؟
- ثم إلى ل .. بعد الدير؟
- ألا يعيش هناك الأب سرجيُوس؟
- هو كذلك.
- كازاتسكي، الناسك الجميل؟
- نعم.
- سيداتي وسادتي. دعونا نُواصِل المسير، ونرى كازاتسكي! يُمكنَّا أن نتوقف عند تامبوف للراحة ثمَّ نُصيب شيئًا مِنَ الطعام.
- ولكن معنى هذا ألاَّ نعود إلى بيوتنا اللَّيلة.
- وماذا في هذا .. يُمكنَّا أن نبيت في مغارة كازاتسكي.
- حسنًا. ولكن في الدير توجد دار رائعة للضيافة، لقد أقمت هناك عندما كنت أترافع في قضية ماخين.
- لا .. سأقضي اللَّيلة عند كازاتسكي.
- مُستحيل .. لا يمكن مهما أُوتيت مِنْ قُدرة!
- مُستحيل؟ هل تراهن؟
- لا مانع. لو نجحت في قضاء اللَّيل عنده، فإنِّي مُستعد أن أراهن بما تُريدين.
- حسب تقديري؟
- وكذلك يكون مِنْ جانِبك أيضًا!
- طبعًا .. هيا بنا.

ودارت كؤوس الفودكا على السائقين، وأخرجت الجماعة صندوقًا مليئًا بالفطائِر والحلوى التهموها. تدثَّرت النِّساء بفراء الكلاب البيضاء. وتناقش السائقون فيمن يستطيع أن يسبِق الآخرين، وكان أصغرهم جالسًا على جانب مقعده مُتكِئًا إلى جانبه، وإذا به يفرقع بسوطه، ويُطلِق صوته يحِث الخيول، ويدُق أجراس العربة وينطلق في طريقه.

لم تتأرجح العربة إطلاقًا، وانطلق الحصان ينهب الطريق الثلجي الناعم. وفوق مثل هذا الطَّريق تبدو العربات وكأنَّها تنزلِق إلى الخلف بسرعة عجيبة، ولكن السائق وقد اعتدل في جلسته، واتجه إلى الأمام أخذ يهز اللجام في يده، ويحِث الخيل على المسير. كان الضابط يجلس في مُقابل أحد المحامين وقد اشتركا في حديث تافه مع جار ماكوفكينا. أمَّا هي فقد جلست بلا حراك مُستغرِقة في التفكير، وقد جذبت أطراف الفراء حولها بشدة: "نفس الصورة تتكرَّر على الدوام، شيء سخيف دائمًا. نفس الوجوه اللامعة الحمراء تفوح منها رائحة التبغ والنبيذ .. نفس الكلام ونفس الأفكار .. وعن نفس الأشياء دائمًا! .. وهم دائمًا راضون عن ذلك، لا يُخامرهم أدنى شك في أنَّ الحياة يجب أن تجري على هذا المنوال، ولابد لهم أن يواصلوا حياتهم على نفس النهج حتَّى تنتهي حياتهم .. أمَّا أنا فلا أطيق ذلك .. إنها حياة مُملَّة وثقيلة .. أُريد شيئًا .. عملاً يقلِب كل شيء رأسًا على عقب. لماذا لا يحدُث معنا ما حدث لأولِئك النَّاس – في ساراتوف على ما أظُن – لقد استمروا في رحلتهم حتَّى وصلوا إلى منطقة جليديَّة قاحلة .. وهناك تجمدت أطرافِهِم ثمَّ أجسادِهِم وماتوا بالفعل! ماذا كان يفعل أصحابنا في مثل هذا الموقف؟ كيف يتصرفون؟ .. تصرُّفات حقيرة ودنيئة بلا شك .. كلٌ سوف يُفكِّر في نفسه فقط، ولا

يعمل! إلاَّ مِنْ أجل نفسه فقط .. حتَّى أنا ستكون أعمالي مُشينة!! ولكنِّي – على الأقل – أتميَّز بالجمال، كلهم يعرفون هذه الحقيقة .. ولكن ماذا يكون الأمر بالنسبة للناسك؟ مِنْ المستحيل أنَّهُ تجرَّد مِنْ الإحساس بالجمال فلا يُبالي بهِ! لا! أنَّهُ الشيء الوحيد الَّذِي يهتم بهِ الجميع – مثل ذلك الضابط في الخريف الماضي .. يا له مِنْ أحمق!".

ثمَّ صاحت بصوتٍ عالٍ: إيڤان نيكولايڤتش ..

- أوامرك ..
- كم يبلُغ مِنَ العُمر؟
- مِنْ ..؟
- كازاتسكي.
- أعتقد أنَّهُ فوق الأربعين.
- وهو يستقبل جميع الزائرين؟
- نعم، كل شخص .. ولكن ليس دائمًا.
- غطِّ قدميَّ .. لا، ليس كذلك .. يا لك مِنْ فظ! لا .. مرَّة أُخرى. هكذا! لا داعي للضغط عليهم!

وهكذا وصلوا إلى الغابة حيث كانت المغارة.

وقفزت ماكوفكينا مِنْ العربة، وطلبت إليهم أن يتركوها حيث هي، وأن يتابعوا هم رحلتهم. وعندما غابت العربة عن أنظارها، أخذت تصعد الممر الجبلي وقد تدثَّرت بمِعطفها مِنْ فراء الكلاب الأبيض .. ترجَّل المحامي وتوقف قليلاً، وهو يُتابعها بنظراته ويرقُبها.

كانت هذه هي السَّنة السَّادسة مِنْ عُزلِة الأب سرجيُوس منذ أن انتهج أُسلوب التوحُد في نُسكه ورهبنته، وقد بلغ التَّاسعة والأربعين. كانت حياته في الوحدة شاقة وقاسية، ليس بسبب الأصوام والصلوات الَّتي اعتادها، بل بسبب صراع داخلي لم يكُن يتوقعه. كان هذا الصراع يدور حول أمرين: الشكوك وشهوة الجسد، ويبدو أنَّ هذين الخصمين كانا يتلازمان ويُهاجمانه معًا. كان يظُن أنهما خِصمان ولكنَّهما في الحقيقة كانا خصمًا واحدًا وشيئًا واحدًا. لا يكاد الشك يُفارق، حتَّى تلتهِب فيهِ الشهوة. ولما كان يعتقد أنهما عدوان مُستقلان، فقد كان يُجاهد ضد كلّ منهما على حدة.

ورفع فِكره، وصرخ في أعماقه: يا إلهي، يا إلهي .. لماذا لا تنعم عليَّ بعطيَّة الإيمان؟ .. هناك الشهوة، بلا شك، حتَّى القدِّيسين كان عليهم أن يجاهدوا ضدَّها — القدِّيس أنطونيوس وغيره مِنْ الآباء .. ولكنَّهم كان لهم إيمان، أمَّا أنا فتجوز عليَّ لحظات .. ساعات .. وأيَّام أفتقِر فيها إلى الإيمان. لماذا يوجد هذا العالم ويبقى بكلّ ما فيه مِنْ مباهج ولذات ... لماذا يوجد ويبقى إذا كان خاطئًا فاسدًا يجب أن نُنكره ونجحده، لماذا؟ لماذا خلقت يارب هذا الإغراء وهذه التَّجارُب؟ التَّجارُب؟ لماذا لا تكون التَّجرُبة كامنة في تلك الرغبة أن أهجر كل مُتَع وأفراح العالم حتَّى يُعِد لي مكانًا هناك ... حيث ... ربما لا يوجد شيء على الإطلاق.

وإذ يصل إلى هذا الحد مِنْ التفكير ينزعج ويضطرب ويشعر باحتقار شديد لذاته. "مخلوق فاسد شرير! أنت الَّذِي تُريد أن تُصبِح قدِّيسًا!!" ثمَّ ينحي على نفسه باللوم والتوبيخ، ويهرع إلى الصَّلاة. وما يكاد يبدأ في الصَّلاة، حتَّى ترتسِم أمام مخيلته أحداث حياته عندما كان في الدير، في مركز مرموق، يزدان

في قلنسوته وردائه، ثمَّ يهز رأسه: ''لا .. ليس هذا صحيح أنَّهُ خِداع. قد أخدعَ الآخرين ولكنِّي لا أستطيع أن أغالِط نفسي أو الله .. لستُ عنى شيء مِنْ التقوى أو الجلال .. بل شقي سخيف مسكين يستحق الرثاء!'' ثمَّ يقلِب ثنايا ردائه الأسود، ويبتسم عندما تقع عيناه على ساقيه الهزيلتين تسبحان بين أطراف سرواله الواسع.

وأسرع يُغطِّي رجليهِ، وبدأ في تلاوة صلواته فرشم نفسه بعلامة الصَّليب وسجد إلى الأرض. ''هل يمكن أن يُصبِح فراشي هذا هو صندوق دفني؟'' وكأنما الشَّيطان يهمس في أُذنيهِ: ''الفِراش الموحش هو نفسه القبر .. مجهود باطل .. '' ورأى بعيني خياله كتفيَّ أرملة عاش معها ردحًا مِنَ الزَّمن .. وهزَّ رأسه، وطرد الفِكر الشِّرِّير سريعًا واستأنف القراءة. وبعد تلاوة قانون الإيمان، أخذ الإنجيل، وفتح الكتاب ووقعت عيناه على فقرة كان يُردِّدها وقد حَفَظْها عن ظهر قلب: يا سيِّد، أُؤمِن. أعِن عدم إيماني — واستراحت نفسه إذا وضع جانبًا كل الشكوك الَّتِي ساورته. وكما يستبدِل المرء شيئًا بآخر لا يُعادله أو يُساويه، هكذا أحلَّ إيمانه بعناية مكان الشكوك .. ولو أنَّ إيمانه هنا قام على أُسُس مهزوزة .. كل ما فعلهُ أنَّهُ خطا خطوة إلى الخلف خطاها في حرص حتَّى لا يهِز هذا الإيمان أو يقلبه .. لقد لجم ذهنه المشتَّت المضطرب، وأخذ يسترد هدوءهُ وسكونه النَّفسي وهو يُردِّد صلاته — الَّتِي كثيرًا ما كان يقولها في أيَام صباه – ''يارب اقبلني إليك، اقبلني إليك''. لم يقتصر شعوره على الهدوء فقط، بل غمره شعور بالفرح والنشوة. رشم نفسه بالصَّليب المقدَّس ثانية، ثمَّ رقد على فِراشه الموضوع على المقعد الضيِّق الطويل، وأسند رأسه على عباءته الصيفيَّة. واستسلِم للنوم سريعًا وفي نومه الخفيف، خُيِّل إليه أنَّهُ سمع دقات

أجراس إحدى العربات. وإذ كان بين اليقظة والمنام فقد ظن أنَّ ذلك قد يكون حُلمًا، و لكنَّهُ سمع قرعًا على الباب. هبَّ جالسًا وأصاخ بسمعه، فلعلَّ ما سمعهُ كان مِنْ خِداع الحواس، و لكنَّهُ سمع القرع ثانيةً .. إنَّ الَّذِي يقرع قريب مِنْ هنا. بل أنَّهُ يقرع على بابه هو .. ومع ذلك يوجد صوت امرأة.

"يا إلهي .. هل يمكن أن يكون هذا صحيحًا، كما قرأت في حياة القدِّيسين، أنَّ الشيطان قد يتخِذ شكل امرأة؟ .. نعم — إنَّهُ صوت امرأة .. صوت ناعم خفيض .. لطيف .. خزيًا لك"، ثمَّ بصق وهو يطرد الشَّيطان "لا .. لقد كان هذا مجرد تصورات وخيال"، وبذلك طمأن نفسه وهدَّأ مِنْ خواطره، ومضى إلى ركن المغارة، حيث منجليته الخاصة، وسقط على رُكبتيه وسجد بطريقته المألوفة الَّتِي تملأ نفسه بالعزاء والسَّلام. وتهدَّل شعره على جبينه ووجهه، وقد ألصق رأسه، الَّتِي تسلَّل الصلع إلى مُقدِّمتها — بالأرض الرطبة. وأخذ يُردِّد المزمُور الَّذِي علَّمهُ إيَّاه الأب بيمين العجوز حتَّى يطرُد التَّجارُب. ثمَّ انتصب بسهولة، بقامته النحيلة وجسده الهزيل على رجليهِ القويتين، وحاول أن يستمر في صلواته ولكن بدلاً مِنْ ذلك أرهف أُذنيه، أراد أن يسمع المزيد. كان الهدوء يُخيِّم على المكان. و مِنْ رُكن السقف أخذت قطرات الماء تسقُط بانتظام في البرميل الموضوع تحته. في الخارج كان الضباب، والرطوبة تُذيب الثلوج الَّتِي تراكمت على الأرض. كان سكونًا عميقًا. ولكن فجأة سمع شيئًا يحتك بالنافذة .. وصوتًا يتكلَّم .. نفس الصوت الناعم .. الرقيق .. اللطيف الذي لا يمكن أن يكون سوى صوت امرأة .. جذَّابة .. كانت تقول:

– اسمح لي بالدخول، مِنْ أجل المسيح.

شعَرَ أنّ دمه يتدفق بعنف إلى قلبه، حيث توقف وتجمّد. أخذ يلهث وينتقِط أنفاسه بصعوبة .. "ليقُم الله وليتبدّد جميع أعدائه، وليهرب مِنْ قُدَّام وجهه كل مُبغضي اسمه القُدُّوس .. ".

"ولكنِّي لستُ شيطانًا" .. كان مِنَ الواضح أنّ هناك ابتسامة على الشفتين اللتين خرجت منهما هذه الكلمات .. "لستُ شيطانة، بل مجرَّد إمرأة خاطئة ضلّت طريقها بالفعل، وليس تعبيرًا مجازيًا"، وضحكت .. "لقد جمدت أطرافي مِنَ البرد، وألتمِس المأوى والملجأ تحت سقفك".

واقترب بالأكثر إلى النافذة وألصق وجهه بزجاجها. ولكن مصباح الأيقونة الصغير كان ينعكِس على الزجاج ويلمع كله بالضوء. ورفع راحتيه إلى جانبي وجهه وحملق بينهما. ضباب وندى .. شجرة، وفي مُقابل وجهه تمامًا .. كانت هي بنفسها. فعلاً .. على بُعد بوصات قليلة كان وجه حُلو يُخالِط ملامحه علامات مِنْ الخوف الرقيق.

على رأسها قُلنسوة جميلة وينسدِل على كتفيها مِعطف طويل مِنْ الفراء الأبيض. ومالت المرأة تتطلّع باهتمام نحوه. وتقابلت أعينهُما وللوقت عرف كُلٌّ منهما الآخر، ليس لأنّهما كانا يعرفان بعضهما مِنْ قبل، فهما لم يتقابلا قط مِنْ قبل، ولكن النظرات الّتي تبادلاها — خصوصًا هو — جعلتهُما يشعُران أنّ كُلاً منهما يعرف الآخر تمامًا ويفهمه. وبعد هذه النظرة الطويلة، كان مِنْ المستحيل عليه أن يتصور أنّها شيطان وليست امرأة بسيطة رقيقة، حنوة ووديعة.

ورفع صوته قائلاً: مِنْ أنتِ؟ ولماذا أتيتِ؟

وأجابت في نبرات ماكرة ولكنّها آمِرة نافِذة: إفتح الباب مِنْ فضلك. لقد

تجمدت. لقد قُلت لك إنّي قد ضللت الطَّريق.

- ولكنِّي راهب — ناسك مُتوحد.

- أرجوك، اِفتح الباب .. أم لعلَّك تُريد منِّي أن أتجمد تحت نافذتك بينما تُردِّد أنت صلواتك.

- ولكنّك .. كيف ...

- إني لن آكُلك .. مِنْ أجل الله دعني أدخل! لقد تصلَّبت عروقي مِنْ البرد.

لقد كان يغمُرها إحساس داهم بالخوف، فقالت هذه الكلمات المرتعِشة بصوت يكاد يختلِط بالدموع.

وتراجع عن النافذة، وتطلَّع إلى أيقونة المخلِّص وعلى رأسه إكليل الشوك، وصرخ مِنْ قلبه: يارب أعنِّي .. يارب أسرِع وأعنِّي. ورشم نفسه بعلامة الصَّليب وهو يُطامن برأسه أمام الأيقونة. ومضى إلى الباب، وفتح الممر المظلِم الصغير ومد يده وتحسَّس مكان الخُطَّاف الَّذي يُوصِد الباب الخارجي، ورفع الخُطَّاف. وسمع وقع أقدام في الخارج؛ لقد تركت النَّافذة واتجهت صوب الباب. وصاحت فجأة آه، وأدرك في الحال أنَّها تعثَّرت في النُقرة الَّتِي حفرتها مياه المطر عند عتبة الباب. وارتعدت يداه ولم يستطِع أن يرفع الخُطَّاف عن الباب المغلق بإحكام.

- أوه ... ما هذا الَّذِي تفعله؟ دعني أدخُل! لقد ابتلَّت ملابسي تمامًا، وأطرافي تصلَّبت وتجمدت! أتُفكِّر في خلاص نفسك فقط، وتتركني هنا أموت مِنْ البرد ...

وهزَّ الباب نحوه في عُنف، ورفع الخُطَّاف. ودون أن يُفكِّر فيما يفعل، فتح الباب إلى أقصاه حتَّى أنَّهُ اصطدم بها.

– أوه ... آسف. قال هذا بنفس الطريقة الَّتِي كان يتعامل بها مع السيِّدات فيما مضى.

وابتسمت هي عندما سمعت كلمات اعتذاره، وتواردت الخواطِر سريعة تترى على ذِهنها "إنَّهُ ليس مُخيفًا كما كانوا يتصورون .. كل شيء على ما يُرام"، ثمَّ قالت بصوت خفيض وهي تخطو إلى الدَّاخل وتتجاوزه: "أنا هي الَّتِي يجب أن تعتذر، وتلتمِس غُفرانك ... ما كان يجب أن أُخاطر بنفسي، ولكن الظروف القاسية هي الَّتِي ... ".

– لو سمحت ... قال ذلك وهو ينتحي جانبًا حتَّى تستطيع أن تتجاوزه وتدخُل. ودخلت إلى خياشيمه رائحة عِطرها النَّفاذ، الَّتِي نسيها منذ زمان طويل. وعبرت مِنْ المدخل الضيِّق إلى داخل القلاية الَّتِي يُقيم فيها. وأغلق الباب الخارجي دون أن يُثبِّت الخُطَّاف وتَبِعَهَا إلى الداخل.

– يا ربِّي يسوع المسيح إبن الله ارحمني أنا الخاطئ! يارب ارحمني أنا الخاطئ! كان يُصلِّي بلا انقطاع .. ولم تكُن صلاته قلبيَّة فقط، بل كان يُحرك شفتيه دون إرادة أو شعور. وعاد يقول لها ثانيةً: "لو سمحتِ"، بينما وقفت هي في وسط الحجرة تتساقط منها قطرات المطر على الأرض، وهي تحدجه بنظراتها الفاحصة مِنْ قمة الرَّأس إلى أخمص القدمين ... وعيناها ضاحِكتان.. وأجابت ..

– سامحني لأنِّي أقلقت وِحدتك .. ولكنَّك تستطيع أن تتبيَّن حرج الموقف الَّذِي أُعانيه الآن. لقد ركبنا مِنْ المدينة، ثمَّ راهنت أصدقائي أنِّي أستطيع العودة

بمفردي مِنْ بوروبفكا إلى المدينة. ثمَّ ضللت الطَّريق .. ولو لم يُصادفني التوفيق في العثور على مغارتك ... وبدأت تسرِد سلسلة مِنَ الأكاذيب ولكنَّها لم تستطِع أن تُقاوِم وجهه الصارِم فتعثرت في حديثها ولم تستطِع أن تُواصِل أكاذيبها فركنت إلى الصمت. لم تكُن تتوقع أن تراه أو تجده على هذه الصورة المهيبة. لم يكُن على درجة كبيرة مِنَ الجمال كما كانت تتخيله، ومع ذلك فقد كان جميلاً بما فيه الكفاية في نظرها: لقد خطَّ المشيب شعر رأسه ولحيته، تتخلَّله تجاعيد خفيفة، أنفه مُنتظِم رقيق، عيناه عندما يُنظر إليها كأنَّهما قِطعتَا فحم مُتوهجتان ... كان له انطباع عميق فِي قلبها.

لقد رأى أنَّها تكذِب.

– نعم ... والآن .. ، نظر إليها ثمَّ غض مِنْ بصره وهو يُكمِل حديثه، سأدخُل أنا هناك، أمَّا هذا المكان فهو تحت أمرِك.

وأنزل المصباح، وأوقد منهُ قنديلاً صغيرًا، حيَّاها بانحناءة خفيفة ثمَّ دخل مغارته الدَّاخليَّة الصغيرة وراء الحاجز الفاصل، واستطاعت أن تُدرِك أنَّهُ ينقِل بعض الأشياء من مكان إلى آخر: "لعلَّهُ يُحصِّن نفسه خوفًا منِّي"، وابتسمت عندما ومضت هذه الفكرة في ذهنها وخلعت فراءها الأبيض وألقتهُ بعيدًا عنها، ثمَّ حاولت أن تخلع قُلنسوتها الَّتِي اشتبكت مع شعرها (والمشبك) الَّذِي ترتديه تحتها. لم يصِبها البلل عندما كانت واقفة عند النافذة، ولكنَّها قالت ذلك حتَّى تُرغِمه على إدخالها. ولكنَّها تعثَّرت حقًّا في الحُفرة عند الباب وابتلَّت قدمها اليُسرى حتَّى المِفصل كما امتلأ حذاؤها بالماء. واستوت جالسة على فِراشه الَّذِي لم يكُن سوى مِقعد مُستطيل غطَّاه بقطعتين مِنَ السجاد، ثمَّ أخذت تخلع الحذاء. وجاست ببصرها في أنحاء القلاية، وبدت في عينيها رائعة

ساحرة. القلاية الصغيرة حوالي سبعة أقدام عرضًا وتسعة طولاً، كانت نظيفة جدًا كالزُّجاج النَّقي. لم يكُن فيها مِنَ الأثاث سوى هذا المِقعد الَّذِي جلست عليه، فوقه رف الكُتُب، ومنجلية القراءة في الزاوية. وبالقرب مِنْ الباب كانت الفراجيَّة (الملابِس السوداء للكاهن) ومِعطف مِنْ جِلد الغنم مُعلَّقان في مسامير. فوق المنجليَّة كان المصباح الصغير أمام صورة السيِّد المسيح وعلى رأسه إكليل الشوك. كان جو الغُرفة مُشبَّعًا برائحة غريبة هي مزيج من رائحة العرق ورائحة التُّراب. لقد استهواها كل شيء ... حتَّى هذه الرائحة. أحسَّت بالألم في قدميها المبلَّلين، خصوصًا إحداهما، وبدأت تخلع حذاءها وجُوربها بسرعة دون أن تكُف عن الابتسام. لم يكُن شعورها بالسرور لأنَّها أشاعت القلق والاضطراب في نفس ذلك الرَّجُل الرائع الغريب، بشخصيته القوية وجاذبيته الساحرة، ثمَّ قالت بينها وبين نفسها: إنَّهُ لم يتجاوب معي، ولكن .. ليس هذا مُهمًا.

- أبونا سرجيُوس .. أبونا سرجيُوس!. أو كيف أدعوك؟

وأجابها صوت هادئ: ماذا تُريدين؟

- أرجو أن تسامحني حقًا، لأنِّي أفسدت وحدتك، ولكنِّي بالحقيقة لم يكُن في مقدوري أن أفعل غير ذلك ... لو لم أفعل ... لكان مِنَ الضروري أن أُصاب بمرض خطير .. ولا أعرف إن كنت الآن فعلاً قد أُصِبت ... لقد تبلَّلتُ تمامًا، وقدميَّ كأنَّهما قِطعتان مِنَ الثلج.

وعاد الصوت الهادئ يُجيبها مِنَ الداخل: آسف جدًا .. لا يمكن أن أُقدِّم أيَّة معونة لكِ.

- لو كان في استطاعتي، لِمَا أزعجتك يا أبي. سأظل هنا حتَّى مطلع النهار فقط.

ولم يحر جوابًا، ألاَّ أنَّها سمعتهُ يُتمتِم شيئًا ما، لعلَّها صلواته.

"حقًا .. هذا رجُل" وعادت إلى خواطرها وهي تخلع حذاءها المبتل بصعوبة. لقد شدَّت حذاءها بقُوَّة ولكنَّهُ لم ينخلِع .. شيء سخيف ولكنَّهُ مُضحِك .. وبدأت تضحك مِنْ نفسها بصوت غير مسموع. ولكنَّهُ إذا سمع نغمات صوتها الضاحِك فلابد أن يتأثَّر وينفعِل، كما تُريده هي. وضحكت بصوت مُرتفِع .. ضِحكتها المرِحة الطبيعيَّة الرقيقة ... ولم يكُن هناك مِنْ شك أنَّهُ سمع و أنَّهُ انفعل.

"حقًا يمكن أن أُحب رجُلاً كهذا – هذه العيون وهذا الوجه النبيل البسيط، وفي نفس الوقت رجُل عاطفي حسَّاس رغم كلّ الصَّلوات الَّتي يلهج بها ... " وتدافعت الخواطِر، "لا يمكنك أن تخدع امرأة في هذه الأمور .. لم يكد يطِل مِنَ النافذة ويراني حتَّى عرفني وأدرك ما في نفسي .. كان هناك بريق في عينيهِ لم ينطفِئ .. لا يزال فيهُما. لقد بدأ يحنو عليَّ وتتحرَّك فيه عاطفة الحُب .. إنَّهُ يُريدني .. نعم .. يُريدني".

وكانت قد نجحت في خلع غطاء حذائها ثمَّ الحذاء نفسه وأخيرًا خلعت جوربها. ولكي تخلع هذا الجورب الطويل المثبَّت بحزام مِنَ المطاط (الأستِك) كان مِنَ الضروري أن ترفع ذيل ردائِها. وداهمها شعور بالحيرة، ونظرت في كلّ اتجاه ثمَّ قالت:

- لا تدخُل!

وعاد الصمت يُخيِّم على المكان لأنَّ الجانب الآخر مِنَ الجدار لم ينبس ببنت شفة.

واستمر صوت التمتمة والحركة.

"لا شك أنَّهُ ساجد على الأرض، ولكنَّهُ لا يُريد أن تنحني نفسه وذاته الباطنيَّة ... لعلَّهُ يُفكِّر فيَّ كما يشغل هو أفكاري .. لعلَّهُ يتأمَّل في قدميَّ بنفس الشعور الَّذِي يملأ نفسي" وخلعت جوربها المبلَّل، ورفعت قدميها تحتها على المِقعد، وضغطت عليهما حتَّى ينالا شيئًا مِنَ الدِفء وانقضت فترة وهي جالسة على هذه الصورة، وقد لفَّت رُكبتيها بذراعيها، وسرحت ببصرها في تفكير عميق: ولكن هذه صحراء مُقفرة، برية قاحلة يسودها الصمت والسكون.

... لن يعرف أحد ...

ونهضت مِنْ مكانها، وأخذت جوربها إلى الموقد وعلَّقتهُ فوق بلاط التحميص. كانت البلاطة غريبة، وأخذت تقلبها في يديها .. ثم خطَّت بقدميها العاريتين في رِفق وعادت إلى مِقعدها واستردت مجلِسها كما كانت بعد أن وضعت قدميها على المِقعد.

كان الصمت يُخيِّم على الجانب الآخر تمامًا. ونظرت إلى ساعتها الصغيرة المعلَّقة في رقبتها ووجدت أنَّ الساعة قد بلغت الثَّانية صباحًا "جماعتنا سوف تعود حوالي الثَّالِثة!"، إذًا فلم يبقَ أمامها سوى ساعة واحدة "حسنًا، هل يجب عليَّ أن أظل جالسة على هذه الصورة وحيدة تمامًا؟ .. كلام فارغ .. لا أُحِب أن أجلِس هكذا ... لابد أن أُناديه حالاً".

– أبونا سرجيُوس .. أبونا سرجيُوس .. سيرجي ديمتريش! أيُّها الأمير كازاتسكي!

ولم يصِل إلى أُذنيها أي صوت عبر الحاجز.

- إسمع! .. إنّها قسوة .. ما كان يمكن أن أدعوك لو لم تكُن هناك حاجة ماسّة إلى ذلك. إنّي مريضة .. لا أعرِف ماذا أصابني ... ثم صاحت في صوت يُمزِق الألم نبراته .. آه .. آه .. وأخذت تئِن وتتوجع، وترتمي على المِقعد.

والشيء الغريب حقًا أنّها أحسّت بالفعل أنّ قُواها تنهار حتّى كادت تروح في غيبوبة، كلّ أطرافها أخذت تصطك بفِعل دبيب الرطوبة والبرودة الّتي سرت في أوصالها، وأخذ جسدها كله يرتعِش بالحُمّى.

- إسمع .. الحقني وأعنّي! لا أعرِف ماذا أصابني .. آه .. آه. طُوال هذا الوقت، كان سرجيُوس في مكانه في الجانب الآخر مِنْ الحاجِز يُصلّي. وبعد أن انتهى من صلواته الليليّة، وقف مكانه بلا حِراك، وهو يُردِّد عقليًا بكُلّ روحه ووجدانه: ياربِّي يسوع المسيح، إبن الله ارحمني!

ولكنّهُ سمع كُلّ شيء .. سمع حفيف ثوبها الحريري عندما خلعته ، سمع وقع قدميها العاريتين على الأرض ... وسمع يديها وهي تُدلِّك بهما قدميها ... هكذا سمع سرجيُوس، وشَعَر بالخطر والهلاك اللّذين يُحلِّقان فوقه، ويَحْدِقان بهِ .. وإنّهُ لا يمكن أن ينجو منهما إلاّ بنعمة الرَّب.

.. لقد أحسّ إحساسًا عميقًا بضعفه البشري ... وخاف لئلاّ ينهار ويَسْقُط في أي لحظة. ولهذا لم يتوقف عن الصّلاة .. إختبر ذلك الشُّعُور الّذِي تتحدَّث عنهُ الأساطير عن ذلك البطل الّذِي كان عليهِ أن يمضي قُدُمًا .. لا يتوقف .. ولا يلتفِت إلى الوراء .. هكذا سمع سرجيُوس، وشَعَرَ بالخطر والهلاك اللّذِين يُحلِّقان فوقهُ، ويحدِقان بِهِ .. وأنّهُ لا يمكن أن ينجو منهما إلاّ بالإحتراس

والحذر حتَّى لا تتجه عيناه إليها لحظة. ولكنَّهُ بُوغِتْ بتلك الرَّغبة في النَّظر، تأخُذ عليه بمجامِع قلبه .. وفي هذه اللحظة سمعها تقول ..

– ألاَّ يوجد عِندك إنسانيَّة؟! .. ربما أموت ..

صحيح .. سأذهب إليها ولكنِّي سأذهب إليها كالقدِّيس الَّذِي وضع إحدى يديهِ على الزَّانية ووضع الأُخرى في مُوقِدْ الفحم وسط الجمر الملتهِب ... ولكن هنا لا يوجد مُوقِدْ للفحم، وجَالَ ببصرِهِ في أنحاء مغارتِهِ الضَّيِّقة .. المِصباح أو القنديل! ووضع أصبعه فوق لهب القنديل، وزوى ما بين حاجبيهِ إستعداداً للشُّعُور بالألم. وبدا لهُ أنَّ الوقت يمضي طويلاً دون أن يشعُر بأي ألم، ولكنَّهُ على حين غُرَّة – ولم يكُنْ قد شَعَرَ بالألم قد بلغ غايتهُ – اِنكمش كل كيانه، وجَذَبَ يدهُ بعيدًا ولوَّح في الهواء .. "لا .. لا يُمكنني أن أحتمِل ذلك".

– لأجل خاطِر ربنا، أسرِع إليَّ وأعنِّي! إنَّني أموت .. آه.

– وماذا بعد؟ – هل أهلك؟ لا .. لن يكون.

وأجابها: سآتي إليك حالاً، وفَتَحَ الباب. ودون أن يتجه إليها بعينيهِ، اِجتازَ القلاية إلى الممر الضَّيِّق المظلِم حيث اعتاد أن يقطع الخشب .. وهناك تحسَّس مكان الكُتلة الَّتِي يستخدمها لهذا الغرض، والفأس الَّذِي كان مُسندًا إلى الجدار.

وعاد يقول: حالاً .. ثمَّ أخذ الفأس الصَّغير بيدِهِ اليُمنى، ووضع سبَّابة يدهُ اليُسرى على الكُتلة، ورفع الفأس وضرب بِهِ المِفصل الثَّاني مِنْ أصبعِهِ. وانفصل الأصبع بسهولة أكثر مِنْ عصا في مثل سمكه، وتطاير على الكُتلة وارتطم بحافتها ثمَّ سقط على الأرض.

لقد سمع صوت سقوطه على الأرض، قبل أن يشعُر بالألم الحاد، وقبل أن يوجد أي وقت للدَّهشة أو العجب، أحسَّ بذلك الألم الملتهب، ودمهُ الدَّافِئ ينساب مِنْ أصبعِهِ. وأسرع يلف المِفصل الباقي مِنْ أصبعِهِ في طرف ثوبه ضاغِطًا إيَّاه في جنبه ثمَّ عاد إلى الحُجرة ووقف في مُواجهة المرأة، وخَفَضَ عينيهِ وسألها في صوتٍ خافِت: ماذا تُريدين؟

ورفعت عينيها إلى وجههِ الشَّاحِب، ولاحظت خده الأيسر يرتعِش، وغمرها شُعُور بالخزي والخجل. وقفزت على قدميها واقفة، وأمسكت فِراءِها وأحاطت بِهِ كتفيها وغطَّت نفسها بِهِ.

- كنت أحس آلامًا شديدة .. أصابني برد شديد .. أنا .. أيُّها الأب سرجيُوس ... إنِّي ..

ولمعت عيناهُ بوميض هادِئ مِنَ الفرح، وسمح لهما أن يستقِرا عليها ثمَّ قال لها:

- يا أُختي العزيزة .. لماذا تعملين على هلاك روحك الخالِدة؟ العثرات لابد أن تأتي في العالم، ولكن ويل لِمَنْ تأتي بسببِهِ العثرة .. أُطلُبي إلى الله عسى أن يغفِر لكلينا ..

أرهفتُ السَّمع لكلماته، ونظرتُ في وجهِهِ .. ولكنَّها سمعت صوت قطرات تتساقط واتجهت ببصرها صوب هذا الصوت ورأت الدَّم يتساقط مِنْ يدِهِ ويجري على رِدائِهِ الأسود.

- ماذا فعلت بيدك؟

- وتذكَّرت ذلك الصوت الَّذي سمعتهُ منذُ قليل، وأمسكت بالمِصباح وهرولت نحو الممر الضَّيِّق ووجدت على الأرض أصبعهُ المقطُوع ومُلطَّخًا بالدَّم.

عادت وقد ازداد وجهها شُحُوبًا عمّا كان عليه وجههُ هو، وأرادت أن تفتح فمها وتتكلّم. ولكنّهُ مضى في صمت إلى حُجرتِهِ الدّاخليّة وأغلق الباب.

- سامحني .. ماذا أفعل لكي أُكفّر عن خطيتي؟
- اِمضِ إلى حال سبيلِك.
- اِسمح لي أن أُضمّد يدك.
- دعيني وشأني .. أخرُجي مِنْ هنا ..

وارتدت ملابِسها على عَجَلْ في صمتٍ، وجلست في كامِل ملابِسها تنتظِر.. وسمعت أجراس العربة تدُق في الخارِج ..

- يا أبي سرجيُوس .. اِغفِر لي وسامحني ..
- اِذهبي .. الله يسامِحك.
- يا أبي سرجيُوس .. سأُغيِّر حياتي .. لا تترُكني ..
- مع السّلامة!
- سامحني يا أبي – وباركني ..!
- باسم الآب والاِبن والرُّوح القُدُس ... وسمعت صوتهُ مِنْ وراء الباب يقول: اِذهبي .. اِمضِ إلى حال سبيلِك!

وانفجرت باكية وهي تُغادِر القلاية، وأقبل نحوها المحامي ويقول: أرى أنّي قد خسرت الرهان .. لم يكُنْ لي حظ في ذلك .. تفضّلي أين تجلسين؟ في أي مكان .. ثمّ اتخذت مكانها في العربة، ولم تنطِق كلِمة واحدة طُوال الطّريق في عودتِهِم.

وبعد سنة مِنْ هذا الحادِث، دخلت أحد أديُرة النِّساء[٢] كمُبتدِئة تحت

---

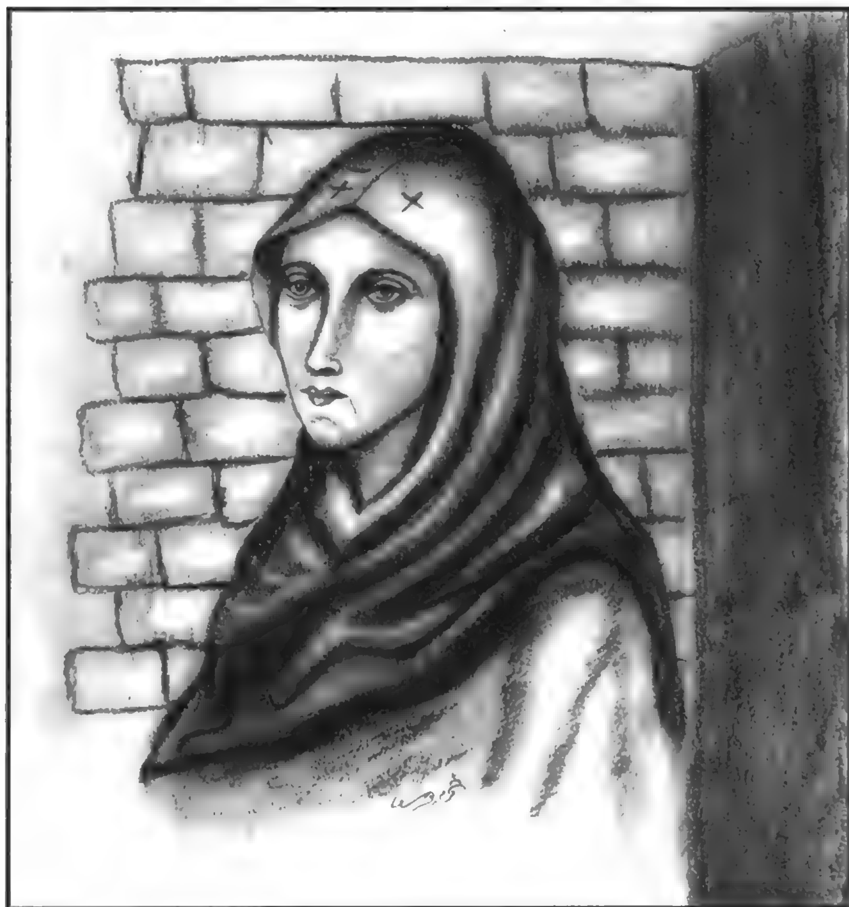
[٢] كان في نواحي مِصْر، مُتوحِّدٌ مشهُورٌ يسكُنُ في قلايةٍ مُنعزلةٍ في الصَّحراء. ولكن، بتحريضٍ مِنَ الشَّيطان، سمعت عنهُ إمرأة قليلةُ الحِشمة، فقالت لبعض الشُّبَّانِ: "ماذا تُعطُوني إن رميتُ مُتوحِّدكُمْ في الخطيئة؟"، فوافقوا على إعطائِها شيئًا. ذهبتْ في المساء، ووصلت إلى قلاَّيتِهِ مُدَّعيةً أنَّها أضلَّت الطَّريق. وقفتْ بالبابِ، وقرعت. خرجَ الشَّيخُ، فاضطربَ لدى رُؤيتِها، وسألها: "كيف أتيتِ إلى هنا؟"، أجابت باكيةً: "وصلتُ إلى هنا لأنَّني أضللتُ طريقي. ولكن، أشفِقْ عليَّ، ولا تسمح أن تدعني خارِجًا لتلتهِمني الوحُوش". أشفقَ عليها الشَّيخ، وأدخلها إلى القَّلاية.

خلال اللَّيلِ، بدأ الشَّيطانُ يُبذُرُ في رأسِهِ أفكار زنى. أمَّا هو، ففهَمَ حرب العدو، وقال لذاتِهِ: "حيلُ العدوِّ ظُلمةٌ، بينما إبنُ اللهِ نور". فَنَهَضَ وأشعلَ القنديل. وقال لذاتِهِ فيما شُعلةُ الرَّغبةِ تشتدُّ في داخلِهِ وتُحرِقُهُ بشكلٍ رهيبٍ: "مُرتكِبو هذه الأفعال يذهبُونَ إلى الجحيم. إذًا، اِختبِرْ مِنْ هنا إن كنتَ تستطيعُ احتمال النَّار الأبديَّة". حينئذٍ، وَضَعَ إصبعهُ في شُعلة القنديل، ولم يسحبهُ إلى أن احترق كُلِّيًا. مع ذلك، لم يشعُرْ بهذا الحرقِ، لأنَّ احتراقَهُ الجسديَّ كان قد تجاوز الحدِّ. عندما احترقَ الإصبع الأوَّلُ، وضَعَ الثَّاني، ثمَّ الثَّالِث، بحيثُ أنَّهُ لم يأتِ الصَّباحُ إلاَّ وكان قد أحرقَ أصابعَ يديهِ كلَّها.

خلال ذلك، عندما رأت تلكَ المرأةُ البائِسةُ ما يفعلُ الشَّيخ، وكيف يُحرِقُ أصابِعه، تجمَّدت مِنَ الخوفِ، وانتهى بها الأمرُ أن أسلمت روحها. عند الصَّباح، أتى الشُّبَّانُ الَّذِينَ عقدوا الاتفاقيَّةَ مع المرأةِ إلى المتوحِّد، وسألوه: "هل أتتْ إلى هنا امرأةٌ مساءَ أمس؟"، أجابهُم: "نعم، إنَّها نائِمةٌ في الدَّاخِل". دخلوا، ووجدوها ميِّتةً، وقالوا للشَّيخ: "يا أبتِ، لقد ماتتْ!". حينئذٍ، كَشَفَ الشَّيخُ عن يديهِ، وأراهُمْ إيَّاها قائِلاً: "إليكم ما فعلتْ بي اِبنةُ الشَّيطان. لقد أتلفتْ أصابعي". وبعد إخبارِهِمْ

لتّدريب، وعاشت حياة صارِمة تحت إرشاد النّاسك الأب أرسانيُوس، الّذِي كان يُواظب على الكِتابة إليها مِنْ حينٍ إلى آخر.

بالحادثِ، أضافَ: "يقولُ الكِتابُ: لا تُقابِل الشَّرَّ بالشَّرِّ (أُنظُر ١تس٥: ١٥؛ ١بط٣: ٩). فلنُصلِّ لتعود إلى الحياة". وبعد أن صلَّى أقامها وأرسلها بسلام. بعد رحيلِها، عاشت في العِفَّةِ بقيّة أيّام حياتِها. (عن كتاب: كيف نحيا مع الله، مُختارات إفريتينُوس، الجزء الثّاني. دير القدّيس سمعان العمُودي، تعريب الأُم بورفيريَّة جاورجيُوس، طباعة منشُورات التُّراث الآبائي، طبعة أُولى ٢٠١٣م، النوريّة- حامات (ص٢٤٥، ٢٤٦).



- ٤ -

وعاشَ الأب سرجيُوس مُتوحِّدًا سبع سنينٍ أُخرى. في بِدايِة الأمر كان يقبل الكثير ممَّا يجود بِهِ النَّاس عليه: شاي، سُكر، خُبز أبيض، لبن، قُماش وخشب الحريق، ولكنَّهُ مع مرُور الزَّمن أخذ يلتزِم بأُسلوب أكثر زُهدًا وتقشُفًا. كان يرفض ما يزيد على حاجتِهِ، وفي النِّهاية كان لا يقبل سوى الخُبز المخلُوط مرَّة كلَّ أسبوع، وكلُّ ما عدا ذلك كان يُوزِّعهُ على الفُقراء الَّذِين يطرِقُون بابهُ. كان يقضي كلُّ وقتِهِ في قلاَّيتِهِ إمَّا في الصَّلاة أو في الحديث مع زائريه الَّذِين أخذ عددهم يتزايد مع مرور الوقتْ. كان لا يُبارِح قلاَّيتِهِ إلاَّ ثلاث مرَّات في السَّنة لحضُور القُدَّاس في الكنيسة، أو إذا دعت الضرورة لإحضار الماء أوِ الخشب.

كان لقاؤه مع داكوفكينا بعد السَّنة الخامِسة مِنْ حياتِهِ في الوِحدة .. وسُرعان ما انتشرت أخبار هذه الحادِثة سواء زيارتها اللَّيليَّة أو التَّغيُر الَّذِي طرأ عىى حياتها أو دخُولها في سِلك الرَّهبنة. ومِنْ ذلك الوقت ذاعت شُهرة الأب سرجيُوس، وبالتَّالي تزايد عدد الزَّائرين .. وبدأت البرِّيَّة تمتلِئ بالرُّهبان الَّذين حطُّوا رِحالهِمْ وأقاموا على مقرُبة مِنْ مغارتِهِ، ثمَّ أُقيمت كنيسة ودار للضيافة. ومع ذيُوع صيته وشُهرته، كانت فضائِلهُ وصِفاته تُمتدح وكالمعتاد كان لابد مِنْ المبالغة في مواهِبه. وبدأ النَّاس يتقاطرُون عليه مِنْ كلِّ حدب وصوب، مِنْ مسافاتٍ بعيدة، وبدأوا يُحضِرُونَ معهم المرضى لأنَّهُ كان يشفيهُمْ.

وقد حدثت أوَّل مُعجزة للشِّفاء في السَّنة الثَّامنة مِنْ حياتِهِ كمُتوحِد. شفى

صـبيًا في الرَّابِعـة عشـر مِـنْ عُمـرِهِ أحضـرتهُ أُمُّـهِ إلى الأب سـرجيُوس وطلبت إليه بإلحاح وإصرار أن يضع يدهُ على رأس الصبي. لم يَدِرْ بخُلد الأب سرجيُوس أنَّهُ يستطيع أن يشفي المرضى، وكان يعتقِد أنَّ مجرد وُرُودْ هذه الفِكرة على ذِهنِهِ إنما خطيَّة عظيمة .. غُرُور وكِبرياء ولكن أُم الصبي توسَّلت إليه بإلحاح، ووقعت عند قدميهِ صارخةً: أنت الَّذِي تشفي كثيرين، لماذا ترفُض أن ترحم اِبني؟ وتوسَّلت إليه باسم المسيح. وأكَّد لها الأب سرجيُوس أنَّ الله وحدهُ هو القادِر أن يشفي المرضى، فأجابتهُ أنَّ كل ما تطلُبهُ أن يضع يديهِ على رأس الصبي ويُصلِّي لأجله. ورفض الأب سرجيُوس وعاد إلى قلاَّيتِهِ. ولكنَّهُ في اليوم التالي — وكان ذلك في فصل الخريف الَّذِي تشتدُّ فيه برودة اللَّيل، عندما خرج لإحضار الماء — وجد نفس الأُم مع اِبنها .. صبيًا شاحِبًا في الرَّابعة عشر ... وطلبت منهُ مرَّة أُخرى بلجاجة ..

وتذكَّر مَثَل قاضي الظُّلم، ومع أنَّهُ كان واثِقًا مِنْ أنَّهُ على حق في الرفض، إلاَّ أنَّهُ بدأ الآن يتردَّد. وبعد التَّردُّد بدأ يُصلِّي .. وظلَّ يُصلِّي حتَّى استقرت نفسه على قرار. وكان قراره أن لابد مِنَ الإستجابة لتوسُلات المرأة، وليكُنْ لها حسب إيمانها. فقد ينجو اِبنها بفضل هذا الإيمان. أمَّا فيما يختص بِهِ، فلا يعدو أن يكون أداة بسيطة في يديَّ الله.

وعندما خرج إلى المرأة، فَعَلَ كما طلبت ووضَعَ يدهُ على رأس الصبي وصلَّى. ومضت المرأة مع اِبنِها. وبعد مُضِي شهر شُفِيَ الصبي وطارت شُهرة الأب سرجيُوس في كلِّ مكانٍ وعُرِفْ عنهُ أنَّهُ وُهِبَ قُوَّة الشِّفاء. وبعد ذلك لم يكُـنْ يمضـي أسبوع دون أن يـأتي إليـه المرضـى، راكبـين أو علـى الأقـدام. وما دام قد قَبِلَ طِلبة إنسان فلابد أن يستجيب لتوسُلات الجميع فيضع يديهِ

على الكثيرين ويُصلِّي. وكثيرون نالوا البرء مِنْ أسقامِهِمْ، ومع كلِّ مُعجِزةٍ كانت شُهرة الأب سرجيُوس تنمو وتزداد.

وإلى هنا يكون الأب سرجيُوس قد أمضى سبع سنوات في الدير، وثلاث عشرة سنة في حياة التَّوحُدْ في مغارتِهِ. وقد بدت عليه مظاهِر الكِبَرْ، لحيتهُ مُسترسِلة وخطَّها المشيب ولكن شعرهُ رغم أنَّهُ نحيل إلاَّ أنَّهُ كان يحتفِظ بلونِهِ الأسود وتجاعيده.

- ٥ -

مضت عدَّة أسابيع على الأب سرجيُوس، تُراوِدهُ فكرة مُعيَّنة مُلِحة، يقلِبها على كل وجه: "هل كان جديرًا بِهِ أن يقبل المركز الَّذِي أُتيحَ لهُ بواسطة الأرشمندريت أو رئيسُ الدير"، هذه المكانة بدأت منذُ شِفاء الصبي. مِنْ ذلك الحين، كل شهر بل كل أسبوع بل كل يوم يمُر كان يحِس أنَّ حياته الدَّاخليَّة تنساب منهُ وتتبدَّد، وبدأت تحِل محلَّها حياة خارجيَّة ... كان كما لو كان قد انقلبَ ظهرًا لبطن.

لقد أدرك سرجيُوس أنَّهُ يُستخدم كوسيلة لاجتذاب الزَّائرين، والتبرُعات للدير. ولذلك فقد رتَّبت سُلُطات الدير جميع الأُمور بحيث تُحسِن استغلاله بقدر الإمكان، فمثلاً رأوا أنَّهُ مِنْ غير اللائِق أن يقوم بأي عمل يدوي، فقرَّروا أن تُقدَّم لهُ كل احتياجاته ... كل ما طلبوه منهُ ألاَّ يرفُض تقديم بركاته لِمَنْ يلتمِسها. ورغبة في توفير الرَّاحة لهُ، حدَّدوا الأيَّام الَّتِي يُسمح فيها باستقبال الزَّائرين، جهَّزوا حُجرة استقبال للنَّاس وأحاطوا المكان الَّذِي يجلِس فيه بإفريز مُعيَّن مِنَ السَّلاسِل حتَّى لا يزحِمهُ الزَّائِرُون خُصُوصًا السَّيِّدات .. كما يُمكنهُ بسهولة أن يُبارِك كل مَنْ يأتي إليهِ.

قالوا لهُ: أنَّ النَّاس في حاجة إليه، ولا يُمكنهُ أن يرفُض رغبتهُمْ في رُؤيتِهِ، تنفيذًا لوصيَّة المسيح عن المحبَّة .. فإذا تحاشى لِقاء النَّاس أو رُؤيتِهِمْ، فهذا هو عين القسوة الَّتِي تتنافى مع محبَّة المسيح. ولم يجد بدا مِنْ الموافقة. وكُلَّما استسلم لحياة الخدمة والعمل وسط النَّاس، كُلَّما شَعَرَ أنَّ إنسانهُ الباطِن قد انتقل إلى

الخارج، وأنَّ ينبوع الماء الحي في أعماقه قد بدأ يجف ... أحسَّ أنَّ كل ما يفعلهُ إنما يصنعهُ بالأكثر مِنْ أجل النَّاس لا مِنْ أجل الله.

عندما كان يعِظ النَّاس، أو يُبارِكهُمْ فقط، أو يُصلِّي مِنْ أجل المرضى، أو يُقدِّم مشورته مِنْ أجل حياتِهِمْ أو عندما كان يسمع عِبارات الشُّكر والمديح مِنْ أفواه الإخوة الَّذين كان يُقدِّم معونتهُ إليهم سواء بالتَّعاليم أو الصدقات أو الشِّفاء — كما كانوا يُؤكِّدون لهُ — في كل حالة مِنْ هذه الحالات لم يستطِع أن يُقاوِم شُعُوره الدَّفين بالرِضى والسُّرُور، ولم يستطِع أن يُواجِه النتائِج الَّتي حقَّقها نشاطه، أو التأثير الَّذي يبدو واضحًا مِنْ مُعاملاته، لم يستطِع أن يُقابِل هذا كله بدون اكتراث أو يتجرَّد عن الانفعالات الَّتي يُثيرها مثل هذا النفُوذ. بدا لهُ أنَّهُ نور يُضِئ في هذا العالم المظلِم ... وكُلَّما نما هذا الشُّعُور، كُلَّما أحسَّ أنَّ نور الحق الإلهي في داخله كان يخبو ويضعُف ويموت.

"هذا الَّذي أعمله، إلى أي مدى أعمله مِنْ أجل الله، وإلى أي مدى أعمله مِنْ أجل الإنسان؟"، كان هذا هو السؤال الَّذي يُقلِق ضميره ويلِح عليه فيُعذبه. وكان عجزه عن الوصُول إلى الجواب الشَّافي أيسر مِنْ عجزه عن مُواجهة هذه الإجابة.

كان يشعُر في أعماق نفسه، أنَّ الشَّيطان أتاحَ لهُ هذا النشاط بين النَّاس لكي يحِل محل نشاطه الرُّوحي السَّابِق أمام الله. أدرك ذلك، ورأى كيف كان يشُق على نفسه أن يُنتزع مِنْ وحدته وسكونه ... أمَّا الآن فقد صارت هذه الوِحدة أمرًا صعب المنال. كان الزَّائِرُون يضغطُون عليه ويُرهِقُونهُ، ولكنَّهُ في قرارة نفسه، كان يغتبِط بوجُودِهِمْ ويسُرَّهُ المديح الَّذي يكيلُونه لهُ.

في إحدى المرَّات قرَّر أن يهرب بعيدًا ويختفي .. وأعدَّ كل شيء لتحقيق هذه الخِطَّة .. أعدَّ لنفسه قميصًا يُشبِه قُمصان الفلاَّحين كما أعدَّ باقي الملابِس الَّتي سيتخفَّى فيها، السِروال والمِعطف والطاقية. ولكي يُطفِئ فُضُول السَّائلين ادّعى أنَّهُ يُريد هذه الأشياء حتَّى يُقدِّمها للمُحتاجين إليها. واحتفظ بهذه الملابِس في قلاَّيتِهِ، ورتَّبْ كلَّ شيء: كيف يلبِسها، يقُص شعره ثمَّ يهرب بعيدًا ..

قرَّر أن يقطع الثَّلاثُمائة فرسخ (ميل رُوسي = ٣٥٠٠ قدم) الأُولى بالقِطار، بعدها يترك القِطار ليمشي مِنْ قرية إلى أُخرى. وقد استفسر مِنْ أحد الشُّيُوخ –كان جُنديًا فيما قبل– كيف يُمارِس سِياحتهُ، وأي النَّاس يسخو في العطاء، والمأوى الَّذِي يُقدِّمونهُ للسُّياح الأتقياء. وشرح لهُ الشَّيخ ووصف لهُ الأماكِن الَّتِي يتميَّز سُكَّانها بالسَّخاء في العطاء، وأين يُرحِّبُون بالغُرباء ويفتحُون أبوابهُمْ لضيافتهُمْ أثناء اللَّيل، ووضَعَ الأب سرجيُوس في نفسه أن ينتفِع بهذه المعنومات ... وفي إحدى اللَّيالي، اِستبدَّت بِهِ الرَّغبة في الهرب فارتدى الملابِس الَّتِي أعدَّها، ولكنَّه تردَّد وهو يتساءل أيُّهُما أفضل: أن يبقى أم يمضي؟ ولم يستطِع أن يجزِم أو يحسِم الأمر .. في البِداية كان يُساوِرهُ الشك والقلق، ولكنَّهُ بعد ذلك تجاوز مُحاسبة الضمير، واستسلم إلى ما اعتاده مِنْ مُمارسات يوميَّة، أخلد إلى شيطان التَّراخي والكسل .. ولكنَّهُ كان يتذكَّر ثورة الضمير والإحساس بالجفاف كُلَّما وقعت عيناهُ على قميص الفلاَّح.

في كل يوم كان يتزايد عدد النَّاس الَّذِين يتجمهرُون حوله، حتَّى لم يكد يجد الوقت الكافي لممارسة الصَّلاة وتجديد قُواه الرُّوحيَّة. في بعض الأحيان تُومض في ذِهنه الخواطِر .. يرى نفسه كأنَّهُ مكان جفَّ ينبوعه "كان هناك

ينبُوع صغير مِنْ الماء الحي .. وكان هذا الينبُوع ينساب فيَّ وعن طريقي .. تلك كانت هي الحياة الحقيقيَّة ... ذلك الزَّمان الَّذِي جرَّبتني فيه المرأة بإغرائِها" .. كان يتذكَّر دائمًا تلك اللَّيلة، ويتذكَّر تلك المرأة الَّتِي صارت الآن الأُم أحنس .. عندما يتذكَّر هذه الخواطِر كان يحِس بنشوة السُّرُور .. لقد ذاقت ذلك الماء النقي الحي، ولكن .. منذُ ذلك الحين لم يتوفر الوقت لكي تجتمِع المياه أمام العِطاش الَّذِين دأبوا على التَّجمُع معًا يُزاحِم بعضهُمْ بعضًا .. لقد داسوا بأقدامِهِمْ على كل شيء حتَّى لم يعُد هناك شيء سوى الطِّين والوحل.

هكذا كان يُفكِّر في لحظات الإشراق والشَّفافيَّة، ولكن إحساسه العادي كان شعُورًا بالتعب والملل، وكان يحنو على نفسه ويعطِف على ذاته بسبب هذا الإرهاق.

وجاء الرَّبيع وفي إحدى ليالي عيد البنتيكُستي (حُلُول الرُّوح القُدُس) كان يُؤدِّي صلاة عشيَّة في كنيسة المتوحِّدِين حيث اجتمع المصلُّون على قدر الكنيسة الصَّغيرة حوالي عشرين شخصًا، وكان جُلُّهُمْ مِنْ الأثرياء والتُّجار. وكان الأب سرجيُوس يستقبِل أي شخص بعد ذلك، إلاَّ أنَّ أحد الآباء الرُّهبان انتُدِبْ مِنْ الدير وكان عليه أن يُنظِّم الرَّاغبين في الدُّخُول إليه فيختار مَنْ يسمح لهم بالدُّخُول. وفي خارِج الكنيسة تجمَّع ما يقرُب مِنْ الثَّمانين شخصًا – سُيَّاح وحُجَّاج وفلاَّحين وفلاَّحات – في انتظار خرُوج الأب سرجيُوس لكي يُبارِكهُمْ. في هذه الأثناء كان يرفع الصَّلوات الطقسيَّة حتَّى حان الموعِد الَّذِي يخرُج فيه إلى قبر سَلَفُه فإذا بِهِ يترنح ويكاد يسقُط لولا أن أمسك بِهِ أحد التُّجار كان واقِفًا خلفهُ، والرَّاهِب الَّذِي كان يقوم بعمل الشَّماس.

وتصايحت النِّساء: ما الخبر، وماذا حدث لأبينا سرجيُوس؟ الرَّجُل المحبُوب..

يالله .. إنَّهُ شاحِب جدًا كالمِلاءة البيضاء ..

ولكن الأب سرجيُوس اِستعاد توازُنهُ بسرعة، ومع أنَّهُ كان شاحِب الوجه إلاَّ أنَّهُ أزاح التَّاجِر والرَّاهِب جانبًا، وواصل ترتيل الخدمة.

تقدَّم إليه الأبِ سيرافيم والشَّماس والأغنسطُس والسيِّدة صوفيا إيڤانُوڤا الَّتِي كانت تُقيم على مقرُبة مِنْ الدير، وتعتني باحتياجات الأب سرجيُوس، وطلبُوا إليه أن يُعجِّل بإنهاء الخدمة.

ولكن الأب سرجيُوس أجابَهُمْ: لا .. ليس هناك ما يُقلِق أو يستوجِبْ ذلك.

وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيهِ، يُظلِّلها شارِبهُ الَّذِي امتدَّ في وسط لحيتهُ المسترسِلة الطويلة ... "نعم هكذا كان يتصرَّف الآباء القدِّيسُون".

وسمع في تلك اللحظة صوت صوفيا إيڤانُوڤا خلفهُ وهي تقول: "رجُل قدِّيس. ملاك مِنْ قِبَل الله"، وأمَنْ التَّاجِر، الَّذِي أسندهُ، على قولِها. لم يعِر رجاءها التفاتًا ومضى يُواصِل صلاة الخدمة. وعندما عاد مِنْ مقبرة سَلَفُه، كان النَّاس قد ازدحموا مِنْ جديد في الكنيسة، وأتمَّ الأب سرجيُوس صلاة السَّاعة الثَّانية عشر وإن كان قد أوجز فيها قليلاً.

وبعد انتهاء الخدمة، أعطى الأب سرجيُوس البَرَكَة للحاضرين ثمَّ خرج ليجلِس تحت شجرة السرو عند مدخل المغارة .. كان يُريد الرَّاحة وأن يستنشِق الهواء العليل .. كان يشعُر أنَّهُ في حاجة إلى ذلك. ولكنَّهُ ما كان يُبارِح الكنيسة حتَّى اندفع إليه النَّاس يطلُبُون بَرَكَتهُ ويلتمِسُون إرشاده ونُصحه ويلِحُّون

في طلب المعونة. كان هناك جماعة مِنْ السُّياح الَّذِين يتنقلُون بين الأماكِن المقدَّسة، ويطوفُون بالنُّساك والمتوحِدين تستهويهُمْ مدافِن القدِّيسين ويجتذبُهُمْ شُيُوخ الرُّهبان. كان الأب سرجيُوس يعرِف جيداً هذا النوع الذَّائِع مِنْ التَّديُن التقليدي البارد ولو أنَّهُ في نفس الوقت لا يمُت إلى روح التَّديُن الصَّحيح. كان مُعظم هؤلاء الحُجَّاج مِنْ الجُنُود المسرَّحين، الَّذِين لم يعتادوا الحياة المستقرة المنتظِمة عليهم علامات الفقر المدقع، وكثيرون منهم كانوا مِنَ العجائِز الَّذِين اعتادوا الشراب، والانتقال مِنْ دير إلى آخر لمجرَّد طلب الطعام. وبين المنتظرين كان عدد مِنْ الفلاَّحين خَشِني الطِباع، وعدد مِنْ الفلاَّحات كلُّهُمْ أتوا سعيًا وراء طلباتِهِمْ وحاجياتِهِمْ الشَّخصيَّة وبعضهم يلتمِس الشِّفاء والبعض الآخر يسأل النَّصيحة في تدبير شُئُونِهِمْ العمليَّة وحل مشاكلهُمْ: زواج ابنة، استئجار دُكَّان، شِراء قطعة أرض .. هذه تسأل كيف تُكفِّر عن ذنبها لأنَّها مالت بجسدها وهي نائِمة على طِفلها فمات، وذاكَ يُريد أن يُكفِّر عن خطيئة زِنا ...

كل هذه كانت قِصص مُعادة، ليس فيها ما يستهويه. وكان يعرِف مُقدَّمًا أنَّهُ لن يسمع شيئًا جديدًا مِنْ هؤلاء النَّاس وبالتَّالي لن يستثيروا مشاعره الرُّوحيَّة. ومع ذلك فقد كان يُحِب أن يتكالب عليه النَّاس الَّذِين صارت لهم نصائِحهُ وبَرَكَاته مِنْ ضرورات حياتهُمْ الثَّمينة. ولهذا فمع أنَّ هذا الجمع كان يُرهِقهُ، إلاَّ أنَّهُ كان يُشبع رغبتهُ ويملأهُ بالسُّرور. بدأ الأب سيرافيم يصرِفهُمْ مُعلِنًا لهم أنَّ الأب سرجيُوس مُتعب عليل، إلاَّ أنَّ الأب سرجيُوس تذكَّر كلِمات الإنجيل: "دعُوا الأولاد يأتُونَ إليَّ ولا تمنعُوهُمْ". وساورهُ شُعُور مُرهف رقيق بالرِضى عن نفسه، عندما خالجتهُ هذه الخواطِر، وقال للأب سيرافيم أن يسمح لهم بالتقدُم إليه.

ونَهَضَ الأب سرجيُوس قائِمًا، واتجه نحو الإفريز حيث تجمَّع الجُمهُور وبدأ يُبارِكهُمْ ويُجيب على أسئلتِهِمْ ولكن بصوتٍ خافِتْ ضعيف جعلهُ يرثى لنفسه ويُشفِق على ضعفه. ومع أنَّهُ كان مُستعدًا لاستقبال الجميع إلاَّ أنَّهُ لم يتمكن مِنْ ذلك. بدأت الأشياء تظلَّم أمام عينيهِ، وترنَّح ثانيةً فتشبث بالإفريز حتَّى لا يقع. شَعَرَ بالدِّماء تندفِع حارة إلى رأسِهِ، فَشَحَبَ وجههُ. ثمَّ احمرَّ فجأة .. "يجب أن أترُك الباقين إلى الغد، لا يُمكنني أن أعمل أكثر مِنْ ذلك .. الآن". ورَفَعَ صوتهُ يتلو البَرَكَة الرَّسوليَّة ثمَّ عاد إلى مقعدِهِ. وأسرع التَّاجِر يسنِدهُ ثانيةً ويمسِك بِذِراعِهِ ويقوده حتَّى يجلِس.

ورامت إليه أصوات الجُمهُور: أبونا .. أبونا المحبُوب! لا تتركنا .. بدونك لابد أن نهلك.

وبعد أن أجلس التَّاجِر الأب سرجيُوس على مقعدِهِ تحت شجرة السرو، أخذ على عاتِقِهِ القيام بدور رجُل البوليس وأصرَّ على انصراف النَّاس. صحيح أنَّهُ كان يتكلَّم بصوت خافِتْ حتَّى لا يسمعهُ الأب سرجيُوس ولكن كلِماته كانت حادَّة غاضِبة .. "هيَّا خارِجًا، هيَّا خارِجًا! ألَمْ يمنحكُمْ البَرَكَة، ماذا تُريدُون أكثر مِنْ ذلك؟ هيَّا اخرُجوا، وإلاَّ دققت أعناقكُمْ! تحرَّك هناك .. هيَّا أيَّتُها العجوز واسحبي معِك شرائِط رجليكِ القذِرة! هيَّا هيَّا .. إلى أين تشُق طريقك يا هذا؟ لقد قيل لكم أنَّ الزيارة قد انتهت. غدًا يُدبر الله حسب مشيئتهُ، أمَّا اليوم فقد انتهى ...".

وقالت إحدى العجائز: الأب سرجيُوس ... يكفي فقط أن تسمح لي أن أُلقي نظرة إلى وجهِهِ المبارك.

- سأقوم بذلك بدلاً منكِ .. إلى أين تتدافعين؟ وتحشُرين نفسِك؟

لاحظ الأب سرجيُوس أنَّ التَّاجِر يُعامِل النَّاس بخشُونة وفظاظة، وفي صوتٍ مُنهك النبرات طلب إلى خادمه أن لا ينبغي أن يطرُد النَّاس. كان يعلم أنَّهم سوف ينصرِفُون بطريقة أو بأُخرى. وكان يتوق أن يتركه النَّاس يخلُد إلى وحدتهُ ليستريح، ولكنَّهُ أرسل خادمه بتلك الرِّسالة حتَّى يترك تأثيرًا حسنًا وانطباعًا راضيًا في نِفُوس الجُمهُور.

وعندما وصلت الرِّسالة إلى التَّاجر، أجابَ قائِلاً: حسنًا حسنًا! إنِّي لا أطرُدهُمْ .. ولكنِّي أُعاتِبهُمْ .. أنت تعلم أنَّهم لن يتردَّدوا في التزاحُمْ حتَّى يطأ بعضهم بعضًا، ولو أدَّى ذلك إلى موت أحدهم .. ليس عندهم رحمة، إنَّهم لا يُفكِّرون إلاَّ في أنفُسهم .. ألَمْ أقُلْ لكم مِنَ المستحيل أن تروه هذه اللَّيلة .. هيَّا خارِجًا! غدًا إن شاء الله! واستطاع أخيرًا أن يتخلَّص منهم جميعًا.

لقد احتمل كل هذا العناء لأنَّهُ كان يُحِب النِّظام كما يُحِب السيطرة على الغير، وأن يطرُد عامة النَّاس بعيدًا، إلاَّ أنَّ السبب الرَّئيسي كان رغبتهُ في الاِنفراد بالأب سرجيُوس. كان رجُلاً أرملاً، لهُ اِبنة وحيدة مريضة لم تتزوج بعد. وقد تحمَّل مشاق السفر بها ما يزيد على ألف وأربعُمائة فرسخ لكي يأتي بها إلى الأب سرجيُوس لكي يشفيها. لقد ظلَّ طُوال السنتين السَّابقتين يطرِق بها مُختلف الأبواب لعلاجِها، ذهب بها إلى المستشفى الجامعي في العاصمة بلا جدوى، ثمَّ أخذها إلى أحد الفلاَّحين في سمارا حيث تحسنت قليلاً، ثمَّ اصطحبها إلى أحد الأطباء في موسكو حيث أنفق الكثير مِنَ المال على عِلاجها .. ولكن دون أن يظفر بشيءٍ يُذكر. ولما سمع أنَّ الأب سرجيُوس لديهِ موهِبة الشِّفاء، أتى بها إليهِ. وعندما خلا المكان مِنْ جمهُور النَّاس، اِقترب

هوِ مِنْ الأب سرجيُوس، وسَقَطَ ساجدًا أمامهُ على الأرض، وهو يصيح بأعلى صوته:

– أيُّها الأب القدِّيس! بارِكْ اِبنتي المعذَّبة حتَّى تُشفَى مِنْ مرضِها. مُستعد أن أسجُد عند قدميك الطَّاهرتين ...

وَضَعَ يدًا فوق الأُخرى، على شكل الكأس. وكان يقول ويفعل كل هذا كما لو كان يُؤدِّي طقسًا مفروضًا .. وكأنَّ لا سبيل إلى طلب شِفاء الإبنة إلاَّ بأداء هذه الحركات الطَّقسيَّة! كان يُؤدِّي هذه الأُمور بحزم واقتناع إلى درجة تصوَّر معها حتَّى الأب سرجيُوس أنَّ هذه هي الطَّريقة المثلى للقول والفِعْل. ومع ذلك فقد أمرهُ بالنُهُوض، وأن يروي لهُ متاعبهُ وضِيقة نفسه. وقصَّ عليه التَّاجر أنَّ اِبنتهُ الَّتي تبلُغ مِنَ العُمْرِ اثنتين وعشرين سنة. أُصيبت بمرض عِضال منذُ سنتين بعد وفاة والدها فجأة. لقد حزنت الفتاة وأفرطت في حُزنها، وحدث لها ما حدث. وها هو قد أحضرها، وقَطَعَ معها ألف وأربعُمائة فرسخ.. وها هي تنتظِر في دار الضِيافة، حتَّى يأمُر الأب سرجيُوس بإحضارِها. إنَّها لم تُبارِح مكانها طيلة النَّهار لأنَّها تخشى النُّور، ويُمكنها أن تأتي بعد غرُوب الشَّمس.

وسأل الأب سرجيُوس: هل تُعاني مِنْ ضعفٍ شديد؟

– لا .. أنَّها لا تشكو مِنْ ضعفٍ خاص. إنَّها مُمتلِئة الجسم، ولكنَّها – كما يقول الأطباء – مُصابة بالنورستانيا. فقط لو سمحت بأن أُحضِرها لك في هذه اللَّيلة، يا أبانا سرجيُوس، لجريت في سُرعة الرِّيح لكي آتي بها .. أيُّها الأب القدِّيس! ألا تُريد أن تُنعِش قلب أب مِسكين، تَرُد إليه وحيدته وتُنقِذها مِنْ عِلَّتِها بصلواتك.

ووقَعَ – مرَّةً أُخرى – على الأرض ساجدًا، وانحنى برأسه على قبضتيهِ، وظلَّ رابضًا عند قدمي الشَّيخ القدِّيس. وطلب إليه الأب سرجيُوس ثانيةً أن ينهض .. وتأمَّل الأب في كثرة شواغله، وازدحام وقته بمثل هذا النشاط وكيف كان عليه أن يتحمَّل كل هذا في صبر وطُول أناة .. ثمَّ تنهَّد بعُمق وزَفَرَ زفرة حارَّة، وبعد فترة مِنَ الصمتِ عاد يقول:

– حسنًا .. أحضِرها لي هذه اللَّيلة. سوف أُصلِّي مِنْ أجلِها .. أمَّا الآن فإنِّي مُتعب .. ثمَّ أغلق عينيهِ يقول: سأُرسِل أستدعيك.

ومضى التَّاجر يمشي على أطراف أصابِعِهِ، مِمَّا جعل حِذاءهُ يُصدِر صريرًا عاليًا .. وبقى الأب سرجيُوس وحيدًا.

كانت كل حياته لا يملأها سوى خدمة الكنيسة والشَّعب الَّذي كان يلجأ إليه، إلاَّ أنَّ هذا اليوم بالذَّات كان يومًا مُرهِقًا. ففي الصَّباح وصل أحد كِبار الموظفين وعَقَدَ معهُ نِقاشًا طويلاً، وبعد ذلك حضرت إحدى السَّيِّدات مع إبنها، وكان هذا الإبن مُدرِّسًا صغير السِّن مِنْ أنصار مذهب الشك. ولكن أُمِّهِ التَّقية الَّتي تتمتَّع بحرارة الإيمان، وتثِق في الأب سرجيُوس رأت مِنَ الواجب أن تُحضِر إبنها للحديث مع الشَّيخ الرُّوحاني. أمَّا الشَّاب الَّذي كان يبدو بوضُوح أنَّهُ لا يُريد الدُّخول في جَدَلْ عنيف مع الرَّاهِب، فقد وافقهُ على كل شيء كأنَّهُ يُحاول أن يُرضي إنسانًا يقِل عنهُ ذكاء وحِكمة. وقد لاحظ الأب سرجيُوس أنَّ الشَّاب لم يقتنِع أو يُؤمِنْ، ومع ذلك فقد كان راضيًا هادِئ النَّفْس .. ولكن الآن وهو في هذا الهدوء والسُّكُون، عندما عادت أطراف الحديث إلى ذاكرته شَعَرَ بالقلق والضيق ..

وأقبل خادِمهُ يقطع السُّكُون قائِلاً: هل لك في شيء مِنَ الطَّعام، يا أبي؟

- لا بأس. اِئتِنِي بشيء أتبلَّغ بِهِ.

ومضى الخادِمِ إلى كوخ أُعِدَّ على مقرُبة مِنَ المغارة، وأخلد الأب سرجيُوس إلى خِلوتهُ. لقد مضى الآن زمن طويل منذُ أن كان يخدِم نفسه بنفسه، ولا يأكل سوى الخُبز المخلُوط أو قُربان الكنيسة. لقد نصحوه في ذلك الزَّمان أنَّهُ لا يَحِق لهُ أن يُهمِل صحتهُ، ومنذُ ذلك الحين حرصوا على تقديم أفضل وأجود الأطعِمة لهُ ولو أنَّها مِنَ البُقُول. كان يتناول الطعام بقدر، ولو أنَّهُ أكثر مِنْ ذي قبل. وكثيرًا ما كان يتلذَّذ بالطعام بعد أن كان يأكل نافِرًا لأنَّ إحساسه بالندمِ على خطاياه كان يُفقِده كل شهية لإرضاء البطن ... لقد عاودهُ هذا الإحساس الآن. تناول بعض الحساء، وشرب كوبًا مِنَ الشاي وأكل نصف قُربانة ... ومضى الخادِم ثانيةً، وظلَّ الأب سرجيُوس وحيدًا تحت شجرة السرو.

كانت ليلة مِنْ ليالي شهر مايو البديعة، الَّتِي تفتَّحت فيها الأزهار، واكتست الأشجار بأوراقِها الخضراء ... كانت شُجيرات الكرز البرِّي خلف شجرة السرو في أوُج إزدهارِها وعلى وشك ظُهُور الثِّمار، وأخذت البلابِل — وكان أحدها قريبًا جدًا منهُ واثنان أو ثلاثة أُخَر في الشُّجيرات بجوار النَّهر — أخذت تتناجى وتتناغم بأغانيها الشَّجيَّة بعد عزف مبدئي بشقشقاتِها البديعة. ومِنْ عند النَّهر تواترت إلى أُذُنيهِ أغاني الفلاَّحين في عودتِهِمْ مِنْ أعمالِهِمْ. مالت الشَّمس إلى المغيب وراء الغابة، وألقت أشِعتها المتوهِجة بين أوراق الأشجار. كان الجانِب القريب مِنهُ يمتاز بخُضرة لامعة، بينما ران ظلام على الجانِب الآخر مِنْ شجرة السرو. وحامت إحدى الحشرات السوداء القارِضة حولهُ ثمَّ سقطت على الأرض عندما اصطدمت بشيءٍ ما.

وبعد العشاء، بدأ الأب سرجيُوس يُردِّد صلاة صامتة: يا ربِّي يسوع المسيح ابن الله إرحمنا كعظيم رحمتك .. ثمَّ بدأ يتلو أحد المزامير. وفجأةً عندما وصل إلى مُنتصف المزمُور طار هُدهُد مِن الشُّجيرة ثمّ استقرَّ على الأرض وأخذ يقفز قفزاته القصيرة مُتجهًا نحوه وهو يُطلِق شقشقتهُ الجذلة .. ولكنَّهُ بعد حين باغتهُ خوف مُفاجئ ثمَّ طار بعيدًا.

وصلَّى الأب صلاة خاصَّة تتناول احتقار أباطيل العالم وتركه إيَّاها، وقد تلاها بشيء مِنَ التَّسرُّع حتَّى يُرسِل في طلب التَّاجر مع إبنتِهِ العليلة. لقد وجَّه عِنايتهُ إلى هذا الموضُوع، لأنَّهُ كان يُؤدِّي إلى تشتيت ذِهنه، ولأنَّ كلا مِنَ الفتاة وأبيها اعتبرهُ قدِّيسًا، صلاته لها مفعول أكيد، ونتيجة مضمونة. في الظَّاهر كان يستهجِنْ مثل هذه الفكرة ويُقاومِها، ولكنَّهُ في أعماق روحه كان راضيًا عنها ويعتبِرها حقيقة صادِقة.

كثيرًا ما كان يرجع بالذَّاكِرة إلى حياته القديمة، فيتعجب أنَّ كل هذا قد حدث معهُ .. هو .. إستيفان كازاتسكي. يتحوَّل عن حياته ليصير قدِّيسًا عجيبًا .. بل وصانِع آيات ومُعجزات .. وصل إلى هذه الدَّرجة العالية .. شيء عجيب حقًّا، ولكن هذه هي الحقيقة .. لا مراء فيها .. لم يكُنْ في مقدُورِهِ إلاَّ أن يُسلِّم بسُلطانه في عمل المعجزات الَّتي كان يراها تحدُث أمام عينيهِ، مِنْ أوَّل الصبي المريض حتَّى المرأة العجوز الَّتي استردَّت بصرها عندما صلَّى لأجلِها.

ومع غرابة هذه الأُمور، إلاَّ أنَّ هذا هو الواقع ... وبالتالي فقد أثارت ابنة التَّاجر اهتمامه لأنَّها تُؤمِنْ بهِ وبقُدرتِهِ. ثمَّ أنَّها فرصة جديدة مُتاحة لإثبات قُدرتِهِ على شِفاء المرضى، وذيُوع شُهرتِهِ .. "إنَّهم يأتون بالمرضى مِنْ آلاف

الفراسِخ، ويكتبُون عن ذلك في الصُّحُف .. لا شك أنَّ هذه الآيات قد بلغت مسامِع الإمبراطور .. بل ذَاعَ أمرها في أوربا ... أوربا القاسية الجاحِدة للإيمان"، وعندما بلغت أفكاره هذا القدر، خامرهُ شُعُور بالخجل والخزي بسبب غروره، فبدأ يُصلِّي مِنْ جديد: "يارب .. أيُّها الملِك السَّمائي، المعزِّي، روح الحق، الحاضِر في كل مكان، مالِئ الكل، كنز الصَّالِحات ومُعطي الحياة، هلُمَّ تفضَّل وحِلْ فيَّ وطهِّرني مِنْ كل شر. خلِّصني وبارِك حياتي وروحي. طهِّرني مِنْ خطيَّة الغرُور والمجد الباطِل، الَّذي يُقلِق نفسي ..". وكرَّر هذه الصَّلاة، وتذكَّر أنَّهُ كثيرًا ما يتضرَّع مِنْ أجل هذهِ الطِلبة .. ولكن حتَّى الآن دونَ فائدة.. صلواته تصنع المعجزات للآخرين ... ولكن بالنسبة لنفسه، فإنَّ الله لم يُحرِّرهُ بعد مِنْ هذه العاطِفة السخيفة.

تذكَّر صلواته في بداية عهده بحياة الوحدة، عندما كان يُصلِّي ويطلب الطَّهارة والنقاء، والاتضاع والمحبَّة .. وكان الله يستجيب هذه الصَّلوات، ألَمْ يحتفِظ بطهارتِهِ ويقطع أصبعهُ؟! لقد رفع ذلك الإصبع المقطُوع مِن الأرض إلى شفتيه وقبَّلهُ ... الآن عندما يتذكَّر تلك الفترة مِنْ حياته يرى أنَّهُ كان وديعًا مُتواضِعًا .. فقد كان يُبغِض نفسه ويحتقِرها بسبب كثرة خطاياه وآثامه ... تلك المشاعِر الرقيقة والأحاسيس المرهفة الَّتي قابل بها ذلك الرَّجُل الأشيب وهو يقود أحد الجنُود السَّكارى يطلب عمل المحبَّة والصَدَقَة ... ذلك الحنان الَّذي ملأ قلبه وهو يستقبلهما .. لا شك أنَّهُ في ذلك الحين كان قلبه يجيش بالمحبَّة. أمَّا الآن؟! وسأل نفسه إن كان يحِس بالحُبْ إزاء إنسانٍ ما، هل يُحِب صوفيا إيڤانوڤا، أو الأب سيرافيم؟ .. هل شَعَرَ بعاطفة الحُبْ إزاء كل الَّذِين أتوا إليه وقصدوه في ذلك اليوم؟ .. هل أحبَّ ذلك الشَّاب المثقف، الَّذِي اهتمَّ بالحِوار

معهُ لا لشيء إلاَّ لكي يُقارِعهُ الحُجَّة بالحُجَّة ويُثبِت طول باعه في المعرِفة، وعلُو كعبه في الذَّكاء ويُؤكِّد أنَّهُ ليس مُتخلِّفاً عنهُ في ميدان الحِكمة والمعرِفة ... إنَّهُ يطلب ويُريد محبَّة النَّاس ويشعُر بالحاجة إليها، ولكنَّهُ لا يشعُر بها أو يُقدِّمها لأحد ... لقد بدت لهُ حقيقة نفسه .. فلا هو اقتنى المحبَّة، ولا ازدان بالاتضاع، ولا نما في حياة الطَّهارة ..!

اِبنة التَّاجر في الثانية والعشرين .. راقت لهُ هذه الفِكرة، ولكن ألعلَّها جميلة الصورة؟ عندما سأل أباها عمَّا إذا كانت ضعيفة، كان في الواقع يُريد أن يعرِف عمَّا إذا كانت تتمتَّع بجمال الأُنوثة ...

"هل سقطت إلى هذا المستوى، وانحدر تفكيري إلى هذا الحد ... يارب أعنِّي، اللَّهُمْ التفِت إلى معونتي، يارب أسرِع وأعنِّي! .. رُدَّني إليك ياربِّي وإلهي"، ثمَّ ضمَّ قبضتيهِ وبدأ يُصلِّي.

وانطلقت البلابِل تُصدح بالغِناء، وارتطمت بِهِ إحدى الحشرات الطَّيَّارة وأخذت تمشي على قفاه فَنَفَضَها بعيدًا عنهُ بيده ... "ولكن هل الله موجود حقًّا؟ ماذا يكون الحال إذا كنت أقرع بابًا مُوصدًا مِنَ الخارِج؟ والقضيب مُثبَّت على الباب لكي يراه الجميع ... الطَّبيعة – بما فيها مِنْ بلابِل وحشرات – هي هذا القضيب .. ربما كان ذلك الشَّاب المثقف على حق" .. ثمَّ أخذ يُردِّد صلواته بصوتٍ مُرتفِع.

وظلَّ على هذه الصورة، يُصلِّي ويُصلِّي حتَّى تلاشت تلك الأفكار، واستردَّ هدوءهُ وجدَّدْ ثِقتهُ ويقينه .. ثمَّ دقَّ الجرس وأخبر الخادِم أن يُعلِن للتَّاجر أنَّهُ يستطيع أن يُحضِر اِبنتهُ إليه الآن.

وأقبل التَّاجر يقتاد ابنتهُ بذراعِها ... أدخلها إلى القلاَّية وتركها سريعًا. كانت الفتاة على قسط وافِر مِنَ الجمال، مُمتلِئة الجسم ولكنَّها قصيرة جدًا تبدو على وجهها بساطة الطفُولة تختلِط بشيء مِنَ الوجل والشُّحُوب ... مِنَ الواضِح أنَّها ناضِجة الأنُوثة. ظلَّ الأب سرجيُوس جالسًا على مقعدِهِ عند المدخل، وعندما مرَّت بِهِ توقفت بالقُرب منهُ تطلب بَرَكَتهُ ... وداهمهُ شُعُور غريب بالذُّعر .. بسبب الطريقة الَّتِي نَظَرَ بها إلى قوامِها. عندما جاوزتهُ، كان إحساسه بأُنوثتها إحساساً حادًا، مع أنَّهُ أدرك مِنْ ملامِحِها أنَّها ضعيفة العقل، تميل إلى الماديات والجسديات. نَهَضَ ودخل قلاَّيتهُ فوجدها جالسة على أحد المقاعِد الصغيرة في انتظاره .. وقد هبَّت واقفة عندما رأتهُ يدخل.

وقالت: إنِّي أُريد أن أرجع إلى بابا.

فأجاب: لا تخافي .. ماذا يُؤلِمك؟ ومِمَّ تشكين؟

- إنَّ الألم يملأ كل كياني .. وعندما قالت هذا أضاء وجهها فجأة بابتسامة.

- سوف تخِف آلامِك، وتستعيدي صِحتِك .. صلِّي.

- وما فائدة الصَّلاة؟ .. لقد صلَّيت كثيرًا بدون أي فائِدة.

وظلَّت الاِبتسامة ترتسِم على شفتيها وهي تستأنِف حديثها: أنِّي أُريدك أنت أن تُصلِّي لأجلي، وتضع يديك عليَّ، لقد رأيتك في حُلمٍ ...

- وكيف رأيتني؟

- رأيتك تضع يديك عليَّ هكذا.

وأخذت يده وبعد أن قبَّلتها بدأت تسرِد الحُلم وهي تضع يده عليها كما رأت في الحُلم.

وترك يده اليُمنى لها وعاد يسأل: ما اسمك؟ وأحسَّ برِعدة قويَّة تسري في أوصالِهِ، وأيقن في قرارة نفسه بالهزيمة وشَعَرَ أنَّ نوازِع الجسد تلتهِب في كيانه، وأنَّها فاقت كل حدُود الضبط والقمع.

– ماري ... ماذا تفعلين؟ ... ماري .. إنَّكِ شيطان.

– ربما .. وما أهميَّة ذلك؟ وسقط ... وكان سقُوطهُ عظيمًا ...

عند الفجر، مضى إلى المدخل الصَّغير المظلِم .. "هل يُمكن أن يحدُث كل هذا؟ سوف يأتي أبوها، وتُخبِرهُ بكل شيء .. إنَّها شيطان .. ماذا ينبغي أن أصنع؟ ها هو الفأس الَّذِي قطعت بِهِ أصبعي". وأمسك بالفأس وقَفَلَ راجعاً إلى مغارتِهِ.؟

جاء خادِمهُ فقال: ألعلَّك يا أبي في حاجة إلى بعض الأخشاب .. أعطني الفأس يا أبي، وسأقوم أنا بذلك.

وسلَّم سرجيُوس الفأس، ثمَّ دخل المغارة ... كانت هناك راقِدة تغُط في نومٍ عميق .. ونظر إليها في فزع، وخرج مِنَ الباب وأخذ ملابِس الفلاَّح وارتداها. ثمَّ أمسك بالمقص وجزَّ شعرهُ الطويل، وعَبَرْ الممر بسرعة وانحدر في الطريق الجبلي المؤدِّي إلى النَّهر ... لقد مضت ثلاث سنوات منذُ أن كان هناك في آخر مرَّة.

كان الطريق يمتد بجوار النَّهر، وواصل المسير حتَّى مُنتصف النَّهار .. ثمَّ دخل أحد الحُقُول ورقد هناك بين أعواد النبات .. وعند مغيب الشَّمس وصل إلى إحدى القُرى ولكنَّهُ لم يدخل فيها بل اتجه قُدُمًا إلى الصَّخرة المعلَّقة الَّتي كانت تُطِل على النَّهر. وهناك رَقَدَ ثانيةً .. أراد أن يلتقِط أنفاسه ويستريح.



طرحت كثيرين جرحى وكل قتلاها أقوياء

وفي الصَّباح الباكِر، قبل مطلع الشَّمس بحوالي نصف ساعة .. كان الجو رطِبًا قاتِمًا، وكان الهواء يلفح وجههُ مِنَ الغرب. "نعم .. لابد أن أنتهي مِنْ كل شيء. ليس هناك إله .. ولكن كيف ينبغي أن أضع حدًا لحياتي؟ أُلقي بنفسي في النَّهر؟ أعرِف السِّباحة .. ولا أغرق .. أشنُق نفسي؟ نعم .. يكفي أن أُعلِّق هذا الحبل في فرع شجرة ..". بدا لهُ هذا الحل عمليًا جدًا، ومِنَ السهولة بمكان ... لكن داخلهُ شُعُور قوي بالرُّعب والرَّهبة. وكما جرت عادتهُ في لحظات اليأس والقُنُوط، شَعَرَ بالحاجة إلى الصَّلاة ... ولِمَنْ يُقدِّم الصَّلاة؟ لا يوجد إله .. ظلَّ راقدًا وهو يستنِد على ذراعه. وأخذت تتسلَّل إلى نفسه رغبة في النوم لم يستطيع أن يُقاوِمها، ولم تعُد لديه القُدرة أن يحتفِظ برأسه مُعتمِدًا على يده، فمدَّ ذِراعهُ وأراح رأسه واستسلم للنُّعاس. ولكن هذا النُّعاس لم يدُم طويلاً، فاستيقظ مُتعبًا وبدأ يُفكِّر مِنْ جديد، ويستعيد كل ما حدث في خياله.

رجع بخياله إلى أيَّام طُفولتهُ في بيت أُمِّهِ في الرِّيف .. ها هي إحدى العربات تصِل عند الباب، ويترجَّل منها العم نيقولاس سيرجيفيتش بلحيتِهِ السوداء الطويلة الَّتي تُشبِه الجارُوف، وتنزِل معهُ باشنكا الصَّغيرة، بقوامِها النحيل، وعينيها الواسعتين الرَّقيقتين ووجهها العطُوف الخجُول. وكان يجب عليه مع بقيَّة الأولاد أن يلعبوا معها، وكان هذا بغيضًا إلى نفسه، فهي سخيفة. وكان ينتهي بهم الأمر إلى السُّخرية منها، ويُرغِمُونها على السِّباحة حتَّى يقيسوا مقدرتها على ذلك، فكانت ترقُد على الأرض وتُريهم طريقة السِّباحة فيضحك عليها الجميع، ويهزأوا بحماقتِها. وعندما كانت تتبيَّن خُبْث حديثهم، كان يحمر وجهها خجلاً، وترتبِك مِمَّا يجعلها جديرة بالرثاء

أكثر مِنْ ذي قبل ... مُستسلِمة مسكينة جدًا حتَّى كان يشعُر بالخجل .. إنّهُ لا يستطيع أن ينسى ابتسامتها الوديعة المغتصبة .. وتذكَّر سرجيُوس أنّهُ رآها بعد ذلك. بعد أيّام الطُّفُولة بزمنٍ طويل، وقبل أن ينضم في سِلك الرّهبنة، تزوجت مِنْ أحد الملاّك .. وللأسف بدَّد كل ثروتها، وكثيرًا ما كان يعتدي عليها بالضرب! ثمَّ أنجبت طفلين، ولد وبنت ولكن الصبي مات وهو ما زال حدثًا يافِعًا ... لقد رآها سرجيُوس في مُنتهى التَّعاسة والبُؤس. ثمَّ رآها مرَّة أُخرى في الدير وهي أرملة .. كانت على عهدِهِ بها، ليست غبيَّة بالضبط، ولكنَّها سلبيَّة تافِهة .. مسكينة. لقد أتت في صُحبة اِبنتها وخطيبها .. كانوا فُقراء، وآثار الفقر بادية عليهم جميعًا. لقد سمع بعد ذلك أنّها تعيش في إحدى مُدن الأقاليم في فقرٍ مُدقع.

ثمَّ عاد يُسائِل نفسه: "ما الَّذي جعلني أُفكّر فيها؟"، ومع ذلك لم يستطيع أن يكُف عن التفكير فيها. أين هي يا تُرى؟ وكيف تعيش؟ هل ما زالت بائسة شقيَّة كما كانت عندما كانت تُرينا كيف تكون السِّباحة على الأرض؟ ولكن لماذا أُفكِّر فيها على هذا النحو؟ ما هذا الّذي أفعلهُ؟ لابد أن أضع حدًا لحياتي.

وبدأ الخوف يتجمَّع مِنْ جديد في قلبِهِ ... ولكي يهرب مِنْ هذه المخاوِف، اِسترسل في خواطِرِهِ حول باشنكا .. لقد تجلَّت في خواطِرِهِ كوسيلة مِنْ وسائِل الخلاص. وفي النّهاية راح في نومٍ عميق. وفي منامِهِ رأى ملاكًا يُقبِل إليه ويقول: اِذهب إلى باشنكا، وهناك تتعلَّم منها ما ينبغي أن تصنعهُ، وتعرِف ما هي خطيتك، وكيف يُمكن أن يكون خلاص نفسك!

وعندما استيقظ، أيقن أنَّ هذه الرؤيا مِنْ قِبَل الله، وامتلأت نفسه بمشاعِر الفرح، وقرَّر أن يُنفِّذ ما قيل لهُ في هذه الرؤيا. كان يعرِف المدينة الَّتي تعيش باشنكا فيها. كانت تبعُد حوالي ثلاثمائة فرسخ، وبدأ المسير.

-٦-

لم تعُد باشنكا كما كانت مِنْ قبل. صارت امرأة عجُوز، نحيلة الجسم اِمتلأ وجهها بالخطُوط والتجاعيد تُعرف باسم براسكوفيا ميخائيلوفنا[٣]، حماة ذلك الموظف الفاشِل السكير مافريكيف. كانت تسكُن في المدينة الَّتِي كان يشغل فيها آخر وظيفة، وكانت هي الَّتِي تعول الأُسرة: اِبنتها وزوجها العصبي المتعب وأطفالهُما الخمسة. كانت تعول هذه الأُسرة بالعمل في تدريس الموسيقى لبنات الصُّناع. كانت أحيانًا تُعطي أربعة أو خمسة درُوس في اليوم الواحد، وكل درس يستغرِق ساعة كامِلة، فكانت تتقاضى في مُقابِل هذا العمل المرهِق ٦٠ روبلاً أي ستَّة جُنيهات في الشهر. وهكذا كانوا يرتزِقُون على أمل وظيفة جديدة. أرسلت خطابات إلى جميع الأقارِب والمعارِف تطلب معونتهُمْ في تعيين زوج اِبنتها. وكان الأب سرجيُوس أحد الَّذِين ناشدتهُمْ المعونة ولكن خطابها لم يصِل إليه.

في يوم السَّبت كان براسكوفيا ميخائيلوفنا تمزِج الخميرة لتُعِد الكعك، كما كانت تفعل الخادِمة في ضيعة أبيها، وكانت تُجيد عمل الكعك. كانت براسكوفيا تُريد أن تُعطي حفيداتُها الخمسة لونًا مُمتازًا مِنَ الطَّعام يوم الأحد.

وكانت ماشا اِبنتها تُرضِع طفلها الصَّغير. كان أكبر أولادها وأكبر بناتها

[٣] هذا الإسم كان النِداء الشَّائع الَّذِي تُنادى بِهِ الفتيات الصَّغيرات ومعناه "اِبنة ميخائيل"، إشارة إلى رِعاية وشفاعة رئيسُ الملائِكة الجليل ميخائيل.

في المدرسة. وكان زوج اِبنتها يغُط في النوم، لأنَّهُ لم يذُق طعم النوم طُوال اللّيل. وقد ظلّت براسكوفيا ميخائيلوفنا يقِظة قِسطًا طويلاً مِنَ اللَّيل، وهي تُحاوِل أن تُلطِّف مِنْ حدَّة اِبنتها وغضبها على زوجِها. لقد أدركت يقينًا أنَّ صهرها – هذا الرَّجُل الضَّعيف – لا يُمكن أن يكون إلاَّ هكذا. كما أيقنت أنَّ تقريع زوجتهُ لهُ لن يأتي بثمر البتَّة. لهذا بذلت كل ما في طاقتِها حتَّى تُهدِّئ مِنْ عُنف توبيخها حتَّى تتجنب تبادُل الشتائِم وانفعالات الغضب. كانت المعاملات الفظَّة القاسية هي السبب فيما كانت تُعانيه جسديًا. وقد اتضح لها أنَّ مرارة النَّفْس والمشاعِر العنيفة لا يُمكن أن تُؤدِّي إلى أفضل "غضب الإنسان لا يصنع بِر الله"، بل على العكس مِنْ ذلك كانت تُؤدِّي إلى الأسوأ وإلى تدهُور المواقِف. بطبيعة الحال لم تُفكِّر على هذه الصورة، ولكنَّها كانت تتألَّم وتتبرَّم مِنْ رُؤية الغضب كما تتقزَّز مِنْ رائِحة كريهة أو ضوضاء صاخبة أو مِنَ الضربات الَّتِي كانت تحِل عليها.

كان يجيش بنفسها شعُور بالقناعة والرِّضا وهي تُدرِّب لوكيريا الصَّغيرة كيف تخلِط الخميرة، عندما دخل حفيدها ميشا، الَّذِي كان يبلُغ مِنَ العُمرِ ست سنوات، وقد ارتدى مريلته، وجُوربهُ الَّذِي خيَّطت خروقه الكثيرة ولكنَّهُ على أي حال يُغطِّي رجليهِ المقوستين، دخل يُهروِل في المطبخ، وعلى وجهه علامات الذُّعر، وهو يصيح.

– جدَّتي .. جدَّتي .. رجُل مُخيف يُريد أن يراكِ.

ومدت بصرها نحو الباب، ثمَّ قالت: إنَّهُ أحد السُّياح مِنْ نوعٍ ما، رجُل ...

ودعكت براسكوفيا ميخائيلوفنا كوعيها بعضهما ببعض، ومسحت فوطتها في مريلتها. وصعدت إلى حجرتها لكي تأتي بقطعة ماليَّة مِنْ فئة ٥ كوبيك (٥ مليمات تقريبًا) مِنْ كيس نقودها مِنْ أجل هذا السَّائِل. وعندما تذكَّرت أنَّ أقل قطعة ماليَّة في الكيس هي عشرة كوبيك، قرَّرت أن تُعطيه خُبزًا بدلاً مِنَ النقود. وعادت إلى الدولاب، إلاَّ أنَّها شعرت فجأة بالخجل لأنَّها ضنَّت بقطعة ماليَّة صغيرة ذات العشرة كوبيك فنادت على لوكيريا لكي تقطع شريحة مِنَ الخُبز، بينما صعدت ثانيةً لكي تُحضِر القطعة الماليَّة الصَّغيرة، وهي تُردِّد في نفسها "تستحقين ما حدث لكِ، هُوَّذا يجب الآن أن تدفعي الضعف".

ثمَّ أعطت النقود والخُبز للسَّائِح وهي تعتذِر عن هذا القليل الَّذِي تُقدِّمه. ولم يخطُر في ذِهنها شيء عن قيمة عطائها أو سخائِها. وشدَّ انتباهها مظهر الرَّجُل وهيئتهُ ومع أنَّهُ سار على قدميهِ مائتي فرسخ كسائِل مِسكين، ورغم أسماله البالية ونُحُول بدنه، وبشرتهُ السَّمراء الَّتِي ضربتها الشَّمس، ومع أنَّهُ قصَّ شعرهُ الطويل ووضع قُلنسوة الفلاَّح لِيُغطِّي بها رأسه، وفي رجليهِ ذلك الحِذاء الطويل الَّذِي يلبِسهُ الفلاَّحُون، ورغم أنَّهُ كان ينحني في مذلَّة، إلاَّ أنَّ سرجيُوس كان يتمتَّع بتلك الطلعة الآسِرة النَّفاذة الَّتِي كانت سِر جاذبيتهُ. ولكن براسكوفيا ميخائيلوفنا لم تتبيَّن شخصيتهُ لأنَّها لم ترهُ منذُ ما يقرُب مِنَ العشرين سنة.

- لا تُسِئ بي الظن يا أبي، فلعلَّك في حاجة إلى شيء مِنَ الطعام؟

وتناول منها الخُبز والنقود، ولكن الَّذِي أثار دهشة براسكوفيا ميخائيلوفنا أنَّهُ لم يمضِ إلى حال سبيله بل ظلَّ يرمُقها بنظرة طويلة .. ثمَّ قال:

- باشنكا ... لقد جِئت لاجئًا إليكِ .. إِسمحي لي بالدُّخول ...

كان يقول هذه الكلِمات، وقد لمعت الدّمُوع في عينيهِ السوداوين الجميلتين، وتكاد نظراته تنطِق بالتوسُّل والمذلّة والإلحاح. وتحت شاربهُ الأشيب إِرتعشت شفتاه.

ضمَّت براسكوفيا ميخائيلوفنا يداها إلى صدرِها الجاف، وفغرت فاها. تسمَّرت قدماها وحملقت في وجه السَّائح الفقير، ثمَّ صاحت:

- مُستحيل! ... ستيفا! .. سيرچي! أبونا سرجيُوس!

وأجابها في صوتٍ مُنخفِض: نعم هو بعينه .. فقط ليس سرجيُوس أو الأب سرجيُوس ولكن أعظم الخُطاة - ستيفان كازاتسكي - خاطِئ .. هالِك.. إِقبليني عندكِ ولا تمنعي عنِّي معونتِك.

- ولكن مُستحيل! .. كيف وصلت إلى هذه المذلَّة؟ .. ولكن تعال .. أُدخُل.

ومدَّت يدها إليه، ولكنَّهُ لم يأخُذها بل سار في أثرِها فقط. ولكن إلى أين تأخُذهُ؟

فالبيت صغير .. كان عِندها فيما مضى حُجرة صغيرة خصَّصتها لنفسها للصَّلاة، ولكنَّها اضطرت أن تتخلَّى عنها لابنتها، وماشا تجلِس فيها الآن تُهدهِد طِفلها.

وأشارت إلى مِقعد في المطبخ وهي تقول: اِجلِس هنا الآن.

وجلس في الحال، وبحركة لا إراديَّة أخذ ينزع حِزام الجِراب مِنْ على كتفِهِ ثمَّ مِنْ على الآخر.

- يا إلهي .. يا للسَّماء .. كيف وصلت إلى هذه المهانة يا أبي!! هذه الشُّهرة الَّتي طبقت الآفاق، والآن على هذه الصورة ؟!...

ولم يجِر سرجيُوس جوابًا، واكتفى بابتسامة وادِعة، وهو يضع الجِراب تحت المِقعد.

- ماشا ... يا إبنتي هل تعرفين مَنْ هذا؟ ومالت براسكوفيا ميخائيلوفنا على إبنتها وهمست .. وأسرعت المرأتان تُنظِفان الحُجرة الصَّغيرة، فأخرجتا فِراش الطفل والأُم، وأعادتا ترتيب الحُجرة وأعدَّتاها لسرجيُوس وأدخلتهُ براسكوفيا وهي تقول: هنا يُمكنك أن تستريح .. أرجو ألاَّ تتضايق، ولكنِّي يجب أن أخرُج.

- إلى أين؟

- عندي درس. شيء مُخجِل أن أقول لك ذلك، ولكنِّي أُعطي دروسًا في الموسيقى.

- موسيقى؟ هذا عمل طيِّب. ولكنِّي أُريد أن أقول لكِ شيئًا يا براسكوفيا ميخائيلوفنا. لقد جِئت إليك ونِصْب عينيَّ هدف خاص. متى يُمكنني أن أتحدَّث إليك؟

- هذا يسُرني جدًا، هل يُناسِبَك اليوم مساءً؟

- نعم .. ولكن هناك شيء آخر .. أرجو ألاَّ تتكلَّمي عنِّي أو تفصحي عن شخصيتي. لقد كشفت عن حقيقتي لكِ أنتِ وحدِك. ولا يعلم أحد أين ذهبت .. ولا يجب أن يعرِف .. أيضًا.

- ولكنِّي قُلت لابنتي.

- وحسنًا يُمكنك أن تُوصيها ألاَّ تُخبِر أحدًا.

ثمَّ خلع سرجيُوس حِذاءهُ الطويل، وتمدَّد على الفِراش وسُرعان ما راح في نومٍ عميق، بعد ليلة مضنية لم يعرِف فيها النوم، وبعد عناء طويل إذ قطع على

قدميهِ ما يقرُب مِنْ الثَّلاثين ميلاً.

عندما عادت براسكوفيا ميخائيلوفنا، كان سرجيُوس في انتظارِها قابعًا في الحُجرة الصَّغيرة. لم يخرُج لتناوُل العشاء ولكن لوكيريا أحضرت إليه بعض الحساء وشُوربة الخُضار فتناولهُما.

وسأل سرجيُوس: ولكنَّك أتيتِ قبل موعِدك .. هل يُمكنُني الحديث إليكِ الآن!

– لا يتصوَّر أحد سعادتي باستقبال مثل هذا الضيف .. بقي درس واحد لم أُعطِهِ .. يُمكنهُ أن ينتظِر .. طالما فكَّرت في السفر لكي أراك. وقد كتبت إليك .. وها هو الحظ السعيد يأتي ليطرِق بابي.

– باشنكا .. أرجو أن تنصتي جيدًا لِمَا سأقوله كأنَّهُ إعتراف أُقدِّمهُ أمام الله في ساعتي الأخيرة.

– باشنكا ... أنا لستُ قدِّيسًا كما تتصورين، بل ولستُ أفضل أي إنسان عادي .. صدِّقيني إنِّي إنسان خاطِئ مغرُور، نجس كريه، دنئ إنحرف عن الصواب وابتعد عن سُبُل الرَّب المستقيمة وصار أضل النَّاس بل أشر مِنْ أعتى الخُطاة ..

ونظرت إليه باشنكا في بادِئ الأمر وحملقت عيناها، ولكنَّها صدَّقت أقواله، وعندما استوعبت معانيها لمست يدهُ في رِفق وابتسمت قائِلةً: لعلَّك تُبالِغ يا ستيفا ..

– لا .. يا باشنكا إنِّي رجُل زانٍ، قاتِل .. مُجدِّف .. ومُخادِع.

وصاحت براسكوفيا في عجب: يا إلهي .. كيف يُمكن أن يكون ذلك؟

– ولكن يجب أن أُواصِل الحياة .. أنا، الَّذي كنت أظُن أنِّي أعرِف كل شيء، كنت أُرشِد الآخرين في طُرُق الحياة .. أعترِف بأنِّي لا أعرِف شيئًا،

وأرجوكِ أن تُعلِّميني وتُرشديني.

- ما هذا الَّذِي تقولهُ يا ستيفا؟ ألعلَّك تضحك عليَّ؟ لماذا تسخر منِّي على الدوام؟

- حسنًا، إذا كنتِ تُظنين إنِّي أمزح فليكُنْ لكِ ما تشائين .. ولكن — رغم ذلك — قولي لي كيف تعيشين، وكيف رتَّبتِ أُمور حياتِك؟

- أنا؟ كل حياتي شقيَّة ورديئة، وها هو الله يُعاقبني كما أستحق .. حياتي تعيسة وبائِسة ..

- كيف كان زواجك؟ .. وكيف عِشتِ مع زوجِك؟

- كله بُؤس وشقاء. لقد تزوجت لأنِّي تردَّيت في حُبٍ آثِم. ولم يُوافِق أبي على هذا الزواج. ولكنِّي أصررتُ ورفضتُ أن أستمِع لآيَّة مشورة .. وتزوجت. بدلاً مِنْ أن أكون مُعينة لزوجي، نغَّصت حياته بغيرتي الَّتِي لم أستطِع كبح جِماحِها.

- سمعت أنَّهُ كان يشرب ...

- صحيح .. ولكنِّي لم أسمح لهُ بالسَّلام إطلاقًا. كنت لا أكُف عن توبيخه وتقريعه .. مع أنَّ هذه الحالة — كما تعرِف — إنما هي مرض! لم يستطِع الإقلاع عن الخمر .. وإنِّي لا أذكُر كيف كنت أُحاوِل أن أمنعه منها .. كانت مواقِف مُخيفة!

ثمَّ رفعت عينيها الجميلتين إلى كازاتسكي وقد بدا فيهُما الإحساس بالألم الدفين الَّذِي أثارتهُ هذه الذكريات، وتذكَّر كازاتسكي ما قيل لهُ عن زوجها الَّذِي كان ينهال عليها ضربًا .. والآن .. يرى رقبتها النحيلة، وعروقها البارزة خلف أُذُنيها، وضفائِر شعرها الهزيل وقد وخطها المشيب .. أخذ خياله يرسم لهُ

صور لك الأحداث الَّتِي كانت تجري بينها وبين زوجِها.

- ثمَّ تركني ومعي طفلين. وليس لنا أي موردٍ للرزق.

- ولكن كنتِ تمتلكينَ ضيعة ...

- أوه ... لقد بِعناها بينما كان فازيا ما زالَ على قيد الحياة، ولم يبقَ مِنْ ثمنِها فلسًا واحدًا. كان لابد لنا أن نعيش، ولكنِّي لم أكن أعرِف كيف أكسب قُوتي .. هكذا كان حال جميع الشَّابات .. وأنا — خصوصًا — كنت عاجزة تمامًا وبلا أي منفعة. وهكذا أتينا على كل ما عندنا مِنْ مال أو عِتاد. أخذت أُعلِّم أطفالي بنفسي كما حاولت أن أرتقي بمستواي قليلاً. ثمَّ سقط ميشا طريح الفِراش وهو في سنتهُ الدراسيَّة الرَّابِعة وانتقل إلى رحمة الله. وأحبَّت ماشا صِهري فانيا .. و .. حسنًا .. نيتهُ طيِّبة ولكنَّهُ سيِّئ الحظ .. إنَّهُ مريض.

وقاطعها صوت إبنتها يُناديها: ماما! خُذي ميشا! لا أستطيع أن أكون في مكانين في وقتٍ واحد.

وسَرَتْ رِعدة في أوصال براسكوفيا ولكنَّها نهضت وخرجت مُتعثِرة في حِذائِها المرقَّع. وسُرعان ما عادت وهي تحمِل في ذراعيها طفلاً في السَّادِسة مِنْ عُمرِهِ، كان يُلقي بنفسه إلى الخلف ويتشبث بالشال الَّذِي تتدثر بِهِ بكلتا يديهِ.

- أين وصلت؟ آه، صحيح. لقد حصل على وظيفة طيِّبة هنا، وكان يرأسه رجُل طيِّب أيضًا. ولكن فانيا لم يستطِع أن يُواصِل العمل، فترك وظيفتهُ.

- لماذا؟ ما خطبه؟

- مُصاب بمرضٍ خطير .. نورستانيا .. لقد استشرنا الطبيب فأشارَ عليهِ بالسفر، ولكن ليس عندنا ما نُنفِقهُ .. إنِّي أرجو دائمًا أن يزول المرض مِنْ

تِلقاء نفسِهِ .. إنَّهُ لا يشكو مِنْ ألمٍ مُعيَّن، ولكن ..

وارتفع صوت غاضِب يقول: لوكيريا .. دائمًا تذهب عندما أكون في حاجة إليها .. ماما .. وقطعت براسكوفيا ميخائيلوفنا حديثها وهي تُجيب: ها آنذا آتية .. إنَّهُ لم يتناول عشاءهُ بعد ... ولا يُمكن أن يأكل معنا.

ثمَّ خرجت وأعدَّت شيئًا ما ثمَّ رجعت وهي تمسح يديها النحيلتين السمراويتين.

– هذه هي حياتي .. شكوى مُستمرة .. ولا قناعة. ولكن الحمد لله أنَّ أحفادي طيِّبُون ويتمتَّعون بصحة جيِّدة، ويُمكنَّا أن نُواصِل حياتنا على أي حال .. ولكن لماذا يدور الحديث حولي؟

– وكيف تعيشين؟ ما هو مورِد رِزقك؟

– حسنًا .. أنا أكسب القليل .. لا تتصور كم كنت أكره الموسيقى، ولكن ما أنفعها لي الآن .. كانت يدها الصَّغيرة على الدولاب المجاوِر لها، وأخذت تنقُر بأصابِعها أحد الأنغام.

– كم تأخُذينَ أجرًا للدرس الواحِد؟

– أحيانًا روبلاً واحدًا، وأحيانًا خمسين كوبك .. أو ثلاثين .. كلهم شخصيات رقيقة.

وعاد كازاتسكي يسأل وعلى شفتيهِ ابتسامة: وهل يتقدَّم تلاميذك في دروسِهِمْ؟

ولم تعتقِد براسكوفيا ميخائيلوفنا لأوَّل وهلة أنَّهُ يسأل جادًا، ونظرت إليه في تساؤُل:

– بعضهم مُتقدِّم فعلاً .. أحدهم فتاة رائِعة – اِبنة الجزار – فتاة رقيقة

جدًا! لو كنت على شيء مِنَ الذَّكاء، كان ينبغي عليَّ طبعًا، بما تُهيِّئهُ لي العِلاقة مع أبيها أن أجد وظيفة لِصِهري. ولكن – كما ترى – لم أستطِع أن أعمل شيئًا.

ثمَّ غضَّ كازاتسكي مِنْ بصرِهِ وهو يقول: نعم .. نعم ولكن ما دورك في الحياة الكنسيَّة؟

– لا تقُل شيئًا في هذا الموضُوع. في هذه الناحية أنا خاطِئة للغاية، فقد أهملت هذه الحياة!! صحيح إنِّي حريصة على الصَّوم مع الأطفال، وأحيانًا نذهب إلى الكنيسة وقد تنقضي أشهُر طويلة دون أن أدخُل الكنيسة .. كل ما أعملهُ أنِّي أحِث الأطفال على الذِّهاب إلى هناك.

– لماذا لا تُواظبين على الكنيسة؟

– أقولُ لكَ الحق – ثم احمرَّ وجهها خجلاً – أشعُر بالخجل مِنْ نفسي مِنْ أجل ابنتي ومِنْ أجل الأطفال .. كيف أذهب في ملابسي المهلهلة؟! لا أملُك شيئًا آخر، بالإضافة إلى ذلك فأنا مُهملة كسولة.

– وهل تُصلِّي في البيت؟

– نعم، أفعل. ولكن أي نوع مِنَ الصَّلاة؟ صلاة آليَّة أعرِف أنَّهُ لا يجب أن تكون كذلك، ولكن يُعوزني الشُّعُور الدِّيني. الشيء الوحيد الَّذي أعرِفهُ أنَّ شرِّي وإثمي كثير جدًا ...

وأومأ كازاتسكي برأسِهِ قائِلاً: .. هذا صحيح! .. هذا صحيح!

ولكنَّها صاحت تُجيب على نِداء صِهرها: ها أنذا آتية .. ثمَّ غادرت الحُجرة وهي تُرتب ضفائِر شعرِها. في هذه المرَّة تأخرت قليلاً، وعندما رجعت كان كازاتسكي جالسًا في نفس الوضع الَّذي كان عليهِ، وقد أسند مرفقيهِ على

رُكبتيهِ وطأطأ رأسهُ. ولكنَّهُ كان قد ثبَّت جرابه على ظهره. عادت تحمِل مصباحًا صغيرًا مِنَ الصَّفيح، دون غِطاء يُظلِّلهُ، فلمَّا دخلت رفع إليها عينيهِ المرهقتين الجميلتين، ثمَّ تنهَّد بعُمق. وبدأت تستأنف حديثها في شيء مِنَ الحياء: لم أقُلْ لهم مَنْ أنت .. كل ما قُلتهُ أنَّكَ أحد السُّياح .. رجُل نبيل كنت أعرِفهُ مِنْ قبل .. تعال نشرب الشاي معًا في حُجرة الطَّعام.

- لا ..

- إذًا، لابد أن أُحضِر لك نصيبك مِنَ الشاي.

- لا .. لا أُريد شيئًا. الرَّبُّ يُبارِكك يا باشنكا!

سأمضي في طريقي الآن. إذا أردتِ أن تصنعي معي رحمة، فلا تقولي لأحد أنَّكِ قابلتني. مِنْ أجل محبّة الله لا تُخبري أحدًا. أشكُرِك .. مُستعدٌ أن أسجُد عند قدميكِ، ولكنِّي أعلم أنَّ هذا سيُضايِقِك .. أشكُرِك ثانيةً وأرجو أن تغفري لي مِنْ أجل المسيح.

- باركني .. يا أبي ..

- الله يباركِك .. اِغفري لي مِنْ أجل المسيح!

ثمَّ نَهضَ واستعدَّ للخرُوج، ولكنَّها أبت أن تدعهُ يذهب حتَّى يأخذ مِنْ يدِها ما أحضرتهُ مِنْ خُبز وزُبد وبعض الكعك.

كان الظَّلام قد أرخى سدوله، ولم يكد يجتاز البيت الثَّاني حتَّى اختفى في طيات اللَّيل. لقد أدركت وجوده لأنَّ الكلب في بيت القسيس كان ينبح عند رُؤيتِهِ.

"إذًا فهذا هو معنى الحُلم .. باشنكا هي النموذج الَّذي كان ينبغي أن أكونه ولكنِّي فشلت. لقد عِشْت مِنْ أجل النَّاس بينما كنت أقول أنِّي أُقدِّم

حياتي ذبيحة لله بينما هي عاشت لله وهي تظُنْ أنَّها تعمل مِنْ أجل النَّاس .. نعم، عمل صالِح واحد – كأس ماء بارِد دون انتظار الجزاء – أفضل مِنْ أي فائِدة كنت أظن أنِّي أمنحها للنَّاس. ومع ذلك، ألَمْ يكن هناك شيء مِنْ رغبة أمينة صادِقة لخدمة الله؟". وبعد أن سأل نفسه هذا السؤال، جاءهُ الجواب: "نعم كان هناك .. ولكن الرَّغبة الصَّادِقة أفسدتها وطغت عليها رغبة في مديح النَّاس أو السُّبح الباطِل. حقَّاً، الله غير موجود بالنسبة للرَّجُل الَّذِي يعيش كما عِشتُ ساعيًا لمديح النَّاس. لا حاجة للبحث عن الله!".

ومضى في طريقِهِ مِنْ قرية إلى أُخرى، كما فَعَلَ في رِحلتهُ إلى باشنكا، يُقابِل ثُمَّ يُفارِق غيره مِنَ السُّياح، رِجالاً ونِساء، يطلب الخُبز ويلتمِس قضاء اللَّيل باسم المسيح. مِنْ حينٍ إلى آخر كان يستمِع إلى التوبيخ مِنْ زوجة غاضِبة، أو تنهال عليه الشتائِم مِنْ فلاَّح سكران. ولكن في مُعظم الأحوال كان يحصُل على حاجتهُ مِنَ الطَّعام والشَّراب وفي بعض الأحيان زادًا للطَّريق. وكان مظهرهُ النبيل يجتذِب الكثيرين إليه، بينما البعض الآخر يستهويه منظر الرَّجُل النبيل الَّذِي انحدر إلى هذا الفقر والبؤس. ولكن أُسلوبه الرقيق كان يستهوي قلُوب الجميع. وكُلَّما وجد نُسخة مِنَ الإنجيل في أكواخ الفُقراء، كان يقرأهُ بصوتٍ مُرتفِع. كانت نبراته تلمِس قلُوب السَّامعين فيتعجبُون كأنَّهم يسمعون شيئًا جديدًا، وإن كان مألوفًا.

عندما كان ينجح في خدمة مِنَ الخدمات سواء بالإرشاد أو بمعرفتِهِ للقراءة والكِتابة أو إذا فضَّ خلافًا أو مُشاجرةٍ ما كان ينتظِر حتَّى يستمِع إلى شُكرِهِمْ بل كان يمضي مُباشرةً بعد ذلك .. وبالتَّدريج بدأ الله يُظهِر نفسه فيه. في إحدى المرَّات كان يمشي بجوار اثنتين مِنَ العجائِز وأحد الجنُود،

فاستوقفهُمْ موكِب يتكوَّن مِنْ رجُل وامرأة في عربة، ورجُل آخر وامرأة أُخرى على صهوتي جواديهِما. كان الزوج مُمتطِياً حصانهُ مع ابنتهُ بينما كانت زوجتهُ في العربة مع مُسافِر فرنسي.

وقد توقف الرَّكب حتَّى تسنح الفُرصة للرَّحالة الفرنسي حتَّى يُشاهِد السُّياح، الَّذِين – كما تُصورِهُمْ الأساطير الرُّوسيَّة – يتنقلُون مِنْ مكانٍ إلى آخر بدلاً مِنَ العمل.

كان الحديث يدور بينهم بالفرنسيَّة حتَّى لا يفهمهُمْ الآخرون. وقال الرَّحالة الفرنسي:

– اِسألوهم عمَّا إذا كانوا على ثقة ويقين مِنْ أنَّ سياحتهُمْ مقبُولة لدى الله.

ولما سأل السؤال أجابت إحدى العجوزتين: كما يرى الله وحسب إرادتِهِ .. إنَّ أقدامنا بلغت الأماكن المقدَّسة، ولكن قلُوبنا ربما لم تصِل بعد ...

ولما سأل الجُندي أجاب بأنَّهُ وحيد في هذا العالم، وليس لهُ مكان آخر يذهب إليه.

ثمَّ سألوا كازاتسكي مَنْ يكون.

– خادِم الله.

– ماذا يقول؟ إنَّهُ لم يُعطِ جوابًا.

– إنَّهُ يقول أنَّهُ خادِم الله .. ربما كان هذا مِنْ سُلالة أحد الكهنة. يبدو أنَّهُ ليس إنسانًا عاديًا .. عندك فكَّة؟

ونقَّب الفرنسي في جيوبه، فوجد بعض الفكَّة الصَّغيرة ونقد كلاً مِنَ السُّياح عشرين كوبك.

- ولكن أرجو أن تُخبرهُمْ إنيّ لا أُعطيهم هذا المال لكي يُنفِقوه على شُمُوع الكنيسة .. بل لهم أن يصيبوا شيئًا مِنَ الشاي .. شاي، شاي لك أيُّها الرَّفيق العجوز.

قال هذا وهو يبتسِم، ويربُت على كتف كازاتسكي بيده وهي في القُفاز.

وأجاب كازاتسكي: المسيح يُبارِكك .. وانحنى برأسِهِ الأصلع دون أن يلبِس قُلنسوته .. لقد سُرَّ مِنْ هذا اللقاء لا لشيء إلاَّ لأنَّهُ أغضى عن رأي النَّاس، وأنَّهُ لم يقُمْ إلاَّ بأبسط الأعمال وأيسرها .. وأنَّهُ قَبلَ في خشوعٍ عشرين كوبك أعطاها بدوره إلى رفيقه الشَّحاذ الأعمى ... كُلَّما أهمل رأي النَّاس فيه، كُلَّما ازدادَ إحساسًا بوجُود الله داخله.

وسار كازاتسكي على هذا المِنوال ثمانية أشهُر، يجوب البلاد ويتنقَّل مِنْ مكانٍ إلى آخر. وفي الشهر التَّاسِع أُلقِيَ القبض عليه لأنَّهُ لم يكُنْ معهُ جواز سفر. حدث لهُ هذا عندما لجأ إلى مأوى في إحدى الأقاليم ليلاً حيث قضى اللَّيل مع بعض السُّياح. أخذوه إلى مخفر البوليس حيث استفسروا عن اسمه وعن جواز سفره فأجاب بأنَّهُ ليس لديه جواز سفر، وأنَّهُ عبد مِنْ عبيد الله. وقيَّدوا اسمهُ في قائمة المتشردين، وصدر ضدهُ الحُكم، وأُرسِل لكي يقضي بقيَّة حياته في سيبريا.

وفي سيبريا أقَامَ لدى أحد الفلاَّحين، على درجة مِنَ الثراء، وقد عَهَدَ إليهِ بالعمل في بُستان الخُضروات، وتعليم الأطفال، والعِناية بالمرضى.

سنة ١٨٩٠م



خادم الله

بوليكوشكا

ترجمة الرَّاهب سارافيم البرموسي

قناعات مَنْ حولنا قد تُصبِح سِجنًا يأسرُ حُرِّيَّة توبتنا
ونَظَرَاتُهِم أصفادًا تُعرقِل مسيرة تحرُّرنا

المُترجم

الفصل الأول

بوليكي (بوليكوشكا) هو أحد خُدَّام الضيعة التي تمتلكها بويارينيا (سيِّدة من النُّبلاء). كان يَشْغَل عملاً هامشيًّا هناك، وكانت حياته يرتسمُ عليها سِمات الفقر إذ كان يقطُن في بيتٍ صغير مع زوجته وأولاده. كان قد بنى البيت أحد النُّبلاء الراحلين. أرملته هي التي يخدمها بوليكي حتّى الآن. كان بيت بوليكي مُكوَّنًا من أربعة حوائط مبنيَّة من الحجارة تُشكِّل غُرفة واحدة، تبلُغ مساحتها الداخلية؛ عشرة ياردات مُربَّعة، بينما يتمركز في الحُجرة مَوقد روسي قديم، يُحيط به مساحة خالية. كانت زوايا الحُجرة الأربعة تُشكِّل طُرُقات خاصّة تمتد لعِدَّة أقدام. وكانت الزاوية القريبة من الباب (الصُغرى) تُسمَّى "زاوية بوليكي". كما تجد أيضًا في نفس الغُرفة؛ فِراشًا (وعليه غِطاء ومِلاءة ووسادات قُطنيَّة)، فضلاً عن سريرٍ صغيرٍ يستلقي عليه طفلٌ رضيعٌ، وطاولة قائمة على ثلاثة أرجُل، تُقدَّم عليها الوجبات، وتُغسل عليها الملابس، ومُؤخَّرًا، يضع عليها بوليكي بعض مُستلزمات عَمَلَه البيطري (غير المُتخصِّص بالطبع) ..

في تلك الحُجرة الصغيرة كان يُشارك السبعة أشخاص الذين يُمثّلون العائلة؛ عِجْلاً، وبعض الدجاج، فضلاً عن ملابس الأُسرة، وبعض الأدوات المنزليَّة، حتّى بدت وكأنها مُكتظَّة بهم. لقد كان من المُستحيل التجوُّل في المنزل، وخاصّة بسبب المَوقِد الذي كان يستلقي عليه بعضهم، للنوم ليلاً، كما كان يُستخدم كطاولة أخرى، وقت الصباح.

من الصعب تخيُّل كيف يستطيع هذا العدد من الأشخاص السُكْنى في مُربَّعٍ صغيرٍ كهذا. لقد كانت أكولينا، زوجة بوليكي، تقوم بالغسيل والحياكة والنسج وتبييض ملابسها الكِتَّانيَّة، كما كانت تطبُخ وتخبز، وبالإضافة إلى كلّ هذا وجدت الوقت لتُشارِك أقاربها جلسات النميمة. لقد كانت حِصَّة عائلة بوليكي من الطعام التي يتحصَّلون عليها من منزل أرملة الرجُل النبيل كافية للعائلة كلّها حتّى أنّ الفائض كان يُقدَّم للماشية. كانوا يحصلون على الوقود مجانًا فضلاً عن طعام الماشية. كذلك كانت لهم قطعةٌ صغيرةٌ من الأرض لزراعة بعض الخضروات. وكانوا يمتلكون بقرة وعِجْلاً وبعض الطيور.

كان بوليكي مُكلَّفًا بالعناية بفرسيْن في مزرعة الخيول الكائنة في الضيعة، وفي أوقات الضرورة كان عليه تنظيف حوافر الخيول والماشية.

كان يستخدم في عمله للعناية بالحيوانات؛ محاقِن، ضمّادات، فضلاً عن بعض الأدوية التي كانت من تركيبه الخاص. ومن أجل تلك الخدمات التي كان يُؤدِّيها كان يحصُل في المُقابل على احتياجات أُسرته، بالإضافة إلى قدرٍ من المال أيضًا، وهذا كان كفيلاً بتأمين حياة مُريحة لهم بل وسعيدة أيضًا، إن لم تمتلِئ قلوبهم بظلالِ حزنٍ شديدٍ. فقد كان الحُزن يُلقي بظلاله السوداء على حياة العائلة بأكملها.

حينما كان بوليكي صغيرًا، عَمَلَ بقرية مُجاورة في تربية الخيول، وكان يرأس تلك المزرعة لصٌّ سيِّء السُمعة، كان معروفًا في الأنحاء المُجاورة بكونه المُحتال الأعظم، وقد نُفِيَ إلى سيبريا نتيجةً لأعماله المُخزيَّة. لقد عانى بوليكي تحت إمرته الكثير، ولكونهِ صبيًّا، دُفِعَ به ليُشارِكه بعض الأعمال

الشريرة. وقد بَرَعَ في أنواعٍ مُختلفة من الشرور تلقَّنها من مُعلّمه، وبالرغم من سعيه كثيرًا للتغيير، لم يستطِع، فقد كانت العادات السيِّئة تتملَّكه تمامًا. فقد مات أبواه وهو بعد صغير، ولم يجد من يُوجِّهه نحو طريق الفضيلة.

وفضلاً عن ضعفاته المُتعدِّدة، كان بوليكي مُولعًا بالشراب، كما كان مُعتادًا على الاستيلاء على ما للغير حينما كان يجد الفُرصة سانحة له، دون أن يراه أحد. الأطواق، الأقفال، مزاليج الأبواب، والكثير من المُقتنيات القيِّمة التي للبعض، كانت تجد لها مكانًا، في سُرعةٍ مُذهلةٍ، وبكميَّاتٍ كبيرةٍ، في منزله. لم يكُن يستخدم تلك الأشياء لاحتياجاته الشخصية، ولكنه كان يبيعها كلّما استطاع العثور على المُشتري المُناسب. كانت أُجرته في الأساس زُجاجات من الويسكي، إلاّ إنَّه أحيانًا كان يقْبَض الثمن، نقودًا سائلة.

كانت وظيفته، كما قال جيرانه، خفيفة ومُربِحة؛ لم تكُن تلك الوظيفة تتطلّب تعليمًا ما ولا عملاً جَدِيًّا. إلاّ إن مثل ذلك العمل كانت به مُشكلةٌ واحدةٌ وهي اضطراره للتصالُح مع ضحاياه عمّا فقدوه. وبالرغم من هذا، كان يُمكنه أن يقضي وقتًا طويلاً مُكْتفيًا دون الحاجة إلى المال أو العمل، إلاّ إنَّ احتمالية انكشافه قائمة على الدوام. وتبعًا لذلك، كان من المُؤكَّد قضاء بوليكي لفترةٍ طويلةٍ في السجن. إنَّ هذا الخطر المُحدِق به والوشيك، هو ما جعل من الحياة ثِقَلاً على بوليكي وعائلته.

كان زواجه بمثابة عائق مُبكِّر لحياته العمليَّة، إذ تزوَّج وهو بعد صغير، ووهبه الله، السعادة. كانت زوجته ابنة لراعٍ، عفيَّةً، ذكيَّةً، ومُحبِّة للعمل. وقد حملت له العديد من الأطفال، كان كلٌّ منهم أفضل من سابقه، كما قيل آنذاك.

استمر بوليكي في السرقة، إلاّ إنه، قُبِضَ عليه ذات مرّة، وبحوزته بعض الأدوات الصغيرة التي كانت مِلكًا لآخرين. من بين المسروقات كان يوجد زوج من السُرُج الجلديَّة، والتي كانت لأحد القرويين، الذي ضربهُ ضربًا مُبرحًا، وأخبر سيِّدته عمّا فعل.

ومن ذلك الحين، أمسى بوليكي موضع شك دائم، وقد كُشِفت مُحاولتين له للفرار ببعض المسروقات. وبدأ الجميع يُعاملون بوليكي بطريقةٍ سيِّئةٍ، وقد هدَّده كاتب الضيعة أنه سوف يسعى لتجنيده في الجيش، كعسكري (وهو ما كان يُنظَر إليه من قِبَل الفلاّحين كعقابٍ ومبعث للخزي). كانت سيِّدته النبيلة تُوبِّخه بشدَّة، وكانت زوجته كثيرًا ما تنتحِب على سقطته، وكلّ شيءٍ بات يسير من سيِّءٍ إلى أسوأ.

على الرغم من ضعفات بوليكي المُتعدِّدة، كان إنسانًا ذا طبيعة حسنة، إلاّ إنَّ انغماسه في الشراب كان مُتسيِّدًا على كلّ غرائزه، فقد كان في غيبة من الوعي تعفيه من الجانب الأكبر من المسئولية عن أفعاله. لقد حاول مِرارًا التغلُّب على تلك العادة ولكن دون جدوى. كان يرجع المترل في حالة من السُكر البيِّن، وكان صبرُ زوجته قد نَفَذَ، فكانت تصُب عليه وابلاً من اللَّعنات وتضربه بقسوةٍ. وكان أحيانًا يبكي كطفلٍ، مُتحسِّرًا على قَدَرُه في الحياة، قائلاً:

- يا لي من إنسان سيِّء الحظ .. ماذا أفعل؟ فلتتمزَّق عيناي وتتناثر كأشلاءٍ إن لم أُقلِع عن تلك العادة الدنيئة! .. لن ألمس الفودكا مرّة أخرى.

وبالرغم من وعود بوليكي المُتعدِّدة عن انصلاح حاله .. لا ينقضي سوى فترةٍ قصيرةٍ (رُبما شهر) حتّى يختفي من مترله بطريقةٍ غامضةٍ، مُتغيِّبًا لِعدَّة

أيام.

كان جيرانه يتسائلون وهم يهزون رُؤوسِهم:

- من أين له بهذا القدر من المال الذي يُنفِقه بحريَّةٍ تامةٍ؟

- واحدة من سَرِقاته التي لم يكُن محظوظًا بها؛ ساعةٌ تمتلِكها سيِّدته.

كانت الساعة قائمةً في المكتب الخاص بالسيِّدة النبيلة، وهي من القِدَم مِمّا جعلها أقرب لإرث مُتناقل بين الأجيال منها لساعةٍ عاملةٍ.

حدث أنَّ بوليكي تسلَّل إلى المكتب ذات يومٍ، ولم يكُن هناك في المكان سواه، وقعت عيناه على الساعة القديمة والتي بدت له ذات سحر آسِر، وبسرعةٍ نقلها لملكيته الخاصة .. ذهب بها إلى مدينةٍ ليست بعيدة عن قريته حيث عَثَرَ على المُشتري المُناسب لها.

كان صاحب المتجر الذي باع له بوليكي، الساعة، ذا قرابةٍ لأحد العاملين في ضيعة السيِّدة النبيلة، وأثناء زيارته لقريبه في العُطلة التالية، حدَّثه عن شرائِه لتلك الساعة، مِمّا جعل عقوبة بوليكي أمرًا مُؤكدًا.

أُجريت التحقيقات في واقعة السرقة، وكُشِف النقاب عن تفاصيل تلك الواقعة وتورُّط بوليكي في الحادثة. رُفِع الأمر إلى السيِّدة النبيلة، التي طلبت استدعاءه ليَمْثُل أمامها، وحينما تمت مواجهته بالأمر، انهار واعترف بكلّ شيءٍ. سقط بوليكي على رُكبتيه عند أقدام السيِّدة النبيلة طالبًا العفو. فما كان من تلك السيِّدة الطَّيِبة القلب إلاّ أن حدَّثته عن الله، وخلاص الروح، وحياته الأبدية. كما أشارت له عن مدى البؤس والخزي الذي جَلَبُه بأفعاله على أُسرته، وقد مسَّت تلك الكلمات شِغَاف قلبه، فبكى كما لو كان طفلاً صغيرًا، وهو ما دفعها لتقول له:

"سوف أعفو عنك هذه المرّة فقط إن وعدتني بأن تتوب وتُصلِح طُرُقك، ولا تأخُذ ما ليس لك مرّة أخرى". أجابها بوليكي وهو ينتحِب:

- لن أسرق مرّة أخرى مادُمت حيّاً، وإن حنثت في عهدي فلتنشق الأرض وتبتلعني، وليحترق جسدي بالأصفاد المُحمَّاة.

عاد بوليكي إلى منزله وقد ألقى بنفسه على المَوقِد وهو يُكرِّر طُوال اليوم وعوده التي لَفَظَها أمام سيِّدته.

ومن ذلك اليوم فصاعدًا لم يُمْسَك في سرقةٍ، إلاَّ إنَّ حياته باتت تعيسةً للغاية، إذ كان موضِع شك الجميع، وكان يُنظَر إليه كلصٍ.

وحينما جاء ميعاد التقدُّم بمُجندين جُدُد للجيش، كان بوليكي هو مُرشَّح أهل القرية بأجمعهم. كان ناظر المكان يترقَّب وقت التخلُّص منه، وقد ذهب إلى السيِّدة ليستحثها على الدفع به في سِلْك الجُنديَّة. إلاّ إنَّ تلك السيِّدة الطَّيبة القلب والرحومة تذكرت توبته، رافضةً طلب الناظر، وطالبته بالبحث عن آخر عِوضًا عن بوليكي.

الفصل الثاني

ذات ليلةٍ وبينما كان بوليكي جالسًا على فِراشه بجوار الطاولة، يُحضِّر بعض الأدوية للماشية، انفتح الباب فجأةً. دخلت أكسيوتكا، تلك الفتاة الصغيرة من الضيعة، لاهثةً، وهي تقول:

- سيِّدتي تأمُرك يا بوليكي ايليتش أن تأتي إليها على الفور

كانت الفتاة تُحاول أن تستجمِع أنفاسها من الإجهاد، وهي تُضيف:

- إيجور ميكائيلوفيتش، الناظر، جاء ليُقابِل السيِّدة بخصوص انضمامك للجيش. لقد طُرِحَ اسمك بين آخرين، وقد أرسلتني إليك، السيِّدة، لأصطحِبك للضيعة على الفور

بُمجرّد أن ألقت أكسيوتكا برسالتها، غادرت على عَجَلٍ، تمامًا كما دخلت المترل.

هيَّأت أكولينا الحذاء القديم لزوجِها، في صمتٍ. إذ كانوا فُقراء، وكانت ملابسهم من بقايا ملابس الجنود. لم تَنْظُر أكولينا إليه وهي تُعطيه الحذاء ليرتديه.

"هل سوف تُغيِّر قميصك يا ايليتش؟" تسائلت زوجته.

أجاب بوليكي:

- لا

لم تُحاول أكولينا النظر لبوليكي ولو لمرّة واحدة، بينما كان يرتدي حذاءه، تأهُّبًا لُملاقاة السيِّدة. ولعلّ ذلك كان أفضل، إذ قد عَلَتْ وجهه

صُفرةً جعلته شاحبًا، بينما كانت شفتاه ترتجفان. مشّط شعره على مهلٍ، وهمّ بالمُغادرة دون أن تنبِت شفتاه بكلمةٍ، ولكن زوجته استوقفته لتُعدِّل من وضع الوِشاح الذي كان يرتديه فوق قميصه. وبعد أن تلهَّت قليلاً بمِعطفه، وضعت القُبَّعة على رأسه، وبعدها خرج من المنزل.

كان يفصِل منزل بوليكي عن الجيران حاجز رفيع لم يكُن ليحفظ خصوصيّة ما يُقال أو يُعمل في المنزل. بعد رحيل بوليكي سُمِع صوت امرأة تقول:

- حسنًا يا بوليكي ايليتش، لقد استدعتك سيِّدتك إذًا!!

لقد كان الصوت صادرًا من المنزل المُجاور والذي لا يفصله عن منزل بوليكي سوى هذا الحاجز الرفيع. كانت أكولينا قد تشاجرت مع زوجة جارهم في الصباح بسبب عَبَثْ أحد أولاد بوليكي. لذا كان استدعاء بوليكي من قِبَل السيِّدة مبعث سعادة لتلك المرأة. لقد نظرت للأمر وكأنه فألٌ سيِّء لعائلة بوليكي، وظلّت تقول لنفسها:

- ربما ستُرسله إلى المدينة ليبتاع لها بعض الأشياء .. إلاّ إنَّني لا أظُن أنها سوف تختار رجُلاً مُخلِصًا، مثلك يا ايليتش، لتبعثه في تلك المُهمِّة!! ولكن إن أردت أن تُبرهِن أنها تُريد إرسالك إلى تلك المُهمّة، فلتبتَعْ لي رُبع أوقيّة من الشاي يا بوليكي ايليتش .. هل ستفعل؟.

بينما كانت المسكينة أكولينا تسمع المرأة وهي تتحدَّث بتلك القسوة عن زوجها، انفلتت دموعها، والمرأة مُستمرّة في خُطبتها. تملَّك الغضب من أكولينا، مُتمنيَّةً أن تسنح لها الفُرصة لتُعاقبها يومًا ما.

تحوَّلت أفكار أكولينا عن تلك المرأة الفظّة، وهي تتأمَّل أطفالها النِيام،

مُحدِّثةً نفسها بأهم سوف يُصبِحون يتامى عن قريب، وستصير هي أرملةً لجنديٍّ. كان لتلك الأفكار تأثير سيِّء عليها أصابها بالإحباط، وقد ألقت بنفسها على الفِراش وهي تسنِد رأسها بين راحتيها، حيث كان ينام أطفالها.

قَطَعَ صوت، أفكارها المُتلاحقة، وهو يصرُخ:

- يا أُمي، أنتِ تسحقينني ..

كان هذا صوت طفلها، الذي جذب ثياب نومها من تحت ذراعيها، مُنفلِتًا من أسفلها ..

قالت أكولينا وهي لا تزال تُحيط رأسها براحتيها:

- قد يكون أفضل لنا أن نموت جميعًا، لقد جئت بك يا صغيري إلى العالم لكي تُعاني وتتألّم ..

انفجرت أكولينا في البُكاء والنحيب، غير قادرة على كبح جِماح حُزنها العميق، والذي كان بمثابة سعادة لزوجة جارها، التي لم تنسَ عِراك الصباح، وشرعت تضحك بصوتٍ عالٍ على فاجعة جارها.

الفصل الثالث

لم يَمْضِ سوى نصف ساعة حتّى أيقظ صُراخ الطفل الصغير، أكولينا، التي شرعت تُطعِمه. كانت قد توقفت عن البُكاء، إلاّ إنّها ما فَتِئت تضع رأسها بين راحتيها من جديد بعدما انتهت من إطعام صغيرها. كانت شاحبة الوجه، الأمر الذي زادها جمالاً. مرّ بعض الوقت، حتّى رفعت وجهها وبدأت تُحدِّق في الشمعة المُشتعلة، وهي تتساءل عن سبب زواجها بالأساس؟ وعن الدّاعي الذي يستلزِم انخراط كلّ هذا العدد من الجنود في صفوف الجيش؟

سَمِعَت وقع أقدامٍ في الخارج، عرفت منها أنّ زوجها في طريقه إلى المترل. مَسَحَتْ بسرعةٍ آثار دموعها، ووقفت حتّى يتسنّى له الدخول إلى مُنتصف الغُرفة.

دخل بوليكي وقد بَدَتْ على مُحيَّاه إمارات النُّصرة. ألقى بقُبَّعته من على رأسه، وخلع مِعطفه على عَجَلٍ، بينما لم يفتُر فمه عن أي شيء.

لم تستطِع أكولينا الصبر أكثر من هذا، فبادرته قائلةً:

- حسنًا، ماذا أرادت منك؟

أجاب قائلاً:

- إنّ الجميع يعتبر بوليكوشكا أسوأ مَنْ في القرية، ولكن حينما يتعلّق الأمر بالعمل الهام، مَنْ سيختارون؟ بوليكوشكا بالطبع.

"ما نوع هذا العمل؟" تسائلت زوجته.

لم يُجبها بوليكي على الفور، ولكنه أشعل الغليون، وهو يُبصِق على الأرض عِدَّة مرّات، قبل أن يُجيب مُحافظًا على خيلائه، قائلاً:

– لقد طلبت مني أن أتوجَّه إلى أحد تُجار المدينة لأجمع لها بعض المال.

"أنت .. تجمع المال؟!" تسائلت أكولينا وهي مُندهشة.

هزَّ بوليكي رأسه مُبتسمًا وهو يقول:

"أنت" قالت لي السيِّدة، "رجُل يرزح تحت شكوك الآخرين، ويعتبرك الجميع غير أهلٍ للثقة بأي حالٍ، ولكن لي إيمان بك، ولسوف أأتمنك على هذا العمل الهام، دون غيرك".

قالها بوليكي بصوتٍ عالٍ حتّى يتسنَّى لجاره سماع هذا الحديث. وأضاف قائلاً:

"أنت وعدتني بأن تُصلِح من طُرُقك" قالت لي سيِّدتي النبيلة، "ولسوف أكون أول من يُظهِر لك كم أنا على ثقةٍ كاملةٍ بوعدك لي. أُريدك أن تركب حتّى تصل إلى المدينة، وتذهب إلى التاجر الكبير، لتُحصِّل لي بعض المال، وتقفل راجعًا". فقُلت لسيِّدتي: "سوف أفعل عن طِيب خاطر، كلّ ما أمرتني به .. ".

حينها قالت لي سيِّدتي:

"هل تُدرِك يا بوليكي أنَّ مُستقبلك ومصيرك مرهون بمدى إخلاصك في أداء تلك المُهمّة التي أوكلتك بها؟" أجبت قائلاً:

- نعم أُدرِكُ ذلك جيِّدًا، وأشعُر أنني سوف أقوم بالمُهمّة التي أوكلتها إليَّ خير قيام. لقد كُنت عُرضة لكلّ التُهَمْ الشريرة التي يُمكن أن يُتَّهم بها المرء. إلاّ إنَّني لم أُخطِئ في حقِك ذات يوم يا سيِّدتي المُبجَّلة!!

على هذا النحو استمر الحوار بيني وبين سيِّدتي حتّى نَجَحْت في إقناعها بصِدق توبتي. ولقد لان جانبها تجاهي، وقالت لي:

"لسوف أمنحُك المكانة الأولى في الضيعة". هنا وتسائلت أكولينا:

- كم من المال ستُحصِّله للسيِّدة في تلك المُهمّة؟

"ألف وخُمسمائة روبِل" أجابها بوليكي دون اكتراث.

سألته أكولينا وهي تهزُّ رأسها بحزنٍ:

- ومتى ستبدأ؟

"لقد أمرتني بالرحيل غدًا" أجاب بوليكي، "اختر أي حُصان يروق لك" قالت لي، "تعال إلى مكتبي وسوف أُقابِلك هناك، ولتوفّق في رحلتك".

"المجدُ لك يارب" هتفت أكولينا، وهي تَنْهَض راسمةً علامة الصليب، "إني على ثقة أنَّ الله سيُبارِكك يا ايليتش" أضافت هامسةً، حتّى لا يسمع جيرانها ما قالته.

"ايليتش" .. نادت بصوت يملؤه الإثارة، "عِدْني بالله عليك ألاّ تمسّ الفودكا مُجدَّدًا، أقسِم أمام الله على هذا الأمر، وقبِّل الصليب، حتّى يطمئنُ قلبي أنَّكَ لن تحنِث في القَسَمْ" أجابها بوليكي باستخفافٍ:

- أتعتقدين أنه بإمكاني أن أشرب وأنا حامل في حوزتي هذا القدر من المال؟!

"يا أكولينا، هيِّئي لي قميصًا نظيفًا للصباح" .. كانت تلك هي آخر كلماته في تلك الليلة.

غطَّ بوليكي وزوجته في نومٍ عميقٍ وأذهانهم هانئةً، حـــالمين بمُســـتقبلٍ مُشرِقٍ.

الفصل الرابع

في الصباح الباكر، وقبل أن تُوارى السماءُ النجوم، كانت تقف أمام منزل بوليكي، عربةً كتلك التي يستقلها الناظر، يُجرُّها فرسٌ بنيٌّ داكن عريض المنكبين، أُطلِقَ عليه لسببٍ غير معروف، باراباان (طبلة). وبالرغم من المطر المُتساقِط بغزارةٍ والبرد اللافح، وقفت أنيوتكا، ابنة بوليكي الكُبرى، عارية القدمين وهي تَمْسِك بلِجام الفرس بإحدى يديها (وقد اعتراها بعض الخوف)، بينما حاولت باليد الثانية أن تُبقِي مِعطفها المخطّط بالأخضر والأصفر، حول جسدها، وأيضًا لكي تُبقي مِعْطف بوليكي المصنوع من جلد الغنم، ثابتًا.

بينما كان المنزل يَضُجُّ بالحركة والاضطراب، والغَلَسْ [1] يُغلّف السماء، حتّى أنَّ ضوء النهار لم يستطِع اختراق ألواح الزُجاج المُتكسِّرة، إذ كانت النافذة تحوي بعض الخِرَق والورق في أكثر من موضعٍ، لتمنع الهواء البارد من الدخول.

توقّفت أكولينا عن الطبخ هنيهة لتُساعد بوليكي ليتهيَّأ للرحلة. كان مُعظم الأولاد في فِراشِهِم ليتجنبوا برودة الجو، وقد أخذت أكولينا المِعطف الكبير التي اعتادت أن تُغطيهم به، واستبدلته بشالٍ خاصٍ بها. كان قميصُ بوليكي نظيفًا مُهندمًا، بينما كان حذاؤه يحتاج لبعض الإصلاحات، وهو ما

---

[1] الغَلَسْ هو ظُلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

جعل زوجته المُخلِصة، مُضطربة بالأكثر. خلعت من قدميها جوربها الصوفي وأعطته لبوليكي ليرتديه، وهمَّت بإصلاح حذائه، مُرَقِّعةً الثقوب لتحمي قدميه من الرطوبة.

أثناء ذلك، جلس بوليكي على جانب الفِراش ورجليه مُتدليتان، إذ كان يُحاول أن يُعدِّل من وضع المنطقة التي حجزت المِعطف عند الخصر. كان يبتغي أن يبدو مُتأنقًا قدر الإمكان، إلاّ إنَّه كان يرى أنَّ المنطقة تبدو في نهاية الأمر كحبلٍ مُتسِخ.

ذهبت إحدى بناته، وقد غاصت في مِعطفٍ من جلد الغنم، إلى منزل أحد الجيران لتقترِض منه قُبّعةً.

كان منزل بوليكي يَعِجُّ بالناس، فقد بدأ توافُد خُدّام الضيعة ليُحمِّلوا بوليكي ببعض الطلبات من المدينة. كانت طلباتهُم تتزايد، أراد أحدهم مخاريز، وآخر شاي، وغيره بعضًا من الدُّخان. وأخيرًا دَلَفَتْ إلى المنزل زوجة جارهم، والتي أعدَّت إناء الشاي، وهي تتهيَّأ في قلقٍ واضحٍ لتُكْمِل عِراك الأمس.

رفض جاره نيكيتا إقراضهم القُبَّعة مِمّا استلزم رفَّ القُبَّعة القديمة، وهو ما استغرق بعض الوقت إذ كانت الثقوب تملؤها.

وأخيرًا، تهَيَّأ بوليكي بالتمام للرحلة، وقفز إلى العربة، بعد أن رسم ذاته بعلامة الصليب. وفي أخر لحظةً، جرى صغيره ميشكا إلى الباب مُتوسِّلاً إليه أن يمنحه جولة صغيرة على مَتْن العربة، وبعدها ظهرت ابنته ماشكا أيضًا وهي تلتمِس منه أن تركب معه العربة، مُؤكدةً أنها لن تتذمَّر من برودة الجو إذ لم تكُن ترتدي مِعطفها السميك.

أوقف بوليكي الحُصان حالما سمع صوت أطفاله .. وضعتهُم أكولينا بجواره على مَتْن العربة، مع اثنين من أبناء الجيران، كان الجميع مُتلهفين لنُزهة قصيرة بالعربة. وبينما كانت أكولينا تضع أبناءها في العربة، ذكَّرته بوعد الليلة السابقة؛ ألاّ يمسُّ الفودكا طُوال الرحلة.

تحرَّكت العربة وعلى مَتْنها الأطفال وبوليكي الذي سار بهم حتّى وصل إلى موضِع الحِداد .. هناك أنزلهم من العربة، مُشددًا عليهم بضرورة العودة إلى المترل على الفور. أصلح بوليكي ثيابه، مُعتَمِرًا قُبَّعته .. وانطلق بالحُصان.

قَفَلَ ميشكا وماشكا عائدين إلى البيت وهما حافيا القدمين، وبينما هما يعدوان نحو البيت، رآهما كلب من قريةٍ مُجاورةٍ، فما كان منه إلاّ إنَّه جرّ ذيله مُهرولاً وهو ينبح ..

كان الجو باردًا، وريحُ شديدةُ تَهَبُّ بلا توقُّف، ولكن هذا لم يُقلِق بوليكي الذي كان عقله مأخوذًا بأفكار سعيدة. كان بوليكي يُردِّد داخله طُوال الرحلة، ووسط هذا الشتاء القارس:

– إذًا، أنا الرجُل الذي أرادوا إرساله إلى سيبريا، والذي أرادوا الزج به في سِلْك الجُندية، والذي أساء إليه الجميع، ونعتوه بالكسل، وأشار إليه الجميع كلصٍّ، وأوكلوا إليه أحقر الأعمال في الضيعة!! والآن، أنا الذي سوف أُحصِّل هذا القدر الكبير من المال، لأنَّ سيِّدتي التي أرسلتني تثقُ بي. وها أنا الآن أمتطي نفس العربة التي كان الناظر يرتحِلُ عليها حينما كان يُمثِّل الضيعة. ها بين يدي الآن؛ الفَرَسْ، اللجام، الطوق الجلدي، وكلّ شيءٍ.

امتلأ بوليكي بالفخر كُلّما كان يُفكّر بالمُهمّة التي أُوكلت إليه. كان الهواء الذي يلفحه يُدخِل الفخر إلى نفسه، وهو يُثبّت قُبَّعته القديمة على رأسه، ويُغلِق مِعطفه حوله، ويلكأ الحُصان ليُزيد من سُرعته.

سوف أحمل في حوزتي ثلاثة آلاف نصف روبِل (كان الفلاّحين يَعدّون المال بنصف الروبِل حتّى يبدو وكأنه قدرٌ أكبر من المال)، واحتضنهم بين ذراعيّ. إن أردت، يُمكنني أن أهرب بالمال إلى أوديسا، بدلاً من العودة به لسيِّدتي. ولكن لا .. لن أفعل هذا، سوف أعود بالمال لتلك المرأة الطَّيِبة التي وضعت ثقتها فيَّ.

حالما بلغ بوليكي الحانة الأولى، وجد أنَّ الحُصان، بحُكم العادة، ينظُر إليه، ولكنه لم يكُن ليسمح له بالتوقف، بالرغم من امتلاكه بعضًا من المال الكافي لشراء الطعام والشراب. لكأ بوليكي، الحُصان، بسوطه، وعَبَرَ الحانة الأولى. تكرَّر الأمر عندما وصل للحانة الثانية، والتي بدت مُرحِّبةً به، ولكنه ثبَّت وجهه على الطريق وعبر بها دون أن يدخُل.

وصل بوليكي إلى وجهته في الظهيرة، ونزل من العربة مُقتربًا من مترل التاجر، حيث يقف عاملو المكان. انفتحت البوابة ودخلها مع حُصانه، وحالما استقر هناك، قدَّم له الطعام بعد أن حلَّ لجامه. دخل بوليكي إلى المترل وتناول طعام الغداء مع مُساعدي التاجر، وقد أوضح لهم أهمية المُهمّة التي أوُكِلت إليه، وقد كانت جلسته مُسليَّة وخاصّة مع مظهر الخيلاء الذي حافظ عليه على مائدة الطعام. بعد انتهاء الغداء، حَمَلْ الخطاب، الذي أرفقته إيّاه السيِّدة النبيلة، للتاجر، وسلّمه إيّاه.

كان التاجر يسمع بين الحين والآخر عن بوليكي، وقد عرف أنَّ سُمعته

ليست على ما يُرام مِمّا جعل الشك يُساوره في إيداعه هذا القدر من المال. كان قَلِقًا من أن يكون الأمر مُجرّد خدعة وأنه لم يتلقَ أوامرًا بتحصيل هذا المبلغ من المال، مِمّا دفعه لسؤاله عن الأمر. حاول بوليكي أن يُبدي استياءه من أسئلة التاجر، ولكنه لم يفلح، فاكتفى بالابتسام. قرأ التاجر الخطاب مرّة ثانية للتأكُّد من الأمر، بعدها أعطاه المال، والذي بدوره وضعه في صدره ضامًا راحتيه فوقه.

نزل بوليكي إلى المدينة ليشتري بعض المُستلزمات، ولكنه لم يتوقف ولا لمرّة واحدة أمام أيًا من المتاجر. لم تكُن محال الملابس ذات جاذبية على الإطلاق بالنسبة له، وبعدما عبر بهم جميعًا توقّف لبُرهة، مُنتشيًا من قُدرته على التغلُّب على مُجاذبات الأفكار .. وذهب في طريقه.

"أنا أمتلِك من المال ما يُمكّنني من شراء أي شيء، ولكنني لن أفعل" قال بوليكي

لقد كانت احتياجات أهل القرية هي دافعة ليعرُج على أحد المتاجر. إلاّ إنَّه لم يستطِع هذه المرّة أن يُقاوم رغبته في السؤال عن ثمن المِعطف الأنيق الذي جذب ناظريه من بعيد. ابتسم التاجر، الذي ألقى بوليكي عليه السؤال، وهو يتفرَّس في هيئته غير مصدِّقٍ أنَّ بوليكي يملُك من المال ما يُمكّنه من شراء مثل هذا المِعطف الغالي الثمن. ولكن بوليكي أشار إلى المال الذي في حوزته مُؤكّدًا للتاجر أنَّ بإمكانه شراء المحل كلّه وليس المِعطف فقط، لو أراد. أمَرْ التاجر، حارس المتجر، بأخذ مقاس بوليكي، وألبسه المِعطف. نَظَر بوليكي إلى نفسه في المرآة بعناية، مُتحسِّسًا شعر المِعطف للتأكُّد من جودته وأنه لا يتأثَّر بحركة أصابعه عليه. وأخيرًا خلع بوليكي

المِعطف وهو يتنهَّد تنهُدًا عميقًا.

"إنَّ الثمن باهظ للغاية" قال بوليكي، "إن أمكن بيعه بخمسة عشر روبلاً ..."

قاطعه التاجر، وقد جذب المِعطف من يده مُلقيًا به في غضب، إلى الجهة الأخرى.

خرج بوليكي من المتجر وعاد إلى منزل التاجر وهو مُنتشٍ للغاية. وبعد العشاء، خرج لِيُطعِم حُصانه، ويُعِدَّ كلّ شيءٍ للمبيت في تلك الليلة. عاد بوليكي إلى المنزل وألقى بنفسه على الفِراش ليرتاح. أمسك بالمظروف الذي يحوي المال بيده ونَظَر إليه مَلِيًّا. لم يكُن بوليكي يعرف القراءة ولكنه سأل مَنْ بجواره عمّا هو مكتوب على المظروف. كان العنوان وكمُّ المال الموجود به (ألف وخُمسمائة روبِل) هو ما كان مكتوبًا عليه. كان المظروف مصنوعًا من الورق العادي ومختومًا بختمٍ شمعيٍّ بنيٍّ قاتِمٍ؛ ختمٌ كبيرٌ في المُنتصف، وأربعة ختوم صغيرة على الجوانب الأربعة. كان بوليكي يتفحَّص المظروف بعناية، وهو يُداعبه بأصابعه وكأنه طفل صغير يجد لذَّة لامتلاكه هذا القدر من المال.

بعدما انتهى من تفحُّص المظروف، دسَّه في بِطانة قُبَّعته القديمة، ووضع الاثنين تحت رأسه وغطَّ في نومٍ عميق. إلاّ إنّه كان يستيقظ بين الحين والآخر ليتحسَّس المال للتأكُّد من أنّه مازال بأمانٍ. وفي كلّ مرّة كان يتأكَّد من وجود المال، يبتهج، مُتفكِّرًا فيما كان يلقاه من مُعاملة سيِّئة كلِصٍّ، ولكنه الآن مُؤتمنٍ على هذا المبلغ الكبير من المال، وهو على وشك العودة به آمنًا، كما كان يفعل الناظر تمامًا ...

الفصل الخامس

قبل بزوغ الفجر، استيقظ بوليكي، وشَرَعْ يَسْرِج حُصانه، مُتحسِّسًا قُبَّعته ليتأكَّد أنَّ المال مازال بخيرٍ .. وبدأ رحلة العودة ..

طُوال الرحلة كان بوليكي يخلع قُبَّعته ليتأكَّد من وجود المال. وكان يُحدِّث نفسه قائلاً:

"أعتقد أنّه يتوجَّب عليَّ أن أضع المال في صدري"

ولكن هذا الأمر كان يستلزم حلَّ المنطقة، لذا عَدَلَ عن رأيه قانعًا بوجود المال في القُبَّعة، على الأقل حتّى يصل لمنتصف الطريق، إذ سيتوقف مُرغمًا لكي ما يُطعِم حُصانه ويُريحه قليلاً. ولكنه قال لنفسه:

"إنَّ بِطانة القُبَّعة ليست مُحكمة وقد يسقُط المظروف منها، لذا لن أخلع القُبَّعة حتّى أصل إلى منزلي".

لقد كان المال في أمان، هكذا بدا له الأمر، فسَبَحَ بوليكي بخياله في مدى العِرفان والإمتنان الذي ستُظهِره له سيِّدته، واثقًا من تحصُّله على خمس روبلات دُفعةً واحدةً جرّاء تلك المُهمّة.

كرّر بوليكي الأمر مرّة أُخرى، مُطمئِنًا على المال، جاذبًا القُبَّعة إلى أسفل نحو أُذنيه، مُبتسمًا وغارقًا في أفكاره.

لقد رقَّعَت أكولينا ثقوب القُبَّعة جيدًا، ولكن ثقوبًا أخرى تفتَّقت نتيجة تكرار بوليكي خلع القُبَّعة.

تحت جُنْح الظلام، لم يَفطُن بوليكي إلى الثقوب التي وجدت لها مكانًا في

قُبّعته، وقد حاول دفع المظروف إلى داخل بطانتها، مِمّا أدّى إلى اختراقها لنسيجها الخارجي.

كانت الشمس بدأت تخطو أولى خُطواتها في السماء، وبوليكي لم يكُن قد نام إلاّ قليلاً في الليلة السابقة. شَعَرْ بوليكي بدفء أشعتها وغطَّ في النوم وهو يضغط على قُبّعته كعادته. كانت تلك الضغطة كفيلة بدفع المظروف إلى الخارج، وحالما هزَّ رأسه إلى أعلى وأسفل، سَقَطَ المظروف ...

لم يستيقظ بوليكي حتّى اقترب من منزله، وكعادته تحسَّس قُبَّعته ليتأكّد من وجودها على رأسه. ولأنها كانت على رأسه لم يُفكّر هذه المرّة في الاطمئنان على المال. لكأ جوّاده برفقٍ ليُسرِع قليلاً، وبينما كان يقترب من العودة، كان يتأمَّل مُفكّرًا في مِقدار المال الذي سوف يتحصَّل عليه، مُتخيِّلاً نفسه الرجُل الأوَّل في الضيعة .. أخذ بوليكي ينظُر حوله وملامح الخيلاء مُنطبعة على وجهه.

وحالما اقترب من المنزل، رأى منزله المُتواضع ذا الغُرفة الواحدة وزوجة جاره وهي تحمل أثوابًا من قُماش الكِتّان، كما رأى مكتب الضيعة ومنزل السيِّدة النبيلة، وتمنّى أن يصل هناك بسرعةٍ ليُظهِر مدى إخلاصه وأنّه أهلاً للثقة.

كان يُحاور نفسه مُؤكّدًا أنَّ أي شخص يُمكن أن تطاله سُمعةً سيِّئةً بسبب الألسنة الكاذبة، ولكن سيِّدته حينما تراه ستقول له: "حسنًا فعلت يا بوليكي، لقد أظهرت أنَّكَ شخص أمين، هاك ثلاثة، قد تكون أربعة، بل وربما خمسة روبلات لك" .. وسوف تطلُب لي قدحًا من الشاي، أو كأسًا من الفودكا، مَنْ يدري؟

لقد كانت الفكرة الأخيرة مبعث سعادة له، إذ كان يشعُر بالبرد يُفتِّت أوصاله. وقال بصوتٍ عالٍ:

– كم سيكون هذا اليوم مُباركًا وسعيدًا حينما يكون في حوزتنا عشرة روبلات. بمثل هذا المبلغ أستطيع أن أرُدَّ لنيكيتا الأربعة روبيلات والخمسون كوبكة التي اقترضتها منه، ويتبقّى معي ما يكفي لشراء أحذية جديدة للأطفال.

وباقتراب بوليكي من المترل بدأ يُرتِّب ثيابه، ويُسوِّي كوفيته الفَرْوِيَّة، ويَشدّ مِنطقته، ويُصفِّف شعره. ولكي يفعل هذا الأمر الأخير، كان يتوجَّب عليه خَلْع قُبَّعته، وحينما فَعَلْ تحسَّس موضِع المظروف داخل بِطانة القُبَّعة .. كانت يداه تتحرّكان بسُرعة داخل البِطانة بحثًا عن المظروف الذي لم يجد له أي أثر.

بَدَت على ملامح بوليكي في تلك اللحظة آثار الفاجعة، وابيضَّ وجهه من الخوف وهو يُحرِّك يداه بحثًا عن المال. أوقف بوليكي الحُصان وبدأ يُفتِّش العربة ومُحتوياهما بجهدٍ واضح. لم يعثُر للمظروف على أثرٍ، تحسَّس جيوبه ولكن دون جدوى!

قَبَضْ بوليكي بعُنفٍ على شعره وهو يقول:

– يا باتيشوكا .. ماذا سأفعل الآن؟ ماذا سيُقال عني؟

في نفس الوقت وجد نفسه بقُرب مترل جاره إذ بدأ يراه الجميع، وهو ما دَفَعَهُ العودة بالحُصان إلى الخلف، وهو يضع القُبَّعة على رأسه ليُخفي بها وجهه. ورجع بوليكي إلى الطريق مرّة أخرى بحثًا عن الكتر الضائع.



الفصل السادس

مرَّ اليوم بأكمله دون أن يرى أحد بوليكي في قرية بوكروفسكي. وقُرب الظهيرة بدأت السيِّدة تستسفر عن سبب تأخُّر بوليكي، بل وأرسلت أكسيوتكا إلى أكولينا، والتي بدورها أرسلتها للسيِّدة برسالةٍ مَفادها أنَّ بوليكي لم يرجِع بعد، وأنَّ التاجر قد يكون هو سبب تأخُّره، أو أنَّ شيئًا ما حدث للحُصان.

لقد شعرت زوجته المسكينة وكأنَّ حجرًا جاثمًا على صدرها .. كانت تُلبي حاجات المترل للغد (الذي هو يوم عُطلة) بتثاقُلٍ. انتظر الأولاد عودة أبيهم أيضًا، إلاّ إنَّهم تحلُّوا بالصبر في تَرَقُّب لعودته المأمولة. لقد كان مبعث قلق السيِّدة النبيلة وأكولينا هو بوليكي، بينما كان جلُّ اهتمام الأطفال هو ترقُّبهم لِمَا سيحصلون عليه من هدايا المدينة.

بدأت الأخبار تتسرَّب إلى القرية عبر بعض الفلاّحين الذين رأوه يذرع الطريق جيئةً وذِهابًا وهو يسأل إن كان أحد قد رأى مظروفًا ...

وقد رآه أحدهم يسير بجانب الحُصان المُجهد. "أعتقِد" يقول هو، "إنَّه كان مخمورًا، كما لم يُطعِم الحُصان لُمدّة يومين، إذ قد بدا على الحيوان الإرهاق".

لم تقدِر أكولينا على النوم في تلك الليلة وكان قلبها يخفِق بشدَّة على أمل عودته الذي لم يتحقَّق. حالما صاح الديك صيحته الثَّالِثة، قامت أكولينا لتُهيِّئ النار. كان الفجر قد بدأ يَلوح، وأجراس الكنائس أخذت في الرنين.

وسُرعانَ ما استيقظ كلُّ مَنْ في المترل إلاّ إنَّ أخبار الزوج والأب المفقود لم تَزَلْ غامضةً.

في الصباح، بينما كان الشتاء يُلقي بثلوجه الكثيفة والتي نَفَذَت إلى بيتِهِم المُتواضِع. كان المترل من الخارج، فضلاً عن الحقول والطُرُق، مُغطَّى بأكمله بطبقةٍ سميكةٍ من الثلوج. وبرغم برودة الجو إلاّ إنَّ اليوم كان صحوًا، وكأنه يتماشى مع العُطلة التي كانوا على وشك الاحتفال بها. كانت عيونهم تتعلَّق بالطريق، بيد أنَّ أحدًا لم يظهر في مدى الرؤية.

كانت أكولينا مُنشغِلة بخَبْز الكعك .. لم تكُن لتعرف بمقدم بوليكي ما لم يَصِحْ الأولاد في فرحٍ حينما لمحوه على الطريق. بعد عدَّة دقائق دخل البيت وفي يده لفَّة. تمشَّى في هدوءٍ ليجلس في رُكنه المُعتاد. لاحظت أكولينا شُحوب وجهه والذي يحمِل انطباعًا بألمٍ عميقٍ، وكأنه يُريد أن ينهمر في البُكاء إلاّ إنَّه لم يفعل. كانت تتفرَّس في وجهه وهي تسأله، في قلقٍ بدا واضحًا من نبرات صوتها، قائلةً:

- ماذا يا ايليتش! هل كلُّ شيءٍ على ما يُرام؟

دمدم بوليكي، إلاَّ إنَّ زوجته لم تفهم ما قاله ..

"ما الذي حدث؟!" صَرَخَتْ، "هل ذهبت لمُقابلة سيِّدتنا"

كان بوليكي جالسًا على فِراشه في جانبه المُعتاد، وقد حاول جاهدًا الابتسام إلاّ إنَّ ابتسامته فضحت المرارة التي كانت تملأه، ولم يَجِبْ لفترة طويلة مِمّا دفع أكولينا لتصرُخ مُجدَّدًا:

- يا ايليتش! لماذا لا تُجيبني؟ لماذا لا تتكلَّم؟

أخيرًا قال:

– أكولينا .. لقد سلَّمتُ المال لسيِّدتنا والتي شكرتني بحرارةٍ!!

كانت عيناه تتفحّص المكان من حوله، بابتسامةٍ حزينةٍ مُرتسمةً على شفتيه. لَفَتَ انتباهه شيئان؛ الطفل النائم في سريره، والحبل المُتدلّي من السُّلم. اقترب من سرير الطفل وأخذ الحبل وبدأ يحل العُقدة التي في الحبل بأصابعه الرفيعة، والتي كانت تربُط السرير بالحبل. بعدها وقف للحظات يتفرَّس في طفله الصغير، في سكونٍ.

لم تَلْحَظ أكولينا ما كان يفعله، إذ كانت مُتجهة بالكعك لتضعه في الجانب الآخر من الغُرفة. وبسرعةٍ، أخفى بوليكي الحبل تحت مِعطفه وجلس على الفِراش.

"ما الذي يُزعجك يا ايليتش؟" قالت أكولينا، "أنت لستَ طبيعيًا".

"فقط لم أنم بالقدر الكافي"، أجاب بوليكي.

وفجأةً، عَبَرَ أمام النافذة، خيالُ أسود، بعدها بدقيقةٍ، دَلَفَتْ أكسيوتكا إلى الحُجرة وهي تقول بصوت أقرب إلى الصُّراخ:

– إنَّ بويارينيا تأمُرك يا بوليكي ايليتش أن تأتي على الفور ..

نَظَر بوليكي إلى أكولينا ثم إلى الفتاة قبل أن يصيح:

– الآن، ما الذي تُريده مني مُجدَّدًا؟

لقد عَمَدَ بوليكي أن يقول عبارته الأخيرة بثقةٍ، الأمر الذي هدّأ من روع أكولينا، والتي باتت تعتقد أنَّ السيِّدة تُريد أن تُكافئ زوجها مرّة أخرى.

"أخبريها إني قادم على الفور"، قال بوليكي.

ولكن بوليكي لم يَتْبَع الفتاة، بل كانت له وجهةً أخرى ..

كان ثمة سلم يصل بين شُرفة منزله وحُجرة عُلوية. توجَّه بوليكي ناحية

السُّلم وهو يتلفّت حوله، وحينما اطمأن لعدم وجود أحدٍ، صعد إلى تلك الحُجرة.

في تلك الأثناء، وصلت الفتاة إلى منزل سيِّدها ..

"ماذا تعنين بأنَّ بوليكي لن يأتي؟!" قالت السيِّدة النبيلة وهي نافذة الصبر، "أين هو؟ لِمَ لا يأتي على الفور؟"

طارت أكسيوتكا مُجدَّدًا إلى بيت بوليكي وهي تطلُب رؤيته ..

"لقد ذهب منذ فترةٍ" أجابت أكولينا وهي تتلَّفت حولها وعلامات الخوف بدأت تتسلَّل إلى قَسَمَات وجهها، وأضافت: "قد يكون غَلَبَهُ النوم على قارعة الطريق".

آنذاك، صعدت زوجة جارهم إلى الحُجرة العُلوية بثيابها الرثَّة وشعرها الشَعث، لتجمع أثواب الكِتّان التي كانت قد وضعتهم في الصباح ليُجففَّوا. وفجأةً، سُمِعَ دُوي صرخةٍ مُرعبةٍ .. هرولت المرأة مُسرِعة كقطةٍ، إلى أسفل السُّلم، وهي مُطبقة العينين والجزع يتملَّكُها.

"ايليتش" صرخت، "لقد شنق نفسه!"

أسرعت أكولينا المسكينة تنهب السُّلم صعودًا قبل أن يستطيع، أيٌّ من الذين تجمّعوا من المنازل المُحيطة، منعها.

ووسط صرخةٍ أليمةٍ سقطت مغشيًا عليها وكأنها ميتة، وبالفعل كانت ستلقَى هذا المصير إن لم يتلقاها أحد الواقفين على ذراعيه ..

وقبل حلول مساء نفس اليوم، وَجَدَ أحد الفلاّحين من القرية، أثناء عودته من المدينة، المظروف الذي يحوي المال، على جانب الطريق ... أسْلَمهُ بدوره إلى بويارينيا؛ السيِّدة النبيلة.

سيِّد بين العبيد

اشترك في الترجمة د/ سحر صفوت

"وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة".

(لو٢: ١٤)

جرت أحداث هذه القصة في القرون الوسطى، حين كان النظام الإقطاعي هو النظام السائد في جميع أنحاء العالم. كانت طبقة السادة تمُلك الأرض وما عليها من نبات وبشر، وكان الفلاّحون هم عبيد الأرض لا يملكون أي نوع من الحُرية حتّى حُرية الحياة فقد كانت هذه من سُلطان الأُمراء والسادة. ولم يكُن هناك سُلطة تعلو سُلطة السيِّد أو الأمير فهو يتصرّف فيما مَلَك كما يشاء، لا يُراجعه قضاء أو قانون. ولمّا كانت الكنيسة نفسها تتبع هذا النمط في الحياة فلم يكُن هناك أي ملاذ أو ملجأ يتجه إليه المظلوم طلبًا للإنصاف. وكان الأساقفة هم السادة والأُمراء في الكنيسة، أمَّا الكهنة خُدّام المذبح فلم يكُن نصيبهم في القيادة والإدارة يتجاوز دور الفلاّحين والعبيد. ولذلك فقد سخّرت الكنيسة كلّ آيات الكتاب المُقدس التي تدعو إلى طاعة الشعب والخضوع للرؤساء، لتثبيت سُلطان أُمراء الكنيسة، كما استخدمت - من ناحية أخرى - اسلوب الإرهاب من قطع وحِرمان من الملكوت ضد مُخالفيها أو المُتمردين من الشعب ... وكلّنا نعرف كيف تجسّد هذا السُّلطان الرهيب في محاكم التفتيش التي كانت مصدرًا للرُعب في مواجهة الكنيسة.

على أنَّ هؤلاء السادة أو الأُمراء لم يكونوا من طراز واحد، فالبعض منهم كانوا يتقون الله ويحفظون وصاياه، ويضعون ساعة الموت نصب عيونهم وما يعقُبها من دينونة لا مجال فيها للتحايُل أو حتّى الدفاع عن النَّفْس لأنَّ الديّان العادل يعلم خفايا القلوب، وما يجري سرًا سوف يُستعلن

أمام العالم كلّه. ولا يملُك الأشرار إزاء هذا كلّه سوى أن يصرخوا للجبال أن تُغطِّيهم من وجه الجالس على العرش. وهؤلاء السادة كانوا يتميزون بالرحمة والرِفق بعبيدهم. ولكن كان هناك نوع آخر من السادة لا يعرفون شيئًا عن الكتاب المُقدس أو قضاء الله ولا يضعون الموت في حُسبانِهِم يتيهون صَلَفًا وكبرياء وكأنَّ سيادتهم ستدوم إلى الأبد. وكان هؤلاء مثالاً للقسوة البالغة، حتّى لا يبدو غريبًا إن سميناهم وحوشًا ضارية. وكان أسوأ هذه الشخصيات طائفة العبيد أنفسهم عندما تُوضع السُّلطة في أيديهم على إخوتهم. ولذلك كانت الحياة تحت رياسة هؤلاء الطُغاة هي أسوأ وأشقى وأتعس ما تكون الحياة.

ولذلك فقد استقر رأي السيَّد چاكوب على تعيين عبده ميخائيل رئيسًا للعُمّال يُشرف على كلّ كبيرة وصغيرة في الإقطاعية وكانت واسعة الأطراف تضُم مساحة كبيرة من الغابات، ومساحات كبيرة من الأراضي الزراعية فضلاً عن المخازن والمُعاصر مِمّا جعل عدد الفلاّحين والعُمّال عددًا لا يُستهان به. هذا بالإضافة إلى مراعي الأغنام الشاسعة والتي احتاجت إلى عدد غير قليل من الرُّعاة. وقد اشترى السيِّد چاكوب عددًا من العبيد لكي يكونوا تحت إمرة ميخائيل. ولا يجب أن ننسى في وسط هذه المُمتلكات الشاسعة ما تحتاجه من موارد المياه الجيدة.

كانت حياة السيِّد چاكوب والفلاّحين هادئة سعيدة حتّى تم تعيين العبد ميخائيل رئيسًا للعُمّال فما كاد يُعلن السيِّد الإقطاعي عن تعيين هذا العبد، حتّى بدأ صاحبنا بفرض سُلطانه على الجميع وفي جميع أنحاء الإقطاعية أولاً لكي يُثبِّت مركزه وسُلطانه الجديد، وثانيًا لكي ينال رضى السيِّد چاكوب

وثقته وبالتالي يُطلق يده بالأكثر في تدبير الإقطاعية. فبدأ يضغط على الفلاّحين والعُمّال بشدة.

وكان ميخائيل له عائلة صغيرة تتكوّن من زوجته الطِّيبة وابنتيه المُتزوجتين. وكان هذا بطبيعة الحال يحتاج إلى المال الوفير، وهذا جعل ميخائيل حريصًا على جمع المال بأي وسيلة، سواء كان ذلك بحق أم بغير حق. وقد عرف الجميع عنه صفات الطمع والشره. خصوصًا لأنَّ الأمر كان يمس حياتهم شخصيًا ... وتقريبًا كلّ يوم. فقد اعتاد ميخائيل أن يُلزِم العُمّال بتجاوز ساعات عملهم اليومية. ولا يوجد في النظام الإقطاعي ما يُقابل الأجر الإضافي عن الساعات الزيادة.

وعندما وافق السيِّد چاكوب على إنشاء مصنع للطوب، جعل ميخائيل العُمّال نساءً ورجالاً يعملون بلا توقف حتّى أشرفوا على الهلاك. ولكنه لم يعبأ بذلك في مُقابل ما يُمكن أن يجنيه من الربح عن طريق بيع الطوب. ومع شعور الفلاّحين بالمُعاناة، انتهز بعضهم فرصة إرسالهم إلى موسكو في بعض مهام العمل، وأسرعوا إلى السيِّد الإقطاعي چاكوب لكي يعرضوا شكواهم المُرّة مِمّا يُلاقونه من عِنت وظُلم واضطهاد ... ولكن مُحاولاتِهِم باءت بالفشل لأنَّ صاحب الأرض أعارهم آذانًا صمّاء، وردّهم إلى رئيس العُمّال وقد خيّم عليهم اليأس والإحباط، وأخذ ميخائيل بالتالي يسومهم العذاب ويثأر منهم وهو يجأر بصوته الأجوف كيف يجرؤ هؤلاء الفلاّحون على الشكوى ضده، ثم يسخر منهم وهو يُعلن أنه سيؤدبهم على هذه الفِعلة الشنعاء. وهكذا زادت ساعات عملهم اليومية، كما ازداد المطلوب منهم وصارت حياتهم أكثر بُؤسًا وأشد شقاء وتعاسة إمعانًا في الانتقام منهم

وعقابًا لهم على هذه الجرأة ضد رياسته.

ومِمّا زاد الطين بلّة، أنّ بعض هؤلاء الفلاّحين لم يكونوا أُمناء، فكانوا ينقلون عن إخوتهم ما يبتدعون من حكايات وروايات عن أعمالِهِم وتقاعُسهم في العمل، وتراخيهم في تنفيذ الأوامر ولم يتورعوا عن اختلاق الأحاديث الكاذبة لينقلوها إلى رئيس العُمّال الذي فتح أُذنيه للوشايات فأوغروا صدره، وزادوا غضبه وقسوته اشتعالاً ... واستحال جو العمل إلى حلقات مُخيفة من الإرهاب والعقوبات وأصبح رئيس العُمّال طاغية مرهوبًا حتّى إذا ما سار في شوارع القرية تهرب الرجال خوفًا من مُجرّد لقائه. كانوا يهربون إلى الأزقة والحواري كأنهم يهربون من وحش ضارٍ، ويتحايلون بكلّ الوسائل للهرب من عينيه الصارمتين كعيون صقر جارح مُزمع أن ينقض على فريسته ...

لم تغِب هذه المُحاولات عن عيني ميخائيل، الذي أثاره هذا التصرُّف فاستشاط غضبًا، فزاد من أعمال سُخرتِهِم وألهب ظهورهم بالسياط ... وارتفع أنين الفلاّحين من الآلام المُوجِعة. ولكنهم مع مُضي الوقت بدأوا يعتادون على هذا الأُسلوب الشرس، ويُلاقونه بشيء من الاستهتار وعدم المُبالاة. ولكنهم كانوا يُنفِسون عمّا يشعرون به من ضيق وضجر عندما يجتمعون معًا في بُقعة مُنعزلة، ويدور حوارهم حول مُعاناتِهِم اليومية. وبرز من صفوفِهِم من يتمتّع بشيء من الجرأة فيقول:

– إلى متى نحتمِل هذا الوحش الذي وضع أُنوفنا في الرغام، وداس على كرامتنا بحذائه القذِر ... هلُمَّ نجمع شملنا وننقض عليه كرجُل واحد ونتخلّص منه تمامًا. وأظن أنّ قتل مثل هذا الرجُل لا يُمكن أن يُعتبر خطية.

ولكن أحدًا منهم لم يجرؤ على اقتراف هذه الجريمة.

في إحدى المرّات أصدر رئيس العُمّال أوامره للعُمّال بقطع الحشائش الزائدة في الغابة، وكان ذلك قبل أسبوع الآلام مُباشرةً. وعندما اجتمعوا كعادتهم في بُقعة مُنعزلة حيث يسهُل حديثهم بطلاقة، فيُطلقون لألسنتهم العنان في اغتياب ميخائيل، بدأوا فعلاً حوارهم من جديد على هذه الصورة بما فيها من سخط وتذمُّر.

- كيف نستطيع أن نُواصل حياتنا على هذه الصورة المُهينة؟ إنَّ هذا الرجُل يدفعنا بلا رحمة لليأس والإحباط.
- إنه أرغمنا في هذه الفترة الأخيرة على العمل بلا هوادة فوق طاقتنا حتّى إننا لم نستطِع أن نأخذ شيئًا من الراحة ولو لدقيقة واحدة لا ليلاً ولا نهارًا.
- ومع ذلك فإذا لم يتم العمل على هواه، يطيح بنا ضربًا بالسياط.
- لقد مات سيمون بسبب ضربة عنيفة بالسوط.
- ولم يستطِع أنسيمُس أن يحتمل العذاب الوحشي الذي تعرّض له في المخازن.
- ماذا ننتظر بعد ذلك؟ فإنَّ هذا الوحش سيأتي إلى هنا هذا المساء، وسوف نستمع إلى الكثير من سلاطة لسانه.
- حسنًا، كلّ ما يجب علينا أن نفعله، أن نجذبه بقُوّة من على صهوة جواده، ثم نقضي عليه بضربة فأس قوية على رأسه، وهكذا تنتهي المُشكلة تمامًا.
- ويُمكننا بعد ذلك أن نأخذ جسده في مكان قصي، ونقطعه إربًا

ونُلقي بهذه القِطَع في مجرى النهر، الذي سيحملها إلى المجهول.

- المهم أن نتفق معًا، وأن نقف جنبًا إلى جنب، ولا يجب أن تكون هناك خيانة!

كان ڤاسيلي رومانوف أكثرهم تصميمًا على تنفيذ هذه الخطة، فقد كان يحمل بين جنبيه ضغينة وكراهية قاتلة ضد رئيس العُمّال، ليس فقط لأنّ الأخير كان يُلهِب ظهره بالسوط كلّ أسبوع، ولكنه أرغم زوجة ڤاسيلي أن تعمل في بيته طاهية. وهكذا ظل الفلاّحون طيلة هذا المساء يُنفِثون كلّ ما يعتمل في صدورِهم من غضب ورغبة في الإنتقام حتّى وصل رئيس العُمّال فعلاً. وما كاد يترجّل عن حُصانه حتّى اعترته نوبة من الغضب الشديد لأنّ قطع الحطب لم يتم حسب مشيئته، وزاد على ذلك أنه وجد فرع شجرة مُلقى وسط أحد أكوام الحطب، فصاح غاضبًا.

- لقد قُلت لكم عشرات المرّات ألاّ تقطعوا أشجار الزيزفون ... من منكم فعل هذا؟

ولّما طال الصمت ولم يجِر أحدهم جوابًا، عاد يُهدِّد ويتوعد.

- إذًا إن لم تعترفوا حالاً عمّن فعل هذا الأمر، فسأضربكم جميعًا بالسوط؟

وفيما هو يلِح في السؤال عمّن وُجِدت شجرة الزيزفون في مجموعة أشجاره، أخذ الفلاّحون يُشيرون بأيدٍ مُرتعشة إلى إيزيدور، فانهال ميخائيل على إيزيدور ضربًا وصفعًا على وجهه حتّى غطّاه الدم تمامًا ... ثم تحوّل في ثورته إلى ڤاسيلي وانتقده لأنّ كومة حطبه كانت صغيرة وهزيلة جدًا وبعد أن أشبعه ركلاً وضربًا امتطى صهوة جواده عائدًا إلى بيته. ولّما خلا الجو من

خطر وجود ميخائيل، تجمّع الفلاّحون ثانية – كما هي العادة – وافتتح ڤاسيلي الحديث بمرارة.

– تعسًا لكم أيها الرِفاق ... إنكم أشبه بالعصافير منكم بالرجال ... تقولون لبعضكم قفوا مُستعدين الآن ... ولكن عندما تأتي اللحظة الحاسمة يملأ الخوف قلوبكم وتتراجعون عمّا اتفقتم. هذا بالضبط ما تفعله العصافير لكي تُقاوم النسر فيُحرضون بعضهم بعضًا على الاستعداد ... يجب أن نكون على أهُبّة الاستعداد، ولن نخدع بعضنا ... ولكن عندما تُخيِّم أجنحة النسر يهرع الجميع إلى أعشاشِهِم، ويخطف النسر ما يحلو له من عصافير، ويعود يُحلّق في الجو والعصافير مُدلاّة من مخالبه ... ثم تخرُج العصافير من أعشاشِها، ويبكون عندما يكتشفون أنَّ عددهم نقص عن ذي قبل ويتساءلون فيما بينهم عمّن فَقَدْ صغيرًا ثانيًا أو أكثر من ذلك والبعض يعزو الأمر إلى القضاء والقَدَرْ وهكذا تتكرّر الدورة يا رِفاق.

تصرخون في تأفُّف أنَّ لا خداع ... لا خداع، ولكن عندما اعتدى ميخائيل بالضرب المُبرِح على إيذيدور، كان لابد أن تأخذكم الحِمية وأن تقتلوه .... ولكن ....

واستمر الفلاّحون يُواصلون أحاديثهم ويجلدون ذواهم بالنقد الساخط المرير، حتّى اتفقت كلمتهم من جديد للإجهاز على رئيس العُمّال الطاغية والتخلُّص من قسوته وجبروته.

وفي الليلة الأولى من أسبوع الآلام، أصدر الرئيس أمره إلى العُمّال أن يعدُّوا عُدّهم لكي يحرثوا أرض الإقطاعية وإعدادها لزراعة الشوفان. وبدا ذلك للفلاّحين انتهاكًا واضحًا لقداسة أسبوع الآلام. واجتمعوا في فناء بيت

ڤاسيلي وناقشوا الأمر.

- إذا كان ميخائيل قد نسى أو تناسى الله، وفي نفس الوقت يأمرنا أن نفعل شيئًا كهذا، فإنّ الواجب يُحتم علينا أن نقتُله، ولابد لنا أن نفعل ذلك فورًا ولا نُضيِّع مزيدًا من الوقت ... إنه عدو الله .. ومن يقتُل عدو الله فلا جِناح عليه.

كان بيتر فيتشيف واحدًا من المُجتمعين .. وقد كان رجُلاً مُسالِمًا، وحتّى ذلك الوقت لم يكُن قد شارك في مُناقشاتِهِم، وعندما بلغت مسامعه هذه الأقوال، هبّ صائحًا:

- إنكم تُخططون لخطية كبيرة أيها الأُخوة. إنّ القضاء على حياة شخص أمر فظيع حقًا. قد يكون من السهل فعلاً أن تهدموا حياة شخص آخر، ولكن ماذا عن حياتكم أنتم لو إنّ هذا الرجُل قد فعل شرًا، فإنّ الشر سينتظره حتمًا. يجب أن تكونوا هادئين صبورين يا إخوتي.

ولم يكد ڤاسيلي يسمع هذا الجواب، حتّى حدجه بنظرة احتقار وبادره في غضب:

- إنّ كلّ ما يعنيك يا رجُل في هذه القضية، هو الخطأ في قتل رجُل طاغية ... نعم بالطبع هي خطية، ولكن في مثل هذه الحالة، صدقني، أنه لن تكون هناك خطية ... لا شك أنها خطية أن تقتُل رجُلاً صالحًا أعماله تشهد له ... أمّا أن تقتُل كلبًا عقورًا فلا يُمكن أن تكون هذه خطية .. بل ولعلّ الكتاب المُقدس يُوصينا بالقضاء على مثل هذا الكلب المجنون لأجل خاطر واحد من رِفاقه ... إنها خطية أن تدع مثل هذا الرجُل الفاجر يعيش .. لماذا نتركه يُحوِّل حياتنا إلى شقاء وتعاسة دائمة ... ولا ضرر إذا كُنّا نُعاني

بسبب قتله، ولكننا سنفعل هذا ليس من أجلنا فقط بل من أجل رِفاقنا وأحبائنا الذين أحال حياهم جحيمًا لا يُطاق ... وعند التخلُّص منه لابد لهم أن يشكرونا على الجميل الذي أسديناه إليهم. إنَّ كلامك يا فيتشيف لا معنى له! هل ستكون خطية أصغر عندما نذهب للعمل في عيد قيامة السيِّد المسيح؟! هل تنوي أنت نفسك أن تذهب للعمل في هذا اليوم؟!

- ولِمَ لا أذهب؟ إذا أرسلني لحرث الأرض فلابد لي أن أطيع، ولن أفعل ذلك من أجل نفسي .. فالله يعرف من الذي سيتحمّل عواقب هذه الخطية، أمَّا بالنسبة لنا فعلينا أن نتذكره في قلوبنا .. وأن نحتفِل بالقيامة في أعماقنا، ولن يعوقنا عمل أو جهد أو مرض يا إخوتي. لو كان الله يُريدنا أن نرُد الشر بالشر، لأعطانا قانونًا بهذا المعنى، ولأوضح لنا الطريقة التي يتم بها ذلك .. لا، إننا إذا قابلنا الشر بالشر فلابد أن يعود لنا ويرتد إلينا مرّة أخرى .. إنه من الغباء أن تقتُل رجُلاً لأنَّ الدم المسفوك سوف يلتصق بالروح، فإذا أخذت روح إنسان فسوف تغرق روحك في الدماء، حتّى لو فكّرت أنَّ هذا الرجُل الذي قتلته كان شريرًا، وأنَّكَ بذلك تكون قد أزلت الشر من العالم. انظر إلى نفسك فستجد أنَّكَ أتيت فعلاً أكثر شرًا من أي عمل من أعماله. إن كنت تُعاني من الحظ السيء فلا بأس أن تُسلِّم نفسك إليه، فسوف يُسلِّم نفسه إليك بعد ذلك.

وبعد هذا الحديث، اختلف الفلاّحون في الرأي، فالبعض كان يُؤيد رأي ڤاسيلي في الانتقام بينما انحاز الكثيرون إلى رأي ونصائح بيتر بالالتجاء إلى الصبر والإحتمال مع الامتناع عن الخطية.

في يوم الأحد – عيد القيامة – كان الفلاّحون في إجازة، ولكن في

المساء وصل مندوب من قِبَل رئيس العُمّال يُعلن الفلاّحين أنّ عليهم أن يحرثوا في اليوم التالي جميع حقول الشوفان. كما ذهب أيضًا إلى المدينة وأبلغ نفس الإعلان لجميع الفلاّحين. على البعض أن يذهبوا إلى المزارع وراء النهر، والبعض الآخر عند بداية الطريق السريع. عندما سمع الفلاّحون هذه الأنباء حزنوا حُزنًا شديدًا ولكنهم لم يجرؤوا أن يُخالفوا الأمر.

وذهبوا في الصباح كلّ واحد إلى فِرقته وبدأوا الحرث. ودقت أجراس الكنيسة تدعو الشعب إلى القُدّاس المُبكر .. ويبدو أنّ العالم كلّه كان يحتفل بالعيد .. إلاّ هؤلاء الفلاّحين الذين انكبوا على عملِهِم في حرث الأرض.

واستيقظ رئيس العُمّال مُتأخرًا في ذلك اليوم، وأخذ يُشرِف على أعمال المترل كعادته. واستعد أهل البيت للابتهاج بالعيد، فلبسوا أفخر ثيابِهِم وكان سائق العربة قد وصل فاستقلوها في طريقهم إلى الكنيسة. وعند عودتِهِم أسرعت الخادمة بإعداد أكواب الشاي الساخن. وعند ذلك كان ميخائيل قد عاد من الحقل فجلست الأُسرة كلّها تحتسي الشاي وتتبادل الأحاديث المرحة. وعندما انتهوا من شُرب الشاي أشعل رئيس العُمّال غليونه وأخذ يدخن بشراهة، وهو يُنادي نائبه.

- هل جعلت الفلاّحين يحرثون الأرض؟
- نعم يا سيِّدي.
- وهل ذهب جميعهم إلى الحرث؟ ولم يتخلّف منهم أحد؟
- لقد ذهبوا جميعًا، وقد قسّمت عليهم العمل بنفسي.
- حسنًا .. قد تكون فعلت هذا فعلاً .. ولكن هل يقومون بفلاحة الأرض فعلاً؟ هذا هو السؤال. يُمكنك الآن أن تذهب وترى بعيني

رأسك إذا كانوا قائمين بالعمل فعلاً أم لا. وقُل لهم إني سآتي بنفسي لأُعاين كلّ شيء على الطبيعة، بعد أن أتناول طعام الغذاء. وقُل لهم أيضًا إنّ كلّ اثنين يجب أن يغطُّوا مساحة فدّان كامل، وأنه يجب أن يكون الحرث جيدًا. وإذا وجدت أي شيء ناقصًا فسوف أحدِّد على أساس ذلك كيف سيكون الاحتفال بالعيد.

- حسنًا يا سيِّدي .. وفيما هو يتأهب للخروج وخطا نحو الباب عدّة خطوات ناداه ميخائيل ثانيةً لكي يُضيف المزيد من الأوامر والتعليمات .. رغم أنه لم يكُن يعرف على وجه التحديد ماذا يُريد أن يقول .. فهمهم قليلاً وغمغم ثم قال.

- خُذ حذرك .. واصغِ جيدًا لكلّ ما يقوله أولئك الشياطين عني ... فقد تسمع أحدهم يغتابني أو يشتمني .. عندما تعود تُعيد على مسامعي كلّ ما سمعت، فأنا أعرف جيدًا هؤلاء اللصوص. إنهم لا يُحبون العمل. كلّ ما يُريدون أن يفعلوه أن يستلقوا على ظهورِهِم في ظل الأشجار ولا يعملوا شيئًا على الإطلاق. إنهم يعرفون كيف يأكلون بنهم وشراهة ويحفظون الإجازات ليقضوها نومًا في بيوتِهِم. هذا هو ما يحبونه ولا يُفكرون أبدًا ولا يُبالون إذا تركوا قطعة من الأرض دون حرث .. أو عدم إنهاء العمل الذي يُوكل إليهم لو أنني تركتهم. فاحرص أنت واندمج معهم واسمع ما يقولون، واعرف جيدًا صاحب الكلام وعندما تعود تُردِّد ما سمعته بدقة ... الآن يُمكنك أن تذهب وتتقصّى الأمر جيدًا حتّى تُبلغني بكلّ صغيرة وكبيرة ولا تُخفي عني شيئًا.

وخرج النائب مُهرولاً وامتطى صهوة جواده، وجرى إلى الفلاّحين في الحقول ليُنفِذ أوامر سيِّده ولكن زوجة ميخائيل سمعت ما قاله زوجها لنائبه، وكانت سيِّدة طيبة تتمتّع بأخلاق وطِباع دَمِثة ورِقّة ورأفة في الحديث، جاءت إلى رجُلها تتشفّع من أجل الفلاّحين البؤساء.

- عزيزي ميخائيل ... لا تصنع هذه الخطية العظيمة .. خصوصًا في عيد الرب القدير، بل على العكس دع الفلاّحين يذهبون إلى الكنيسة لأجل خاطر ربنا ومُخلّصنا الصّالح .. دعهم يفرحون مع أولادِهِم .. وكُن سخيًا معهم.

ولكن ميخائيل لم يستمِع لصوتها، وأعلن أنه يختلف معها في الرأي، بل وأكثر من ذلك سخر منها وهزأ بها مُهددًا.

- هل أصبح السوط غريبًا عن ظهرِك .. حتّى تتكلمي معي بمثل هذه الجرأة، وتتدخّلي فيما لا يعنيكِ؟ كلّ ما يجب أن أقوله لكِ أنّكِ تُحاولين أن تكوني أكثر من حجمِك، وتحتاجين إلى جرح كبير بالسوط ثانية فلا يندمِل سريعًا. خُذي هذه.

وفي ثورة غضبه الجامحة قذف بالغليون المُشتعل في وجهها، ودفعها بيده إلى خارج الحُجرة، وهو يأمرها بإحضار الغذاء.

وقد التهم جميع أنواع الطعام التي قُدِمت إليه من حلوى ولحوم وبعض الفطائر ثم نادى الطاهية وأمرها أن تجلس إلى البيانو وتعزف بعض المقطوعات الموسيقية التي تستهويه، بينما أخذ هو الجيتار لكي يُتابعها. لقد كانت روحه المعنوية في أعلى تجلياتها وهو يشهق ويُتمتِم وينقُر أوتار الجيتار، ويمزح مع الطاهية.

وفي هذه الأثناء عاد نائبه من جولته التفتيشية والجاسوسية، وانحنى أمامه احترامًا. ثم أخذ يُردِّد على مسامعه كلّ ما رأى وكلّ ما سمع من حديث الفلاّحين، وقد بادر ميخائيل نائبه بالسؤال.

– هل يحرُث كلّ رجُل في مكانه المُحدّد له؟

وأجاب النائب جذلاً، وهو يفرُك يديه بارتياح

– نعم يا سيِّدي .. وقد غطُّوا أكثر من نصف المساحة تقريبًا.

– أليس هناك أدنى تكاسُل أو تقصير في العمل؟

– لا يا سيِّدي .. لم أرَ شيئًا من ذلك. إنهم يحرثون جيدًا وبجدية حازمة ولعلهم يخافون أن يهتموا بأي عمل آخر.

– وهل تقليب التُربة تم على الوجه الأكمل؟

– نعم .. وتبدو ناعمة جدًا وتتناثر مثل حبّات الأُرز المفلفل.

وأخلد رئيس العُمّال إلى الصمت وهلة قصيرة، ثم عاد يسأل وقد أبرقت عيناه.

– حسنًا .. وماذا كانوا يقولون عني؟ هل تجاوزوا حدودِهِم؟

وتردّد النائب في حيرة، ولم يدرِ تمامًا ما يجب أن يقوله، وما يجب أن يخفيه، ولكن ميخائيل لم يترُك له فرصة للتفكير، فأخذ يحثُّه على الإجابة.

– قُل لي كلّ شيء .. ولا تُخفي صغيرة أو كبيرة. إنَّ الكلمات التي ستقولها ليست كلماتك أنت ولا من عندياتك ولكنها كلماتِهِم .. تكلّم وقُل الحقيقة حتّى لا تصير كاذبًا، وسوف أعوضك بسخاء عن ذلك، أمَّا إذا تسترت عليهم فلن أرحمك سأضربك بالسوط في شدّة وقسوة لم تشهدهُما من قبل.

ثم التفت في اتجاه آخر، وهو يُنادي الساقي

- هيا أيها السّاقي، أعطِهِ كأسًا من الفودكا لكي يشجعه فتنحل عُقدة لسانه.

وذهب الساقي وأحضر بسرعة كأسًا مملوءة سلّمها إلى النائب الذي توجه بالشُكر والثناء إلى رئيس العُمّال قبل أن يتجرعها حتّى الثمالة مرّة واحدة، ثم مسح فمه بطرف قميصه وهو يقدح زِناد فِكره، ثم مضى يقول في نفسه.

- على أيّة حال ... أنا عبد مأمور .. وليس خطأي أنهم لم يجدوا شيئًا يمدحونه من أجله. ولابد لي أن أقول له الحقيقة حسب أمره ورغبته.

وانتزع أخيرًا بُرقُع التردُّد والخجل وبدأ يتكلّم:

- إنهم يحتجون .. يحتجون بشدّة يا سيِّدي.

- ولكن ماذا يقولون؟ أفصِح عمّا سمعت.

- هناك شيء واحد يقولونه جميعًا هو أنّكَ لا تُؤمن بالله.

وانفجر ميخائيل ضاحكًا بصوت جهوري وهو يقول:

- من منهم الذي قال ذلك؟

- كلّهم يا سيِّدي، إنهم – في الحقيقة – يقولون إنّكَ تخدم الشيطان.

وعاد ميخائيل يُقهقِه أكثر فأكثر وهو يقول:

- هذا رائع، والآن قُل لي ماذا يقول كلٍّ منهم على حدة. ماذا يقول صديقك ڤاسيلي مثلاً؟

وبدا أنَّ النائب لا يُرحب بالحديث ضد صديق صباه، ولكنه تذكّر في تلك اللحظة أنَّ عداء قديمًا قد نشب بينهما وطواه النسيان. ولم يكُن يعلم

السبب الذي دعاه إلى تذكُّر هذا العداء، بل و لم يجد تفسيرًا لذلك حين خلا إلى نفسه، فأجاب.

- قاسيلي يلعنك أكثر من الباقين.
- يجب أن تُعيد على مسامعي كلّ كلمة قالها.
- أنني أخجل يا سيِّدي أن أُعيد مثل هذا الكلام. ولكنه يتمنّى أن يرى فيك يومًا تنتهي فيه .. وتكون النهاية بائسة وتَعِسَة .. حتّى يتشفّى فيك.
- هل يتمنّى ذلك حقًا؟ هل يتمنّى هذا الشاب أن يفتِك بي .. حسنًا لن أُمكِنه من ذلك أبدًا، ولن يجد الفرصة التي يضع يده فيها عليَّ.

وأخذ يُحرك يده مُتوعدًا وهو يقول: حسنًا يا صديقي قاسيلي، سوف نصفّي حسابنا سويًا.

ثم رفع عينيه ثانية نحو نائبه مُتسائلاً: وماذا يقول ذلك الوغد بتشاكا؟

- حسنًا يا سيِّدي. في الواقع أنه لا يوجد واحد يقول فيك شيئًا طيِبًا .. كلّهم يلعنون ويطلبون الفرصة للإنتقام.
- ولكن ماذا قال بيتر بيتشيف؟ أُقسِم أنَّ هذا الشيطان هو واحد من الذين يكيلون لي اللعنات.

وزوى النائب ما بين حاجبيه، وكأنَّ المُفاجأة أذهلته، وهز رأسه في نفي قاطع.

- لا يا سيِّدي .. إنه ليس منهم.
- ماذا قال إذًا؟
- إنه الوحيد الذي لا يتكلّم على الإطلاق. وفي نفس الوقت يعرف

الكثير من أسرار الفلاحة وقد تعجبت كثيرًا عندما رأيته اليوم.

- لماذا؟

- لقد دُهشت لطريقته في العمل، كما تعجب جميع الفلاّحين منه.

- وماذا كان يفعل؟

- شيء غريب جدًا. لقد كان يحرُث حشائش الفدّان، وفيما أنا مُتجه إليه خُيِّل لي أني أسمع صوت شخص يُغني بصوت رخيم مُنخفض، بينما كان هناك شيء يحترِق في وسط المحراث.

- حسنًا. وماذا بعد؟

- وهذا الشيء الذي كان يحترِق يُشبه لسانًا من النار، وعندما اقتربت بالأكثر وجدت أنها كانت شمعة طويلة، وأنها كانت مُعلّقة بالمحراث. كانت الريح عاصفة شديدة، ولكن الشمعة لم تنطفئ أبدًا.

- وماذا قال؟

- لم يقُل شيئًا على الإطلاق. عندما رآني حيّاني تحية العيد (إخريستوس آنيستي) وبدأ يرفع عقيرته بالغناء ثانية. قد كان يرتدي قميصًا جديدًا وهو يُردِّد ترانيم عيد القيامة أثناء أداء واجبه في حرث الأرض. وفي نهاية العمل لف المحراث وهزُّه بشدّة ولكن الشمعة لم تنطفئ أيضًا. نعم لقد كُنت قريبًا جدًا منه عندما نفض كُتَلْ الطين عن المحراث، ورفع الأذرُع حوله. وطُوال هذا الوقت كان يلف المحراث ولكن الشمعة ظلّت مُشتعلة.

- وماذا قُلت له؟

- لم أقُل شيئًا. ولكن بعض الفلاّحين اجتذبهم المنظر فجاءوا إليه،



والبعض منهم أخذ يسخر منه قائلين: هيا وامضِ في عملك ... ستأخذ قرنًا من الزمان لكي تُكفِر عن عملك في أسبوع الآلام.

- وبماذا أجاب؟

- قال في هدوء: وعلى الأرض السّلام وبالناس المسرة، ولم يزِد على ذلك شيئًا بل انحنى ليُكمِل الحرث. شد حُصانه ثم عاد يُرنم لنفسه بصوته المُنخفض والشمعة تحترِق. كلّ هذا بثبات ولم تنطفئ على الإطلاق.

أُمسِك ميخائيل عن الضحك وكفّ عن السُّخرية وأخذت سِمات وجهه تتلبّس بالجدية وعيناه تسبحان بعيدًا. ألقى جيتاره جانبًا، وأحنى رأسه على صدره واستغرق في تفكير عميق أشبه بسنة من النوم. ثم صرف الطاهية .. وبعد قليل صرف نائبه أيضًا، ولكنه ظلّ جالسًا في مكانه بلا حِراك. ثم نهض مُتباطئًا ودَلَفْ إلى حُجرة نومه خلف الستائر المُسدلة واستلقى على فِراشه، وقد عَقَد ذراعيه تحت رأسه وثبّت نظره نحو السقف .. وبين الحين والآخر كان يتنهد ويتأوه بصوت مسموع كأنه عربة تئِن تحت أحمالِها الثقيلة من حِزَم المحصول. وذهبت إليه زوجته وكرّرت رجاءها من أجل الفلاّحين ثانية وثالِثة ولكنه لا يُجيب ولا يستجيب. حاولت أن تُسرِّي عنه بلا جدوى .. وبعد فترة طويلة، نظر إليها نظرة غامضة وهو يقول:

- لقد غَلَبَني هذا الرجُل .. وها هي كلّ الأشياء ترتد على رأسي. وظلّت زوجته من ناحيتها — تلحف في رجائِها.

- اخرُج وأطلِق الفلاّحين، فهذا أمر يسير ولكنه بلا شك عمل له قيمة في مثل هذا اليوم المُقدس ... ولماذا تصِر وتُعانِد؟ هل أصابك الخوف

الآن عندما سمعت قصة بيتر تذكّر أعمالك التي قُمت بها، لأنَّكَ ستُعطي عنها حسابًا.

ولكنه لم يُعطِ جوابًا، سوى هذه العبارة التي ظلّ يُردِّدها:

- لقد هزمني هذا الرجُل .. لقد سقطت .. اذهبي بعيدًا عني وتمتّعي بسلامتِك، هذا الموضوع أكبر من تفكيرِك وإدراكِك.

وظلّ مُستلقيًا في فِراشه، يتقلّب يمينًا ويسارًا ولم يغمِض له جفن حتّى بدت تباشير الصباح تتسلّل خلال الستائر الكثيفة. استيقظ ونهض من فِراشه وأسرع لكي يتفقد عمله كالمُعتاد .. ولكن لم يكُن هو نفسه كما كان. كان من الواضح أنَّ قلبه وضميره قد أُصيبا بصدمة عنيفة وبدأت تُهاجمه نوبات من الحُزن والكآبة، وأخذ يُقابل كلّ ما يُصادفه بلا مُبالاة. ولكنه بقى في منزله عصبي المزاج .. وساءت الأمور حتّى أنَّ مُدّة نظارته على الأرض لم تطِل بعد ذلك.

عندما حل عيد الرُّسُل، جاء سيِّد الأرض لزيارة أملاكه، وكانت زيارة رئيس العُمّال هو ما يقوم به في اليوم الأوّل. ولكن ميخائيل كان مريضًا ومُلازمًا للفِراش، وعندما عاد في اليوم الثاني كان الحال على ما هو عليه، وكذلك في اليوم الثّالِث. واستطاع صاحب الأرض أن يكتشِف أنَّ ميخائيل أصبح مُدمِنًا للخمر، فقرّر أن يعفيه من نظارِة الأرض. ولكن ميخائيل ظلّ مُتمسكًا بالمنزل الذي يقطُنه، وهو لا يعمل شيئًا ذا بال وكلّ يوم يزداد همًا وغمًا. وانخرط في شُرب الخمر حتّى فرغ كلّ ما كان مخزونًا لديه وانحط به الحال حتّى اضطر إلى سرقة معاطِف زوجته لكي يبيعها حتّى يتوفر لديه المال الذي يشتري به الخمر. حتّى الفلاّحين بدأوا يرثون لحاله ويُقدِّمون له

حاجته من الخمر دون أن ينتظروا ثمنًا لذلك.

ولم يكد ينصرِم هذا العام حتّى انتهت حياته بعد أن أجهزت عليه الفودكا وغيرها من المُسكِرات.

الفهرس



إن الإنسانية نسيت قوانين
خالقها ومنقذها،
الذي علمنا أن نحب
ونسامح الآخرين
الإنسان الذي يقدر على الحب،
يقدر على كل شيء



BARAMOS MONASTERY

SHIHET WILDERNESS

يطلب من دير السيدة العذراء برموس